اتجاه الزهد في الشعر الأندلسي

(في القرنين السابع والثامن الهجرين)

أطروحة قدمت لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الباحث

سيد ضياء الحسنين

رقم التسجيل: 536/PhD/Ara/F14

المشرف

الدكتور كفايت الله همداني

الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية

بالجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد

الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد

العام الدارسي، ٢٠١٤-٢٠١٨م

اتجاه الزهد في الشعر الأندلسي

(في القرنين السابع والثامن الهجرين)

أطروحة قدمت لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الباحث

سيد ضياء الحسنين

رقم التسجيل: 536/PhD/Ara/F14

المشرف

الدكتور كفايت الله همداني

الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية

بالجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد

الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد

العام الدارسي، ٢٠١٤-٢٠١٨م

استمارة الموافقة على الأطروحة والمناقشة

قام الموقعون أدناه بدراسة الأطروحة ومداولتها، وقد أخرجوا بنتائج طيبة حولها ونلتمس من هيئة الدراسات المتكاملة الموافقة على هذه الأطروحة كأطروحة جيدة.

عنوان الأطروحة:

" **اتجاه الزهد في الشعر الأندلسي**" (في القرنين السابع والثامن الهجرين)

إعداد: سيد ضياء الحسنين.

رقم التسجيل: 536/PhD/Ara/F14

شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

الأستاذ المشارك الدكتور كفايت الله همداني _____

المشرف التوقيع

رئيس قسم اللغة العربية _____

التوقيع

الأستاذ الدكتور محمد سفير أعوان _____

عميد كلية اللغات وآدابها التوقيع

اللواء (المتقاعد) ضياء الدين نجم _____

رئيس الجامعة التوقيع

التاريخ: ٢٥ / ستمبر / ٢٠١٨

يمين الباحث

أعلن أن أطروحتي: **" اتجاه الزهد في الشعر الأندلسي"**

(في القرنين السابع والثامن الهجرين)

التي أعددتها تحت إشراف أستاذي الدكتور كفايت الله همداني رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الوطنية للغات الحديثة بإسلام آباد، والتي قدمتها إلى الجامعة الوطنية للغات الحديثة بإسلام آباد لنيل درجة الدكتوراه، ولم أتقدم بها إلى أية جهة أخرى لنيل أية شهادة من قبل.

سيد ضياء الحسنين

الباحث

الجامعة الوطنية للغات الحديثة ، إسلام آباد

أبريل ٢٠١٨م

فهرس المحتويات

العنوان الصفحة

استمارة الموافقة على الأطروحة والمناقشة..... ج
يمين الباحث ..... د
إلى من يهمه الأمر .....هـ
فهرس المحتويات .....و
كلمةالشكر والتقدير .....ي
المقدمة 1
الفصل الأول: 8
الزهد لغة واصطلاحا 8
الزهد لغة: 9
الزهد اصطلاحا: 9
الفصل الثاني: 13
أهمية الزهد في القرآن والحديث..... 13
الفصل الثالث: 18
نشأة الزهد وبواعثه في الأندلس..... 18
الفصل الأول: 29
تحديد العصر الأندلسي..... 29
الفصل الثاني: 35
الموقع الجغرافي وأهميته 35
الفصل الثالث: 40
الأحوال الدينية والسياسية في العصر الأندلسي..... 40
الأحوال الدينية: 41
الأحوال السياسية: 42

الفصل الرابع: 45
الأحوال الأدبية والاقتصادية في العصر الأندلسي 45
الأحوال الأدبية: 46
الأحوال الاقتصادية: 47
الفصل الأول: 51
شعرالزهد في العصرالجاهلي 51
الفصل الثاني: الزهد في صدر الإسلام 66
الفصل الثالث: 76
الزهد في العصرالعباسي 76
الفصل الرابع: 80
شعرالزهد"في العصر الأندلسي 80
موضوعات شعر الزهد في العصر الأندلسي 81
شعراء الزهد الأندلسيون في عصر بني الأحمر 88
الفصل الأول: 115
أبو البقاء الرندي و مالك بن المرحل وأعمالهما 115
أبوالبقاءالرندي 116
شعرالزهد عندالرندي 119
مالك بن المرحل 123
شعرالزهد عند ابن المرحل 129
الفصل الثاني: 136
ابن خميس التلمساني و ابو زيد الفازازي وأعمالهما 136
ابن خميس التلمساني الغرناطي 137
شعرالزهد عند ابن خميس 143
أبوزيد الفازازي 150
شعرالزهد عندالفازازي 154

الفصل الثالث: 159
لسان الدين بن الخطيب و ابن الأبار القضاعي وأعمالهما 159
لسان الدين ابن الخطيب 160
شعر الزهد عند ابن الخطيب 164
ابن الأبار القضاعي 173
شعرالزهد عند ابن الأبار 177
الفصل الأول: 182
الألفاظ والتراكيب 182
سهولة الألفاظ ووضوحها 183
المعجم الشعري: 187
المعجم اللغوي: 191
بنية التراكيب 214
الفصل الثاني: 234
الصورة الشعرية 234
الفصل الثالث: 261
ظواهر أسلوبية 261
أشهر الأساليب الدارجة في زهديات القرنين السابع والثامن 262
التضمين والاقتباس: 281
الفصل الرابع: 293
الموسيقى 293
الوزن والقافية: 294

Abstract

"The Austerity in Undulas Poetry in 7th and 8th Century"

Islam is a religion which believe in proportion and steadfastness. It prevents its believers from disproportion. In translation and interpretation, the word Austerity (الزهد) has been used as religious term. In Hadith books (صحاح ستة), it is given as a term to prevent one's self from inclinations towards any thing and to avoid from the secular love. Its literal meaning is to refrain from disobeying God avoiding sins and to purge your heart from all the impurities of the world, it has been discussed in Quran once. It has been implied as ignoring. As they sold Yousuf at a very low price. Pious (زاهد) is an ancient terminology, initially hermits were considered to be pious.

As austerity (الزهد) denotes disinterest in the world and care for hereafter, so this genre entered Undalas (أندلس) with all its Islamic soul. I tattained a prominent position in the thinking pattern and creations of the authors and poets of that era.

I shall discuss in my research Austerity (الـزهـد) in Undulas poetry during the 7th & 8th century of Hijra, its destination in Pre-Islamic period, Islamic period as well as in Umayyad and Abbasside period. The important poets of that era and distinctions of their poetry.

Syed Zia ul Hussain
Ph.D. Scholar
Department of Arabic
NUML, Islamabad.

كلمةالشكر والتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بها علمتنا، وزدنا علما، وأرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك.

أتقدم بداية بالشكر الجزيل لله سبحانه وتعالى على ما أرشدني وأعانني ووفقني لسلوك الطريق المؤدي إلى إنجاز بحثي، ثم للجامعة الوطنية للغات الحديثة بإسلام آباد التي أتاحت لنا فرصة الدراسة وفتحت أبوابها للجميع.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور محمد سفير أعوان عميد كلية اللغات بالجامعة الوطنية للغات الحديثة بإسلام آباد.

وكما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لأستاذي الدكتور كفايت الله همداني رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الوطنية للغات الحديثة، والذي بادر بالموافقة على عنوان الأطروحة وأرشدني من حين لآخر، والذي أشرف على هذا البحث وشجعني وحرضني على الدخول في مضمار هذه المهمة البحثية والاستمرار فيها، وبذل جهده في سبيل تصحيح وتقديم التوجيهات على الأطروحة من بدابة العمل إلى نهايتها.

وأشكر لأساتذتي الذين درّسوني في الفصول التحضيرية للدكتوراه، وكذلك أشكر لوالدي العزيز الذي وقف بجانبي وساندني كثيرا، فجزاهم الله خيرالجزاء.

أسأل الله أن يجازي كل محسن بإحسانه، ويجعل ذلك في ميزان حسناته يوم القيامة وصلى الله عليه وسلم على خير الأنام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

المقدمة

المقدمة

التعريف بالموضوع

ظهر الزهد في الاندلس منذ أواخر القرن الثاي الهجري وأوائل القرن الثالث ولكنه راح واتسع في القرنين الرابع والخامس وما بعدها كرد فيل لعوامل سياسية واجتماعية وثقافية وكان للنزعة الزهد في المشرق الإسلامي صداها في بلاد الأندلس اذ تأثرت الأخيرة بعوامل كثيرة منها. وفود الزهاد إلى الأندلس ورحلة الأندلسيين إلى المشرق الإسلامي وبماء زهاده وغيره من العوامل الأخرى وقد برز الشعراء الزهاد في تلك الوقت حيت كان منهم العقل ومنهم المكثر أي كان منهم من التزم طريقة في الزهد فلم ينظم في غيره ولم يتجاوز إلى المولدين.

إن التطور الحضاري و الاجتماعي الذي حدث في بلاد الأندلس خلال القرنين الرابع و الخامس للهجرة كان له اثر كبير في تطور تبار الزهد و امتداده حيث كان لابد من وجود حركة عكسية مضادة تعكف على تقوى الله و تقصر نفسها على العبادة ولا شك أن الذي ساعد على هذه الحركة المضادة ظهور طائفة القصاص في المجتمع الإسلامي الذي كانوا يقصون على الناس في المساجد أساطير الأولين و سير الأولياء الصالحين و يستخلفون منها العبر و الفطات لبردوا الناس عناصر ايمانهم في هذا المجتع الذي زعزع الشك أركانه و نتيجة تلك شاع بين أهل الأندلسى الورع و التقوى والميل الشديد إلى التدين والالتزام بتعاليم الدين الحنيف و بدأ الإحساس بالمسؤولية الدينية عند علماء الأندلس على درجة عظيمة و متميزة فمثلا بجد أن ابن حزم الأندلسي يقول ان افضل ما استعمله المرء في دنيا هو أن يعلم الناس دينهم الذي له خلقوا فقد ظهرت لبقات الفقهاء و العلماء و الشعراء الذين يعبرون عن احاسيسهم و انفعالات بأبيات زهدية فيها ذاتية واضحة.

أهمية الموضوع

الجمد لله الذي لم يجعل في الإســـلام رهبانية الحمد لله الذي حرم الخبائث واحل الطيبات فقال تعالى "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَـــةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّـــلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" الأعراف.:32 والصلاة والسلام على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذي أمرنا أن يجاهد أنفسنا ونعصمها من الوقوع في مزالق الشهوات وبعد:

الدين الإسلامي دين لا تكلف فيه ولا إعنات ولا تندلع ولا تشدد وأوضح الرسول محمد ان عبادة الله تقوم على الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه وإطاعته بالقدر الميســـور الملائم لطبيعة البشـــر بلا تجاوز او تقصـــير في حق الفرد وحقوق الآخرين عليه فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام" إن هذا الدين متين فأو غلوا فيه برفق"

البشر بلا تجاوز او تقصير في حق الفرد وحقوق الآخرين عليه فقد قال

والسلام " إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفن

ومعاني الزهد تتردد في سورة الرسول عليه الصلاة والسلام ويكاد لا يخلو كتاب من كتب الحديث من باب في الزهد وقد مر الرسول عليه الصلاة والسلام بالسوق والناس كنفيه " فمر بجدي أســـك ميت فتناوله وأخذ بإذنه فقال أيكم يجب أن هذا له بدرهم فقالوا ما نحب انه لنا ســيء وه نصنع به؟ قال أتحبون انه لكم ؟ قالوا والله لوكان حياً لما رغبنا فيه لآنه اســـك فكيف وهو ميت ؟ "فقال والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم" وكان الرسول عليه الصلاة والسلام "لا يدخر شيئا لغد " عن عروة عن عائشة رضـي الله عنها قالت "كنا لنظر الى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهله في شـهرين وما اوقد في بيت رسول الله نار قلت: يا خالة فما كان بعيشكم؟ قالت الأسودان التمر والماء"

وبعد وفاة الرسـول عليه الصـلاة والسـلام وامتداد الأيدي الآثمة الغادرة التي طالت خلفاءه الكرام رضوان الله عليهم فلم يكن الزهد في بداية العصر الإسلامي مذهباً معروفاً له قواعده المحددة بل كان نزعة فردية تبدت في سلوك عدد من الصحابة الذين تمسكوا بحياة طابعها التقشف والبساطة والبعد عن بهرج الحياة الددنيا ولم يخرجوا يوما عن اوامر القران وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام وهو المنهاج الإسلامي الأصيل الذي اخذ به الصحابة والتابعون وكان الزهد منتشرا في الصحابة والسلف الصالح.

تحديد الموضوع:

أقوم فى هذه الدراسة بدراسة إتحاه الزهد في الشعر الأندلسي في القرنين السابع والثامن الهجرين تحدث بأهم أعمال شعراء القرنين مع بيان أحوالهم الأدبية والاجتماعية والثقافية لكي أصل إلى إتحاه الزهد في شعرهم.

أسباب إختيار الموضوع

هناك أسباب أخرى كثيرة التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع، ومنها:

١. الدافع الديني من أهم الدواف لكتابة هذا البحث لأن الزهاد جير القرون حسب قول النبي صلى الله عليه وسلم.

٢. الرغبة في إبراز أدب الأندلسى عموما وأدب الزهد عموما.

٣. لم يسبقني أحد فيما أعلم في هذا الموضوع بهذا المنوال نظريا وتطبيقيا في القرني السابع والثامن.

فنظرا إلى هذه الأمور كلها أردت أن، أختار موضوع بجثي أدب الزهد للصفوة المختارة

فجعلت موضوع بحثي "إتجاه الزهد في الشعر الأندلسي في القرنين السابع والثامن".

أهداف البحث:

١. توضيح معني الزهد وتاريخ نشأته في الشعر الأندلسي.

٢. توضيح الربط بين الأدب العرى والأدب الأندلسي.

٣. تعريف لأهم شعراء الزهد الأندلسيين.

٤. تعريف بالدراسة الفنية و إتحاه الزهد في الشعر الأندلسي.

٥. تعريف بالأندلس و تاريخها.

الدراسة السابقة للموضوع:

- **الزهد فى الشعر الأندلسي حتى أواخر القرن الثالث الهجري**، دارسة أدبية مقدمة للحصول على درجة الماجستير في الأدب من الطالبة، للطالبة ناجية

ناحى دخيل الله السعيدي، تناولت الباحثة في دراستها الزهد في الأندلس حتى أوار القرن الثالث الهجري، وتناول فيها بداية انطلاق الزهد وأشعاره : تلك المرحلة، وأهم الأسباب التي أدت إلى انطلاق مثل هذه الأشعار، والشخصيات لتي تناولت هذا الغرض الشعري من الشعراء والفقهاء وغيرهم. وقد حلل أهم الأبيات الشعرية في الزهد.

- **الزهد فى الشعر الأندلسي**، في القرنين الرابع والخامس الهجريين، دراسة تحليلية، للباحثة هيام يوسف المجدلاوى، في جامعة الأزهر غزة، وقد تناولت فيها وصفا للحياة السياسية في الخلافة، وتطورها في عصر ملوك الطوائف وما طرأ عليها من تغير، كذلك قدمت وصفا للحياة الاجتماعية، والفكرية، والأدبية في تللك الفترة ومدى تأثرها بالأوضاع السياسية.
- الأخلاق الإسلامي في الشعر الأندئسى عصر ملوك الطوائف، للدكتور يوسف شحدة الكحلوت، تحدث الباحث في بحثه عن مفهوم الأخلاق في اللغة وفي التصور الفلسفي والتصور الإسلامي، وعن مصادر الأخلاق الإسلامية والتي تمثلت في القرآن الكريم والسنة النبوية والعرف.
- الخصومات في الشعر الأندلسي إبان القرن الخامس الهجري، للباحثة مرم مجمود صالح، تناولت الباحثة في دراستها الخصومات في الشعر الألدلسي إبان القرن الخامس الهجري انطلاقا من أنن الخصومة تؤسس لذات الفرد وتجسد لرأيه في الواقع وهي تكشف عما ينطوي من رفض ضمني لظاهرة معينة فهي تستشرف إنسانية الإنسان وهذا مثلت رسالة تواصل بين الذوات الإنسانية. والدراسة لم تكن عملية إحصاء لأشعار الخصومة بل استقراء واستشراف للأشعار التي ضمت شعر الخصومة والبحث عن دواعيها وآثارها في الشعر الأندلسي.

- أما الدراسات السابقة الحديثة التي سوف استفيد منها في هذا المجال والتي تناولت هذا الموضوع وكانت خير معين لإعداد هذا البحث، ومنها:
- الإتجاه الإسلامى فى الشعر الأندلسى، منجد مصطفى بمجت في عام 1886.
- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل في عام 1979.
- دراسات في الأدب الأندلسي، للددكتور عثمان العبادلة في عام 1993.
- الأدب الأندلسي عصر الطرائف والمرابعلين، للدكتور إحسان عباس، في عام تاريخ 1997.
- الزهد في الأدب الأندلسي عصر الموحدين، للدكتور عبدالرحيم حمدان في عام 1998.
- الأدب العري في الأندلس، للدكتور عبدالعزيز عتيق، في عام 1886.
- إتجالهات الشعر الأندلسى إلى نحاية القرن الثالث، نافع محمود.

الفرضية الأساسية

إن الفرضية الأساسية لبحثي عبارة عما يلي من الأسئلة:

كيف كانت الحالة الأدبية في العصر الأندلسي ؟

ما هي الأغراض الشعرية كانت سائدة في العصر الأندلسي ؟

ما هي الخصائص الفنية لشعر الزهد في العص الأندلسي ؟

ما هى موضوعات شعر الزهد في العاسر الأندلسي.

الباب الأول: معارف الزهد

الفصل الأول: الزهد لغة واصطلاحا

الفصل الثاني: أهمية الزهد في القرآن والحديث

الفصل الثالث: نشأة الزهد وبواعثه

الفصل الأول:

الزهد لغة واصطلاحا

"الزهد لغة":

"تدور مادة زهد في اللغة حول الإعراض عن الدنيا، فقد ذكرالجوهري أن الزهد خلاف الرغبة"[1].

وأما عند ابن سيدة: فالزهد –في الدين خاصة– ضدالحرص على الدنيا، والزهادة – في الأشياء كلها– ضدالرغبة[2].

"ورد تفسير هذه اللفظة في المعاجم العربية مرتبطا بمعناها الديني، ففي الصحاح": "الزهد خلاف الرغبة في الشئ، ويقال: فلان يتزهد بمعنى يتعبد".
"الزهد في الدين ضد رغب"[3].

وفي لسان العرب: "لايقال الزهد إلا في الدين خاصة، ويقال: زَهِد، زَهَد وزُهدٌ، وفلان يتزهد، أي يتعبد. فالزهد بمعناها اللغوي الخاص له مدلول ديني بمعنى عدم الرغبة في الدنيا وعدم الحرص عليها"[4].

"أجمعت هذه التعريفات على أن الزهد ضدالرغبة، ويقابل الرغبة الإعراض أي أن الزهد في اللغة هو الإعراض عن الدنيا ولايكون ذلك إلا مع بعضها وعدم الحرص عليها".

الزهد اصطلاحا:

"أما في المفهوم الاصطلاحي فالزهد لايقتصر على ذالك المعنى البسيط الذي تثير إليه ماهم اللغة، وإنما هو مفهوم معقد جدا إلى الدرجة التي لاتمكن كثيرا من الباحثين من القول فيه بقول فصل في مسماه، ولا في معناه، ولافي نشأته وتطوره، ولافي ماهيته وأبعاده، فكثرت في الأقوال، وتعددت متقاربة أحيانا ومتباعدة أحيانا أخرى"[5].

---

[1]. تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حمادالجوهري، ت عبدالغفور عطار،دارالعلم للملايين،ط:١٩٧٩م،مادة زهد

[2]. المخصص،علي بن اسماعيل ابن سيدة،دارالطباعة الكبرى الأميرية،ط:١٩٨٨م،مادة زهد، ج:٢، ص:١١٢

[3]. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، ط:١٩٨٠م، ج:١،ص:٢٠٩، مادة زهد.

[4]. لسان العرب، ابن منظور، مكتبة دارالمعارف،، ط:١٩٧٩م، ج:٤، ص:١٨٠، مادة زهد.

[5]. الزهاد والمتصوفة، محمد بركات البيلي، دارالنهضة العربية، ط:١٩٩٣، ص:٧

"فهو يعني اصطلاحا: الكف عن المعصية وعما زاد عن الحاجة، وترك ما يشغل عن الله، ثم الكف عن أمور الدنيا جميعا يتخيله القلب والتقشف التام".

والزهد عندالجرجاني: "بِأنه ترَك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك"[1].

"ويستفيد من ذلك على أن الزاهد من ترك الدنيا وأعرض عنها وإن أقبلت عليه، وانصرف عن ملذاتها وإن كانت بين يديه، فلايفرح بما آتاه منها ولايحزن على مافاته".

وقد قيل لأبي موسى الديبلي: ماالزهد في الدنيا؟ قال: "لاتيئس على فاتك منها ولاتفرح بما آتاك منها"[2].

وقال ابن السماك: "الزاهد الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح، وإن أصابته الدنيا لم يحزن، يضحك في الملا،ويبكي في الخلا"[3].

فمن رغبن عن الدنيا عظمت في عينه الآخرة، وأقبل عليها، وكان عونا له على الاستعداد لها بالصالح من الأعمال بإذن الله.

كقيل في الزهد: "بأنه ترك الشبهات خوفا من الحرام[4]، وهذا لايعد من التعريفات بقد ماهو من أنواع الزهد إذ إن للزهد عدة أنواع"، وذكرها ابراهيم بن الأدهم في قوله: "الزهد ثلاثة أصناف، فزهد فرض،وزهد فضل، وزهد سلامة، فالزهد الفرض الزهد في الحرام، والزهد الفضل الزهد في الحلال، والزهد السلامة الزهد في الشبهات"[5].

"فالزاهد من يتقي مواطن الشبهات خوفا من الزلل والوقوع في الحرام، بدءا بالورع الذي يجعل صاحبه يترك الحلال مخافة الشبهة، وينتهي به ذلك إلى حب الله عزوجل".

---

[1]. التعريفات، محمد الشريف الجرجاني، دارالنفائس، ط:٢٠٠٣م، ص:١٨٤

[2]. الزهد الكبير،ص:٨٧

[3]. العقد الفريد، أحمدبن عبدربه،ت أحمد أمين، دارالكتاب العربي،ط:١٩٩٧م،ج:٣،ص:١٦٦

[4]. أبجدالعلوم في بيان أحوال العلوم،صديق بن حسن القنوجي،ت عبدالجبار ذكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشادالقومي دمشق،ج:٢،ص:٣٤١

[5]. الزهدالكبير،ص:٩٦

"ومع كثرة التعريفات للزهد إلا أن أجمع تعريف له هو ماذكره شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: الزهد المشروع ترك ما لاينفع في الدارالآخرة"[1].

"ويعد هذا التعريف جامعا لأنه لأنه جمه بين الإعراض عن الدنيا، والحرص على الآخرة، وبين ماترك في الدنيا من ملذات ومتع فانية، والإقبال على الآخرة بكل عمل صالح ينفع الإنسان يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم".

"ولم يرد لفظ الزهد في القرآن الكريم سـوى مرة واحدة في قوله تعالى: "وَشَـرَوْه بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَة وَكَانُواْ فِيه مِنَ الزَّاهِدِينَ"[2]، على أنه ليس في ورود لفظة الزهد هنا مايشـير إلى أي علاقة بالمفهوم التعبدي للزهد، حيث إن المعنى هنا يشـير إلى أنهم كانوا من الراغبين عنه، فلذلك باعوه بثمن بخس".

وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم المعنى الحقيقي للزهد حين قال: "الزهادة في الدنيا ليسـت بتحريم الحلال ولا إضـاعة المال، ولكن الزهادة أن تكون ما يدالله تعالى أوثق منك بما يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصيبت بها أرغب منك فيها لو أنها أُبقيت لك"[3].

وقال عليه الصلاة والسلام: "أزهد في الدنيا يحبك الله، وأزهد فيما عندالناس يحبك الناس"[4]، فالرسول يجعل الزهد سببا لمحبة الله لعبده.

وعرفه ابن عباس بقوله: "الزهد أن لايسـكن قلبك إلى موجود في النيا، ولايرغب في مفقودمنها"[5].

"وقد تناول العديد من علماء المسـلمين شـرح مفهوم الزهد وتوضـيحه، فإبن حنبل يرى أن الزهد هو عدم الفرح بإقبال الدنيا، ولا الحزن على إدبارها، وجعله على ثلاثة

---

[1]. مجموع الفتاوي، ترتيب عبدالرحمن محمدبن قاسم،مكتبة المعارف، الرباط، ط:الخامسة، ج:١١،ص:٢٨

[2].سورة يوسف، آية رقم ٢٠.

[3].سنن الترمذي، ت ابراهيم عطوة عوض، رقم الحديث:٣٧، ص:٥١٧

[4]. سنن ابن ماجة، رقم الحديث:٣٧، ص:٦٨٢

[5]. الزهد الكبير، أحمد بن حسن البيهقي،دارالقلم كويت، ط:١٩٨٣م، ص:٨٦

أوجـه: الأول: "ترك الحرام وهو زهـد العوام، والثـاني: ترك الفضـــول من الحلال وهو زهدالخواص، والثالث ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين"[1].

"أما الإمام الغزالي فقد قســم الزهد إلى ثلاث درجات، فهو من وجهة نظره يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث"[2]:

الدرجة الأولى: "وهي السفلى، منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد".

الدرجة الثانية: "الذي يترك الدنيا طوعا لاحتقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهما لأجل درهمين، فهو يظن في نفسه أنه يترك شيأ له قدر لما هو أعظم قدرا منه، وهذا أيضا نقصان".

الدرجة الثالة: "وهي العليا، أن يزهد طوعا فلا يرى زهده، إذ لايرى أنه ترك شيئا إذا عرف أن الدنيا لاشيئ، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة، فلايرى ذلك معاوضة.فهذا هو الكمال في الزهد، وسبب كماله المعرفة، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا".

"إذن فالزهد يعنى القصـد والاعتدال والقناعة وعدم الإسـراف في متع الدنيا، وهو ما نجده منهجا حياتيا دعت إليه جميع الأديان الســماوية وذلك كســبيل لأحلال التوازن الطبقي في المجتمع الإنساني ومن ثم الوصول إلى كفاية الأنسان وسعادته[3]، وبهذا المفهوم تفسر بذورالزهد الأولى في كل دين بل في كل عقيدة سماوية".

"فهو منهج نفســي من أجل بعث الأمل في القلوب البشــرية وجعلها تنمو فوق معاناتها اليومية، وذلك حين يتم إيثار الآخرة على الدنيا الفانية بالإعراض عنها والتهوين من شأنها، وعدم الإنشغال عن الله تعالى، والرضا التام بما قسمه، وشكره في كل حال، وأن يكون ذلك نابعا من إيمان متين وإعتقاد قوي".

---

[1]. مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، دارالحديث القاهرة، ط: ١٩٨٧م، ج:٢، ص:٢٦٦

[2]. إحياء علوم الدين، الامام الغزالي، دارابن قيم الرياض، ط:٢٠٠١م، ص:٢٠٧

[3]. الفلسفة الصوفية في الإسلام، عبدالقادر محمود، مطبعة المعرفة القاهرة، ط:١٩٦٦م، ص:٤٣

الفصل الثاني:

أهمية الزهد في القرآن والحديث

"لقد تناول القرآن الكريم الزهد بلفظة في موضع واحد فقط، وهو موضع ذم لامدح، وذلك في قصة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: وكانوا فيه من الزاهدين[1]، أي على زهد فيه وعدم رغبة".

"ولم يعتن المفسرون بندرة هذه المادة "مادة زهد" في القرآن الكريم، وإنما انصرفوا في تفسير معنى الآية، مبررين الزهد في شخص يوسف عليه السلام".

ففسر القرطبي هذه الآية بقوله: "قيل: المراد إخوته، وقيل: السيارة، وقيل: الواردة، وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غبيطا، لا عندالإخوة،لأن المقصود زواله عن أبيه لاماله، ولاعن السيارة لقول الإخوة إنه عبد أبق منا —والزهد قلة الرغبة– ولاعندالواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم، ورأوا أن القليل من ثمنه في الإنفراد أولى"[2].

"وفسر الطبري الضمير في (وكانوا) بقوله: غن عاد إلى الإخوة فقلة رغبتهم في يوسف ظاهرة وإلا لم يفعلوا به مافعلوا، وإن عاد إلى الرفقة فذلك أنهم اعتقدوا أنه أبق فخافوا إعطاءالثمن الكبير"[3].

وفي تفسير هذه الآية يقول ابن كثير :"أي ليس لهم رغبة فيه، بل لو سئلوا بلاشيئ لأجابوا..(وكانوا فيه من الزاهدين) إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة، والدليل على ذلك أن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه"[4].

"فأجمعت هذه التفاسير أيضا على معنى واحد للزهد، وهو قلة الرغبة أو عدم الرغبة في الشيئ، فكون إخوة يوسف لايعلمون قدره ومنزلته عندالله عزوجل جعلهم يزهدون فيه، ويتخلصون منه، وكون السيارة رغبوا فيه، وجعلهم يقبلون عله بالشراء.فيستدل من خلال تبرير هذه التفاسير لزهد إخوة يوسف فيه أن الزهد في الشيئ هو عدم الرغبة فيه والإعراض عنه".

---

[1] سورة يوسف:رقم الآية. ٢٠

[2] تفسير الطبري، ابن جرير الطبري، دارالفكر للطباعة والنشر، ط:١٩٧٨، ج:١٢،ص:١١٢

[3] تفسير الطبري،ج:١٢،ص:١١٣

[4] تفسيرالقرآن العظيم، ابن كثير الدمشقي، درالمعرفة بيروت، ط:١٩٩٣م،ج:٢،ص:٤٧٩

إن الزهد في الدنيا من الأمورالتي حث الله عزوجل عليها في القرآن الكريم وذلك ببيان حقارة النيا في عدة آيات، منها قوله تعالى: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاة الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَة وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُه ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاه مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَة مِّنَ الله وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاة الدُّنْيَا إِلاَ مَتَاعُ الْغُرُورِ"[1].

وقوله تعالى: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّـهوَاتِ مِنَ النِّسَـاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَة مِنَ الذَّهبِ وَالْفِضَّـــة وَالْخَيْلِ الْمُسَـــوَّمَة وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا وَالله عِندَه حُسْنُ الْمَآبِ"[2].

ومنها أيضـا قوله تعالى "يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاة الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِالله الْغَرُورُ"[3].

"أما في السنة النبوية فقد ورد الزهد بلفظة في عدة مواضع منها قول الرسول صلى الله عليه وســـلم مرغبا في الزهد: "ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك"[4]، وقال رســول الله صــلى الله عليه وســلم: "إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه بلقى الحكمة"[5].

"فالزهد في الدنيا هو الأعراض عنها، وهو اختيار الحبيب مصــطفى صــلى الله عليه وســلم في حياته، لذا يرغب فيه أمته، ويدعوهم إليه لأن ذلك مناط الحكمة، ولما يترتب عليه من محبة الله عزوجل".

"والرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد في كثر من أحاديثه زوال الدنيا وفناءها ويرغب في الزهد فيها والعزوف عنها، فيقول صــلى الله عليه وســلم :"ما لي وللدنيا، مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها"[6].

---

[1] سورة الحديد:رقم الآية ٢٠

[2] سورة آل عمران:رقم الآية ١٤

[3] سورة فاطر:رقم الآية: ٥

[4] سنن ابن ماجة، رقم الحديث:٤١٠٢

[5] نفسه، رقم الحديث:٤١٠١

[6] مسند الإمام ابن حنبل، ت أحمد شاكر، دارالمعارف مصر،ط:الثانية،ج:٦،ص:٤٢٠٨

ويقول الرســـول ﷺ مبينا حقارة الدنيا: "ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع"[1].

"ويحذر عليه الصلاة والسلام من الدنيا والإنشغال بها، ويرغب في الآخرة والإقبال عليها في قوله: من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ماكتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة"[2].

"كما ضــرب الرســول صــلى الله عليه وســلم بحياته مثلا رائعا في الزهد يجدر بأمته التأسـي به فقد روي عن أبي هريرة رضـي الله عنه أنه قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا"[3].

"ومن الجدير بالذكر أن الدين الإســـلامي ممثلا في الكتاب والســـنة يحث على الإعراض عن الـدنيـا والزهـد فيهـا، ولكن لاتعـد كـل حـالات الإعراض عن الـدنيـا، والانقطـاع التـام للعبـادة والانعزال وهجرالحيـاة الاجتمـاعيـة، وإهـدار قيمـة المـال وعـدم الحفاظ عليه، من الزهد الذي حث عليه الإسلام. فما حث عليه الدين الإسلامي أسمى من ذالك بكثير، إذ يحث على الزهد الذي تكون فيه الدنيا في يدالإنسان لافي قلبه".

"أي أن يمتلكا بين يديه وينفقا في أوجه الخير، لا أن تملكه الدنيا وتستحوذ على قلبه وتفكيره فيشقى بها".

ويؤكد ذلك قوله تعالى: "وَسَـــيُجَنَّبُها الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَه يَتَزَكَّى . وَمَا لِاحَدٍ عِندَه مِن نِّعْمَة تُجْزَى . إِلاَ ابْتِغَاء وَجْه رَبِّه الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى"[4].

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب العبدالتقي الغني الخفي"[5].

---

[1] سنن ابن ماجة، رقم الحديث: ٤١٠٨

[2] سنن ابن ماجة،رقم الحديث: ٤١٠٥

[3] صحيح مسلم بشرح النووي،المطبعة المصرية القاهرة،ط:١٩٧٦م، كتاب الزهد،ج:١٨،ص:١٠٥

[4] سورة الليل:رقم الآيات: ١٧-٢٠

[5] صحيح مسلم بشرح النووي،ج:١٨،ص:١٠٠

"فجمعت كل من الآية والحديث بين التقوى والغنى، وهذا دليل على أن وجودالمال بين يدي الإنسان التقي الغني المنفق في أوجه الخير لايتعارض مع الزهد الذي حث عليه الإسلام. كما قال صلى الله عليه وسلم: ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولافي إضاعة المال، ولكن الزهاد في الدنيا أن لاتكون بما يدك أوثق منك بما في يدالله تعالى"[1].

ويؤكد ابن تيمية حقيقة أن الزهد قد يكون مع الفقر والغنى في قوله: "لما كان الفقر مظنة الزهد طوعا أوكرها، إذ من العصمة أن لاتقدر وصارالمتأخرون كثيرا ما يقرنون بالفقر معنى الزهد وقد يكون مع الفقر.ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه الكثير"[2].

"كما يفرق الدكتور علي نجيب عطوة بين كراهية الدنيا وبين عدم حبها والتمسك بها، وذلك ببيان حقيقة الزهد في الكتاب والسنة حيث يقول: والزهد في الدنيا في المعتقد الإسلامي لم يكن المقصودبه كراهية الدنيا وعدم الالتفات إليها، وإنما كان المقصودبه عدم حب الدنيا والتمسك بها، وفرق كبير بين المنزلتين، فالكراهية تدعو إلى التباعد والدفع والنفور، وعدم الحب، ليس فيه أكثر من عدم الاعتمام، وعدم الالتفات والترقب وعدم التطلع"[3].

"ونستدل من كل ماسبق أن وجودالأموال ومتع الدنيا الحلال بين الزاهد لايتعارض مع الزهد الذي حيث عليه الكتاب والسنة النبوية، فمن الخطا قصر مفهوم الزهد على الزهد في المال والمتاع الدنيوي وأرجح الدكتور مصطفى الحلمي سبب هذا الخطأ عندبعض الكتاب والباحثين لتأثرهم بمفاهيم المستشرقين المتمثلة في الانقطاع التام عن الدنيا وملذاتها"[4].

"والأمثلة في السيرة النبوية على زهد الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة، ولامجال لذكرها في هذا المقام، وما يهمني هنا أن هذه الحياة المحمدية كانت نبراسا لكثير من الزهاد".

---

[1] سنن ابن ماجة، رقم الحديث: ٤١٠٠

[2] مجموع الفتاوي،ج:١١،ص:٢٨

[3] شعرالزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، علي نجيب عطوة، المكتب الإسلامي بيروت، ط:٢٠٠٥م،ص:٣٠

[4] الزهاد الأوائل، مصطفى الحلمي، دارالدعوة الاسكندرية،ط:١٩٩٨م،ص:٩

الفصل الثالث:

نشأة الزهد وبواعثه في الأندلس

شـــهد الأندلس في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني بعض الميولات الزهدية منذ فجرالإســلام بها. شــكلت الجذور الأولى للتصــوف الأندلســي فيما بعد، فقد عرفت المنطقة دخول موجات بشرية مشرقية كان من ضمنها بعض العباد والنساك[1]، مع العلم أن الأندلس قد عرف قبل ذلك دخول بعض التابعين مع حملة موسى بن نصير، وهؤلاء عملوا على زرع بذور اتجاه الزهد والورع في تلك البلاد، وكان على رأسهم التابعي الجليل حنش الصنعاني الذي ضرب للأندلسيين مثالا في الصلاح والورع، استقر في سرقسطة[2]، وهو من أمر ببناءالمسجد الجامع بها، وكذالك الأمر بالنسبة لداوود بن ميمون بن سعيد الذي اشتهر هو الأخر بالزهد والصلاح والتقوى[3].

كان لاتصال الأندلسيين بالمشرق عاملا مهما ساعد على بلورة حركة الزهد الناشئة، فالأندلسيون الذين قصدوا المشرق تحدوهم غايات مختلفة، فمنهم من قصده بنية الحج وطلب العلم من منابعه، ومنهم من كان غرضــه التجارة والتكســب، عادوا إلى وطنهم محملين بأفكار وتعاليم عملوا على نشرها في الوسط الأندلسي[4]، الذي شاع فيه المجون وإنغماس الناس في اللهو والترف والبعد عن الدين، في مقابل ذلك ظهرت طبقة من الأتقياء الصالحين، أخذوا من الزهد في الحياة مسلكا لهم، ومن الورع والنسك منهاجا، وعاشوا مبتهلين إلى الله متطلعين إلى ما وعدبه الصالحون فكثرالزهاد الذين

ارتووا من المصنفات المشرقية المتعلقة بهذا الجانب، والتي دخلت الأندلس، عن طريق الحجاج وغيرهم كقوت القلوب لأبي طاب المكي ورعاية المحاســبي، وتعد شــهادة ابن خلدون خيردليل على كثرة الزهاد والعباد بالأندلس، وذلك حين قال:"...على تقييد وصــل من عدوة الأندلس، وطن الرباط والجهاد ومأوى الصــالحين والزهاد والفقهاء والعباد"[5].

---

[1] المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس، أبوعبدالله التميمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،القاهرة،ط:٢٠٠٢م،ص:٢٩

[2] من كبريات مدن الأندلس

[3] تاريخ علماءالأندلس، روحية عبدالرحمن السويفي، دارالكتب العلمية،ط:١٩٩٧م،ص:٢٧

[4] المصدرالسابق، ص:٢٥

[5] شفاءالسائل، ابن خلدون، مكتبة دارالمعارف،ط:١٩٩٠م،ص:٤٨

"ومن أبرز البواعث التي أثارت كوامن نفسية زهاد الأندلسيين في هذه المرحلة، هي":

أولا–الباعث الديني:

"إن التطور الاجتماعي والحضاري الذي حدث في بلادالأندلس خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة كان له أثر كبير في تطر تيارالزهد وامتداده، حيث كان لابد من وجود حركة عكسية مضادة تعكف على تقوى الله وتقصر نفسها على العبادة، ولاشك أن الذي ساعد على هذه الحركة المضادة ظهر طائفة القصاص في المجتمع الإسلامي الذين كانوا يقصون على الناس في المساجد أساطيرالأولين، وسير الأولياءالصالحين، ويستخلصون منها العبر والعظات ليردوا إلى الناس عناصر إيمانهم في هذا المجتمع الذي زعزع الشك أركانه، ونتيجة ذلك شاع في أهل الأندلس الورع والتقوى والميل الشديد إلى التدين والالتزام بتعاليم الدين الحنيف، وبدأ الأحساس بالمسؤولية الدينية عند علماء الأندلس على درجة عظيمة ومتميزة"، فمثلا نجد أن ابن الحزم الأندلسي يقول: "إن أفضل ما استعمله المرء في دنياه هو أن يعلم أن الناس دينهم الذي خلقوا"[1].

فقد ظهرت طبقات الفقهاء والعلماء والشعراء الذين يعبرون عن أحاسيسهم وانفعالاتهم بأبيات زهدية فيها ذاتية واضحة. "وقد كانت النواة الأولى لهذا الفكر هي تلك العلوم الدينية، أي علوم القرآن والحديث خاصة، وأن حاملي لواءالعلم الأوائل كانوا قراء القرآن وحفاظه ورواة الأحاديث والفقهاء، وكان بديهيا أن تكون هذه النواة بعد رعايتها هي الغرسة الطيبة التي اختصت وخلفت بعدها أروع حضارة إسلامية".

"إذن كان الزهد سمة مرتبطة بحملة العلم والفقهاء، ويؤكد لنا ماجاء في كتب علماء الأندلس وتراجمهم،فعيسى بن دينارالغافقي الطليلي (٢١٢هـ) كان إماما في المذهب المالكي وعلى طريقة عالية في الزهد والعبادة، وأبوعبدالله بن طاهر القيسي التدميري (٣٧٩هـ) كان عظيم القدر بالأندلس"، بعيدالأثر في الخير والصلاح، "واستجابة للأحساس بهذه المسؤولية لدى رجال الدولة كان من سياسة أمراء بني أمية عموما محاولة

[1] رسائل ابن حزم الأنلسي، المجموعة الأولى، ت إحسان عباس، دارالكتاب العربي،ط:١٩٥٤م،ص:٧٨

الاتصـــــاف بالتقوى والزهـد أحيـانا كمـا عرف عن الأمير بن محمـد، فقـد كـان من الخلفاءالزاهدين بل المتقدمين في الزهاد"[1]، بالاضـافة إلى رعايتهم وتقربهم للعلماء الزهاد، "وذلك كوسيلة لإسنادالقاعدة الشرعية للحكم وكمحاولة لاستقطاب العامة التي كانت تولي أهمية كبيرة، وإن كان هذا لاينفي مواقف هؤلاء الحكام من بعض رجال الدين حين كانت تصطدم بهم مصلحة السلطة مابين العزل والمطارة والقتل".

ومن أشـهرالزهاد في تلك الفترة أيضـا أبوعبدالله محمدبن عبدالله الجبلي المعروف بابن المسرة(٤١٩هـ)، وقد ذكر ابن خاقان أن "ابن مسرة كان على طريقة من الزهد والعبادة سـبق فيها وانتسـق في سـلك مقتفيها"[2]، وكان مذهبه يقوم على "الكجمع بين بعض مبادئ المتصوفة وبعض أصول الاعتزال، فلم يكن معتزليا خالصا ولا باطنيا خالصا، لذا فقد اعتبره البعض إماما في علمه وزهده، والبعض الآخر طعن عليه ووصـــف مذهبه بالقبح وسوءالمعتقد"[3]، ومن شعره في الزهد قوله:[4]

"إنما الموت غاية نحن نسعى" خيبا نحوها على الأقدام

إنما الليل والنهار مطايا لبنى الأرض نحو دار حمام

"لذا فإننا نعتقد أن شيوع مذهب ابن مسـرة كان باعثا من بواعث ترسيخ الزهد في الأندلس، حيث إن إحساس هؤلاء العلماء بالمسؤوؤلية كان نابحا أيضـا عن إحسـاسـهم بحاجة المجتمع إليهم، ولك أن عامة الناس البســـطاء لم يكن لديهم ذلك الوعي الكافي بالفقه الإســلامي والتغلل في أعماق هذا الدين، فبرز دور هؤلاء العلماء والزهاد ليكونوا للعامة من الناس في الورع والتقوى، حتى لقد أصـــبح العامة يتبركون بلمســـة منهم ويتهافتون على رضـاهم، أضـف إلى ذلك ما عرف عن النصـارى من ميل لطبقة الزهاد والأتقياء لوجود مايشبه هذه الظاهرة عندالمسيحية، فاستطاعت تلك الطبقة شد طائفة كبيرة من المجتمع رغم اختلاف ديانتهم"، كما جاء في قوله تعالى: "وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ

---

[1] قضاة قرطبة، محمد بن الحارث الخشني،مكتبة الخانجي، ط:١٩٥٣م، ص:٩٦

[2] مطمح الأنفس، الفتح بن خاقان، مطبعة الجوانب،القسطنطنية، ط:الثانية، ص:٥٧

[3] تاريخ الأدب الأندلسي، إحسان عباس،دارالشروق،ط:١٩٩٧م،ص٢٩

[4] المصدرالسابق،ص:٥٧

مَّوَدَّة لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهمْ قِسِّيسِينَ وَرُهبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ" [1].

"أما في عصرالطوائف نجد امورا سياسية واجتماعيا كثيرة قد تغيرت، وكان لابد أن تتميز طبقا لهذه التغيرات منزلة العلماء لازدياد شقة الخلاف بين رجال الدين وأصحاب السلطة"، "حيث برز في هذه الفترة الجهاد في سبيل الله نظرا لحاجة البلادالشديدة إليه لمواجهة الغزو المستمر للمدن، فقد كان يرسخ في نفوس المسلمين الزهد في الدنيا كاختيار ملؤه الاستبشار والرضاء لمافيه من سعادة المجاهدالمرتقبة ومابشربه الشهداء من رضوان وجنات، فقد كان كثير من زهاد الأندلس من يغزو بلادالعدو غزوات كثيرة على قدميه ابتغاء الأجر"[2]، ومنهم من كان يلازم الثغور ومن منهم من يستشهد مقبلا غيرمدبر، "ولم يكن هؤلاء الزهاد والمتصوفة المشاركون في الجها لوحدهم بل معهم الكثير من أتباعهم".

"فانتشار نزعة الزهد بين العلماء والأمراء والشعراء كان حافزا قويا للناس على اتباع طريق التقوى والورع، حيث كانوا ينظرون إليهم على أنهم المثل الأعلى في الزهد والتقشف".

لذلك مان من دواعي شعرالزهد الأصيلة التقوى والورع، ولاسيما "كان أكثر شعراءالزهد من الفقهاء الذين ترجحت لديهم كفة الدين على الدنيا، فصاروا يعملون للآخرة، وشارك العديد منهم مشاركة فعالة في أحداث عصره"[3]، "إذن فقد حمل هؤلاء العلماء والفقهاء والشعراء لواء المسؤولية، بما غذا به الفكرالأندلسي من علوم القرآن والحديث مما جعل هذا المجتمع مهيأ ومتقبلا لهذه الظاهرة وداعما لها".

ثانيا –الباعث السياسي

"استطاعت الحياة السياسية في الأندلس –على تعدد مظاهرها– ان تستغرق الككثير من جهد أبناءها، وقد كان لهذه الحياة السياسية تأثيرات على الفرد العادي

---

[1] سورة المائدة:رقم الآية: ٨٢

[2] الذيل والتكملة، ابن عبدالملك المراكشي، دارالثقافة بيروت، ط:٢٠٠٤م،ص٢٢٢

[3] تاريخ الأدب الأندلسي،ص:١٩٨

مســـته من قريب أو من بعيد وجعلته يهرب من هذا الواقع نحوالزهد في هذه الدنيا الفانية".

"ومن أبرز هذه المؤثرات السياسية":

"تقلب الأحداث".

"كانت الحياة السياسية في ذلك العهد عبارة عن صراع خارجي في صورة غزوات مستمرة ومرابطة وجها في الثغور، وصـــراع داخلي يتمثل في الفتن والثورات التي يحاول أصحابها الانشقاق من الحاكم، وهي أيضا معارك بين العناصرالمختلفة على أساس العصبية وكذلك فهي معارضة أونقد للحكم القائم أو محاولة التآمر في سبيل غايات فردية".

"وأمام هذه التقلبات السريعة في الأحداث السياسية كان لابد من نمو نوع من القلق وعدم الاستقرار والشعور بالريبة والحذر من الناس عامة، ومن الحكام وأتباعهم خاصة، فأصبح الفر في ظل هذا الوضع بحاجة إلى مصدر روحي يمده بالثقة والطمأنينة تتمثل في توجيهه نحوالزهد في الدنيا ومغرياتها وإيثار الآخرة عليها".

"سقوط المدن"

"وقد كان من نتائج الأوضاع السياسية المتردية، والانقسام والصراع الداخلي، وضعف الحكام، ووجود الحاكم غيرالكفء ما حدث للمدن من تساقط في يد الأعدار، فقد كان سقوط هذه المدن بمثابة حادثة أونكبة أدت إلى ضياع الروح القتالية، بالاضافة إلى التطور الحضاري ومانجم عنه من ثراء ودعة أثرت في ضعف هذه الروح".

"وإزاء هذه الأوضاع تصاعدت الدعوات إلى وحدة الكلمة، واتخاذالعبرة، والرجوع إلى الله والعودة باللائمة على المسلمين، لأنهم تهاونوا في دينهم فانتقم الله منهم، لذا فقد كان سقوط هذه المدن بمثابة التذكير والتنبيه ومحاسبة الناس وتوجيه النقدلها"[1].

"ويمكن أن نضيف إلى أسباب ذلك التردي نوع الجندالذين اتخذتهم الممالك والأسرة الحاكمة سندا لها، فهم عبارة عن جموع مرتزقة لكل من يدفع أجرا، فمنهم أصحاب

[1] دراسات في الأدب الأندلسي، عثمان العبادلة، دارالنهضة العربية،ط:١٩٩٣م،ص:١٠٨

عصبية كالبربر والصقالبة، وكذلك الافتقاد إلى شخصية القائد الحقيق الحريص على مصلحة المسلمين،كل هذا وذلك كان سببا في ضعف الباعث الحماسي للجها عند ملوك الطوائف".

"إذ كان الشعور بالخيبة والمرارة دفينا في نفوس الأندلسيين إزاء هذه الأوضاع السياسية المتسمة بالتفكك والانقسام والتآمر مع الأعداء، مما جعلهم يشعرون باليأس من إمكانية صلاح قادتهم فضلا عما كان يحل بهم من ويلات ومحن أثناء تساقط المدن، مما ألقى بتبعات ثقيلة على نفوس العالمة، وجعلهم يتجهون إلى الزهد كملاذ أو ملجأ آخر يجدون فيه مبعثا للأمل كي يتساموا على مصابهم رغبة في تحقيق حياة أفضل من حياة الدنيا ألا وهي حياة الآخرة".

ثالثا –"الباعث الاجتماعي":

"يتألف المجتمع الأندلسي من عناصر متعددة من السكان كالعرب والبربر والنصارى واليهود، ولكي يتضح لنا أثرالباعث الاجتماعي في نشوء ظاهرة الزهد في الأندلس في هذه المرحلة لابد من الوقوف عند المحاورالتالية":

"تركيبة المجتمع الأندلسي"

"يتألف المجتمع الأندلسي من أجناس متنوعة وأصناف متعددة من الأقوام، ويمكن القول بأن العناصرالتي سادت المجتمع الأندلي خمسة"، هم: "العرب والبربر والموالي والمولدون وأهل الذمة من نصارى ويهود. فقد كان المسلمون من العرب والبربر يأتون في الدرجة الثانية من سكان إسبانيا الأصليين، وكانت تعود العرب في أصولها إلى القبائل العدنانية والقحطانية، فقد كانوا يحسون بنوع من الارستقراطية النابع من غلبتهم على البربر والإسبان، بالاضافة إلى تفوق لغتهم على غيرها مما كان يولد الشعور بالتعالي عندالعرب على البربر، وهذا أدى بدوره إى ثورة البربر عليهم أحيانا، أما بالنسبة إلى البربر فهم يشاركون العرب في البداوة والاسلام والشجاعة إلا أنهم كانوا أسرع اندماجا في البيئة الجديدة من العرب، فليس هناك مايحول بنهم وبين الاندماج فلا عصبية،ولالغة مكتوبة مثل العرب الذين حالت عصبيتهم القبلية ولغتهم دون الاندماج في هذا المجتمع

الجديد، فارتبط البربر في روابط المصاهرة والقرابة مع أهل هذه البلاد، وصار أندلسيين أكثر من العرب، وإلى جانب فئة العرب والبربر كانت هناك طائفة أخرى من الموالي وهي طائفة لعبت دورا مهما في حياة هذا المجتمع الأندلسي حيث كان الموالي يحتلون مراكز مرموقة على غرار مراكز الأحرار، خلاف ماكانوا في المشرق حيث كانوا في منزلة اجتماعية أقل من الأحرار".

"وكذلك وجد في الأندلس عنصر أهل الذمة الذي تألف من الإسبان المسيحيين الذين بقوا على دينهم، ويندرج تحت هذا العنصر أيضا يهود البلاد، أما عنصرالمولدين فهم العنصرالناشئ من تراوح العرب بالبربر أوالعرب بالإسبانيات والصقابة، وخرج من هذا التراوح جيل جديد مولد يشبه ما كان في الشرق من تراوح بين عربي وفارسي سمي جيل المولدين".

"إذن أصبح المجتمع الأندلسي في هذه الفترة يموج بكثير من المتناقضات كما أسلفنا، فهذا ناعم مترف أو لاه مستهتر، وذلك ناسك عابد أو ورع زاهد، وهذا كله دفع الكثير من العلماء والفقهاء والشعراء حتى الأمراء والملوك نحوالزهد في الدنيا وذم الاختلاط والعصبية والعنصرية مبررين ماحدث للبلاد بأنه ناتج عما أصاب الحكام والأمراء وأصحاب السلطات من سوء الخلق كالغدر والخيانة والنفاق، وكان إيثارهم للآخرة وبيعهم للدنيا السبيل للنجاة".

حياة اللهو والمجون

"شاعت في المجتمع الأندلسي حياة اللهو والمجون والخلاعة والابتعاد عن الدين، وبدأت الحياة الاجتماعية منذ أواخرالقرن الرابع وأوائل القرن الخامس خاصة في عصرملوك الطوائف تنزع إلى الترف والرفاهية وتنعتق شيئا فشيئا من صرامة الحكام والفقهاء، كما أخذ كل ملك في حاضرته يتشبه بخلفاء الأمويين، ويشجع الأدباء والشعراء وأرباب الغناء والطرب، وبذلك أخذ اللهو يسري إلى حياة الخاصة والعامة"،

"ويفترالوازع الديني في النفوس ويتجرأ بعض الشـــعراء فيقولون الشـــعر في الهزل والمجون ويتخذون مادة سمرهم في مجالس الشراب والأدب والغناء"[1].

"وإزاء هـذا الاتجـاه نحو متع الحيـاة كـان هنـاك التطلع إلى الجـانـب الروحي، إذ إن تياراللهو والمجون في المجتمع الأندلسـي يقابله دائما في قوة اندفاعه تيارالزهد انسـجاما مع المنطق الطبيعي لتطورالحياة، فالزهد بناء على ذلك مدين في وجوده ونشـــأته لتيارالمجون، فهو رد فعلي طبيعي إزاء تلك الموجة العاتية من التحرر والانطلاق التي أشـــاعت في المجتمع الأندلســـي ألوانا من العبث والإســـراف في الإقبال على الدنيا والانغماس في الملذات والشهوات".

"فنجد مثلا الشـــاعر أباوهب القرطبي الذي عاش في قرطبة وشـــاهد مافيها من الإسـراف والتحلل الاجتماعي والخلقي يتجه بشـعره إلى الزهد فيصـف في أبيات شـعرية حـالـة وهو في ثوب الزهـد وحـالـة وهو في ثوب الرفـاهيـة ويجري مقـارنـة بين حـالتيـه، فيقول":[2]

"أنا في حالتي التي قد تراني"	**إن تأملت أحسن الناس حالا**
"منزلي حيث شئت من مستقر الـ"	**أرض أسقى من المياه زلالا**
ليس لي كسوة أخاف عليها	**من مغير ولاترى لي مالا**
أجعل الساعداليمين وسادي	**ثم أُثني إذا انقلبت الشمالا**
قد تلذذت حقبة بأمور	**فتدبرتها فكانت خبالا**

النكبات الطبيعية

"إن توالي النكبـات الطبيعيـة على أرض الأنـدلس، كتلف المزروعـات أثنـاء ارتفـاع السيول، واشتدادالقحط بسبب النحباس المطر، أدى إلى حدوث المجاعات، ناهيك عن الأموال التي يبذلها المسـلمون في سبيل فك الأسـرى أثناء الحروب المستمرة"، خاصـة في عصـرملوك الطوائف، "كل هذا من شـأنه أن يجعل الإنسـان يعيدالنظر في مسـارةحياته،

---

[1] عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص:٢٥٨

[2] نفخ الطيب، لسان الدين ابن الخطيب، دارالكتب العلمية،ط:١٩٧٠م،ج:١،ص:٥٨

ويرسخ في النفوس شعورا قويا في ضرورة الانصراف عن الحياة اللاهية الزائلة، والبحث عماهو خالد وباق، متمثلا ذلك في الزهد في الدنيا والانقطاع عن الشهوات والاتجاه إلى الله".

رابعا –الباعث الذاتي:

ومن أهم هذا الدافع:

كبرالسن

"وهو مايمكن أن نطلق عليه زهدالشيخوخة، إذ نجد أن بعض الناس يتجه إلى الزهد حين يكن الموت منهم قاب قوسين أو أدنى، أو حين يرافقهم مرض عضال، أي أن هذا يصدر عن الخوف من الموت ويحرك إليه أيضا الشيب والشعف"، "فهذا الشعور هوالذي يدفع إلى التقوى والإقلاع عن الذنوب والتوبة إلى الله وتذكيرالآخرة، وهر طبيعي يستوى فيه الأندلسي وغيرالأندلسي"[1]، ومنهم من ينحاز إلى الزهد في هذه السن بصورة تؤثر على أنماط حياتهم السابقة،فتنقلب رأسا على عقب.

زوال المال والجاه

"لقدكان لطبيعة الأحوال السياسية والاجتماعية دور كبير في تغير أحوال الناس، وفقد بعضهم لعزهم وجاههم وتحولهم إلى النقيض، دفعهم إلى الزهد وترك الدنيا المتقلبة الفانية، فهذا أبوعيسى ابن لبون الذي أخرج من بلده بعد أن كان وزيرا للحاكم يتجه إلى الزهد ويقول أشعارا تظهر تحسره على ماحل به من فقد للسلطان، ومنها قوله":[2]

"نفضتُ كفي من الدنيا وقلت لها" "إليك عني فما في الحق اغتبن"

مِن كسربيتي لي روض ومن كتب "جليس صدق على الأسرار مؤتمن"

وما مصابي سوى موتي ويدفنني قوم ومالهم علم بمن دَفنوا

---

[1] البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، سعد إسماعيل شلبي،دارالنهضة العربي،ط:٢٠٠٢م،ص٥٠٤

[2] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبوالحسن علي بن بسام،الدارالعربية للكتاب،تونس،ط:١٩٧٨م،ج:١،ص:١٠٨

الباب الثاني: معارف الأندلس

الفصل الأول: تحديد العصر الأندلسي

الفصل الثاني: موقعة الجغرافي وأهميته

الفصل الثالث: الأحوال الدينية والسياسية في العصر الأندلسي

الفصل الرابع: الأحوال الأدبية والإقتصادية في العصر الأندلسي

الفصل الأول:

تحديد العصر الأندلسي

أشـرقت شمس الإسـلام على الامة العربية وانتشـر شـعاعها في كثير من بقاع الأرض بفضـل سماحة الدين وقوة أهله، وشـجاعتهم النادرة وهمتهم الأبية، وإقدامهم على الغزو والجهاد،يريدون نشـرالدين الإسـلامي وإعلاء كلمته في كل بقعة تطلع عليها شمس الهار لما بدالهم من مزاياه وعرفوا من محاسنه.

وقـد احـدثـت عزة الظفر في نفوس قوادهم تطلعـاً إلى فتح البلادالنـائيـة والممـالـك البعيدة،وكتن من ذلك رغبة القائد موسـى بن نصـير في فتح بلاد الأندلس،فوجه إليها طارق بن زياد سنة ٩٢هـ، على رأس جيش يزيد على اثني عشر ألف مقاتل من العرب والبربر،ودارت الحرب وكان النصر لطارق وصحبه[1].

عصرالولاة:

بعد أن أسس موسى وطارق بالأندلس دولة واسعة وشادوا ملكاً عريضاً رجعا عنها إجابة لرغبة الخليفة الوليدبن عبدالملك،وخلف موسـى عندرجوعن ابنه عبدالعزيز والياً عليها.

منذ ذلك الحين صـارت الاندلس ولاية تابعة للخلفاء الأمويين بدمشـق ومازالت تختلف عليها الولاة من قبلهم ويخطب باسمهم فيها إلى أن أفل نجمهم بالمشـرق سـنة ١٣٢هـ حين استولى العباسيون على الخلافة منهم[2].

عصرالأمويين:

حينما استلب العباسيون الخلافة من بني أمية بالشام وتتبعوهم بالقتل فر عبدالرحمن بن معاوية بن هشـام الملقب "بالداخل" ولحق بالمغرب ومنه بعث ولاه بدراً إلى من بالأندلس من موالي المروانيين وكان يعلم مابها من عصبية حامية بين اليمنيين والمضريين.

وإذا عرف استعدادهم لنصرته وتطلعهم إليه، جاز البحر سنة ١٣٧هـ ونزل بأرض الأندلس فبايعه بإمارتها كثير من أهلها ودخل في طاعته جمع من رؤسـاء المدائن،وانتهى أمره بالتغلب عليها واعتلاء عرشها[3].

---

[1] علاقة الموحدين بالممالك النصرانية،هشام ابو زميلة،دارالفرقان،ط:٩٨٤هـ،ص:٣٠١

[2] عصرالمرابطين والموحدين في الاندلس،محمدعبدالله عنان، لجنة التاليف والترجمة القاهرة، ط:٢٠٠٩م،ص:١٩٦

[3] المصدرالسابق،ص:٢١٠

عصر ملوك الطوائف:

بعد ما انتهى عهدالخلافة واضـــطرب الأمر آخرحكم الأمويين وتفرقت جماعات المســلمين وكلمتهم وصــار ملك الأندلس بين الموالي والوزراء ووجوه العرب، فاقتســموا خططها واستقل كل بما في يده منذ سنة ٤٢٢هـ،وظل ذلك العهد إلى سنة ٤٨٤هـ[1].

عصرالموحدين:

أسس الموحدون دولتهم بمراكش بعد أن غلبوا أحفاد ابن تاشفين والنتزعوا الملك من أيديهم، ومؤسس هذه الدولة محمد بن تومرت الحسني الملقب بالمهدي.

ومنذ أن استنجد به الأندلسيون عبرت جيوشه البحر ودخلت البلاد وأزالت منها بقايا المرابطين وملوك الطوائف.وظل حكمهم من سنة ٥٤٢هـــ إلى بداية القرن السابع الهجري[2].

القرن السابع والثامن الهجري

نهاية عصرالموحدين (٦٠٩هـ):

اهتز عرش الموحدين بعنف من تحت ســـادته من بني عبدالمؤمن على عهدالخليفة الناصـــر بعدالهزيمة التي منوا بها في العقاب أمام الجيوش الإســبانية والأوربية المتحالفة في ١٥ صفر ٦٠٩هـــ فضعفوا واختلفوا،فثارت الثوار وكثرت الغوار،واشتعلت للفتن النار، وطوت البلاد طي برودالكفار،وبدأ نجمهم في الأفول وضـعفت سـيطرتهم على ممتلكاتهم الواسـعة،فلم يكن عجيباً إزاء كل هذا أن ينفرط عقدالأندلس وأن يهتز بعض أصـحاب المطامع هناك هذه الفرصـة،ويعلنوا استقلالهم عن السـلطة الموحدية في مراكش، وسـارت الأمور في الاندلس من سيء إلى أسوأ،وأخذت قواعده تخرج من قبضـة الموحدين واحدة بعدالأخرى ينتزع بعضها ابن هود،وينتزع النصارى البعض الآخر[3].

---

[1] عصرالمرابطين والموحدين في الاندلس، محمدعبدالله عنان، ص:٢٤٣

[2] علاقة الموحدين بالممالك النصرانية، ص:٣١٢

[3] المصدرالسابق،ص:٣٤٧

وأخذت حوادث الاندلس آنذاك تقدم لذوي الطموح من القادة والزعماء كثيراً من فص الظهور والمغامرة.

وفي تلك الأثناء ظهر محمد بن يوسف بن نصر وكان من أولئك القادة الشجعان،أشادالمؤرخون بشجاعته وجهاده في مغاورة العدو، وقالوا بأن هذه الصفات عندالانلسيين كانت هي الأساس عند اختيار حكامهم وملوكهم في هذه الفترة العصبية[1].

نشأ محمد بن يوسف في وقت تفاقمت فيه الاحوال في الاندلس،واشتدت الفتن،فتزعم الامر،وانعقدت عليه الآمال في جمع الشمل وراب الصدع،والتف حوله الأصحاب والأنصار، أولاً في أرجونة موطن أسرته، حيث بويع له بعد صلاة الجمعة يوم ٢٦ رمضان عام ٦٢٩هـ،ثم مالبث دعوته أن سرت في الجهات المجاورة لأرجونة.

وفي اول رمضان ٦٣٤هـ هاجم اهل غرناطة –بقيادة ابن خالد– عتبة بن يحي المغيلي والي ابن هود على المدينة،واقتحموا عليه القصبة والقصر وقتلوه.ثم دخلوا في طاعة ابن الاحمر وبعثوا إليه بيعته، ولبى ابن الأحمر دعوتهم وتوجه إلى المدينة فدخلها عند مغيب شمس يوم من أيام شهر رمضان عام ٦٣٥هـ[2].

بداية عصر بني الأحمر (٦٣٥هـ):

وكان استيلاء محمد بن الأحمر على الميناءين الهامين:المرية ومالقة من اكبرالعوامل التي ساعدت على تدعيم قيام هذه الدولة الناشئة لما لهما من اهمية عظمى في المجالين التجاري والبحري.

ففي الميدان الخارجي كانت هناك مشكلة الإسبان الذين وجدوا في محمد بن الاحمر قوة لها خطرها،ومن ثم قرروا القضاء على حركته،ولجأ هو أمام هذا الخطرالداهم إلى الاستعانة ببني مرين في المغرب ليعضدوه في صراعه مع مملكة قشتالة، ولما تبين له أنه لن يستطيع أن يصمد أمام عداء هذه المملكة آثر مهادنتها وعقد السلم معها في عام ٦٤٣هـ، بمدة عشرين عاماً،على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة

[1] علاقة الموحدين بالممالك النصرانية، ص:٣٥٣

[2] المصدرالسابق،ص:٣٧٦

فرناند والثالث، وأن يؤدي له جزية سنوية مرتفعة، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه من المسيحيين والمسلمين،فيقد له عدداً من الجنود كلما طلب منه ذلك،وأن يشهد اجتماع مجلس البلاط القشتالي بوصفه: أميراً تابعاً للعرش القشتالي، ووضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ حينما شارك ابن الاحمر ملك قشتالة في حصاره لإشبيلية حتى سقطت في ٣ شعبان ٦٤٦هـ.

وفي ٢٩ جمادي الثانية ٦٧١هـ توفي محمد الأول بن الأحمر على إثرسقوطه من جواده،ثم اعتلى محمد الثاني العرش وعرف باسم الفقيه لانتحاله طلب العلم أيام أبيه، ولاشتغاله بالفقه زمنا في صباه[1].

وتوفي محمد الفقيه في شهر شعبان عام ٧٠١هـ أثناءالصلاة بعد أن تكن من تدعيم دولته داخلياً وخارجياً،خلف الفقيه ولده أباعبدالله محمد وقد تمرس شؤون الحكم في عهد ابيه وباشرالأمور بين يديه، "وأصيب بالعمى نظراً لمواصلة السهر ومباشرة أنوار ضخام الشمع، إذ كانت تتخذ له من جذوع الشجر في اجسادها مواقيت تخبر بانقضاء ساعات الليل ومضي الهزيع".

"وبعد الفقيه تولى اسماعيل بن فرج (٧١٣هـ) مقاليد الامور في الأندلس،وكان كما تصفه المصادر على سيرة حسنة اشتد في إقامة الحدود،وإراقة المسكرات، واعتنى بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وحظر تحلي القينات للرجال في الولائم والاحتفالات،وقصر طربهن على جنسهن،وأخذ يهود الذمة بالتزام سمة تشهرهم ليقضوا حقهم في المعاملة[2].

بداية عصرالقوة والإزدهار (٧٣٢هـ):

بدأ بتولية أبي الحجاج يوسف الاول عصراً ذهبياً في مملكة الأندلس، فعلى عهده أسست المدرسة اليوسفية أوالنصرية على يد حاجبه أبي النعيم رضوان عام ٧٥٠هـ، واهتم بإنشاء المصانع وتحصين البلاد فأقام الحصون،واهتم السلطان أبوالحجاج يوسف بأحوال شعبه فكان يقوم برحلات لتفقد أحواله.

---

[1] عصرالمرابطين والموحدين، ص:٢٧٨

[2] المصدرالسابق،ص:٢٨٠-٢٩٢

استمر عصرالقوة والإزدهار حتى وفاة السلطان محمد الخامس في عام ٧٩٣هـ.

عصرالاضمحلال والسقوط:

بعد وفاة السلطان محمد الخامس في عام ٧٩٣هـ تعاقب على عرش مملكة الأندلس عدد من السلاطين الضعاف، وقاست المملكة الكثير من الدسائس والفتن والمؤامرات حول العرش.

وفي الوقت الذي كانت تحاك فيه تلك المؤامرات وهذه الدسائس،وتذكى هذه الصراعات نارالحرب الاهلية بين أمراء الأندلس الذين كان يناصر كل فريق منهم مجموعة من مراكزالقوى.وفي هذا الوقت عرفت إسبانيا المسيحية نهضة حربية وسياسة كبرى،وتوجت تلك النهضة بزواج الملك فرناندو الثالث ملك ارجوان بإيسابيل ملكة قشتالة، وبهذا اتحدت الدولتان بعد أن ظلتا في نزاع وحروب مستمرة.وكان هذا يعني بداية النهاية لمملكة الأندلس الإسلامية[1].

[1] عصرالمرابطين والموحدين، ص:٣٢١-٣٥٤

الفصل الثاني:

الموقع الجغرافي وأهميته

شهد نهاية الثلث الأول من القرن السابع الهجري بالأندلي ميلاد دولة فتية في الثغر الجنوبي في مملكة غرناطة التي حملت راية الجهادالمقدس ضدالاسترداد الصليبي القشتالي والأرغواني.

ضـمت هذه المملكة أيام بني نصـر الطرف الجنوبي من شـبه جزيرة الاندلس جنوبي نهرالوادي الكبير، وقلعة يحصـــب، وبالتالي فإنما يحدها شمالاً هي ولايات جيان وقرطبة وإشـبيلية، وتمتد إلى سـواحل بحرازقاق حيث الجزيرة الخضـراء وجبل طارق وطريف، ومن لورقة ومرسية شرقاً إلى شدونة وقاديس، أو أرض الفرنتيرة غرباً[1].

غطـت هـذه المملكـة ثلاث ولايات كبيرة،وهي ولايـة غرناطـة في الوســـط،وبها مقرالمملكـة، وولايـة المريـة في الشـــرق،وولايـة مـالقـة في الجنوب والغرب.وجمعـت في خصائصها الطبيعية بين المروج والوديان والجبال الوعرة[2].

"حيث كانت تمدها بثروات زراعية هامة، ومعدنية ســـاهمت في رواج الصـــناعة النصـــرية، وفي هذا الصـــدد يقول القلقشـــقندي": "وأما غرناطة فهي دمشـــق بلاد الأندلس،ومســـرح الأنفس،ولها القصـــبة المنيعة، وقد اختصـــت بكون النهر يتوزع على ديارها، وأسواقها، وأرحائها الداخلية والخارجية وبساتينها مرتبة على بسيطها الممتد"[3].

ولتشخيص معالم وجغرافية العصرالأندلسي ينبغي الإشارة إلى أهم الولايات وأرباضها وأعمالها:

غرناطة.

يرجع أصلها إلى ماقبل الفتح الإسلامي حتى ذهب بعض المؤرخين في اشتقاق أصل تســـميتها على أنه مشـــتق من الكلمة الرومانية (garanata) وهناك من أرجعها إلى أصـل قوطي مؤلف من كلمتين: ناطة، والتي تعني اسم أحد أرباض البيرة.وغار،التي تعني واديا عميقا كالكهف،ويبدو أنها تسمية أضافها المسلمون عندالفتح[4].

---

[1] تاريخ مدينة قاديس، عبدالعزيز سالم،مؤسسة شباب الجامعة، الاسطندرية، ط:١٩٩٩م،ص:١٧

[2] عصرالمرابطين والموحدين،ص:١٤

[3] صبح الأعشى،لجنة التأليف والترجمة القاهرة،ج:٣،ص:٢١٧

[4] المغرب في حلي المغرب،ابن سعيدالمغربي، دارالمعارف،ط:١٩٩٣م،ج:٢،ص:٨٧

وهناك من يعرفها بمدينة اليهودي أو غرناطة اليهود،حيث أن طارق بن زياد لما تم له الفتح وجد بها يهوداً فضمهم إلى قبضتها، لذلك هناك من يشير إلى أصل اشتقاق تسميتها على أن كلمة غار kurn مشتقة من قرن،بمعنى تل،وناطة nattah بمعنى الغريب فتكون:تل الغرباء[1].

استقربها معظم جند دمشق عندالفتح الإسلامي،حتى سميت بدمشق الأندلس،وعرفت أوج ازدهارها في عهد ملوك الطواشف بعدما كانت مدينة صغيرة من اعمال البيرة وقاعدة متواضعة من قواعدالأندلس الجنوبية.

بظهور فتنة البربر عقب انهيارالدولة الاموية في أواخرالقرن الرابع الهجري وقعت غرناطة في أيدي زاوي بن زيري، ثم خلفه حبوس بن ماكس، واستمر حكمه إلى غاية عبور يوسف بن تاشقين البحر إلى الأندلس في ٤٨٣هـ[2].

تعاقب في حكم غرناطة أمراء من اللمنتونين إلى أن جاز الموحدون إلى الأندلس في ٥٤٠هـ وسقطت غرناطة في أيديهم في ٥٤٣هـ بعد أن وقف في طريقهم يحي بن غانية، ولبث في غرناطة كذلك تحت حكم أمراء بني عبدالمؤمن إلى غاية ثورة ابن هود.

ومن اهم أعمال غرناطة ومدنها: وادي آش، وبسطة، ولوشة، والمنكب، وشلوبانية، والحامة، وحصن اللوز، ويصفها ابن الخطيب:" هي حضرة سنية لو خيرت في حسن الوضع لما زادت وصفاً ولا احكمت رصفاً،ولا أخرجت أرضاً ريحانا ولاعصفاً"[3]، كما بين لنا ابن الخطيب معالم واضحة عن القرى الغرناطية حيث أسهب في ذكر حوالي مائة وأربعين قرية ومحلة قريبة من غرناطة أو تقع في ضواحيها.

مالقة.

ومن الولايات والمدن القديمة في الأندلس تقع على الساحل الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة مقابلة لعدوة المغرب، وقد كانت من اعمال كورة رية، حيث كانت مدينة صغيرة

---

[1] معيارالاختيار في ذكر المعاهدوالديار، ابن الخطيب،دارالآفاق الجديدة،ص:٨٢

[2] المصدرالسابق،ص:١٢١

[3] معيارالاختبار،ص:٦٢

في حين كانت ارشـدونة حاضـرة الكورة، تم فتح هذه المدينة عنوة من طرف عبدالأعلى من موسى بن نصير في عام ٩٣هـ[1].

زادت أهمية مالقة تدريجياً حيث أضـــحت أهم القواعدالبحرية للأمويين بعد تأييدهم لعبدالرحمن الداخل، بعد أن رحبت بنزوله بميناء المنكب في ربيع الثاني من سنة ١٣٨هـ.

تضاعفت أهمية المدينة في دعمها للأسطول الأموي في عهد عبدالرحمن الناصر،وذلك لكسر شوكة الفاطميين الطامعين في التوسه في السواحل الجنوبية للأندلس.

أصـبحت مالقة في أعقاب ثورات البربر حيث اختفى اســم رية،وخربت أرشـدونة، واتخذ بنوحمود مالقة حاضـــرة لخلافتهم عقب ســـقوط الخلافة الاموية في أوائل القرن الخامس الهجري.

وقد أشـار ابن الخطيب إلى العوامل المسـاعدة على رواج تجارتها بوصـفها بانها:"قامرة الفلاحـة المخصـــومـة بالاعتـدال والبحرالعـديم الصـــــداع الميســـــرة للحط والإقلاع والصـــيدالعميمالانتفاع وســـهلها قصـــور وبســـاتين واديهاالكبير، عذب فرات مثمرات وميدان ارتكاض بين بحر ورياض"[2].

أضـحت مالقة مدينة هامة على عهدالمرابطين والموحدين الذين عملوا على تحصينها وتدعيم مرسـاها لتكون ميناء تجارياً جاليا للمواردالمالية، وقد أبقى بنوالأحمر على مهمتها أثناء حكمهم[3].

ومن اهم أعمـالهـا ومـدنهـا: رنـدة، ســـهيـل، قرطمـة،دكوان، الحمـة،اصـــطبـة، مربلة،وقمارش،وأرشدونة.وكان يضاف إليها جبل طارق الجزية الخضراء وطريف[4].

المرية.

لم تكن المرية من بناء الأوائل كبقية المدن الأندلسية وإنما مدينة أسسها المسلمون في جملة ما أســسـوه من مدن في جزيرة الأندلس،وفي هذا الصــدد يقول ابن حوقل:"ومن

---

[1] الإحاطة، ابن الخطيب،ج:٣،ص:٥٢٩

[2] الإحاطة،ج:٢،ص:١٦٢

[3] المصدرالسابق،ج:٢،ص:١٦٠

[4] المصدرالسابق،ج:٢،ص:١٧٣

مشـــاهير مدنها القديمة جيان،وطليطلة، ووادي الحجارة،وجميع مدنها قديمة أزلية لم يحدث بها في الإسلام غير مدينة بجانة وهي المرية"[1].

[1] صورة الأرض، ابن حوقل،دارصادر بيروت، ط:١٩٣٨م،ص:١١٠

الفصل الثالث:

الأحوال الدينية والسياسية في العصر الأندلسي

الأحوال الدينية:

البيئة الأندلسية كانت بيئة دينية، لقد شجع السلاطين إنشاء المؤسسات الدينية لرعاية الحركة العلمية والروحية منذ أن وطأت أقدام المسلمين كعبدالرحمن الداخل الذ يشكل في عهده قاعدة قوية للحضارة الإسلامية.

وكان للمراكز العلمية الدينية دوراً فعالاً في بث الإشعاع العمي في كل أرجاء الأندلس باستقطابها لطلبة العلم من كل صوب وحدب نظراً لما كانت تتوافر عليه من أساتذة وشيوخ ومكتبات زاخرة، منها:

الكتاتيب القرآنية:

تعتبر الكتاتيب من أقدم أنواع المعاهدالتعليمية وجوداً في العالم الإسلامي، ويعود تاريخ إنشاء اكتاتيب القرآنية في الأندلس بعد تم الفتح الإسلامي حيث رتب الولاة الفقهاء القراء يعلمون النشيء تعاليم الدين والقرآن،ومنذلك أصبحت تتكاثر تكاثراً سريعاً.

كان الكتاب على عهدالفاتحين عبارة عن خيمة تصحب المعسكرالإسالمي فكان المسلمون عادةما يُصحبون نساءهم معهم وأطفالهم،فأدى الكتاب دوره في كل مكان،وبمجرد أن تم الاستقرار في الحواضر أسس أهل الأندلس الكتاتيب لتعليم أطفالهم كتاب الله والنافع من العلوم الدينية[1].

المساجد:

والمسجد هو عبارة عن جامعة قائمة بذاتهاحيث تزود بمكتبات تساعد الطالب في رفع مستواه العلمي والأدبي،وهذا مسجد قرطبة قد تهافت عليه طلاب العلم من جميع أنحاء العالم لشهرته،إذ كان منذ الخلافة الأموية كأكبر جامعة في العالم وأشهر من درس فيه ابن رشد على عهدالمرابطين وهو قاضي الجماعة بقرطبة، وصاحب صلاتها، كما

[1] تاريخ الإسلام السياسي والديني، حسن ابرهيم، مكتبة النهضة المصرية، ط:١٩٦٨م، ص:٤٣٨

عرف مسجد إشبيلية كمركز للعلم الديني حيث جلس فيه محمد بن العربي مايقارب الأربعين سنة مدرساً،وكان ممن تشد إليهم الرحال في المغرب الإسلامي[1].

الزوايا والخوانق:

أشار المقريزي أن الخوانق حدث عملها في الإسلام خلال القرن ٤هـ،وهي بيوت أعدها الصوفية لكي يخلو فيها إلى عبادة الله بكل ماتحمله تلك الكلمة من معنى، وأما الرباط فهو حصن دفاعي يتجمع فيه من أنذروا أنفسهم للدفاع عن الإسلام،وقد جاءت الخوانق والربط لتحقيق الغرض التعليمي الديني الذي أنشئت من أجله والتي تعد وبحق المرحلة التمهيدية لظهورالمدارس بعدذلك.

وخصصت الرباطات على المستوى الثقافي حصص بقراءة القرآن الكريم وتفسيره، والحديث وعلومه،وقراءة كتب الفقه وشعرالمواعظ، والذي سمى "رقائق" حيث كانت تعقد مجالس خاصة إضافة إلى أناشيد دينية تسمى العادة.

أدى هذا النشاط الفكري إلى تطور التصوف والزهد حتى أضحت ثقافة العصر في عصرالموحدين والنصريين، وأن روادالروابط والقلاع من العلماء والزهاد،هم رواد هذه الأدبيات الصوفية والرقائق والزهديات[2].

الأحوال السياسية:

عاشت مملكة الأندلس مايقارب القرنين ونصف القرن في محيط وظروف صعبة، ولم يكن من السهل عليها البقاء كل تلك المدة مما أثار استغراب عدة باحثين،ولعله من أهم أسباب صمود وثبات غرناطة قوة بعض سلاطينها الذين عملوا على تدعيم ركائزهم دولتهم اقتصاديا وعسكريا وحتى فكريا.

ولكن بعد أن اهتز عرش دولة بني عبدالمؤمن في الأندلس على عهدالخليفة الناصر جراء هزيمة جيش الموحدين في موقعة العقاب أمام الجيوش المتحالفة بدأ الضعف يدب

---

[1] تاريخ الإسلام السياسي والديني ،ص:٤٣٥

[2] المصدرالسابق،ص:٤٣٩

في الدولة الموحدية وضـــاعت معه العديد من قواعدالأندلس وبالتوازي مع ذلك حركات انفصالية تزعمتها شخصيات حاولت أن تمسك على الأندلس ما بقي منها.

ظهر ابن هود في سنة ٦٢٥هـ واستمر يخوض معارك متتالية ضدالموحدين والنصارى والإسبان، حيث سقطت على إثرها عدة مدن أندلسية.

وفي هذه الآونة العصيبة التي أخذت فيها قواعدالأندلس تسقط تباعا في يدالإسبان وبرزت ملامح الفناء من جديد،مع اســتئثار عناصــرالفوضــى والفتنة على الســاحة الســياســية، بزغت إلى الوجود مملكة إسـلامية في الطرف الجنوبي وراء نهر الوادي الكبير قريبة من عدوة المغرب.

أما تأسيس دولة بني نصـر فقد سـاهمت عدة عوامل تاريخية وجغرافية وسـياسـية في قيام مملكة غرناطة في القسم الجنوبي من الأندلس.

واجه تأسيس دولة محمد بن نصر عدة عقبات داخلية وأخرى خارجية هددت دولته الفتية، حيث وجب عليه التخلص من اصــهاره بني اشــقيلولة الذين انقلبوا عليه بعدما ساعدوه في إرساء معالم الدولة النصرية[1].

ولعـل أهم معضــــلـة خـارجيـة واجهـت المملكـة الإســــلاميـة الفتيـة هي حركـة الاسـترتدادالمسيحية وتنامي قوة مملكة قشتالة،فعمل السلطان النصري على التوفيق بين موقفين اليبلوماسية بمهادنة الملك القشتالي من جهة والقوة بالاستعانة بالمرنيين من جهة أخرى.

تتفق الروايات والمصـــادرالتاريخية بمافيها الأجنبية على أنه منذ تولية أبي الحجاج يوسف الأول السلطة في دولة بني نصر بدأت معه ملامح العصرالذهبي للمملكةفي شتى المجالات السياسية والحضارية[2].

وتميز الحكم النصـري بعد مضـي سـنوات بقصـر فترات حكم السـلاطين، وضـعف شخصيات بعضهم بولائهم إلى الإسبان أو عقد معاهدات الهدنة معهم،أو تدخل الوزراء في تسيير ئؤونهم، إضافة إلى كثرة الانقلابات والفتن والمؤامرات.

---

[1] صورة الأرض، ص:١١٤

[2] الإحاطة، ج:٤، ص:٣١٧

كما سقط ثغر جبل طارق في يدالنصارى في سنة ٨٦٧هـ مستغلين هذه الأوضاع المتردية لتقطع دابرالإمدادات من العدوة الأخرى.

وفي الوقت الذي كانت تحاك فيه الدسائس في البيت النصري عرف البيت النصراني النهضة السياسية والحربية من خلال الاتحاد القشتالي وبداية توحيد الجهود لإنهاء الوجودالإسلامي من شبه الجزيرة العربية[1].

[1] التكاثرالمادي وأثره في سقوط الأندلس، عبدالحليم عويس، دارالصحوة،ط:١٩٩٤م، ص:٢٦

الفصل الرابع:

الأحوال الأدبية والاقتصادية في العصر الأندلسي

الأحوال الأدبية:

عكف أهل الأندلس على مختلف الفنون وأنواع العلوم في الأدب وشـــغلوا بها حتى اجادوها جميعها، واســـتلانت لهم، ووقفوا على دقائقها وأســـرارها، وألفوا في معظمها واجادوا التأليف.

رقي الأدب رهين بتوفر عوامل مؤثرة في إنتاجه وثروته، وبتآخذ أسباب من شأنها أن تســـاعد على إمداده بما يحتاج إليه،وأن تعين على نمائه والترويج له،وتكثر من انصـــاره وأتباعه وتزيد من عاشـقيه والمشـايعين له، وتبلغ به الذرى العالية والمكانةالسـامية والمحل الأرفع.

وكلما قويت هذه الأســـباب قوى الأدب وذاع، وملأ الأبصـــار والأسماع، وكذلك كانت الحال بالأندلس،فقد وجدت بها دواع بعثت تلك النهضـــة الادبية الفذة التي شغلت من صفحات تاريخ الأدب طائفة يتضاءل أمامها العد.

توفر الأندلســـيون على فنون الأدب وانصـــرفوا إليها،واكثروا من حفظ مأثوره وكتبه حتى وصـلوا في ذلك إلى حد يدعو إلى الدهشـة والاستغراب،بل وإلى الشـك فيما روى لولا اليقين بصدق الراوين.

ولقد ســـاعد الأندلســـيين على ذلك -إلى جانب قوة ذهنهم وصـــفاء أفكارهم- تشـجيع ملوكهم على الحفظ بما كانوا يفرضـونه من جوائز لمن يحفظ كتابا بعينه، مما دعا إلى إقبال الناس على الحفظ رغبة في عطايا الملوك وهباتهم وحباً في الشـهرة والفخر،وكانوا لشدة انصرافهم إلى الأدب يبعثون ابناءهم على ذلك ويحرضون عليه ويرغبونهم في الأدب ودرسه والإقبال على وسائله وفنونه.

وكـذلـك إكرام الأدباء وإثابتهم على مـاتجود بـه قرائحهم، وإنزالهم منـازل الإجلال والتقدير وتقريبهم من مجالســهم واســتماعهم إليهم،وكتابتهم عنهم مايحســنون،كل ذلك يدعو إلى رقي الأدب ويحبب فيه ويكثر أنصاره وأشياعه.

وهناك أمر آخر له في ترقية الأدب في الأندلس والنهوض به، أثره وخطره،ذلك هو قصر مراتب الدولة الرفيعة على الأدباء واختصاصهم بها، وإشراكهم في مهام أمور الدولة وتسيير شؤونها، فقد كان الملوك والأمراء يصـطفون الوزراء والحجاب —وهما أسمى مراتب

الدولة- ممن عرفوا بالآداب وشهروا به ونالوا منه حظا وافراً،وكان عشاق الادب يتنافسون في الشهرة على حسابه حتى يحوزوا ذلك الشرف ويبلغوا تلك المنزلة،ولله در ابن الخطيب إذ يقول:

"الطب والشعر والكتابة" سماتنا في بنى النجابة

"هن ثلاث مبلغات" "مراتبا بعضها الحجابة" [1]

حتى أولئك الذين لم يحظ الأدب في عهدهم بالذيوع ولم يكن له من عنايتهم نصيب، لم يفتهم أن يقصروا هذه المراتب على الأدباء ويملكوهم زمامها،روى المراكشي في معجمه:أن يوسف بن تاشفين وابنه من بعده كانوا يستكتبون أدباء الأندلس، وأنه اجتمع له ولابنه اعيان الكتاب وفرسان البلاغة مالم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار.

وإنه ليصعب عليك أن تظفر الأندلس بذي مرتبة عالية وصاحب حظوة وشهرة،لم يكن الأدب جل بضاعته وأعظم مؤهلاته.

الأحوال الاقتصادية:

التجارة:

بتصفح كتب الحسبة نستطيع أن نرسم صورة للتجارة الداخلية في المدن الاندلسية حيث كان البيع يتم في الغالب يتم تحت أروقة ومعارض، وكان التجار يحاولون استمالة زبائنهم عن طريق المناداة على السلع وامتداح محاسنها،وعلى المحتسب أن يستخدم نفوذه ليمنع الفلاحين القادمين المملكة من دخول القيسارية على ظهور دوابهم،كما يمنع من التوقف في الدروب الضيقة،ومن ترك دوابهم بلاقيد[2].

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:٣٦

[2] نفخ الطيب،ج:٢،ص:١٥٥

وفي غرناطة وفي غيرها من المملكة كانت هناك الشوارع التجارية المتخصصة في نوع ما من البضائع،وكذلك كانت هناك أسواق تشتمل على مجموعة من السلع المختلفة ليسهل على السكان شراء مايحتاجونه دون الحاجة إلى الانتقال[1].

مصادرالدخل:

تذكرالمصادر أن الضرائب في الأندلس كانت أعلى على وجه العموم مما كانت عليه الدول الإسلامية الأخرى،ويصفها ابن الخطيب بقوله:"والمكوس التي تطرد البركة وتنفيها"[2]. وربما كان هذا الأمر راجعاً إلى استمرارالصراع بين غرناطة وممالك إسبانيا المسيحية،وماكان يمثل هذا الصراع من عبء كبير على المملكة،وإلى تكدس غرناطة بالسكان الذين كانوا يفرون إليها من البلاد الأندلسية الأخرى التي كانت تسقط في يدالقوى المسيحية، حتى ضاقت الأرض بسكانها،وكذلك إلى ثقل الجزية التي كان على غرناطة أن تؤديها كل عام إلى قشتالة.

غلاء المعيشة:

خلال القرنين السابع والثامن كان لازدحام مملكة غرناطة بالسكان نتيجة للهجرات المتوالية إليها من المدن الأدلسية التي كانت تسقط في يدالإسبان،وطبيعة أرضها الجبلية الوعرة أثر كبير في غلاء المعيشة بها.ويحدثنا ابن الخطيب عن غلاء الأسعار في غرناطة بقوله:وأسعارها يشعر معيارها بالترهات"[3].

---

[1] الإحاطة،ج:١،ص:٣٢٣

[2] معيارالاختيار،ابن الخطيب،ص:٩١

[3] معيار الاختيار،ص:٩٢

الباب الثالث: شعرالزهد عبرالعصور

الفصل الأول: شعر الزهد في العصر الجاهلي

الفصل الثاني: الزهد في صدر الإسلام

الفصل الثالث: الزهد في العصر العباسي

الفصل الرابع: شعر الزاهد " في العصر الأندلسي"

الفصل الأول:

شعرالزهد في العصرالجاهلي

لم تكن الجزية العربية قبل الإســـلام بمنآى عن التيارات الروحية أوالدينية التي كانت تسـيطر على العالم وقتذاك،فكان لابد لها أن تدخل في أركان من هذه الجزية الشـاسـعة وتحاول السيطرة على أفرادها ومجتمعاتها[1].

فالجزيرة العربية قد تمددت دياناتها وتباينت،فالوثنية سـادت أكثر قطاعها،وكان لكل قبيلتها إلهها الخاص،ثم المجوسية في تميم،وكانت أقوى الديانات انتشـاراً وأشـدها تأثيراً في الجاهلية "اليهودية والنصـرانية" إلا أنه حدث صـدام بينهما اقتضـى أن تكون المسـيحية أشدظهوراً وأكثر تأثيراً من اليهودية.

فقد انتشـــرات الأديرة والكنائس المســـيحية في طول البلاد وعرضـــها،التقت هذه الأديان على أرض الجزيرة العربية فتخاصـمت وتهادنت ونشـطت وهدأت، وكان الجدل يحتدم بينهما في بعض الأحيان،وكان هذا الجدل يتناول بالضرورة شئون الألوهية والرسالة والبعث والآخرة والملائكة والجن والأرواح،وقوى هذا الجدل الديني في ذلك العهد حتى تولدت نزعة ترمي إلى تلمس دين ابراهيم أبي العرب[2].

وانتشـرت الرهبان والقسـس ضـاربين في الصـحراء العربية في سـياحات لاتنقطع حتى أن بعض البـاحثين ينتهي بالقول بأن هؤلاء الرهبـان وغيرهم من الزهـاد الهـائمين على وجوههم ضـربوا مثلاً للعرب الوثنيين في الزهد.وحركوا في نفوس بعضـهم ميلاً إلى النفور من الأوثان ورفض عبادتها،وهؤلاء كانوا يُعرفون بالحنفاء،مالوا إلى التوحيد واصـــطنع بعضهم الزهد ومجاهدة النفس ولبسوا الصوف وحرموا على أنفسهم بعض ألوان الطعام[3].

ومن هذا يتبين لنا أن الزهد نزعةً وأدباً معروفة قبل الإسـلام بكثير.ويسـتدل الدكتور زكي مبارك في قدم هذه النزعة بلفظة "الديان" وهي تعني التنســـك في الدين،ومثلها "الرباني" اللتين عرفتا في الجاهلية،حتى الإمام البوطي وصـــف بأنه كان إماماً ربانياً زاهداً،ويؤيد الدكتور زكي مبارك رأيه بصـــيام الأبد الذي كان قائماً في الجاهلية بقول

---

[1] نشأة الفكرالفلسفي في الإسلام،علي سامي النشار،دارالكتاب العربي بيروت،ط:١٤١٢هـ،ج:٣،ص:٧٢

[2] التصوف في الشعرالعربي،ابراهيم محمد منصور،دارالراتب الجامعية،ط:١٩٨٧م،ص:٢٧

[3] تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية،مصطفى عبدالرزاق،دارالنهضة العربية،ط:١٩٨٩م،ص:١٠٤

الرسول صلى الله عليه وسلم "لاصام من صام الأبد"[1]، ولولا أنه كان معروفاً في الجاهلية لما نهى الرسول عنه.

وبالأديرة التي كانت تعتبر نواة لحياة الزهد والتنسك،فيروي ياقوت الحموي في معجم البلدان أن حنظلة بن عفراء نسك في الجاهلية وتنصر وبنى ديراً عُرف باسمه،وكذلك ابتنت هند بنت عمرو زوج النعمان ديراً وتنسكت فيه حتى ماتت وكان يعرف بديرهند[2].

والملاحظ في التاريخ أن هذا الاتجاه كثيراً ما يرتبط بالدين والشعر الديني والاحساس باضيق وعدم الرضا من بعض الأوضاع القائمة في المجتمع الذي يعيش فيه.

وإذا تأملنا الأدب الجاهلي وبخاصة الشعر سنرى ظلال هذه النزعة قد ظهرت في أقوال الشعراء متمثلة في حكمهم التي كانت تجئ متناثرة في اقوالهم وأشعارهم،إلا أن هذه الحكمة كانت تتميز بطابع البساطة في التفكير والنظرة الجزئية إلى الأشياء.فطبيعة التفكير عندالعربي في الجاهلية كانت جزئية محدودة لذلك جاءت حكمته قولاً موجزاً يتضمن حكماص دون أن يحاول تلخيص فلسفة معينة.كما كانت ضعيفة الصلة بحياة أخرى أوعالم روحية، وكل صلة بعوالم أخرى لاتمد ولايقع تحت الحس من الموت واحترام المنية الأنفس،وموت الشاب الصغير وبقاءالشيخ الهرم إلى آخر هذه المعاني التي لاتدل على عمق في الفكرة ولاتكون فلسفة خاصة[3].

وقد ظهرالفرق واضحاً بين حكمة الشبان وحكمة الشيوخ منهم، فحكمة الشبان من الشعراء تقوم على انتهازاللذات والمبادرة قبل أن تطوى الصفحات، لأن الأيام قلب والعمرقصير لايلبث أن يزول، هو مقدام يحمل نفسه على المكروه، فالموت لابد آتية،فمن العجز أن يكون جبانا، وذلك مثل قول عنترة:

"بكرت تخوفني الحتوف كأنني" أصبحت من غوض الحتوف بمعزل

"فأجبتها أن المنية منهل" لابد أن أسقي بكأس المنهل

---

[1] التصوف في الشعرالعربي،ص:٣٤

[2] معجم البلدان،ياقوت الحموي،دارالكتب العلمية بيروت،ط:١٩٦٥م،ج:١،ص:١٣٩

[3] التصوف فيالشعرالعربي،ص:٩٥

فاعفني حياءك لاأبالك واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل[1]

فعنترة يؤمن بالموت ونزوله في حينه ولكن هذا الإيمان لايدفعه إلى العمل لما بعدالموت، وهوأيضاً لايزدجر بهذا الموت فيحسن العمل إيثاراً للذكر والمحمدة،ولكنه يتخذ من الموت حاملاً على لقائه ومواجهته إيثاراً للون آخر من ألون الذكر وهوالشجاعة.

وطرفة العبد تسيطر عليه فكرة الموت سيطرة ظاهرة ولكنه على الرغم من ذلك يلون حكمته بألوان الشباب، فهو ينفق ويشرب ويحب من ملذات الحياة، لأن الموت آتية لاريب فيه،وبعدالموت يستوي الجميع،العظيم والحقير والكريم والبخيل، فكلهم ستضعه حفرة في باطن الأرض، وينهال عليه التراب،ولايبقى له على ظاهرالأرض إلا أحجار تدل على موضع وفاته،فهو يقول:

"أرى قبر نحام بخيل بماله" كقبر غوى في البطالة مفسد

"ترى جثوتين من تراب عليهما" "صفائح من صفيح منضد"

أرى الموت يعتام الكريم ويصطفى "عقيلة مال الفاحش المتشدد"

أرى الحيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام وللدهر ينفد

"أرى الموت أعداء النفوس ولا" بعيداً غداً ماأقرب اليوم من غد

لعمرك أن الموت ماأخطأ الفتى لكا لطول المرض وثنياه باليد[2]

وإذا كان ها طابع حكمة الشبان من الشعراء،وهو الدعوة إلى العكوف على الملذات،فإن طول التجربة عندالشيوخ والمعرفة بتصاريف الأيام والخبرة الدقيقة باموراالحياة تضفي على حكمتهم طابع الروية والاتزان، وأن الشعوربالضعف امام حوادث الايام يدفعهم إلى التأمل الذي يفضي بهم إلى الاعتقاد بأن قوة خفية تسيطرعلى مصائرهم.

---

[1] البيان والتبيين،ج:٣،ص:٩٢

[2] الأدب العربي وتاريخه في العصرالجاهلي، شوقي ضيف،دارالمعارف، ط:٢٠٠٣م، ص:٢٧٩

وامرئ القيس يصورتأثيرالتجربة والتقدم في السن على نظرة الإنسان إلى الحياة،فيكف عن استهتاره ويقلع عن مجونه ويأخذ نفسه بلون آخر من ألوان الملوك،قوامه الصقل والروية والنزعة إلى الخير،فيقول:

أقبلت مقتصداص وراجعني حلمي وسدد للندى فعلي

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

ومن الطريقة جائر وهدى قصدالسبيل ومنه ذو دخل[1]

وفكرة الموت أكثر ظهوراً في حكمة هؤلاء الشيوخ،فكل مظاهرحياتهم توحي إلى بفكرة الموت،وهم لذلك يألون جهداً في ترديدها والتذكيربها،مثل ثول قس بن ساعدة حكيم العرب المشهور في أحدى خطبه:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

ورايت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر

لايرجع الماضي إلى ولا يبقى مع الباقين غابر

أيقنت أني لامحالة حيث صارالقوم صائر[2]

ويقول حسان السعدي:

ومهما يكن ريب المنون فإنني أرى قمرالليل المعذر كالفتى

يعود ضئيلاً ثم يرجع دائبا ويعظم حتى قيل قد شاب واستوى

كذلك زيد المرء ثم انتقاصه وتكراره في إثره بعد ما مضى[3]

فهذه النصوص تدور حول الموت ولكن نظرتها إليه لاتعدو النظرة الحسية،أما أعمال الفكر في الموت ومايعقبه من فناء أبدي وحياة أخرى،ومايمكن أن تكون عليه هذه الحياة

([1]) المصدرالسابق،ص:١٧٠

([2]) بلوغ الأرب، ج:٢،ص:٢٤٥

([3]) كتاب الحيوان،ج:٣،ص:٤٤٧

وطبيعتها، فهذا مالم يدر في هذه النصوص ولافي أمثالها،اللهم غذا استثنينا خطرات قليلة عند بعض الشعراء أمثال زهيرابن أبي سلمى في قوله:

فلا تكتبن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يحلم

يؤخر فيرجع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقك[1]

ولعل هذا من تأثير بعض الديانات الأخرى التي تؤمن بيوم الآخر ومن الون الروحية حكمة الجاهليين، يقول عبيد بن الأبرص:

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤب

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لايخيب

وعاقر مثل ذات رحم وغانم مثل من يخيب

أفلح بما شئت فقد بالضعف وقد يخدع الأريب[2]

فعبيد يرى الموت سيفا مصلتا على رقاب العباد فإذا ماوقع فلارجعة منه ولاأوبة من غيبته،ويرى بعد ذلك أن الله هوالمعطي وأن من يسأل الناس فقد أخطأ الطريق الطبيعي للمسألة،لأن الله هوالذي يُسأل فيعطي، وهذا معنى روحي لم يتداول في حكمة الجاهليين بشكل ظاهر.

ويبدو أن نفحات الروحية اخذت تنشط كلما اقترب الزمن من نهاية العصر الجاهلي وقرب ظهورالإسلام،فقد انتشرت موجة روحية في أرجاءالجزيرة تتعطش إلى غصلاح ديني سريع ليصلح ما افسدته الأيام من النفوس،ومعنى هذا أن الروحية في أخريات العصرمنها في أوله.

ولبيد هوالشاعرالجاهلي الذي يمكننا أن نتخذه مظهراً من مظاهر هذا النشاط الديني، فقد ظهر في شعره مايدل على غيمانه بالله والاتكال عليه والثقة به، فإنه يقول من قصيدة له في رثائه النعمان:

إذا المرء أسرى ليلة ظن انه قضى عملاً والمرء ما عاش بعاسل

([1]) تاريخ آداب اللغة العربية،ج:١،ص:١٠٦

[2] كتاب الحيوان،ج:٣، ص:٨٨

حبائله مبثوثة بفنائه ويفنى إذا ما اخطأته الحبائل

فقولا له إن كان يقسم أمره ألما يعظك الدهر أمك هابل

فإن أنت لم تصدقك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل

فإن لم تجد من دون عدنان باقياً ودون معد فلتنزعك العواذل

وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه إذا جمعت عند الإله المحاصل[1]

وفيها يقول:

أرى الناس لايدرون ماقدر أمرهم بلى كل ذي رأى إلى الله وائل

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لامحالة زائل[2]

ومن عظاته:

إنما يحفظ التقى الأبرار وإلى الله يستقر الأقرار

وإلى الله ترجعون وعندالله رد الأمر والإصدار

إن يكن في الحياة خير فقد انظرت لوكان ينفع الانظار

عشت دهراً فلن يدوم على يام إلا يدرم وقفار[3]

ففي شـــعره من المعاني الروحية مالم نجده عند شـــاعرآخر،وفي عظاته من المعاني مالايختلف عن معاني العظات الإسلامية المؤمنة بالبعث والحساب والنعيم والثواب.

وبهذا يمكن القول بأن لبيداً وضع الأسس للشعرالديني الذي يدعو إلى الزهد والذي نما فيما تلاذلك من عصور.وهناك من الشعراء من اقترن اسمه "بالعبادين" مثل زيدبن عدي، فكان يطبق عليه لفظ "العبادي" وقد كان نصرانياً دياناً وترجماناً وصاحب كتب،و كان ذا ثقافة دينية واسعة،وله في الوعظ والتذكير شعر كثير، فيه من المعاني مايعد صورة صادقة

---

[1] الشعروالشعرا، ص:٩١

[2] الأدب العربي وتاريخه في العصرالجاهلي،ص:٢٧٥

[3] كتاب الحيوان،ج:٧،ص:١٦٣

للحياة الروحية في العصرالجاهلي[1]، وهي حياة قريبة الشبه من حياة الزهادالمسلمين في أواخرالقرن الأول ومابعده.

ولايستبعد أن يكون قد تأثربه بعض شعراءالجاهلية والإسلام في نغماته الروحية،فقد كان سفيان بن عيينة يستحسن شعره، وتروى له هذه الابيات:

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدهم وثمود

بينما هم على الأمرة والأنماط أفضت إلى التراب الخدود

ثم لم ينقض الحديث ولكن بعد ذا الوعد كله والوعيد

وأطبا بعدهم لحقوهم ضل عنهم سموطهم واللدود

وصحيح اضحى يعود مريضا وهو ادنى للموت ممن يعود[2]

وقبيل ظهورالإسلام ظهرت ظاهرةدينية في جزيرة العرب،هي تلمس دين إبيراهيم أبي العرب، وقد سمى هؤلاء الباحثون عن دين أبيهم الأول، "بالمتحنفين" نسبة إلى الحنيفية وهي دين إبراهيم، ولم يكن هؤلاءالمتحنفون يسيرون في تعبدهم ونسكهم على طريقة مرسومة وأنظمة واضحة،ولكن كل واحد اتخذ لنفسه طريقة خاصة في التأمل والانقطاع إلى الله والإعراض عن الدنيا،والزهد في ملذاتها وزخرفها، وهم في هذا يشبهون الزهادالمسلمين الذين مهدوا لظهورالتصوف في آواخرالقرن الثاني الهجري.

وكان قد تخلف عن عبادة الأوثان أربعة من قريش،وهم: ورقة بن نوفل،وعبيدالله ابن جحش، وزيدبن عمرونوعثمان بن الحويرث، وتواطئوا على رفض الوثنية دين آبائهم وعلى أن يضربوا في البلاد يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم،وسموا أنفسهم بالموحدين[3].

وكان من بين هؤلاء المتخنفين شعراء عبروا عن نزعاتهم الروحية وتناولوا مسائل الدين والعقيدة على طريقتهم الخاصةن وكان كثير منهم قارئا مطلعا على الكتب،ومن لم يقرأ

---

[1] كتاب الحيوان،ج:٣،ص:١٩٧

[2] العقدالفريد،ج:٣،ص:١٨٨

[3] تمهيد لتاريخ الفلسفة في الإسلام،ص:١٠٤

منهم استطاع أن يحصل ثقافته الدينية من القارئين والمعمرين المجربينأصحاب المعلومات والأخبار،ومن هؤلاء الشعراء:

ورقة بن نوفل:

فهو أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية،وطلب الدين وقرأ الكتب ومتنع عن اكل الذبائح،وهو ابن عم السيدة خديجة زوج النبي الأولى،ولورقة هذا شعر ديني،فيه نغمة من الزهد،يروي منه صاحب الأغاني قوله:

لقد نصحت لأقوام وقلتُ لهم أنا النذير فلا يغرركم أحد

لاتعبدوا لها غيرخالقكم فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد

سبحان ذي العرض سبحانا نعوذبه وقيل قد سبح الجودي والحمد

مسخر كل ماتحت السماء له لاينبغي أن يناوي ملكه أحد

لاشيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويدي المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولاسليمان إذ دان الشعوب له والجن والإنس تجري بينهما البرد[1]

وزيد بن عمرو

الذي يقول فيه الأصفهاني: إنه أحد من اعتزل عبادة الاوثان وامتنع عن اكل ذبائحهم، وكان يقول: "يامعشر قريش :أيرسل الله قطرالسماء وينبت بقل الأرض ويخلق السائمة فترعى فيه وتذبحونها لغيرالله؟ والله مااعلم على زهرالأرض أحداً على دين إبراهيم غيري"، فأخرجه القرشيون من مكة لفراقه دين آبائه[2].

وله شعر روحي يغاير النزعة المادية التي سيطرت على المجتمع في الجاهلية،يقول:

ألم تعلم بأن الله أفنى رجالاً كا شانهم الفجور

---

[1] الأغاني،أبوالفرج الأصفهاني، دارصادر بيروت،ط:١٩٨٨م،ج:٣،ص:١٢١

[2] الأغاني،ج:٣،ص:١٢٥

وأبقى الآخرين ببرقوم فيربو منهم الطفل الصغير

رأينا المرء يعثر ذات يوم كما يتروح الغصن النضير

فتقوى الله ربكم احفظوها متى ما تحفظوها لاتبوروا

ترى الأبرار دارهم جنان وللكفار حامية سعير

وخزى في الحياة وإن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدور [1]

وكان عمه الخطاب والدعمر اشـــدالناس عليه إذ عاتبه على فراق دين آبائه، وقد تناول زيد ذلك في شعره،مشيراً إلى الإيمان بوحدانية الله وتحكمه بالكون:

"وأسلمت وجهي لمن اسلمت" "له الأرض تحمل صخراً ثقالا"

"دحاها فلما رآها استوت" "على الماء ارسى عليها الجبالا" [2]

وأمية بن الصلت

ويعتر أمية بن ابي الصـلت أشـعرالشـعراء المتحنفين وأغرزهم مادة وأكثرهم تنوعا في موضـوعات شـعره. وامية قد نظر في الكتب وقرأها ولبس الصـوف تعبداً،وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل جدالحفنيفية وحرم الخمر وشـك في الأوثان، وكان محققا والتمس الدين وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب أن نبياً سـيأتي في العرب فكان يرجو أن يكون هو[3]، فلما ظهرالنبي أســـقط في يده وقال أنا كنت أرجو أن أكونه ولكنه ماينفك يختلف في الأديرة والكنائس يجالس الرهبان والقسس حتى غلب على ظن البعض أنه مسيحي.
ولما سمع النبي صلى الله عليه وسلم شعره قال: آمن لسانه وكفر قلبه، ولأمية خطرات روحية في الزهد،فهو يقول:

"كل عيش وإن تطاول دهراً" "منتهى أمره أن يزولا"

---

[1] الأغاني،ج:٣،ص:١٨٠

[2] الاغاني،ج:٣،ص:١١٨

[3] الأغاني،ج:٣ص:١٨٠

"ليتني كنت قبل ماقد بدا لي" "في رؤوس الجهال أرعى الوعولا"

"أجمل الموت نصب عينيك واحذر" "غولة الدهر إن للدهر غولا" [1]

وكذلك قوله في الحياة والممات:

اقترب الوعد والقولب إلى اللهو وحب الحياة سائقها

باتت همومي تسرى طرائقها أكف عيني والدمع سابقها

لما أتاها من اليقين ولم تكن تراه يلم طارقها

ما رغبة النفس في الحياة وإن عاشت طويلاً فاموت لاحقها

قد أنبئت أنها تعود كما كانت بدياً بالأمس خالقها [2]

ومن أشعاره التي تظهر فيها النزعة الروحية والزهدية بشكل جلي قبل الإسلام،والتي أنشدها النبي صلى الله عليه وذكر فيها الحنيفية:

الحمدالله ممسانا مصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسانا

رب الحنيفية لم تنفد خزائنه مملوءة طبق الآفاق سلطانا [3]

وفي الغنى وحتمية زوال بني البشر يقول:

بينا يربينا آبياؤنا هلكوا وبينا نقتني الأولاد أفنانا

وقد علمنا لو أن العلم ينقصنا أن سوف يلحق أخرانا بأولانا [4]

مات أمية في السنة التاسعة للهجرة ولازال كافراً،إلا أنه من خلال شعره تأثر تأثراً واضحاً بالقرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه وأفكاره وأسلوبه،فسار على نهجه،ومثال ذلك قوله:

---

[1] الأغاني،ج:٣،ص:١٨٠

[2] عيون الأخبار،ج:٣،ص:٣٧٣

[3] الأغاني،ج:١،ص:١٢٩

[4] الأغاني،ج:٤،ص:١٣٤

ويوم موعدهم أن يحشروا زمرا يوم التغابن إذ لاينفع الحذر

مستوثقين مع الداعي كأنهم رجل الجراد زفته الريح تنتشر [1]

فهو في هذه الأبيات يبدو متأثراً بسـورة مريم تأثرا واضـحا بألفاظها ومعانيها،وقوافي الآيات فيها،فكأنه استوعب السورة استيعابا،ثم صاغها شعراً،حيث قال:

يوم نأتيه وهو رب رحيم يعلم الجهر والكلام الخفيا

أسعيد سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسب شقيا [2]

ومنهم كذلك ابوقيس الراهب،الشـــاعرالذي أكثر من القول في الدين والنصح والوعظ والوصاي، إذ يدعو إلى العبادة وتقوى الله تعالى وحده دون سواه، وهو يوصي بالتسبيح صباح مساء،يقول:

"سبحوا الله شرق كل صباح" "طلعت شمسه وكل هلال"

"عالم السر والبيان لدينا" "ليس ما ثال ربنا بضلال" [3]

وعلاقة الشـاعر عدي بن زيد العبادي بالنعمان الثالث الذي تولى ملك الحيرة (عام ٤٩٨م) خير دليل على علاقتهم الوثيقة بالنسك والعبادة والزهد، فمرة قدم الشاعر على الملك ونادمه وصاحبه في رحلاته الصيدية في الحيرة، فمرا بشجرة فقال عدي للنعمان: ايها الملك أتدري ماتقول هذه الشجرة؟ قال:لا، قال، تقول:

رُب ركب قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

قال: ثم جاوزا الشـجرة، فمرا بمقبرة،فقال له عدي: أيهاالملك أتدري ماتقول المقبرة؟ قال، لا،قال،تقول:

أيها الركب المخبون على الأرض الجدون

فكما أنتم كنا وكما نحن تكونون

---

[1] تاريخ الأدب العربي في العصرالجاهلي،ص:٣٦٢

[2] المصدرالسابق،ص:٣٦٣

[3] تاريخ آداب اللغة العربية،جرجي زيدان، كطبعة الهلال،ط:١٩٦٧م،ص:١٣٩

فقال النعمان:إن الشـــجرة والمقبرة لاتتكلمان، وقد علمت أنك أردت عظتي، فما الســـبيل التي تدرك بها النجاة؟ قال: تدع عبادة الأوثان،وتعبدالله،وتدين بدين المســـيح عيسى بن مريم، قال: أوفي هذه النجاة؟ قال:نعم،فتنصر يومئذ[1].

وبذلك نرى أن الشـــعراء المتحنفين يقبون على في أشـــعارهم الزهدية على توحيدالله سبحانه وتعالى، واعتقدوا بأنه قادر على بعث الخلق،وأنه سيحاسب الناس يوم الحشر، وغدا لهؤلاء عقيدة يؤمنون بها،وحياة روحية يعملون على تطبيقها، فيزهدون بالدنيا، ويرهقون أنفســـهم بالمجاهدات والرياضـــات، فكان لاطلاعهم على الكتب القديمة بالغ الأثر في تهذيب نفوسهم وتوجيهها الوجهة الزهدية التي تشعرهم بالراحة والسعادة.

ويعبرالشاعر عن اعتقاده بالسعادة الحقيقية لاتدوم،ومن ظن ذلك واعتقده فهو مغرور جاهل،يقول:

أرَواحٌ مودعٌ أم بكور　　لك فاعمد لأي حال تصبر

أيها الشامت المعير بالدهر　　أأنت المبرأ الموفور

أم لديك العهد الوثيق من الأ　　يام أنت جاهل مغرور[2]

فالشـاعرالجاهلي سـؤمن بالموت وزوال الغنسـان،وإنه لايعرف متى يأتيه الأجل،ويعلم أن الشـــاب قد يســـبق العجوز في الموت، وأن جامع المال قد يتركه لغيره،لا له، فهذه وغيرها تجارب تقوم على التجربة الحسـية، ومن خلال حياة معاشـة،فهذا الأضـبط بن قريع السعدي يقول:

"قد يجمع المال غير أكله"　　ويأكل المال غيرُ من جمعه[3]

وفكرة التوكل على الله نجدها ماثلة عند طرفة بن العبد في قوله:

ولست بخابئ أبداً طعاما　　حذار غد لكل غد طعام[4]

---

[1] الأغاني،ج:٢،ص:١٢٥

[2] الأغاني،ج:٢،ص:١٥٢

[3] الأغاني،ج:١٥٠،٢

[4] الأغاني،ج:٤،ص:٢٣١

ويقول في الحياة والموت وتناقص العمر،فما يحدو بالإنســـان لعدم التمســـك بالحياة الدنيا:

"أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة" "وما تنقص الايام والدهر ينفد"

"أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى" "بعيداً غدا ما أقرب اليوم من غد" [1]

وفي هذا المســتوى من الحكمة المبنية على التجربة الســطحية الحســية نجد قس ابن ساعدة حكيم العرب يقول في حتمية الموت وانقضاءالاجل:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر

أيقنت أني لامحالة صائر حيث صارالقوم صائر [2]

أما لبيدبن ربيعة فله أشعار في الحكمة تظهر فيها معاني الزهد،مثل قوله:

المرء يدعو للسلام وطول عيش قد يضره

ؤدي بشاشته ويأتي دون حلوالعيش مرة

وتصرف الأيام حتى ما يرى شيئا يسره

كم شامت بي إن هلك تُ وقائل لله دره [3]

وتفيض المعاني الروحية والزهدية،والإيمان بالله تعالى في شـعره من خلال مراثيه لأخيه أربد، فهو يرى أن الغنســـان يبلى ويزول عن هذه الأرض،وتبقى بعده الجبال والأبنية الضخمة، وأن الناس يسكنون الأرض ثم يتركونها،ويأتي غيرهم، فهم كالشهب التي تغدو رماداً بعد أن كانت ساطعة الضوء،وإن ماينفع هو تقوى الله وعبادته،وترك مافي الدنيا، لأن الأموال ماهي إلا ودائع ليست للإنسان ولاينفعه شيء سوى الأعمال الخيرة،والبر والتقوى تقرباً لله تعالى:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

---

[1] المصدرالسابق،ج:٤،ص:٢٣١

[2] البيان والتبيين، أبوعثمان الجاحظ،المطبعة الرحمانية،ط:١٩٧٦م،ج:١،ص:٢٠٣

[3] شرح ديوان لبيد، إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت،ط:١٩٦٢م،ص:٣٥٦

ومنها:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

وما البر إلا مضمرات من التقى وما المال إلا مضمرات ودائع[1]

وتتميز بعض أشعاره في الوعظ بأنها تحتوي على نفحات روحانية قريبة من الزهد الإسلامي المؤمن بالبعث والحساب والعقاب، وأنها تحقرالدنيا،وتقلل من شأنها،كما يظهر عمق إيمانه بالله واليوم الآخر،وحساب الناس بعد بعثهم،فهو داعية إلى الخير والتقوى:

إنما يحفظ التقى الأبرارُ وإلى الله يستقر القرار

وإلى الله ترجعون وعندالله ورد الأمور والإصدار[2]

[1] شرح ديوان لبيد، إحسان عباس، ص:٢٢٩

[2] شرح ديوان لبيد، إحسان عباس،ص:٤١

الفصل الثاني: الزهد في صدر الإسلام

أحدث مجيء الإســـلام انقلاباً عقائدياً وفكرياً في الجزيرة العربية، وغير مجرى التاريخ في هذه المنطقة بشـكل خاص، والعالم بشـكل عام، وقد تمثل ذلك بالدين الجديد الذي بُعث به النبي عليه الصلاة والسلام بشخص الرسول،والقرآن المنزل عليه،الذي بهرالناس بماجاء به من معتقدات وأسس وأركان،كمابهرهم بأسلوبه وبلاغته وفصاحته، فسلم به المسـلمون، وطبقوا ماأمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه، فكان دستورهم في الدين الدنيا والآخرة.

وقد دعاالقرآن الكريم إلى الزهد من خلال العبادة والإيمان، فاعتقد تقليل الاهتمام بالدنيا والابتعاد عن اللهو والمجون، والإقبال على الله والعمل من أجل الآخرة بالعبادة الخاصـة الصـادقة فصـورلهم الدنيا بزينتها وجمالها وزخرفها،أنها متقلبة خادعة، وأنها متاع زائل لابقاء له.

ولم يكن الشـــعر بمعزل عن هذه الطريق، فقد واكبت الأشـــعار الدعوة مســـجلة الفتوحات والغزوات، مدافعة عن الإسـلام والمسـلمين، ولم يقتصـر تأثيرالقرآن الكريم في نفوسهم بالأثرالديني والعقائدي فحسب،بل أثر بفصاحته وبلاغته وأدبه، فلامس قلوبهم وخاطب عقولهم فانطلقوا ينادون به، داعين إلى القرآن وسنة النبي عليه الصلاة والسلام يتدافعون إلى التقوى والعبادة، والتوكل والإيمان بالقضـاء والقدر وذم الدنيا وتحقيرها،بعد أن كشـف القرآن الكريم زيفها وفسـادها مسـلحين ذلك في قصـائدهم ومقطوعاتهم الشعرية، واضعين البذور الأولى لشعرالزهد في الإسلام.

فقد كان بعض الشعراء ينظم ماكان يسمعه من احاديث الرسول شعراً،فقد روي ان قيس بن عاصم رئيس وفد تميم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم،قال:عظنا يارسول الله،فوعظهم، فقال قيس: لو أن امرأ نظمها لتكون شيئاً نفتخر به، فقال الصلصال:أنا أنظمها، فنظم الأبيات التالية،والتي تدعو إلى التقوى والزهد والإيمان بالله والإكثار من العمل الصالح:

تجنب خليطاً من مقالك إنما قرين الفتى في القبر ماكان يعمل

ولابد بعدالموت من أن تعده ليوم ينادي المرء فيه فيقبل

وإن كنتُ مشغولاً بشيء فلاتكن بغير الذي يرضى به الله تشغل

ولن يصحب الإنسان من قبل موته ومن بعده إلا الذي كان يعمل

ألا إن الإنسان ضيف لأهله يقيم قليلاً بينهم ثم يرحل[1]

وكذلك اندفعت صـــيحات المجاهدين الفاتحين مهللين ومكبرين بالأراجيز المفعمة بالزهد والتقوى، والاندفاع للقتال، وأملاً في نيل الشهادة في سبيل الله، مستهترين بالدنيا وزيفها، فعمربن الحمام يندفع للقتال يوم بدر، بعد أن كا يأكل بضـــع تمرات في يده، فلما اشتد وطيس المعركة،انتفض ورماهن وأخذ ينشد،وهو يقاتل المشركين مرتجزاً:

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد[2]

ودعا شـعراءالزهد إلى الصـلاة وطلب المغفرة من الله تعالى،وكان علي ابن أبي طالب من هؤلاء الذين يعملون على ترســيخ مباديء الإســلام من خلال مانظمه من ابيات تعليمية في الدعوة إلى التقوى والعبادة، فقد نصــح بالصــلاة النافلة عن الفرائض،وليكن اغتناماً للوقت والجهد،ويرى أنه على المؤمن أن يراقب نفســه إذا أوشــكت الوقوع في الباطل، وعليه أن يسارع إلى التسبيح وذكرالله:

غتنم ركعتين زلفى إلى اللـه إذا كنت فارغاً مستريحاً

وإذا ماهممت بالقول في الباطل فاجعل مكانه تسبيحاً[3]

ومن الشعراء الذين دعوا إلى التوكل واطمانت نفوسهم إليه،عبدالله بن بديل الخزاعي الذي يرى أن الأمور كلها بيدالله موكولة إليه، لذلك لم يبق إلا أن يصـــبر على تقلبات الدهر والتوكل على الله، ثم المشي في الرعيل الأول، رعيل كبارالصحابة والعباد والزاهدين، ففي البيتين التاليين نلمح الهدوء والاستقرارالنفسي في ظل الإسلام:

"لم يبق إلا الصبر والتوكل" "ثم التمشي في الرعيل الأول"

"مشي الجمال في حياض المنهل" "والله يقضي مايشاء ويفعل"[4]

---

[1] شعرالدعوة الإسلامية في عهدالنبوة،عبدالله بن حامد،دارالكتاب العربي بيروت،ط:١٩٧١م،ص:٥٢٩

[2] الأغانينج:٤،ص:١٩٢

[3] الأغاني،ج:٣،ص:٣٢٢

[4] أسدالغابة،ابن الأثير، انتشارات اسماعليات،تهران،ط:١٩٩٨م،ج:٣،ص:١٢٤

وقد عبر شعراء صدرالإسلام عن إيمانهم بالقضاء والقدر، فهذا كعب بن زهير يتعجب من سعي الفتى خلف رزقه، وقد قدرالله له ماخبأه، وهويسعى لأشياء قد لايدركها،لأنه لايدرك إلا كتب له:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها والنفس واحدة والهم منتشر [1]

وما من شك أن التوكل والإيمان بالقضاء والقدر يكونان سبباً في تهدئة الروع وتخفيف المصاب عند امتحان الدهر،فيدرك المرء أن ماأصابه قد قدر له، وكتب عليه، ومامن سبيل لتأخيره أوتغييره،فقد روي أن هدية بن خشرم قال لأبويه قبل موته بقليل ثأراً برجل قتله أبياتاً أظهر فيها صبرا وجلدا كبيرين،فقد آمن بالقضاء والقدر،وأدرك أن ما يصيبه من الله لا راد له،فهدأ من روع أبويه، وطمانهم بأنه ذاهب إلى دارالمستقر،وأن هذا هو قدره الذي يجب أن يواجهه:

أبلياني اليوم صبراً منكما إن حزناً إن بدا باديء شر

لا أراني اليوم إلا ميتاً إن بعد الموت دار المستقر

اصبر اليوم فإني صابرٌ كل حي لقضاء وقدر [2]

ويرى الزهاد أن من يطلب الرزق من غيرالله أنه غير واثق به، فكيف يدعي الإيمان به، ويعلم أن الرزق بيدالله دون سواه،ويدعو غيره؟ هذا ماتعجب منه علي بن أبي طالب من أولئك،واستهجن سؤال الناس الرزق دون الله سبحانه وتعالى، فيقول:

أتطلب رزق الله من عند غيره وتصبح من خوف العواقب آمنا

وترضى بصرافٍ وإن كان مشركا ضميناً ولا ترضى بربك ضامنا

كأنك إن تقرأ بما في كتابه فأصبحت منحول اليقين مباينا [3]

---

[1] شعرالدعوة الإسلامية،ص:١٨٢

[2] الأغاني،ج:١،ص:٢٨

[3] الأغاني،ج:٥،ص:٣٢٥

ولاشك أن هذا الغيمان وهذه المعتقدات تولد لدى المسلم قناعة بمايصيبه من رزق، ويجد بالقناعة الرضا،ويتولد عنده نوع من الاتزان النفسي فلايحزن على ماأصابه من فقر أو ضعف،ويدرك أن الغنى والفقر والخير والشر كله بيدالله،فيكتسب بقناعة عزاً وغنىً، وتكون قناعته رأس ماله فيربح الدنيا والخرة، وبما أن القناعة رأس مال المؤمن، فإن بضاعته هي العبادة والأعمال الصالحة،وهي خيرالبضاعة،وهذا ماعبر عنه علي بن أبي طالب عندماقال:

أفادتني القناعة كل عز وأي غنىً أعز من القناعة

فصبرها لنفسك رأس مال وصبر بعدها تقوى الله بضاعته[1]

الزاهد المتقشف في الدنيا ومافيها يجد خيرمايبذله في سبيل ذلك نفسه التي يضحي بها في سبيل الله، في رياضة من رياضات العبادة الخالصة.

وخير مانتمثل به هنا أشعار،ماقاله عروة بن زيد الخليل الذي اعتبرالجهاد أكبر همه،وجعله هدفه الأول،فنظر إلى الدنيا باحتقار وجعل يسلي نفسه عنها حتى نسيها،فبم تعد تعشق الكسب الوفير والكنوز التي يتهالك عليهاالناس:

وقد اضحت الدنيا لدي ذميمة وسليت عنها النفس حتى تسلتِ

فلاثروة الدنيا تريد اكتسابها ألا إنها عن وفرها قد تخلتِ

وماذا أرجي من كنوز جمعتها وهذي المنايا شرعا قد أطلتِ[2]

ولابد لتحقيرالدنيا والاستخفاف بها من تعزيزقيمةالموت، والانتقال إلى الجنة، لاسيما أن الإنسان المنتقل من الحياة الدنيا إلى الآخرة يحمل مايدخره من الأعمال الصالحة، التي تمكنه من الفوز بالجنة.

فيحذر الإمام علي بن أبي طالب من الدنيا التي صورها بالثوب المستعار، والذي لابد أن يعود يوماً إلى معيره، فالإنسان يعيش أمداً قصيراً في الدنيا ثم يعود إلى خالقه

---

[1] الأغاني،ج:٥،ص:٣٢٦

[2] شعرالدعوة الإسلامية،ص:١٠٧

مرة أخرى، وهي تنقلب بالمرء ارتفاعاً وانحداراً،فيندثر ويتبدد ويزول، والإمام علي يحذرالناس بذلك وينبه هم إلى تقلبات الدهر وانتكاساته:

إنما نعمة الدنيا متعة وحياة المرء ثوب مستعار

وصروف الدهر في اطباقه حلقة فيها ارتفاع وانحدار

بينما الإنسان في عليائها إذ هوى في هوةٍ فيها فنار[1]

ويبرز في أشعارالزهد والتدين التي تنسب إلى الإمام علي رضي الله عنه عدة معان وقضايا تنتولها وألح عليها في هذه الاشعار،وهو بذلك يستانس بنورالإسلام وهدي القرآن وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن ابرز هذه القضايا قضية الحياة الدنيا واصفاً إياها في الميزان مع الحياة الخيرة،ولاسيما اظهرالإسلام الفرق بينهما،ودعا إلى الثانية،عدا عن الأولى، ورأى في الأولى الخيبة والخديعة والغرور، وفي الآخرة لمن يحسن إيمانه بالخير الوفير والعزة والكرامة والخلود،فأدرك أن الدنيا زائلة،وأن الآخرة خير وأبقى، فأعلن في نفسه ولمن حوله بضرورة الإقلاع عن الدنيا لأنها زائفة غرارة، لاتبقى على احد، ولايدوم عليها مخلوق، ولوأرادالله أن يديم أحداً لجعل ذلك الخلود لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، يدعوالناس إلى الخير والإيمان والعمل الصالح:

تحرر من الدنيا فإن فنائها محل فناء لا محل بقاء

فصفوتها ممزوجة بكدرةٍ وراحتها مقرونة بعناء[2]

فهو يستهجن من الذين يتهالكون عليها ويبذلون الغالي والنقيس في كسب المال، ناسين او متناسين واجباتهم الدينية، لذلك كررالإمام استخدام لفظة "الغرور بالدنيا" مواضع عدة،مستأنساً باستخدام القرآن الكريم لها، للدلالة على قيمتها الرخيصة،وللدلالة على الاستخفاف بها واحتقارها:

---

[1] الأغاني،ج:٥،ص:٣٢٦

[2] الأغاني،ج:٥،ص:٣٤٥

فلم أر كالدنيا بها اغتر أهلها ولا كاليقين استأنس الدهر صاحبه[1]

ويقول:

وغرور دنياك التي تسعى بها دارٌ حقيقتها متاعٌ يذهب

تباً لدار لايدوم نعيمها ومشيدها عما قليل ينهب[2]

ويصورالدنيا بهوانها وضعفها وسرعة زوالها ببيت العنكبوت،وهو يستلهم بذلك هدي القرآن الكريم في أن أوهن البيوت بيت العنكبوت،لذلك ينصح الإمام الناس ألايهالكوا عليها، لأن الإنسان يكفيه منها قوت يومه،وماعدا ذلك سيتركه ويموت:

"إنما الدنيا فناء" "ليس للدنيا ثبوت"

"إنماالدنيا كبيت" "نسجته العنكبوت"

"ولقد يكفيك منها" أ"يها الطالب قوت"

"ولعمري عن قليل" "كل من فيها يموت"[3]

ومن الشعراء الذين اشتهروا بالزهادة النابغة الجعدي، هو منالمعمرين الذي عاشوا في الجاهلية والإسلام،ويروى أنه أقدم من النابغة الذبياني.

ومن المؤكد أن النابغة كان من الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية،فقد جاهد في سبيل الله وهو يتلو القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار[4].

يُعد النابغة الجعدي من ممثلي البدايات الأولى للشعراء الزهاد المتخصصين لهذا الفن الجديد من الشـــعر العربي منذ وقت مبكر[5]، وذلك اعتماداً على ماورد في ديوانه من أشعار تنم عن روح إيمانه، ودعوة صادقة للعبادة والتقوى، فقد وجدت المواعظ والدعوة إلى النســك وإخلاص الطاعة لله، حتى تحولت بعض قصــائده إلى مواعظ دينية كاملة،

---

[1] الأغاني،ج:٤،ص:٢٥٤

[2] الأغاني،ج:٢،ص:١٢٣

[3] الأغاني،ج:٦،ص:٣٤٤

[4] تاريخ الادب العربي، العصرالإسلامي،شوقي ضيف،ص:١٠١

[5] التيارالإسلامي في القصيدة الأموية،ص:٥٢٣

فقد دعاالشاعر للأخذ بالقضاء والقدر والرضا بهمان لأنهما من ركائزالإيمان بالله، وهما مما يخفف عنه المصاب، ويدعو للصبر وعدم الجزع والحزن على مافات،يقول:

ألم تعلما أن انصرافاً مسرعاً لسبرٍ أحق اليوم من أن تقصرا

ولا تسألان إن الحياة قصيرة فطيراً لروعان الحوادث أو قرا

وإن جاء أمر لاتطيقان دفعه فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا

تهيج اللحاء والملامة ثم ما تقرب شيئاً غير ما كان قدرا[1]

وتشكل مثل هذه المقدمات الدينية طابعاً دينياً يفخر فيه الشاعر بنعمة الإسلام ويمدالله تعالى على هدايته، وهذا لون جديد، يشكل ظاهرة فنية استخلصت من العلاقة الموضوعية بين الحكمة والدين، ثم يذكر بعد هذه المقدمة العديد من المعجزات الربانية التي لاتبقي مجالا للشك لمن سولت له نفسه، ثم يعظ الناس بضرورة الإيمان الخالص بالله تعالى، والإكثار من الأعمال الصالحة،فالله سيجمعهم يوم الآخرة، ويحاسبهم على ماجنت أيديهم، فيقول لهم:ائتمروا الآن في حياتكم الدنيا، واعتصموا من دون الله في السماء والأرض، لأن الله رغم كل ذلك سيجمعكم،ولاينجو إلا من يعتصم بحبله،ويؤمن به ويحسن إيمانه:

ثمتَ لابد أن سيجمعكم والله جهراً شهادة قسما

فائتمروا الآن ما بدا لكم واعتصموا إن وجدتم عصما

في هذه الارض والسماء ولا عصمةً منه إلا لمن رحما[2]

وينتقل بعد ذلك مخاطباً العقول مشيراً إلى أمور محسوسة يعرفونها،فيستعرض الأمم السابقة القوية ذات الحضارات الجبارة ويتساءل عن مصيرها،وكيف بادت وانتهت؟ ويذكر فارس التي أصبح يداتها عبيداً عندكم يرعون شاءكم، وكأن ملكهم لم يكن حلما يراه النائم حتى إذا أفاق من نومه لم يجد شيئاً:

يا أيها الناس هل ترون إلى فارس بادت وخدها رغماً

([1]) ديوان النابغة الجعدي،دار صادر،ط:١٩٨٧م،ص:٣٥

([2]) ديوانه،ص:١٤٣

أمسوا عبيداً يرعون شاءكم كأنما كان ملكهم حلما

أو سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دونٍ سبيله العزما

فمُزقوا في البلاد واعترفوا الهون وذاقوا البأساء والعدما

وبدلوا السدر والآراك به الخمط وأضحى البنيان منهدما[1]

ويقف الشـــاعر عند صـــراع النفس الإنســـانية وحبها للحياة فيرى أن حب الحياة والاستمرار فيها طبع في الإنسـان خلق عليه، وجاءت فطرته به، فالمرء يكبر، وتكبر معه خصـــلتان: حب الدنيا وحب المال، ولكنه يرى أن طول عيش المرء يضـــره، إذ تفنى بشـــاشـــته وحيويته، ولايبقى بعد حلوالعيش في ربيع العمر إلا مره في خريفه عندالكبر، فقد تسـوء الأيام حتى لايرى شـيئاً جميلا يسـره، وهذه موعظة يقدمها الشـاعر للناس، ليعملوا في قوتهم لضـــعفهم، ويدخروا ليوم حشـــرهم، فلايعجبهم طول العمر، ولاتغرهم الدنيا، ولايتهالكون عليها:

المرء يرغب في الحياة وطول عيش قد يضره

تفنى بشاشته ويبقى بعد حلوالعيش مره

وتسوؤه الأيام حتى مايرى شيئاً يسره

كم شامت بي إن هلكتُ وقائلٍ:لله دره[2]

---

[1] ديوانه،ص:١٣٥

[2] ديوانه،ص:١٩١

الفصل الثالث:

الزهد في

العصرالعباسي

تطور شعرالتدين بتطورالحياة الروحية، ولم تلبث معالم الزهد ان تظهر فيما كان يتمثل به من ذلك الشعر، وأخذ يستجيب لهذه الأفكارالجديدة التي ظهرت الحياة الروحية في الإسلام.واطلق على شعرالتدين في صورته الجديدة اسم "شعرالزهد" وهو طور جديد من اطوار شعرالتدين، وهذا زاد من مكانة الشعر الزهدي في تلك الفترة أن أصبح له شعراء منقطعون للقول فيه، وهو لم يكن لشعراء من قبل هذا العصر.

عرف العصرالعباسي مجموعة من الشعراء الزهاد،ومن بينهم مالك بن دينار المحدث الناسك الذي يتحدث في مجالسه عن الموت وله أشعار مختلفة،موضوعها القبور وأهلها،يقول:

"أتيت القبور فناديهن" "أين المعظم والمحتقر"

"وأين المدل بسلطانه" "وأين المزكي إذ ما افتخر"

"تفانوا جميعا فما مخبر" "وماتوا جميعاً ومات الخبر"

"تروح وتغدو بنات الثرى" "فتمحو محاسن تلك الصور" [1]

كما أن هناك شعراء عاشوا حياة اللهو والمجون فترة الشباب والكهولة إلى أن بلغ بهم العمر الخمسين فأصبحوا زهاد ونساك،مثل محمد بن حازم،قال:

ومنتظر الموت في كل ساعة يشيد ويبني دائما ويحصن

له حين تبلوه حقيقة موقن وأفعاله أفعال من ليس يوقن [2]

ومنهم من كان معتكفا على نفســـه لايدخل بلاط الخلفاء والأمراء والقواد وكانوا حارصين كل الحرص على دينهم ودنياهم،منهم الخليل بن أحمد الفراهيدي،يقول:

عِش ما بدا لك قصرك الموت لا مهرب منه ولا فُوت

بينا غنى بيت وبهجته زال الغنى وتفوض البيت [3]

([1]) الأغاني،ج:٣،ص:٢١

([2]) البيان والتبيين،ج:٣،ص:١٨٣

([3]) المصدرالسابق،ج:٣،ص:٤٠١

وإذا تصفحنا شعرالزهد عند ابن المبارك في العصرالعباسي نجده يدور حول التنفير من الدنيا وذم الإقبال عليها لأنها خداعة تغر الإنسان بزينتها ومتاعها الزائل،وتخدعه بأمانيها الكاذبة،وما متاع الدنيا في نظره إلا سموم قاتلة:

همومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش إلا بهم

حلاوة دنياك مسمومة فما تاكل الشهد إلا بسم[1]

وعلى المرء أن لايتبع نفسه،فالنفس أمارة بالسوء تورد الإنسان مواردالمهلكة وتوقعه في المخاطر:

رأيت الذنوب تميت القلوب ويخترم العقل إدمانها

يبيع الفتى نفسه في رداه وأسلم للنفس عصيانها[2]

ونراه يدعو دعوة صريحة إلى التمسك بمكارم الأخلاق وخبر خلق يتمسك به المرء ويحرص عليه هوالكلم الطيب وحفظ اللسان من الزلل،ورُب كلمة تودي بحياة صاحبها:

احفظ لسانك أن اللسان حريص على المرء في قتله

وأن اللسان بريد الفؤاد دليل الرجال على عقله[3]

ومن الشعراء الزهاد في العصرالعباسي محمود الوراق، يتخذ الوراق مواقف عديدة في الزهدن منها وجوب الطاعة لله والإخلاص له،والرضا بقضائه والتوكل عليه والثقة به، ومنها ذم الطمع والحرص على متع الحياة ووجوب الأخذ بمبدأ القناعة،فلاعز أعز منها، ولم يغفل عن ذم الرياء وأهله فهو مصدرالشرور والآثام،هذا بالإضافة إلى ذم الدنيا والغض من شأنها كما جرى عليه عرف الزهاد في سلوكهم ومنهجهم،كما أنه يذم الكبر لأن صاحبه موضع للسخط والنفرة منه،وهو مفسدة للدين ومنقصة للعقل.

وفي اعتقاده أن كثرة الاموال ليست خيرا فكلما ازداد الإنسان مالا وثروة تزيد في الشر،والعاقل هو من طرح الحرص وراء ظهرها:

([1]) الأغاني،ج:٦،ص:٢٣١

([2]) الأغاني،ج:٦،٢٣١

([3]) الأغاني،ج:٦،ص:٣٩٨

أراني إذا ما ازددت مالا وثروة وخيراً إلى خير تزيدت في الشر

فكيف يشكر الله إن كنت آثما أقوم مقام الشكر لله بالكفر

بأي اعتذار أو بأية حجة يقول الذي يدري من الامر ما أدري

إذا كان وجه العذر ليس ببين فإن اطراح العذر خير من العذر [1]

وكثيرا ما أذل الحرص أعناق الرجال، وهو ينعى على الرجال الذين يعيبون الفقر وأهل،ويوضـــح أ،هـ إذا كان الفقر عيبا فإن عيب الغنى اكثر،ويدلل على ذلك بأنه إذا كان الإنسـان يعصـي الله ليثرى فليس يعصـي الله كي يفتقر،والثراء يفتح على أصـحابه أبواب الطمع بل يفتح عليهم أحيانا أبواب المعاصي:

يا عائب الفقر ألا تزدجر عيب الغنى أكثر لوتعتبر

من شرف الفقر ومن فضله على الغنى إن صح منك النظر

أنك تعصي كي تنال الغنى وليس تعصي الله كي تفتقر [2]

---

[1] زهر الآداب،ج:١،ص:١٠٧

[2] عيون الأخبار،ج:٢،٢٣٩

الفصل الرابع:

شعرالزهد"في العصر الأندلسي

"عُرفت الأندلس بكثرة زهادها ويؤكد ذلك ابن بشكوال(٤٩٤هـ) الذي صنف كتابا بعنوان "زهاد الأ،دلس وأئمتها" إلا أن هذا الكتاب لم يصل إلينا حيث كوته حن الزمان التي عدت عليه، كما عُرفت بكثرة الشعراء الزهاد، ويؤكد ذلك قاسم بن نصير(٣٣٨هـ) الذي تخلى عن الدنيا في آخر عمره وأكثر من شعرالزهد وذم الدنيا في ديوانه".

"هذا بالإضافة إلى كتب أخرى اعتنى العلماء والكتاب الأندلسيون فيها بالزهد وجمع أخبارالزهاد واشـــعارهم، ذكر منها الزركلي في أعلامه "أخبارالزهاد والعباد" لابن عفيفون الغافقي، وهو محمدبن أبي بكر بن يوسف بن عفيفون الغافقي المتوفى بعد سنة ٥٨٤هـ فاضل أندلسي من أهل شاطبة، و"أخبارصلحاءالأندلس" لقاسم محمد القرطبي المعروف بابن الطيلسان،والمتفى سنة٢٤٢هـ".[1]

"وورد منها في معجم المؤلفين (أنوار الأفكار فيمن دخل جزية الأندلس من الزهاد والأبرار) لأبي العباس أحمد بن عبدالرحمن الأندلسي المتوفى سنة٥٥٩هـــ، علما بأن هذا الكتاب لم يكمله المؤلف".[2]

موضوعات شعر الزهد في العصر الأندلسي

عرف الشـــعرالأندلســـي غرض الزهد من جملة الأغراض الشـــعرية المألوفة، فقد كثر قائلوه لتوفر عوامل مشجعة وأسباب دافعة، فشهدت هذه الفترة بروز كوكبة من الشعراء كان لهم فيه الباع الطويل بالإضافة إلى إسهام علماء وفقهاء في هذا الغرض.

فكرة الموت:

ولعل أهم ماتناولته نصوص الزهد في هذه الفترة كانت حول تمريرالوقت وقدوم الموت المحتم، والحديث عن الموت على أنه غاية مرجوة،وذم الدنيا، وتمريرها على أنها فانية ذاهبة، والدعوة إلى التقوى والصلاح وطاعة الله، والتذكير بقدرة الخالق وقضاءه،والابتعاد عن كل مافيه حســـاب الآخرة،والاعتراف بالذنوب والتوبة والتضـــرع إلى الباري في

---

[1] ينظر:تاريخ العلما والرواة للعلم بالأندلس،ابن الفرضي، مكتبة المثنى بغداد،ط:٢٠٠٢م،ج:١،ص:٤٠٥-٤٠٦

[2] نفس المصدر،ص:٤٠٧

الشيخوخة والابتعاد عن المجتمع بسبب انشغال الحكام في الملاذ وابتعادهم عن مقارعة العدو.

ولعل أهم عنصر شغل حيزا كبيرا في الأشعار الزهدية وهي ترديد فكرة الموت، والحديث عن حتمية الفناء، والانشغال بفكرة مصيرالانسان بعد موته، فالدنيا هي متاع الغرور، وجسر إلى دارالخلود، فعلى الانسان العاقل الإعداد لها والتزويد بصالح الأعمال.

فابن السيد البطليموسي معتقدا اعتقادا كاملا أن الدنيا فانية، والآخرة هي دارالخلود، يقول:

وما دارنا الأموات لو أننا نفكر والأخرى هي الحيوان

شربنا بها عزذا يهون جهالة وشتان عز لبفتى وهوان[1]

أما ابن العريف فيسهل على الناس فكرة الموت، حتى لايجزعوا،ويذكرهم أن الموت حق،فأفضل البشرية محمدصلى الله عليه وسلم، قد أدركه الموت ورحل إلى بارئه، يقول:

إذا نزلت بساحتك الرزايا فلا تجزع لها جزع الصبي

فإن لكل نازلة عزاء بما كان من فقد النبي[2]

يقول ابن أبي الخصال في رثاء أبي عبدالله بن ابراهيم الانصاري مغتنما الفرصة،يذكر هازم اللذات، ذاكرا أن كل نفس سائرة على نفس الطريق:

أرى أن كل حي للمنية حاملا فيا ويحة مما تحمل واحتضن

ولم أر مثل الموت حقا كباطل وكل قبالية بالموت مرتهن[3]

ويقول في نفس المعنى الطليل:

يا غافلا شأنه الرقاد كأنما غيرك المراد

والموت يرعاك كل حين فكيف لم يجفك المهاد

---

[1] قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ابوالنصر الاشبيلي، مكتبة المنار،ط:١٩٨٩م، ص:٧٣٠

[2] وفيات الأعيان،ابوالعباس ابن خلكان،دار صادر،ط:١٩٩٠م،ج:٣،ص:٢١٢

[3] الإحاطة في أخبار غرناطة،ج:٤،ص:١٠٣

فهي زاد وزِد مزادا فقد طوى عمرك النفاد

إذا سفرالموت فيه شحمد والقرب للانسان موقتا[1]

فالشـــاعر يعبر عن مفاجأة الموت للأنفس الغافلة وهي تعلم أنه ليس هناك ســـبيل للهرب،ويدعو عبدالحق الاشـبيلي إلى التزود بصـــالح الأعمال وارتقاب الموت المحتم وأنه يترمدنا كل لحظة:

إن في الموت والمعاد لشغلا وادكارا الذي النهي وبلاغا

فاغتنم خطتين قبل المنايا صحة الجسم يا أخي والفراغا

صِف الموت يا هذا وشدته فقلت وامتد مني عندها الصوت[2]

كما أن الدنيا لاتعدو أن تكون جسـرا للدارالآخرة فهي الدار الأبقى، ومن العجيب أن يولع الانسان بشئ يزول، يقول أبو محمد القرطبي:

لعمرك ماالدنيا سرعة سيرها بسكانها إلا طريق مجاز

حققتها أن المقام بغيرها ولكنهم أولعوا بمجاز[3]

وابن سالم يؤكد على فناء الانسان موقنا أن الموت له أجل إذا بلغ فلا مفر منه،يقول:

عز من لا يموت، يا من يموت وتعالى فلم تنله النعوت

إن دنياك هذه غرة ما لثبات الأنام فيها تبوث[4]

ويؤكد أبوالوليد يونس بن عيسى المشهور بالمرسي أن الموت نهاية حتمية لكل أنسان مستدلا على ذلك بزوال الرسل،فيقول:

كل كمال إلى محاق وكل جميع إلى افتراق

أين ثوي آدم ونوح والمصطفى صاحب البراق؟

---

[1] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابوالحسن ابن بسام، الدارالعربية للكتب، بيروت، ط:٧٨٠م،ج:٢،ص:٧٩٨

[2] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج:٢،ص:٧٩٩

[3] الذيل والتكملة،ابن عبدالملك المراكشي، ج:٤،ص:٣٢٢

[4] المصدرالسابق،ج:٤،ص:٣٤٥

إذا قيل إن السمو يجدي فليدم البدر في اتساق؟[1]

ويرغب الطيطل عن الدنيا لأنها ترفض الملتقي، ويدعو إلى أن يقضـــي المؤمن حياته في التقوى والتفكر في خلق الله للأرض والسماء مصداقا لوقه تعالى: "الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق الســـماوات والأرض.ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار"[2]، يقول:

لا تبغِ دنيا فإن عنها المؤمن المتلقي يذاد

فابن لها بالتقي بروجا تأمن إذا روع العباد

واعتبر الأرض كيف مدت فهي لهذا الورى مهاد

ثم السماء التي أطلت قد رُفعت ما لها عماد[3]

التأنيب وذم الدنيا:

ومن الموضــوعات التي طرقها الزهاد في العصــر الأندلســي، اللوم والعتاب والتأنيب والتفضـيع،ومن النماذج على ذلك قول أبي عمران المارتلي متماثلا عن متى سـيظل هذا الفعــل المســـتقبلي معلقــا حتى يتحقق في مــا تبقى من الزمن، كي تهــدأ الــذات وتستقر،وتتغلب على مغريات هذه الدنيا،وتفك هذا الجدل واللغزالمحير:

"إلى كم أقول ولا أفعل" "وكم ذا أحوم ولا أبذل"

"وأزجر نفسي فلا ترعوي" "وأنصح نفسي فلا تقبل"

"وكم ذا تعلل لي ويحها" "بعل وسف وكم تمطل"

"وكم ذا أؤمل طول البقا" "وأغفل والموت لايغفل"[4]

---

[1] ديوان المرسي، دارالرائد العربي،بيروت، ط:١٩٧٦م،ص:٧٨

[2] سورة آل عمران، رقم الآية:١٩١

[3] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،ج:٢،ص:٨٠١

[4] نفخ الطيب،ج:٤،ص:١٠٣

ويدعو أبوعمران المارتلي إلى عدم الخضـــوع لهوى النفس وعدم الانقياد وراء نزعاتها الشهوانية،ومن ذلك قوله:

فخايف هواها واعصِها إن من يطع هوى نفسه تترع به كل منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده وترم به في مصرع أي مصرع[1]

ومن معاني مقطوعات الزهد في هذا العصر التي رددها الشعراء إيثار الفاقة والتعفف، فلاحياة أفضل من العيش بكفاف، كما يرغبونهم عن الغنى والترف، ويمدحون التقلل من متاع هذه الحياة، وفي هذا يبدي أبو عمران المارتلي تعجبه عن حب الغنى ويحث على القناعة مبينا مايجنبه فضل المال على صاحبه تعبا في جمعه وحسابا على إنفاقه:

عجبا لنا نبغي الغنى والفقرُ في نيل الغني لو صحت الألباب

فيما يبلغنا الحل كفاية والفضل فيه مؤونة وحساب[2]

التقوى وصالح الأعمال:

إلى جانب دعوة الزهاد إلى الأغراض من متاع الدنيا دعوا أيضا إلى التزود إلى الآخرة بزاج التقوى وصالح الأعمال،والحق أن التقوى رأس كل عمل صالح، لذا على المؤمن أن يتصف بها، يؤكد هذا ابن عفير الأموي بقوله:

فشمر الليل من هزل لهوت به عن ساق جدك واخلع بردة الكسل

واعمل لأخراك في دنياك مجتهدا قبل الرحيل ولازم أهبه العجل[3]

وإذا كان الانســـان الذي يرجو مقام ربه فما عليه إلا أن ينظر إلى من هم أكثر منه ديانو وتقوى ليقتدى بهم،يقول ابن مرج الكحل:

لله قوم لحب الله قد قسموا زمانهم قسمة المحبوب في الأزل

نهارهم لصيام فيه متصل وليلهم لقيام غير منفصل

---

[1] ا نفخ الطيب، ص:١٠٤

[2] المصدرالسابق، ص:١٢٣

[3] الذيل والتكملة،ج:١٦، ص:١١٩

جنوبهم تتجافي عن مضاجعهم فلا ترى خلف أستار ولا كلل

يدعون ربهم خوفا وآونة يدعونه طمعا يا حسن منتقل

فاسهر تنل نور من أذكى عيونهم في كحلة الليل نور ليس في الكحل[1]

الخوف من الوقوف أمام الله:

ومن الموضوعات التي عالجها شعراءالزهد في هذا العصر، الخوف والفزع من الوقوف امام الله، وهم بتلك المعاصي والذنوب، وقد يجنح بعضهم إلى تهويل أمرها، وتعبيرهم عما يعتريهم من أسف، وهؤلاء الشعراء ابن الغماز حيث يقول مستعظما ذنوبه مبينا مدى خوفه:

وقالوا أما تخشى ذنوبا أتيتها لوبكيت الدماء لم اقصر حقا

لهف نفسي إن لم يكن منك عفوا سيدي سيدي وإلا سأشقى

إن نحت الثياب مني جسما قد عصى ربه اغترارا وخرقا[2]

ويقول في نفس المعنى محمد بن جحاف:

أقول وقد خوفوني القرآن يوما هو شره كائن

ذنوبي أخاف فأما القرآن فإني من شره آمن[3]

ويبدي ابن منخل الشبلي خوفه من الموت لكونه مآل إلى الحساب والثواب والعقاب، يقول:

مضت لي ست بعد سبعين حجة ولي حركات بعدها وسكون

فياليت شعري أين وكيف ومتى يكون الذي لابد أن سيكون؟[4]

---

[1] المصدرالسابق،ج:٦،ص:١٢٠

[2] الذيل والتكملة، ج:٤،ص:٢٢٠

[3] المصدرالسابق،ج:٤،ص:٣٢٤

[4] المصدرالسابق،ج:٦،ص:٢٤٦

كما نجد مشطلة عفوالله تشغل حيزا كبيرا من أشعارهم الزهدية، فهم يعترفون بتلك الأيام والموبقات، راجين من الله العفو، مظهرين ثقتهم بحصولهم على هذا العفو، والأمثلة على هذه الفكرة كثيرة.

فلابن الصيد قصيدة كاملة،موضوعها توحيدالله عزوجل،وفيها يوجه دعاءه إليه طالبا منه المغفرة متوكلا عليه ولاجئا إليه في كل حالاته:

إلهي إني شاكر لك حامد وإني لساع في رضاك وجاهد

وإنك مهما زلت النعل بالفتى على العائد التواب بالعفو وعائد

ومالي على شئ سواك معول إذا أدهمتني المعضلات الشدائد

أغيرك أدعو لي إلها وخالفا وقد أوضح البرهان أنك واحد[1]

الوعظ:

وتميز هذا العصـــر بظاهرة الكتابة على القبور وربما كان الدافع وراءها إلى التذكير بالناس ووعظهم بأن الانسان مهما تقدم به العمر ومهما كانت المرتبة التي بلغها من النبأ مآله الموت،وقد شـــهدت هذه الظاهرة انتشـــارا كبيرا مما حدى بابن الأبار إلى القول"وللناس فيما يكتبون على القبور مثير مستجاد".

فقد أوصى ابن الزقاق أن تكتب أبيات زهدية على قبره،يقول منها:

إخواننا والموت قد حال دوننا وللموت حكم نافذ في الخلائق

سبقتكم للموت والعمر طية وعلم أن الكل لابد لاحقي[2]

ويؤكد أبوبكر بن ابراهيم القرشـــي أن الموت نهاية حتمية لكل انســـان مهما بلغ شأنه،فقد أمر أن يكتب على قبره:

لئن نفذ القدر السابق بموتي كما حكم الخالق

---

[1] قلائد العقيان،ص:٧١٧

[2] ديوان ابن الزقاق، ت محمود ديراني،جارالثقافة بيروت،ط:٢٠٠٥م،ص:٢٠٥

فقد مات والدنا وآدم ومات محمد الصادق

ومات الملوك وأشياءهم ولم يبق من جمهم ناطق

فقل للذي سره مهلكي تأهب فإنك بي لاحق[1]

تلك هي أهم الموضوعات التي تناولها الشعراء في هذا العصر، وهو يدل على أن هذا العصر لم يخرج عن الاتجاه المعتدل الذي يستمد أصوله من القرآن والسنة،ويسيره السلف الصالح.

شعراء الزهد الأندلسيون في عصر بني الأحمر

عرفت الأندلس مجموعة من أعلام .الأدباء والشعراء قبيل العصر الذي تناولته الدراسة، وبدأت هذه الحركة بالتسارع والنشاط واهتمام الأمراء والخلفاء بها من الفتح الإسلامي للأندئس، حتى أن السكان الأصليين للأندلس وسنهم النصارى قد تعلموا من أبناء العربية لغتهم وأساليبهم البلاغية والفنية لكتابة رسائلهم، فنجد مطرانهم يستتكر عليهم ذلك[2]

و"لا نجد من الشعراء الأندلسيين من القطغ للشعر دون سواه من الفنون سوى نفر قليل جدا، بل إن شهرتهم في الكتابة تعدل شهرتهم في الشس وفد تزيد، وصار انتحال الشعر ونظمه من الملح التي يقصدها كل متأدب سواء حوى ملكة الشعراء أم اجتلب قوله اجتلابا، فقل الجديد "منه لكثريه وابتذاله، وفي الكتبية الكامنة مثلا شعر للصوفية والقراء والفقهاء والخطباء والمدرسين والقضاة فضلا عن الكتاب والشعراء، حتى إنه ليذكر لأحدهم بيتين وينص على أنه لم يعثر له على سواهما ."[3]

وقد شاعت أغراض شعرية "جمة حتي شملت كل أغراض النثر، وبخاصة الأغراض العرضية التي تتحدث عن حاجات الإنسان اليومية، وما تقع عليه عينه، وانتشرت

---

[1] نفخ الطيب،ج:٤،ص:٢٠٠

[2] د. صلاح جرار، زمان الوصل ١٠،١١

[3] ابن الأحمر، شير فر الجمان في نظم فحول الزمن، تحقيق؛ محمد رطوان الداية، المخمة، ص ١٧٠

المقطعات الشـــعرية"لســـهولتها والاكتفاء بها للتعبير عن صـــغائر الأمور والحوادث والانفعالات، كما ساد.

الشعر الديني الذي يضم أربعة أنواع :

١ .شعر التصوف والمتصوفة .

٢ .وما يصدر عن الشاعر في حل التوبة والإنابة إلى الله مما يدخل في باب الزهد .

٣ .وشس التوسل الخالص ومديح الرسول صلى الله عليه وسلم .

٤ . والشعر الذي يقال في "المولد النبوي مما كان يطلق عليه اسم المولديات أو العيديات[1] .

وقد أفرد لسلن الدين بن الخطيب بابا خاصا في كثايه " الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة " للمختار من شعر الخطباء والصوفية، وكان ابن الأحمر يشير إلى من تقلد هذه الطريقة حين يترجم للأعلام في كتابيه [2] ."

وكما أشـرنا آنفا من أنّ علوم الأوائل من فلسـفة وطبيعة ورياضـة في القرن الثامن لم تزدهر لهجرة عدد غير قليل من العلماء من الأندلس، واسـتمرار سـلطان الفقهاء على منتحلي هذه العلوم، حتى شملت حملتهم الإزراء بالعلوم المرغوب فيها كا الطبيعة والرياضة والفلك، والمرغوب عن اعتقادها كالفلسفة [3]، إلا "أنه قد نبع في غرناطة نفرغير قليل من المشتغلين بالحساب والهندسة لضرورات التوقيت الشرعي، والهندسة المعمارية التي شغلت لب السلاطين "،[4] في حين نجد

---

[1] المصدر نفسه، المقدمة، ص ١٧٣، ١٧٤

[2] المصدر نفسه، المقدمة، ص ٤٩، وكتابا ابن الأحمرهما ﴿نثيرالجمان في شمر من نظمني واياه الزمان،والآخر هو: نثيرفوائد الجمان في نظم فحول الزمان﴾

[3] المصدر نفسه، المقدمة، ص ٥٣.

[4] الإحاطة، ج١، ص ٢٩٧.

أن هذه العلوم قد كثر المشتغلون بها بين المغاربة أنفسهم بشكل لم يسبق له مثيل، خاصة في العصر المريني حيث كان أكثر العصور تسامحا."[1]،و يعدالقرن الثامن عصر ذهبيا للكتابة والشعر بالقياس إلى ما تلاه من عصور، وبالقياس إلى المشرق، فنبع أمثل لسان الدين وابن زمرك وابن خلدون، واين الجياب، في المغرب والأندلس.

وليس بالإمكان اغفال الشعر الديني برمته عند الحديث عن شعر التصوف فمثلا الزهد وهو باب من أبواب الشعر الديني؛ هو السلم الطبيعي إلى التصوف والإشراق، بل إنه أول درجات التصوف، وقد نشأت مدرسة"التصوف الأندلسية وعلى رأيها محيي الدين بن عربي، الذي استمد تعاليمه من شيخه أبي عبد الله الغزال؛ رئيس المتصوفة في المرية على عهد الموحدين[2]، والأخير تلميذ ولي الله أو العارف بالله (أبي العباس بن عطاء الله المعروف يابن العريف ت ٥٣٦ هـ [3]) رأس الصوفية في الأندلس والمغرب الف كتب" محاسن المجالس"، وضمنة أصول طريقته الصوفية التي تركز فكرتها في الزهد عن كل شيء ما عدا الله، وهو أول من قال الشعر الذي يحمل السمات الصوفية" الشفافة مع مزيج بين أسلوب .العالم وإشراقة الواصل ورموز أهل الطريق، وقد تبنت فكرة الزهد طائفة من الشعراء، وكذا من أسرف منهم وتطرف فقد سلك طريق التصوف مذهبئا وظهر جليا في أشعارهم، إذ لم يكن المتصوف ليعبر عن الخلجات التي تعتور نفسه، والرغبات الروحية، والمواجد والأشواق إلا بالشعر الذى يتمكن به من الإلغاز، والإبهام على أية سلطة معادية لحركة التصوف؛ دينية ام سياسية .

فعبر الزهاد والمتصوفة عن مكنون مشاعرهم وحرارة إيمانهم تعبيرا صادقا بالشعر، وفنونه كالتوشيح والزجل؛ على أن فني الموشحات والأزجال يقتفيان أثر القصيد؛ فلا بد أن يقتحما مضمار التصوف؛ وهو ما كان بالفعل حين بدأ محيي الدين بن عربي

---

[1] ابن الأحمر، مصدر سابق، المقدمة ٥٣.

[2] السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ مدينه المرية الإسلامية، ص ١٨٤، ١٨٥

[3] ترجمة ابن العريف في: (نفحات الأنس للجامي، وشذرات الذهب، ج٤، ص١١٢، والعبر للذهبي، وكتابه محاسن المجالس، نشره آسين بلاثيوس ١٩٣١م)

الأندلسي (ت٦٣٨ هـــ) ينشئ توشيحا مليئا بأسباب الشفافية حاملا في ثناياه الكثير من مصطلحات الصوفية، وتعبيراتهم من عشق ووجد وبوح وكتمان[1]، حيث يقول فيه :

سرائر الأعيان لاحت على الأكوان للناظرين
والعاشق الغيران من ذاك في حران يتبدي الأنين

يقول" والوجد" أضناه والبعد" قد حيّره
لما دنا البمذ لم أدر من بعث فد غيّره
وهيم العبدوالواحد الفرد قد خيّره

ولم يختص التصوف بطبقة من الناس دون الأخرى، فقد شاع بين العامة والخاصة، وبين الأمراء والسوقة والعلماء والشعراء والكتاب والفقهاء والقضاة؛ فلا ننسى أن العلوم والقافات الوافدة التي رفدت حركة التصوف قد شاعت بين فئات المجتمع الأندلسى قاطبة .

وقد أسلفنا أن الأندلسي مثقف وموسوعي؛ يجيد الشعر إلى جائب النثر، والأدب إلى جانب الطب والفللك والفلسفة، فلا غرو أن نجد كذلك شعراء توسدوا مهام ومناصب في مملكة غرناطة مع قرضهم الشعر؛ فهنالك القضاة كالقاضي أبي البركات بن الحاج البلفيقي الذي بعث في سفارة إلى المغرب لتقديم تعزية ملك غرناطة إلى أبي بكر بن أبي عنان في وفاة والده، وهنأه بتولية العرش سنة ٧٦٠ هـــ [2]، والقاضي أبي بكر بن شبرين[3] (ت ٧٤٧ هـــ) الذي جمع بين منصب القضاء ووظيفة الكتابة [4]. وسنيوب في

---

[1] الشكعة، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

[2] الإحاطة، ج٢، ص ١٤٣، نفح الطيب، ج٥، ص ٤٧١.

[3] هو الشيخ الكاتب أبوبكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن علي بن شبرين، الفقيه القاضي، المؤرخ الكاتب، البارع، أصله من إشبيلية من أهل الدين والفضل والعدالة، تاريخيّ، غزل لوذعيّ، وشعره متعدد الأعراض، توفي عام ٧٤٧ هـ (الإحاطة، ج ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٩)، وترجمته في نفح الطيب، ج ٨، ص ٥٥، والمرقبة العليا، ص ١٥٣.

[4] ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص ٥١.

الصفحات القادمة للشعراء الصوفية في عصر بني الأحمر على امتداد قرنين ونصف من الزمان ؟ تبتدئ من القرن السابع الهجري وتنتهي بالفرن التاسع الهجري.

الشعراء الزهد في القرن السابع الهجري:

أيو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد ين عيد الله الحاتمي الطائي الأندلسي المشهور يابن عربي[1]، والملقب بالشيخ الأكبر وبالعارف الكبير وبالإمام المحقق الرباني (ت ٦٣٨ هـــــ)، وقد كان كثير التطواف والترحال يين المدن الأ ندلسيه وبين الأندلس والمغرب، واتجه نحو المشــرق متنقلا بين الشــام وبغداد والحجاز، واســتقر في دمشق، وله مؤلفات بلغ تعدادها في رأي البعض نحوا من مئتي مؤلف بين كتاب ورسالة ومصنف، وذهب البعض إلى أن له أربعمئة كتاب ورسالة [2] وهو من شعراء الموحدين، على أن ذكره هنا كان لاعتماد التصوف عليه في الأندلس فيما بعد.

ـــــــ ومنهم أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الشهير بابن سبعين العكي المرسي الأندلسي (ت٦٦٧ هـــ / ١٢٧٠م)، من بيت كريم نابه، ودرس العربية يالأندلس، ثم رحل إلي سبتة، وسكن بجاية، وانتحل التصوف، وأنشأ جماعة من الفقراء السفارة وأصحاب العبدات أسماها "السبعينية "، وثار عليهم الفقهاء لطريقتهم [3] وقد وضع ابن سبعين كتبا عدة استخدم فيها الألغاز والرمز بالحروف، وله اصطلاحات ذات معان رمزية بعيدة عن المألوف، وقد وصلت أخبار عليه الواسع إلى مسامع كونت روما والبابا، وعندما عرضت للإمبراطور فردريك الثاني النورماندي ملك صقلية بصغ مسائل

---

[1] ذكر ابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب" أنه يقال له ابن العربي، والصحيح ابن عربي دون "ال" التعريف، أما ابن العربي (بأل التعريف)، فهو قاضي قضاة إشبيلية أبوبكر محمد بن عبدالله ابن العربي الذي سبق محيي الدين بن عربي بقرن من الزمن، وهو محدث أندلسي كانت ولادته في إشبيلية سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م، ومات في فاس سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١م (ترجمان الأشواق، ابن عربي، المقدمة، ص ٦)

[2] ترجمان الأشواق، ابن عربي، المقدمة، ص ٦، ٧، ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٥/١٩٠

[3] (برع ابن سبعين في طريقة الشوذية، وهي طريقة صوفية) الإحاطة، ج٤، ص٣٢، ٣٣، بالنثيا، مرجع سابق ص ٣٦٨، ٣٨٧.

فلسفية، بعث يستفتى فيها علماء مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى واليمن، فلم يجد جوابا شافيا، فأرسل إلى ابن سبعين وعهد إليه بالإجابة عنها[1].

ومن أئمة المتصوفين أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٨٠م)، أصله من ششتر إحدى قرى غرناطة ونزل برابطة العقاب، ودرس علوم المسلمين المعروفة "من فقه وسنة ولغة، كما درس المذهب المالكي والشافعي، والأدب العربي والأندلسي والفلسفة ومذاهبها والتصوف ورجاله ومذاهبه وتلمذ على يد المتصوف محيي الدين بن سراقة الشاطبي (ت ٦٦٢ هـ / ١٣٦٤ م)، وابن سبعين، وقد عرفه أقطاب الشاذلية مثل أبي الحسن الشاذلي (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وأبي العباس المرسي (٦٦٨هـ/١٢٧٠م)، وابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، ووضع الششتري كتبا كثيرة منها "العروة الوثقى في بيان السنن وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده إلى وفاته" و " المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية "[2]، كما كتب في التصوف زجلا بسيطا بلغة عامية، وفي بساطة نادرة، وانتقل الششتري إلى دمياط وكانت الحروب الصليبية" على أشدها فاتخذ له رباطا بها.[3]

– مالك بن عبد الرحمن ين علي بن عبد الرحمن بن الفرج ين أزرق بن سعد بن سالم بن الفرج مالقي النشأة، سكن سبتة طويلا ثم فاس، ثم عد إلى سبتة، وبأخرة إلى فاس، يكنى أبا الحكم وأباالمجد، والأولى أشهر، ويعرف بابن المرحل، وهو شاعر رقيق مطبوع، متقدم، سريع البديهة، رشيق الأغراض، ذاكرا للأدب واللغة، ولي القضاء بغرناطة وغيرها، كان حسن الكتابة، إلا أن الشعر غلب عليه، وحاز من جيله رتبة التقديم، وله تواليف كثيرة، منها مختاره الذى سماه (الجولات) وسنه الصدور والطالع، وله العشريات والنبويئات على حروف المعجم، والتزام افتتاح بيوتها بحرف الروي وسماها

---

[1] نيل الابتهاج، ص ٢٨٤، عنوان الدراية، ص ١٣٩، الإحاطة، ج٤، ص ٣١ ـ ٣٨، بالنثيا، مرجع سابق، ص ٣٨٧.

[2] النفح، ج٢، ص ٣٨٤، الطو، مرجع سابق ص ٣٤٥.

[3] أزحار الرياض، ج٢، ص ٢١٨.

(الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة) وعشرياته الزهدية، وأرجوزته المسماة (سلك المنخل لمالك ين المرحل)، توفي سئة ٦٩٩ هـ، ودفن بمقبرة فاس.[1]

الشعراء الزهد في القرن الثامن الهجري:

الخطيب الصالح المتصوف الشهير، أبو جعفر أحمد بن الحسن بن علي الكلاعي المعروف بابن الزيات (ت ٧٢٨هـ)[2]، من تأليفه في التصوف "اللطائف الروحانية والعوارف الربانية ."

ومنهم أيو عبد الله، محمد "ين عمر بن علي بن إيراهيم المليكشي، شاعر صوفي، أديب فاضل، كتب عن الأمراء بإفريقية، ونال حظوة، ثم شرق وحج، ووصل الأندلس عام ثمانية " عشر وسبعمئة، فلقي بغرناطة حفاية، ثم انصرف إلى موطنه، وأقام به، وله شعر أنيق، وتصوف وتحقيق، وتوفي في تونس عام أربعين وسبعمئة[3].

الشيخ "الرئيس أبو الحسن علي بن محمد ين علي بن سليمان بن الجياب الأنصاري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)، كان فذا في المسائل الأدبية البيانية، مشاركا في علم التصوف، كتب عن الدولة النصرية نحوا من خمسين سنة أو ما ينيف عليبا، شعره كثير مدون، يشتمل على الأغراض المتعددة من المعشرت النبويات، والقصائد السلطانيات، والإخوانيات، والمقطوعات الأدبيات، والألغاز والأحجيات.[4]

---

[1] ترجمة مالك بن المرحل في: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج١، ص ٣٢٨، ٤٧٢ ـ ٤٧٥، ج ٣ ص ٣٠٣ ـ ٣٢٤ جذوة الاقتباس في ذكرمن حل من الأعلام مدينة فاس ص ٣٢٧، الأنيس المطرب بروض القرطاس لعلي بن أبي زرع الفاسي، ص ٣٠٨ ـ ٣٧٦، الذخيرة السنية، ص ٣٢٧، والحلل السندسية في الأخبار التونسية لمحمد الأندلسي السراج، ج١، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦ وبغية الوعاة في أخبار اللغوبين والنحاة لجلال الدين السيوطي، س ٣٨٤، ونفح الطيب للمقري، ج ٣٠٥، ١٠، وأزهار الرياض ج٣، ص ٢٦٣، وإيضاح المكنون، ج٢، ص ٢٢٧، ٥٨٣، ٧٠٧، وهدية لعارفين، ج٢، ص١، وطبقات القراء لابن الجزري، ج٢ ص ٣٦، وسلوة الأنفاس، ج٣، ص ٩٩.

[2] ترجمته في الإحاطة، ج١، ٢٨٧، الكتيبة، ص ٣٤ (وهو من أهل بلش مالقة، وتوفي فيها)

[3] الإحاطة، ج٢، ص٥٦٣ ـ ٥٧١

[4] ترجمته: الإحاطة، ج٤، ص ١٢٥، الكتيبة، ص ١٨٣، نثير الجمان، ص ١٢٥، نثير فرائد الجمان ص ٥٥، نفح الطيب، ج٥، ص ٤٣٤، درة الحجال، ج٣، ص ٢٣٤، الديباج المذهب، ج٢، ص ١١١، شجرة النور الزكية، نيل الابتهاج، ص ٣٢٧.

الشـيخ الوزير القائد الكاتب أيو بكر بن ذي الوزارتين أبي عيد الله بن الحكيم (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م)[1]، الذي ألف ديوان شعريا يسمى "بشارة القلوب"، تضمن أخبارا أدبية وصوفية.[2]

ابن جعفر القونجي[3]، من أهل غرناطة، كانت له مكانة رفيعة، التقى بالمشـرق الشيخ الإمام تاج الدين بن عطاء الله السكندري، ولازمه وانتفع به، كما لقي تاج الدين أبا العباس المرسـي ولازمه، وكان جاريا على طريقة الشـيخ أبي الحسـن الشـاذلي، وكانت له طريقة في التصـوف، انتشـرت في ذلك الوقت، ووضـع كتابا أسماه" الأنوار في المخاطبات والأسرار" ضمنه جملة من كلام شيوخه .[4]

الشـيخ"الكاتب الرئيس أيو جعفر أحمد"بن إبراهيم بن أحمد بن صـفوان القيسـي،[5] (ت ٧٦٣هـ) من أهل مالقة، كان صدرا من صدور الكتب، قوي الإدرالك، أصيل النظر ذاكرا للتاريخ واللغة، مشـاركا في الفلسـفة والتصـوف ومن أسـاتذته ابن عبد الملك المراكشـى وابن البناء، من تواليفه: مطلع الأنوارالإلهية" وبغية المسـتفيد، كان من حمة العلوم العقلية، إمام الفرا ئض والحساب والأدب والتوثيق، ذاكرا للتاريخ واللغة مشاركا في الفلسفة والتصوف، كلفا بالعلوم الإلـهية، آية الله في فلك المعمـى، وهو كاتب وشاعر، له ديوان شعر جمعه ابن الخطيب سنة" ٧٤٤هـ/١٣٤٣م وسماه" الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة[6] .

---

[1] الكتيبة، ص ١٩٥، ١٩٦، الإحاطة، ج ٢، ص ١٩٩، النفح، ج٨، ص ١٢.

[2] الطوخي، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

[3] هو محمد بن أحمد جعفر بن عبدالحق بن محمد بن جعفربن محمد بن أحمد بن مروان بن الحسن بن نصر بن نزار بن عمرو بن زيد بن عامر بن نصر بن حقاف السلمي، ولد عام ٦٦٧ هـ، وتوفي عام ٧٥٠ هـ (الإحاطة، ج ٣، ص ٢٣٤ - ٢٣٦).

[4] الإحاطة، ج٣، ص ٢٣٦ - ٢٣٤.

[5] الكتيبة، ص ٢١٦، الإحاطة، ج١ ص ٢٢١ - ٢٣٢.

[6] الكتيبة، ص ٢١٦ - ٢٢٣، الإحاطة، ج١، ص ٢٢٧، ٢٢٨

ابن خاتمة الأنصاري (ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م)[1] ابن محمد بن خاتمة الأنصاري المريني، الأندلسي، وهو طبقة في النظم والنثر، كتب عن الولاة ببلده، وقعد للإقراء ببلده، أجازه أبو البركات بن الحاج، دخل غرناطة غير ما مرة، عند اعذار الأمراء في الدولة اليوسفية سنة"٧٥١ هـ [2]

أيو البركات بن الحاج البلفيقي (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م)[3]، ويعرف باين الحاج، شيخ لسان الدين ين الخطيب، ارتحل إلى المغرب أكثر من مرة في طلب العلم، ووصل بجاية، ثم عاد إلى الأندلس فتولى القضاء والإقراء والخطابة بالمرية موطنه، ومالقة وغيرهم، أثنى عليه تلامذته ومنهم ابن الخطيب وذكر له مؤلفات عدة منها "تاريخ المرية" و"المؤتمن على أنباء أبناء الزمن"، وجمع أبو البركات شعره في ديوان سماه " العذب والأجاج في شعر أبي البركات بن الحاج.[4]

لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤ م) وهو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني اللوشي المعروف ب لسان الدين بن الخطيب"، وقد برغ في التاريخ والأدب والفقه والأصول والطب والتصوف، وكان وزيرا لبني الأحمر، وهوجم من أعدائه فاتهموه بالالحاد والزندقة، وله تصانيف كثيرة، وما يخص موضوع بحثنا كتاب روضة التعريف بالحب الشريف" الذي قيل إنه الكتاب الذي كان سببا في قتله.[5]

---

[1] ترجمة ابن خاتمة في : الإحاطة في اخبار، غرناطة لابن الخطيب ج١، ص ١١٤ ـ ١٢٩، الكتيبة الكامنة ٢٣٩ ـ ٢٤٥، الإكليل الزاهر لابن الخطيب: ٢٢٣ (ملحق برسائل لسان الدين في كتابه: ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)، ونثير فراءد الجمان لابن الأحمر: ٣٣١، و نثير الجمان، ودرة الحجال لابن القاضي١: ٤٠، ونيل الابتهاج للتنبكتي: ٧٢، مسالك الأبصار لابن فضل العمري ١١: ٥٠٢ ـ ٥٠٣، نفح الطيب للمقري، كتابه الآخر ازهار الرياض(مواضع متفرقة)، وهدية العارفين للبغدادي ١: ١١٣، شجره النور الزكية: ٢٢٩.

[2] الإحاطة، ج١، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٩.

[3] ترجمته في الإحاطة، ج٢ ص ١٤٣، ال

[4] الإحاطة، ج٢، ص ١٤٨، والمقري يورده في نفح الطيب (اللؤلؤ والمرجان من بحر أبي البركات يستخرجان).

[5] ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، المقدمة، ص ١٨ ـ ٣٦، ترجمته في نثير فرائد الجمان، ص ٥٨، نفح الطيب، ج٦، ٧ تاريخ ابن خلدون ج ٧، ص ٦٨٦ وما بعدها، محمد عنان، لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه.

الصـــوفي المتأله أبو عمرو محمد بن يحيى بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن عباد الرندي النفزي(ت ٧٩٢هـــ) [1]من أهل رندة، رحل الى المشرق، ولقي العلماء والصوفية، ثم كر إلى الأندلس، يتكلم في المعقولات والمنقولات على طريقة الحكماء والصوفية، زوار للربط، صبار على المجاهدة.[2]

محمد ين يوسف الصريحي الملقب باين زمرك (ت بعد ٧٩٧هـــ/ بعد ١٣٩٥م) يكثى بأبي عبد الله، كان متشوفا إلى السلوك، مصاحبا للصوفية، أخدا نفسه بارتياض ومجاهدة.[3]

وأبو القاسم، محمد بن "يوسفة بن خلصون، سكن لوشة وغرناطة ومالقة، كان من جلة المشيخة، وأعلام الحكمة، منقطع القرين في المعرفة بالعلوم العقلية، متبحرا في الالهيات، إماما في طريقة الصـــوفية، من أهل المقامات والأحوال، شـــاعرا مجيدا، ومن تاليفه في التصـــوف" وصـــف الســـلوك إلى معر ج الملوك"، عارض به معراج الحاتمي، ورسالة" الفتق والرتق في أسرار حكمة الشرق[4]

وأبو إســـحاق بن الحاج النميري[5]، من أهل غرناطة، له كتب في التصـــوف منها" تتعيم الأشباح بمحادثة الأرواح "، وكثاب " اللباس والصحبة " جمع فيه طرق المتصوفة، المدعى أنه لم يجمع مثله.

الفصل الثالث: أثر التصوفِ في الملامح اِلفنيةِ للشعر اِلأندلسي في عصر بِني الأحمر

ربما يكون الخطاب الشعري الصوفي من أهم الخطاباتِ الشعرية على تباين أنماطِها؛ "لأن الصوفية اَلفنية هي وجدانية أُلوجود في أبسط تِعريفٍ لها، وبالمواجدِ ينتصر وُجدان

---

[1] الكتيبة، ص ٤٠ ـ ٤٤، الإحاطة، ج٣، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٦، النفح، ج٧، ص ٢٦، نيل الابتهاج، ص ٢٨٧.

[2] اليحاطة، ج٣، ص ٢٥٣.

[3] ترجمته في الإحاطة ٣٠١/٢، الكتيبة الكامنة، ص ٢٨٢، نثير فرائد الجمان، ص ٣٢٧، نيل الابتهاج، ص ٢٨٢، والدرر الكامنة، ص ٣١٢، أزهار الرياض، ٧/٢ ـ ٢٠٦، نفح الطيب ١٦٥/٧.

[4] الإحاطة، ج٣، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧

[5] هو إبراهيم بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم بن أسد بن موسى بن ابراهيم بن عبدالعزيز بن اسحاق بن اسد بن قاسم النميري، ولد بغرناطة سنه ٧١٣هـ، عرف بأمداحه في الشعر (الإحاطة، ج١ ص ٣٤٢ ـ ٣٦٣، والنفح، ج٩، ص ٣١٥، ونيل الابتهاج، ص ١٤.

الشاعر الصوفي على وجودِه، والمواجد هي الاشتعالاتُ الداخلية المُشفّرة بأسئلةٍ باطنية عميقة تِعاني لذة طرحِها حســـب، دون ركون أِو اطمئنان لِأيةِ إجابة مِحتملةٍ؛ لأن الإجاباتِ نفسها عند الشاعرِ الصوفي مّغتربة، وملتبسة وٌمتحولة إُلى أسئلة فِرعيةٍ أخرى، إذ لا يتبقى من محصول اِلرؤيا[1] إلا سديم مُكتفٍ بنفسه، ولا يتبقّى للمتلقي الذكي إلا دخولُه في الانفعال اِلقرائ ي الخّلاق الذي يقوده إلى تعبٍ جميلٍ ممتع.[2]

ويعد " الرمز وانحراف اُلألفاظ واِلتراكيب عِن معانيها الأولى إلى معانيها الثانية والثالثة أهم سمةٍ فنيةٍ في الأدبِ الصوفي، وعلاقة الصوفية والأدب عامة هي علاقة فنية خالصة، فكلاهما يشترك" بأسلوبِ الرمزِ.[3]

واللغة اُلصوفية ُ"كنائية إُيحائية، رمزية اُلأصل، وعندما تدخلُ القصيدة يَورطها الخيالُ بطاقة جمالية مِضاعفة، حتى لكأن اللغةَ تَصبح في بعض مستوياتِها هدفًا من أهدافِ القصيدةِ الصوفيةِ، وتغدو البنية اُلنحوية مُطواعة مَّرنة تَّتقبل اُلرؤيا المراوغة، متشكلة في تراكيبِها حسب إَرادةِ البناء" الفني الكلي في النص الصوفي[4].

أولا : الرمز الشعري

الرمز لغة: "كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ أو أي شيء أشرت إليه بيد أو عين"[5]، ورد في القرآن الكريم: ﴿ وأّلا تكلِّم الناس ثلاثةَ أيامٍ إلا رمزا ﴾[6]، و﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا... فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾[7]، فسرها ابن عربي بالإشارة والإيماء.[8]

---

[1] الرؤيا؛ قفزة خارج المفهومات السائدة، أي أنها تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النظر إليها (أدونيس، زمن الشعر، ص٩)

[2] راشد عيسى، الخطاب الصوفي في الشعر المعاصر(قراءات ذوقية)، المقدمة، ص ١٠

[3] راشد عيسى، المرجع نفسه، ص ٣

[4] راشد عيسى، المرجع نفسه، المقدمة، ص ١

[5] ابن منظور، لسان العرب، مادة رمز.

[6] سورة آل عمران، آية (٤١)

[7] سورة مريم، آية ٢٦ و٢٩

[8] ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ١، ص ١٨

وقد استخدم الصوفية فُي التعبيرِ؛ الإلماع لما يريدونه بالإشارة وِهو المفهوم المقارب للرمز؛ وهي على غموضِها إلا عليهم، تند عن العقل العادي، ويعجز عن نقلها أو التعبير عنها اللفظ أُو اللسان، وقد أدرك الصوفية ذُلك فكان مما قالَه أبو الحسن اِلششتري في موشّحاتِه:

إشاراتي لمحبوبي ورمزي يفهَموا

ومَن لا يفهم المعنى ويجهلْ علَّموا

وسر الحب والنَّجوى عن الغير اكتُمُوا[1]

وقال أيضًا:

أنت يا فقيه سلِّم وافهم الرموز

واقتدي بمَن يعلم حلّ ذي اللُّغوز

وادن منِّي تَتْعلَّم كُلَّ ما تعُوز [2]

وللرمز مِفاهيم متعددة أُبرزها؛ الرمز الإشار ي وهو أساس الأديان جِميعِها في الأصل، أما في الشعر فِالرمز يعيد الشعر إلى طبيعتهِ الأولى؛ لأن الشّعر في أصول أِغراضِه لا يُنوه عن الأشياء اِلواقعيةِ مباشرة، بل يعبّر عنها بطريقةٍ صورية إِشارية، فالرمز جسد لآخرِ تطور بِلغته الصورةُ، وهذا ما سبقَ به الصوفيون الشعراء الرمزيين في العصر الحديث، و" اللغة عُند الرمزيين جهاز معقد مُن الرموز، وهي ليست مجرد أداةٍ نقلية ضمن أدواتٍ أخرى، ولما كانت لا تمنحنا حقائقُ الأشياء، أفضت هذه الطبيعة فيها إلى أن تكون لدى الشعراء سبيلاً إلى الإيحاء، والإيحاء مواربة ورغبة فُي التحجبِ والتخلّص من الحماس اِلتلقائي، إنّه يثير للصورة دِلالاتٍ متنوعة. ولفهم اِلإيحاء اِلذي يعول عليه الرمزيون، يمكن مقارنته بما يقرب إلينا استبطان معناه، فالأشياء لا تبدو على نحو واضح ومحدد، وإنما تتراءى كما تتابع الصور فِي الأحلام، هذا الإيحاء يفسر ما يصادفنا من

---

[1] الششتري، الديوان، ص ٩٥

[2] الششتري، الديوان، ص ١٠٤

غموض أحيانا في شعر الرمزيين، إلا أنّه غموض يُؤسس تحجبًا لا يمكن اعتباره فارغًا من الدلالةِ أو الماهية "[1]، على "أنّه نشـــأ القولُ بأن الرمز علاج نُاجع للغةِ العاجزةِ التي لا تفي بكامل شِروط الأداء؛ فهو متمم لها يقيلُها من عثرتِها"[2]

أما الجوهر الذي ربط الرمز بالصــوفية؛ هو أن الشــعراء المتصــوفة كَانوا يعدون كلّ جميل في الأرض إنما هو لمحة من جمالِ الله، وجعلوا العالم خيالا لا حقيقة، وانعتقوا من الحواس، وتركوا العنان لَلروح حتى تنطلقَ في شــطحاتها، كما أن نزعتَهم نحو المشــاهدة أشبه بفكرةِ المجهول والغريبِ التي تغلف النزعة الرمزية.[3]

والرمز عند الصــوفية هو ذلك الظاهر الذي يتموضــع فيه باطن الأشــياءِ وجوهرِها، فالظاهر والباطن ذانك الضــدان لا ينفصــلان عِن بعضِــهما بحال، فهما الدال والمدلولُ، والرمز والمرموز إليه. وقد تبدى الصــــراع بُين أهل الشــــريعةِ وأهل الحقيقةِ على هذين الضدين، وانقسما بناء عليهما إلى أهل الظاهر، وأهل الباطن، كما في قول ابن عربي:

كلّما أذكره من طلل أو ربوعٍ أو مغان كِلّما

وكذا إن قلتُ ها أو قلت يُا وألا، إن جاء فيه أو أما

وكذا إن قلت هُي أو قلت هُو أو همو أو هن جمعا أو هما

وكذا إن قلت قُد أنجد لَي قدر في شعرنا أو أتهما

فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تَعلما [4]

وإن كان الرمز يشــــي بالغموض والإبهام، فهو كذلك الرؤيا وتأويلها، وقد صــــنّف الصــوفيون الرؤيا إلى مراتب، و" أسماها تلك التي تســمّى المبشــرات، وهي التي بدأ بها الوحي.[5]

---

[1] عاطف جودة نصر، الخيال مفهوماته ووظائفه، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢

[2] أنطون غطاس كرم، المرجع نفسه، ص ١٢

[3] أنطون غطاس كرم، المرجع نفسه، ص ١١٢

[4] ابن عربي، ترجمان الأشواق، ص ١١ ،١٠

[5] محمود قاسم، الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي، ص ١٨

ولقد عبّر الصـوفية عن مفهومهم للخمر اِلرمزي بأسـاليب مختلفة، دارت كلّها حول معنى اللذة اِلتي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾[1]

ولرمز الخمر عندهم إشـــارات كُثيرة، من بينها: الإشـــارة إُلى الذات الإلهية، أو إلى الأسرار، أو إلى الحب الإلهي، كما في قول الششتري:

سقيتُ كأس الهوى قديمًا من غير أرضي ولا سمائي

أصبحتُ بهِ فريد عصري بين الورى حاملاً لوائي[2]

وقوله في موضع آخر:

طاب شُرب المدامِ في الخَلَواتْ أسقني يا نديم بالآنياتْ

خمرةٌ تركُها علينا حرام ليس فيها إثْم ولا شُبهاتْ

عتّقَتْ في الدنان مِن قبل آدم أصلها طيب من الطيباتْ

أفتِني أيها الفقيه وقل لي هل يجوز شربها على عرفاتْ

أو يجوز الطَّوافُ والسعي بها ويُلبى ويُرمى بالجْمراتْ [3]

أو قد تشـــير الخمرةُ إلى التصـــوفِ أو علم اِلحقيقة، أو إِلى المعارف الربانية، أو إلى التجلي الإلهي، أما الأواني التي يسقى فيها الخمر فمن مرموزاتها؛ الكأس يُرمز للإنسـان، والقدح بمعنى بدن العابد، والأواني بمعنى العلاقة بين المحب والمحبوب، وال دنان بمعنى المعارف الصـوفية، كما جاء التراثُ الصـوفي للفظة اِلسـكر بمعان مٍختلفة منها؛ الغفلة، والغيبة، والفخر، والرقي الروحي، والفناء.[4]

ومن ذلك قولُ الششتري:

فجر المعارفِ في شرق الهدى وضحا بسملْ بكاسك هذا اليوم مفْتَتِحا

---

[1] سورة محمد، الآية ١٥

[2] الششتري، الديوان، ص ٣٣

[3] الششتري، الديوان، ص ٣٥ ـ٣٦

[4] حسن الفاتح، المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية، ص ١٧٨ ـ ١٨٨

واشرب وزمزِم ولا تُلوي على أحد ولا تُعرج على من ذاق ثم صحا

فإن تجوهرت فاشطح فالسكون هنا لا ينبغي إنما السكران مَن شطحا

يا حبذا كلّ من أبدى مواجده ولم يعربد وقال الحقَّ وافتضحَا[1]

يقول ابن خاتمة:

أدر كؤوس الرضا نارا على علم لِا خير في لذةٍ بتّا لمكت

ولتجلُها بنتَ دن عمرها عُمري تستدرج العقل فعل الشيب باللممِ

مشمولة نَّسجتها للشمال يد وْألطفتها أكفُّ اللطف فِي القِدمِ

فما لها غير روحِ الروحِ من قدح وِلا لها غير سر السر من فدم[2]

ومن ذكر الخمرة المقدسة، قول ابن الخطيب:

فاشرب على ذكر الحبيب وسقِّني صهباء تشرق في الظلام الداجي

من خمرة السر المقدسة التي كَلُفت بطاستها يد الحلاجِ

وأرت له الأشياء شيئا واحدا فغدا يخاطب نفسَه ويناجي

رفعوا لها قبَسا بجانب طورهم فعشوتُ نحو سراجه الوهّاجِ

وبحثتُ عنها خمرة لَّما تزل سْبب النجاة لطالب أِو راج[3]

"أما الطبيعة فتحولت لدى الشعراء المتصوفة إلى مكافئ رمزي لأسرارٍ غنوصية تدور على الحكمة المقدسة، والتجلي الإلهي في الصور، والتضايف بين الفعل والانفعال، بنسق رمزي أشرب الكون تصورا لواحدية الوجود، سواء في شكلها الميتافيزيقي المجرد، أو في مظهرِها" . الوجداني المتدفق بالصور والمجازات[4]

---

[1] الششتري، نفسه، ص ٣٧ (وبسملْ بكأسك؛ أي اجعل كأسك في مقام البسملة، أي باسم الله الرحمن الرحيم، أي ابدأ اليوم، بكأس والكأس هو كأس المعرفة، أوالعلم الذوقي، الششتري، هامش الديوان، (ص ٣)

[2] ابن خاتمة، الديوان، ص ١٨

[3] ابن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، ص ٣٤٩، ٣٤٩

[4] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص ٢٨٩

ثانيا: المصطلحات

المصـــطلح لغة: على وزن مفتعَل، من الصـــلح، وهو تصـــالح القوم فيما بينهم، وقد اصطلحوا وأصلحوا، وتصالحوا، وأصّالحوا (مشددة الصاد، قلبوا التاء صادا أو أدغموها بمعنى واحد)، وهو إصلاح الشيء بعد فساده.[1]

أما المصـطلح في النص الصـوفي: فثمة نوعان من المصـطلحات في النص الصـوفي؛ حيث يفرق ابن عربي بين المصطلح العام في الخارج، والمصطلح الخاص في الباطن قائلا:

"كل طائفة اصـــطلحت على لغة ولســـان للتوصـــل، فاجعل طائفتك معالم الحقّ، فافهم عنه واحفظ لســانه ولغته[2]"، فالنص الصــوفي لا يفهمه إلا أهله، إلا أن لغتهم لا تعلّم وليس لها إلا قواعد الســلوك المعرفي الروحاني، فمن هناك يتعلمها الســالك ويتقن معرفة ماهيات المصطلحات المادية ويبتدع رموزها.

إن السلوك المعرفي هو ما يسمّى بالسفر، أي الإسفار، وحقيقة فعله إزالة الحجاب عن المصـــطلح العام الخارجي(المادي) ورؤية الوجه الحقيقي للكلمة في الخارج ــ رؤية الحقيقة/ الكلمة، أو الخروج من الظاهر (عالم الكون والفســاد) إلى الباطن (عالم المثل ــ الحقيقة)[3]، وهذا السفر في حقيقته يتضـمن ثلاثة أسـفار، وقد خصـص ابن عربي كتابا سماه كتاب الأســفار يقول فيه: " إن الأســفار ثلاثة لا رابع لها أثبتها الحّ ق عز وجل وهي: سـفر من عنده، وسـفر إليه، وسـفر فيه...وما منهما سـفر من هذه الأسـفار إلا وصـاحبه فيه على خطر إلا أن يكون محمولا،" كالإسـراء، فكل من سـوفر به نجا، وكل من سـافر من غير أن يُسـافَر به فهو على خطر[4] وهذا السـفر في حقيقته (العلم)؛ لأنه الإسفار أي الكشف (إزالة الحجب)، ولا يكون ذلك إلا بالسفر أو العبور من الجسد إلى الروح أو من عالم المادة إلى عالم الجوهر أو العلم بالله.[5]

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة صلح

[2] رسائل ابن عربي، كتاب التراجم، ص ١٢

[3] خديجة صفا، تقنية الفهم التتابعي (قراءة جديدة للتحولات البنائية)، ص ٥٧

[4] رسائل ابن عربي، كتاب الأسفار، ص ٣

[5] ابن عربي، الفتوحات المكية، ج ١، ص ٣١٩

وأولى المصطلحات وأهمها التصوف؛ وقد عبر الشعراء عن هذا المصطلح بدلالات مختلفة، منها (بحر الله) في قول الششتري:

ركبتُ بسر الله في بحر عِشقكم فيا رب سلِّم أنت نِعم المسلِّم[1]

ولقد عبر الشاعر أبو سعيد بن اللب التغلبي عن مصطلح التصوف ب (طرق الهوى)، حيث يقول:

"بدعوى الهوى يدعو أناس وكلّهم" إذا سئلوا طُرقَ الهوى جهلوا الطُّرقا

فطرق أُلهوى شتى ولكن أهله يحوزون في يوم اِلسباق بِه السبقا

فكم جمعتْ طرق أُلهوى بين أهلها وكم أظهرتْ عند السرى بينَهم فِرقا

"بسيما الهوى تسمو معارفُ أهله" فحيث ترى سيما الهوى فاعرف الصدقا[2]

على أنه على الامتداد الزمني للقرن السادس الهجري، والقرن الذي يليه يصبح الشعر الأندلسي أكثر نضجًا وازدهارا في القصيدة الصوفية، حيث يفرط الشاعر في استخدام المصطلحات الصوفية، ومن ذلك قول أبي إسحاق النفري[3] في مقطوعة له:

يضيق علي من وجدي الفضاء ويقلقني من الناس العناء

وأرض الله واسعة، ولكن أبت نفسي تحيط بها السماء

رأينا العرش والكرسي أعلا فوالينا هما حرم الولاء

فأين الأين منا أو زمان بحيث لنا على الكلّ استواء

شهدنا للإله إليه حقا فيؤنسني من الخوف والرجاء

ويقبضني ويبسطني ويقضي بتفريقي وجمعي ما يشاء

فكم أخفي وجودي وقت فقدي كأن الفقد والإحيا سواء

---

[1] الششتري، الديوان، ص ٦٦

[2] الكتيبة، ص ٦٨،٦٩

[3] سبق التعريف به عند شعراء المتصوفة في القرن الثامن في الفصل الأول من الدراسة

فسكر ثم صحو ثم سكر كذاك الدهر ليس له انقضاء[1]

ومن الملاحظ أن الشاعر يكثّف قصيدتَه بالمصطلحات مما لا يدع نطاقًا للفنيات الشعرية بالتجلي في أثنائها ومن الشعراء الصوفية ذوي المنحى الفلسفي أبو الحسن علي الحرالي التّجيبي(ت ٦٣٨ هـ) الذي يقول:

أشرقت أنفسنا من نوره فوجود الكلّ من فيض الكرم[2]

وهذا الفيض المستخدم هنا يريد به الصوفية؛ التجلي الإلهي في الكثرة الوجودية، ويقسمه ابن عربي إلى فيضين: أقدس، ومقدس، والفيض الأقدس: هو تجلي الذات الأحدية لنفسها في صور جميع الممكنات التي يتصور وجودها بالقوة، وهو أول درجة من درجات التعينات في طبيعة الوجود المطلق، ولكنها تعينات معقولة لا وجود لها في عالم الأعيان الحسية، بل هي مجرد قوابل للوجود يطلق عليها ابن عربي (الأعيان الثابتة) للموجودات في عالم المثل، والفيض المقدس: هو الذي يوصف عادة باسم التجلي الوجودي، أو تجلي الواحد في صورة الكثرة الوجودية؛ فهو ظهور الأعيان الثابتة من العالم المعقول إلى العالم المحسوس.[3]

فالفيض المقدس هو من تجليات الفيض الأقدس؛ فبالأول تحصل الأعيان الثابتة، واستعداداتها الأصلية في العلم، وبالثاني تحصل تلك الأعيان في الخارج أي في عالم المشاهدة.[4]

و عرف كذلك عند الصوفية؛ الكشف على أنه لا يكون صحيحا كاملا عندهم إلا إذا كان ناشئا عن الاستقامة؛ لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخَلوة، وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين، فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرآة فيما ينطبع فيها من الأحوال، ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ٣٧٠

[2] الغبريني، عنوان الدراية، ص ١٠٠

[3] ابن عربي، فصوص الحِكَم، ج ٢، ص ٨ ـ ٩

[4] عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ص ٢٠٩

في حقائق الموجودات العَلَوية والسـفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسـي، وأمثال ذلك، وقصُرت مدارك مَن لم

. يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك [1]يقول ابن خاتمة :

أيا غائبا عن حضرة القدس قد نبا به الطبع أن يأتي هدى أو يواتيا

أما تتقي بأسا، أما ترتجي ندى أما تنتهي وعظا، لقد ظَلتَ هازيا

إذا ما دعاك الخطب كي ترعوي له تداركك اللطفُ الخفي تلافيا

إليك إشارات وُعنك عبارة وُفيك أمارات فُلا تك سُاهيا

ومصطلح " الحضرة " عند الصوفيين يعني: "الحضرات الخمس الإلهية: حضرة الغيب المطلق، وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضـرة العلمية، وفي مقابلتها حضـرة الشـهادة المطلقة وعالمها عالم الملك، وحضـرة الغيب المضـاف وهي تنقسـم إلى ما يكون أقرب من الغيب المطلق، وعالمه وعالمه عالم الأرواح الجبروتية والملكوتية أي عالم العقول والنفوس المجردة، وإلى ما يكون أقرب من الشـهادة المطلقة، وعالمه عالم المثال ويسـمى بعالم الملكوت، والخامسة الحضرة الجامعة للأربعة المذكورة، وعالمها عالم الإنسان الجامع بجميع العوالم وما فيه، فعالم الملك مظهر عالم الملكوت، وهو عالم المثال المطلق، وهو مظهر عالم الجبروت أي عالم المجردات، وهو مظهر عالم الأعيان الثابتة وهو مظهر الأسماء الإلهية والحضرة الواحدية، وهي مظهر الحضر الأحدية "[2]

واللطف كمصطلح صوفي هو كل إشارة رقيقة تلوح في الفهم لا تسعها العبارة، وقد تطلق بإزاء النفس الناطقة.[3]

ويقول ابن خاتمة في قصيدة يُخمس قصيدة الشيخ الصوفي شهاب الدين أبي عبد الله بن الخيمي.[4]

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٧٠

[2] رجاني، التعريفات، ص ٨٨

[3] ابن عربي، اصطلاح الصوفية(ضمن رسائله)، ص ٨

[4] وهو شهاب الدين محمد بن عبد المنعم بن الخيمي، الأنصاري، اليمني الأصل، المصري الدار، ت سنة ٦٨٥ هـ في القاهرة (اشذرات الذهب ٥ ٣٩٣ ، والوافي بالوفيات ٥٠ :٤ :٥٠)

منك التجلي ومنا الستر والحجُب وكلّ نُعمى فمِن عَلياك تُرتقب

وأنت أنت الذي أبغي وأطلب يا مطلبا ليس لي في غيره أرب

إليك آلَ التقص ي وانتهى الطلبُ

يا عزة العبد بين الذلّ والهَرَب وراحةَ اَلصب بين الجهدِ والنَّصبِ

حسبي من الوصل أني لست ذا طلبِ لكن ينازِع شوقي تارةً أدبي

فأطلب الوصلَ لما يضعفُ الأدب

فأطلب الوصلَ لما يضعفُ الأدب فقد أقام العلا والعز حجتهم

بدور تِم أبان الصدقُ لهجتهم قد نزه اللطفُ والإشراقُ بهجتَهم

عن أن تمنعها الأستار والحجب[1]

والتجلي " ما ينكشـــف للقلوب من أنوار الغيوب[2]، إنما جميع الغيوب باعتبار تعدد موارد التجلي، فإن لكل اســم إلهي بحســب حيطته ووجوهه تجليات متنوعة... والتجلي الذاتي، ما يكون مبدؤه الذات من غير اعتبار صــفة من الصــفات معها، وإنت كان لا يحصـــل ذلك إلا بوســـاطة الأسماء والصـــفات إذ لا يتجلى الحقّ من حيث ذاته على الموجودات إلا من وراء حجاب من الحجب الأسمائية، والتجلي الصـــفاتي؛ ما يكون مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعيّنها وامتيازها عن الذات"[3].

أما الوصــل فهو: "إدراك الفائت[4]، مرادف للوصــل والاتصــال، وقالوا هو الانقطاع عما سوى الحق وليس المراد به اتصال الذات بالذات؛ لأن ذلك إنما يكون بين جسمين، وهذا التوهم في حقه تعالى كفر، ولهذا قال النبي صــلى الله عليه وســلم الاتصــال بالحقّ على قدر الانفصال عن الخلق، وقال بعضهم مَن لم ينفصل لم يتصل؛ أي من لم ينفصل

---

[1] الديوان، ص ٣٠

[2] ابن عربي، اصطلاحات الصوفية(رسائله)، ص ٩ . ٥٢

[3] الجرجاني، التعريفات، ص ٥١

[4] ابن عربي، المصدر نفسه، ص ١٢

عن الكونين لم يتصـــل بمكون الكونين، وأدنى الوصـــال مشـــاهدة العبد ربه تعالى بعين القلب، فإذا رفع الحجاب عن قلب السالك، وتجلّى له يقال أن السالك الآن واصل."[1]

وقد استعار الصوفي لفظة (السعد) ليدلّ على بشرى الوصل، وقد أكثر الشعراء من ذكرها، فمنها قول الششتري:

والحي عن يمنى الربى يا سعد أبشر باللقا

فقد ذوى عود النّوى وغصن وصلي أورقا

نلتَ السرور بالعنا لا راحةَ دون الشَّقا[2]

والحجب "كل ما ستر مطلوبك عن عينك"[3]، وهو "عند أهل الحقّ انطباع الصور الكونية في" القلب المانعة لقبول تجلي الحقّ[4].

ويمثل مصطلح (الإشراق) عند الصوفية؛ النسبة إلى الإشراقي الذي هو ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضـــانها بالإشـــراقات على النفوس عند تجردها، يقول قطب الدين الشيرازي في مقدمة حكمة الإشراق: " إن الإشراقيين لا ينتظم أمرهم دون سوانح نوريّة؛ أي لوامع نوريّة عقلية تكون مبنى الأصول الصحيحة التي هي القواعد الإشراقية "[5]، أي أن "المعرفة الإشـــراقية تقوم على الحدس الذي يربط الذات العارفة بالجواهر النورانية وتسمى بالعلم الحضوري؛ أي حصول

العلم بالشيء دون حصول صورته في الذهن كعلم زيد لنفسه"، أما حكمة الإشراق هي " الحكمة " المبنية على الإشراق الذي هو الكشف.[6]

ويقول ابن خاتمة أيضـــا مما يدلل على اســـتخدام المصـــطلحات الصـــوفية في شـــعر التصوف أو في غيره من الأغراض الشعرية كالمدح والثناء:

تولّه أُلص ب حَلي فوق حِليته فمَن لحاه نهاه عن سجيّتهِ

---

[1] الحفني، معجم المصطلحات الصوفية، ص ٢٦٧

[2] الششتري، الديوان، ص ٥٥

[3] ابن عربي، المصدر نفسه، ص ١٣

[4] الجرجاني، مصدر نفسه، ص ٨٢

[5] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، ص ٣٢

[6] جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، ج ١، ص ٩٤

إن الذي صان قلبي في طويتهِ أحيا إذا مت من شوقي لرؤيتهِ

فإنني لهواه فُيه مُنتسِب

هل للمحب سرور بعد ترحته آهٍ بوجدٍ كوى صدري بلفحتهِ

جسم تفانى وقلب رُهن قَرحته ولست أعجب من حبي وصحتهِ

من صحتي إنما سقمي هو العجب!

لله لحظةُ حسنٍ صح مُدنَفُها سرتْ بقلبي فتصريفي تصرفها

قد متّ عنها لست أُنصفُها والهفَ نفسي لو يُجدي تلهُّفها

غوثا، وواحربي لو ينفع" الحرب "

يا ليت شعري وفي دهري مخالَفة هْل منهم لي قربى أو معاطفةٌ

أو رحمة أُو حُنو أو ملاطفَة يُمضي الزمان وأشواقي مضاعفةٌ

يا للرجال ولا وصل ولا سبب!

لو كنت لَلوصل أِهلا ما تُركت سَدى كم مُدع وٍهو في دعواه قد جحدا

ما كلّ نور تِبدى للعيون هدى يا بارقا بأعالي الرقمتين بدا

لقد حكيتَ ولكن فاتك الشنَب [1]

الحسن في التخميس السابق، أظنه بمثابة الجمال عند الصوفيين لأنّه صفة مضافة[2] إلى الله، والجمال في الاصطلاح الصوفي، هو نعوت الرحمة والألطاف من الحضرة الإلهية، والجمال الحقيقي صفة أزلية لله تعالى شاهدة في ذاته أولا مشاهدة علمية، فأراد أن يراه في صنعه مشاهدة عينية، فخلق العالم كمرآة شاهد فيه عين جماله عيانا... والجمال ينقسم من حيث الجملة إلى ظاهر وباطن، فالظاهر منه ما يتعلّق بالأجسام فلا يُدرك

---

[1] ابن خاتمة، الديوان، ص ٣٦ . ٣٧

[2] والإضافة عند الصوفيين: هي النسبة العارضة للشيء بالقياس إلى نسبة أخرى كالأبوة والبنوة (تعريفات، ص ٢٨)، وهي كذلك إضافة الممكن إلى الواجب، والعدم إلى الوجود، والصفة إلى الذات (عرابي، النصوص في (مصطلحات التصوف، ص ٦

إلا معها، والباطن ما لا علاقة له معها وهو الجمال الفعلي المجرد...والجمال الباطن هو ما تفيده الأنوار القدسية الإلهية إذا أشرقت على العقول الزكية من الاتصاف بأنواع العلوم الدينية وأسرار المعارف الربانية المؤدية إلى المحبة الحقيقية وسائر الكمالات والفضائل، كما تكررت لفظة الفناء في القصيدة بصورتين؛

الأولى: فناء الجسد" جسم تفانى"، والثانية: " لله لمحة حسن قد متّ عنها" ومصطلح (الفناء) عند الصوفية من أجلى المصطلحات لأنه يضم فحوى التجربة الصوفية المتمثلة بفناء الجسد عن الحس، وما يتبعه من غيبة عن العالم المحسوس، ومن ثم الشهود أو الكشف؛ وقد تمكن ابن خاتمة فيما أوردنا من قصيده أن يضع مصطلح الشهود بلفظة (الرؤية) لا (الرؤيا) وذلك لولوج مرتبة من الطريق أعلى وهي شهود الحق، وليس الكشف عن المغيبات من الأمور وحسب، على أن مقام القرب والذي أورده بلفظة (القربى)؛ يعني به الصوفية القيام بالطاعة، وقد يطلق القرب على حقيقة قاب قوسين[1]، وهو قرب العبد من الله تعالى بكلّ ما تعطيه السعادة، لقرب الحق من العبد[2]. والنور في (ما كلّ نور...) في الاصطلاح الصوفي؛ هو كل وارد إلهي يطرد الكون عن القلب[3]، وهو الحقّ، ويسمى نور الأنوار؛ لأن جميع الأنوار منه، والنور المحيط لإحاطته جميعها، وكمال إشراقه ونفوذه فيها للطفه والنور القيوم: لقيام الجميع به، والنور المقدس: أي المنزه عن جميع صفات النقص، والنور الأعظم الأعلى؛ إذ لا أعظم ولا أعلى منه[4].وهناك الكثير الكثير من المصطلحات الصوفية التي عرف بها الصوفية، واصطلحوا عليها في كتاباتهم النثرية والشعرية، وأطلقوا من خلالها طرقهم، واتخذ الشيوخ مريديهم ليبحروا في عالم الطريقة، أو التجربة الصوفيّة، وفي القصيدة ذكر للمصطلح (الغوث) وهو القطب عند الصوفية أو الحقيقة المحمدية، وقد أشار إليه شعراء بني الأحمر كثيراً في مدائحهم،

---

[1] ابن عربي، اصطلاح الصوفية، ص ٦

[2] الجرجاني، التعريفات، ص ١٧٤

[3] ابن عربي، مصدر سابق، ص ١٤

[4] الحفني، مرجع سابق، ص ٢٥٨

سـواء في المدح النبوي، أو مدح ملوك بني الأحمر وسـلاطينهم، ومن ذلك قصـيدة لابن عباد النفَّري يقول فيها:

كأنّما الصبح لمشتاقه إقبالُ دنيا بعد ذلّ افتقار

كأنما الشمس وقد أشرقت وج هـ أبي عبد الإلهِ استنار [1]

حيث يمثل القطب، العالم الأصغر الذي يرجى فيه كمال الصفات، كما هو الإشراق فيه من نور الحقائق ما يصل بالإنسان إلى معرفة نفسه كما عرف ربه .

ومن هذه المصـطلحات أو ما يسـمونها (ألفاظ) ، المصـطلحات الدالة على الحب الإلهي، وألفاظ الخمرة كالسـكر وهي حال من الأحوال التي يمر بها الصـوفية، فقد اسـتعارالصـوفي هذه الألفاظ من اللغة المتداولة ووجّها نحو التصـوف لتحمل دلالات خاصـة، فأضـحت متعلقة بالتصـوف، لصـيقة بَه، وكأنها لم توضـع إلا له ومن ذلك قول ابن خلصون في قصيدة له:

تواجدتُ حتى صار لي الوجد مشربا ولا ح وجود لُلحقيقةِ إذ غبتُ

فها أنا بين الصحو وِالمحوِ داير أُقولُ فلا حرف هُناك ولا صوتُ

وفي غيبتي عنكم حضوري لديكم وعند امتحان الرسم والمحو أثبتُ

تجلّيته لُي حتى دهشتُ مهابة ولما رددت اللحظ بالسر لي عشْتُ

موارد حقّ بل مواهب غُاية إذا ما بدتْ تلك البواده لي تُهتُ

لواي ح أنوار تلوح وتختفي ولكن وميض البرق لِيس له ثَبتُ

ومهما بدتْ تلك الطوالع أدهشتْ وإن غُيبتْ تلك اللوامع أظلمت [2]

فابن خلصـون في القصـيدة يذكر الكثير من المصـطلحات الصـوفية منها: (الوجد، الحقيقة، الصحو، والمحو، غيبتي، الرسم، تجليّته، بواده، طوالع، لوامع) .

---

[1] الإحاطة، ج ٣، ص ٣٦٦

[2] الإحاطة، ج ٣، ص ٢٦٣

وقد اســـتخدم الشـــاعر لفظة (المعاني) ليدلّ بها على الأرواح لأن في المعنى الفكر، وغاية : الأفكار هي الحقيقة الإلهية، فمن ذلك قول (الخطيب الونالشي)[1]

خليلي إن مررتَ على المغاني وأدناك اَشتياقُك للمعاني

فحي الساكنين هناك عني بمجموعي فؤادك واللسانِ

وصفْ شوقي لهم أبدا ووجدي بأوصاف تِجلّ عن العيانِ

تخالُ الصب حين تراه حيًا لدى التذكار وِهو هناك فانِ

وأفنى ما يكون إن اِعترته معان كِان يألف بُالمغاني

وقد تدلّ لفظة (المعاني)، على الحقائق النورانية، وكأن الألفاظ ما هي إلى صـــورها، وهذا يتماهى مع وجود عالم أرضـي يتمثل بالألفاظ، وعالم نوراني سماوي يتمثل بالأفكار أو المعاني، كما يقول الششتري:

ق م فاجتن قهوةَ المعاني من صفوةِ الكاسِ إذ جلاه[2]

وقوله في موضع آخر:

أنظر للفظِ أنا يا مغرما فيه من حيث نظرتنا لعلّ تدريه

جسوم أحرفهِ للسر حاملة إَن شئت تعرفُه، جرب معانيه[3]

خلاصة الخصائص المشتركة في شعر الزهد من هذه المرحلة كالآتي:

- كثرة اللوم للنفس
- التركيز على كثرة الذنوب التي اجتزحها المرء.
- الوقوف عندالمشيب الذي هو رمز للفناء والرحيل
- التصريح بالبكاء، ليس على شباب فان ماض،ولكن على شباب ضائع لم يزدجر ولم يقدم لآخرته شيئاً

---

[1] الكتيبة، ص ٥٧ (من شعراء القرن الثامن الهجري، وهو الخطيب الشيخ أبو يزيد بن خالد الونالشي)

[2] الششتري، الديوان، ص ٧٩

[3] الششتري، الديوان، ص ٨٠

- تضمين كثير من آي القرآن الكريم والحديث النبوي
- إثارة الألم والحزن عن طريق بنيات مختلفة التركيب
- النهي الصريح عن المضي في شطحات الهوى وضرورة الندم على ما فات
- الصنعة في البنى والألفاظ كالابتداء بحرف والانتهاء بحرف به

الباب الرابع

أهم شعراء الزهد في العصر الأندلسيين

الفصل الأول: أبوالبقاء الرندي و مالك بن المرحل وأعمالهما

الفصل الثاني: ابن خميس التلمساني وابوزيد الفازازي وأعمالها

الفصل الثالث: لسان الدين بن الخطيب وابن الآبار القضاعي وأعمالهما

الفصل الأول:

أبو البقاء الرندي و

مالك بن المرحل

وأعمالهما

أبـوالبـقاءالرنـدي

اسمه ومولده:

هو عمربن عبدالمجيد بن عمر، وقيل: ابن علي بن يحيى بن خلف بن موسى الأزدي المالقي الرندي الأندلسي، ويُكنى بأبي حفص وبأبي علي،وهي المشهورة[1].
وُلد الرندي سنة سبع وأربعين وخمسمائة من الهجرة[2].

نشأته وحياته العلمية:

نشأ في رُندة، وأخذ عن عدد من العلماء في مالقة وغرناطة وإشبيلية وسبتة والجزيرة الخضـراء، وكان عالماً بالقراءات، ومتقدماً بالصـناعة العربية، قراء القرآن والنحو والآداب والبلاغة بسبتة، ولما توفي السهيلي دعاه أهل مالقة للإقراء بها والتدريس مكانه، وأجابهم إلى ذلك، ولم يفارقها إلى حين موته، وكان له اعتناء في الحديث.

كان من أهل التفنن في العلوم والتوسع في المعارف، مقرئا عارفا مجودا، محدثا مكترثا بتقييدالحديث، عدلا ثقة نحويا متقدما بارعا ورعا[3].

قال عنه ابن الخطيب:"كان من جملة المقرئين،وجهابذة الأستاذين، مشاركاً في فنون، نقادا فاضلا"[4].

وكان بينه وبين أبي محمد القرطبي من التنافس مايكون بين المتواردين على مشـــرع واحد –إذ كان المشـار إليهما بمالقة– وقد رد كل واحد على صـاحبه في أكثر مايصـدر عنه إلى أن توفي القرطبي فانفردالرندي برئاسة الإقراء.

ووقع بينه وبين أبي الحسن بن خروف تنازع في مسائل تفسيرية ونحوية[5].

---

[1] الإحاطة،ج:٣، ص:٣٦٠

[2] المصدر نفسه ص ٤١٢

[3] الذيل والتكملة،ج:٤،ص:١٣٦

[4] نفخ الطيب،ج:٦،ص:٦٣٢

[5] الإحاطة، ج:٣، ص:٣٦٢

شيوخه: [1]

أخذالرندي القراءات والفقه والحديث واللغة والنحو عن عدد كبير من العلماء، وقد ذكرهم من ترجم للرندي، وقال الكتاني:"أجاز له جماعة من أهل المشـــرق عددهم كبير"[2].ومن أبرز شيوخه:

- إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن قرقول:

وُلد بالمرية سنة وخمس وخمسمائة من الهجرة، وسمع الكثير، كان من أئمة أهل المغرب فقيها متقنا حافظا للحديث بصيرا بالرجال.ذكر ابن الخطيب أن الرندي أخذ عنه[3].

- خلف بن عبدالملك أبوالقاسم بن بشكوال:

"وُلد سـنة أربع وتسـعين وأربعمائة، سمع من أبي بكر بن العربي وأبي بحر سـفيان بن العاص، كان متسع الرواية،شديدالعناية بها".

- صالح بن عبدالملك بن سعيد أبوالحسن الأوسي:

من ساكني مالقة،ولد سنة خمس من الهجرة، تلا بالسبع على أبي زيدالسرقسطي،وتلا بحرف نافع على أبيه وأبي بكر بن عياش بن فرج، أخذ عن ابن طراوة،وكان مقرئا ورعا زاهدا.ذكرابن الخطيب أن الرندي أخذ عنه[4].

تلاميذه: [5]

أخذ عن الرندي عددكبير من التلامذة، فيذكر عنه أنه قدم مراكش وأخذ عنه كثير من أهلها والقادمين عليها، وليس هذا فحسب فقد أخذعنه في سبتة ومالقة وغيرها،ومن أبرز تلاميذه:

---

[1] الإحاطة، ص ٣٤٥

[2] الذيل والتكملة،ج:٤،ص:١٤٠

[3] نفخ الطيب،ج:٦،ص:٦٣٢

[4] المصدرالسابق، ج٦، ص ٦٤١

[5] الذيل والتكملة،ج:٤،ص:١٤٣

- صالح بن علي بن عبدالرحمن أبوالتقي بن المعلم المالقي:

من أهل الاجتهاد في طلب العلم والاعتناء التام بالرواية والتصرف في النحو والأدب،وروى عن أبي علي الرندي وابن حوط.

- علي بن أحمد بن علي بن يحيى الغساني:

من أهل مالقة،ولد سنة ثلاث وسبع وخمسمائة، أخذ عن أبي علي الرندي وأبي محمد القرطبي،كان مقرئا نحويا أديبا،أقرأ طويلا برندة ثم بمالقة،توفي سنة تسع وثلاثين وستمائة من الهجرة.

- يوسف بن إبراهيم بن يوسف أبي ريحانة أبوالحجاج المالقي:

يعرف بالمربلي، أخذ القراءات والعربية عن الرندي ولازمه، وقرأ عليه الكثير تفهما ككتاب سيبويه والجمل والكامل وغيرها، وسمع الحديث منه ومن أبيالحجاج يوسف الفهري،وأجازله أبوالقاسم الغافقي،وأبوبكر بن طلحة، ومن أهل الفضل والدين والخير.

مصنفاته:

ذكر من ترجم للرندي أنه ألف كتبا متعددة،منها:

1- كتاب شرح جمل أبي القاسم للزجاجي
2- ألف رداً على ابن خروف منتصراً لشيخه السهيلي في مسائل نحوية
3- قيد ماجرى بينه وبين القرطبي،وسماه "أغاليط القرطبي"
4- برنامج الجامع،حررفيه أسانيده
5- ديوان شعره

وفاته:

توفي رحمه الله سحر يوم الجمعة الموفي عشرين لشهر ربيع الثاني سنة عشر وستمائة، وقيل:

سنة ست وعشرة وستمائة[1].

شعرالزهد عندالرندي

تحقيرالدنيا:

يأمر الشـــاعر بترك الغرور، فلاســـبب للغرور، غير أنه يرمي لمعنى الاتعاظ والعبرة، مايقرب من أسلوب النصح،فيأمر بترك الغرور فإن الدنيا فانية:[2]

دعِ الغرور فما للخلد من سبب ولا قراراً بدارللهو واللعب

يابانياً للقصور سوف تتركها لمن سيأخذها قسراً بلاتعب

ويوصي الرندي بالابتعاد عن ملذات الدنيا:[3]

لاتلهك الدنيا ولذاتها عن نهي مولاك وأمره

ويتوجه الشاعر إلى الشباب ويقول أن يفيقوا من سكرهم في هذه الدنيا وملذاتها،فكم من مرء يموت في شبابه:[4]

يا ابن الشباب أفِق من سكر خمرته كم من فتى فارق الدنيا ولم يشبِ

ويتحدث عن الدهر وتقلباته،فعلى الإنسان أن لايغتر بحاله وماله،وقوته وجبروت،فلكل شيء زوال آت:[5]

"لكل شيء إذا ما تم نقصان" "فلا يُغر بطيب العيش إنسانُ"

"إن قلص الدهر ما أضفاه من جدةٍ" "فصنعة الدهر إعطاءٌ وحرمانُ"

"فجائع الدهر أنواع متنوعةٌ" "وللزمان مسراتٌ وأحزانُ"

"يا غافلاً وله في الدهر موعظة" "إن كنتَ في سِنة فالدهر يقظانُ"

---

[1] الذيل والتكملة،ج:٤ ص١٤٨

[2] ديوان أبي البقاء الرندي،دار صادر بيروت، ط:١٩٩٨م،ص:١١٦

[3] ديوانه، ص:١٦٥

[4] ديوانه، ص:١٧٠

[5] ديوانه، ص:١٠٩

ويأسف على حب الناس المال لهذا الحد:[1]

"رأيت المال يستر كل عيب" "ولاتخفى مع الفقر العيوبُ"

وله في تقليب الدهر وعدم استقراره على حالة واحدة:[2]

أما ترى الدهر ما يُبقي على أحدٍ أين الملوك وما صانوه من الحجبِ

ويعمق إحساس القارئ بالرهبة من الدنيا وتقلباتها:[3]

يمزق الدهر حتماً كل سابغةٍ إذا نبت مشرفياتٌ وخرصانُ

التوكل على الله:

ينصح الرندي على الثقة بالله والتحلي بصفة التفاؤل والابتعاد عن اليأس:[4]

لا تيأسن من المُنى يوماً فكم عسرٍ أتى واليسر في آثاره

ويطلب الرندي من قلبه أن يصبر على مصاعب الدنيا لأن الإنسان خُلق لتحمل شدائدها:[5]

يا قلب صبراً لما تلقى ويا كبدي فإنما خلق الإنسانُ في كبدِ

وفي رأي الشاعر إن العيش لايخضع لمنطق وعمل فرد،بل إن الحظ المقرر من الله تعالى هو سبب نجاح يصل إليه الإنسان،لذا فعلى الإنسان أن يطلب كل شيء من ذات الله ويتكل عليه:[6]

وقد أجهدتُ نفسي في اجتهادي وما إن كل مجتهد مصيب

وماتجري الأمور على قياس ولوتجري لعاش بها اللبيب

---

[1] ديوانه،ص:١١٠

[2] ديوانه،ص:١١٦

[3] ديوانه،ص:١٤٣

[4] ديوانه،ص:١٦٢

[5] ديوانه،ص:١٣١

[6] ديوانه،ص:١٠٩

كأن العقل للدنيا عدوٌ فما يقضي بها أرباً أريب

إذا لم يُرزق الإنسان بختاً فما حسناته إلا ذنوب

وينصح بالصبر على تقلبات الدهر:[1]

الدهر لايبقى على حالة لكنه يُقبل أو يُدبر

فإن تلقاك بمكروهة فاصبر فإن الدهر لايصبر

ويدعو إلى الثقة بالأقدار خيرها وشرها:[2]

سلِم لما قد جرى حكم القضاء به فكل شيء من الأشياء إلى أجلِ

التذكير بالموت والآخرة:

يحذر الشاعر من موت الغفلة وينصح بعدم تأجيل التوبة والرجوع إلى الله:[3]

هو الحِمام فكن منه على حذر ويح المسوفِ إن أودى ولم يتُبِ

وقال على وفاته وهويستعطف الزمن أن يكون موت والده الكذب:[4]

حقاً أحبتنا أودى أبوالحسن مهلاً بنا فعسى هذا من الكِذَب

ويرى أن الحياة الدنيا قصيرة فيجب علينا أن ننتهزالفرصة قبل الموت ونسلك الصراط المستقيم:[5]

ولا تُقصر في اغتنام المُنى فما ليالي الأنس إلا قصارُ

ويوصي بالاستعداد للموت والرحيل:[6]

---

[1] ديوانه، ص:١٤٤

[2] ديوانه،ص:١٩٩

[3] ديوانه، ص:١١٦

[4] المصدرنفسه

[5] ديوانه،ص:١٦٦

[6] ديوانه، ص:١٦٠

واحسرتا من ذكر أيام الصبا ها قد بدا شيبي فأين وقاري؟

ويذكر أن الموت نهاية كل شيء:[1]

هذه حكمة المهيمن فينا كل نفسٍ يأتي عليها الحِمامُ

وفي نفس المعنى يضيف قائلاً:[2]

الموت سرالله في خلقه وحكمةٌ دلت على قهره

ما أصعب الموت ومابعده لو فكرالإنسان في أمره

ولايغفل الأحداث التاريخية للأمم السابقة وفناءها:[3]

"أين الملوك ذوا التيجان في يمن" "وأين منهم أكاليل وتيجانُ"

"وأين ماشاده شدادٌ في إرم" "وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ"

"وأين ما حازه قارون من ذهب" "وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ"

"أتى على الكل أمر لامرد له" "حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا"

المناجاة والدعوة إلى التقوى والعبادة لله:

الرندي يطلب الإنسان بالرفق على نفسه بعدم إثقالها بالمعاصي وإلا سيأتي يوم يندم فيه على فعلته:[4]

أرفق على النفس يامعذبها إن دامت الحال سوف تفقدها

ويقول أن العفو من الصفات الكريمة:[5]

لا تأخذ الجاني بماهو أهله واغفر بجاه المصطفى المختار

---

[1] ديوانه،ص:٢٢٩

[2] ديوانه،ص:١٦٤

[3] ديوانه،ص:١١٤

[4] ديوانه،ص:١٢٨

[5] ديوانه،ص:١٦٠

ويرى أن الله يغفر كل الذنوب إذا تاب الإنسان بإخلاص:[1]

كل الذنوب فإن الله يغفرها إن شيع المرء إخلاص وإيمان

وينبه الغافل إلى سرعة العودة والروجوع إلى الله تعالى:[2]

ويا أخا الشيب ماذا أنت منتظر خذ في الرحيل فقد نوديتَ من كتَبٍ

مالك بن المرحل

نسبه وأوليته:

هو مالك بن عبدالرحمن بن علي بن عبدالرحمن المراكشـــي، المنزل بوادي الحجارة بمدينة الفرج المنسوبة إليه الآن."انتقل جده إلى فرج هذا من المغرب إلى جزيرة الأندلس، يمر بها نهر يســمى وادي الحجارة أيضــا، وعليه مدينة كانت تســمى أيام العرب مدينة القرج باســم جد شـاعرنا هذا المنتقل إلى تلك الناحية من المغرب، ولاشـك أنه كان من القواد أوالأمراء، وهوالذي أسس تلك المدينة، أو زاد فيها حتى أعطى لها إسمه"[3].

ويظهر من الرواية الوحيدة التي انفردبها ابن الحجاج النميري بإيرادها في مذكراته أن ابن المرحل سُمي باسمين: مالك وهوالذي اشـــتهر به، وإبراهيم الذي لم يذكر لم يذكر في سائرالمراجع. قال ابن الحجاج:"ذكر شيخنا (يعني أبا الحسن المطماطي) في ترجمة بعض أصـــحابنا عنه، قال: سُميتُ باسمين، سماني أبي مالكا لفقده أخاها كان إسمه إبراهيم، فقال:مالك خزن النار فلم تعد عليه، وإبراهيم رُمي في النار بالمنجنيق فلم تعُد عليه، فلعلني أنجومنها بهذين الإسمين، وأنشد:

رموني في نارالهوى فخزنتها فُميت إبراهيم طورا ومالكا

---

[1] ديوانه،ص:٩٠

[2] ديوانه،ص:١١٦

[3] ينظر: مقدمة الكتاب:الذيل والتكملة،أبوعبدالله الأنصاري،ت إحسان عباس، دارالغرب الإسلامي،ط:٢٠١٢م،ص:١٣٠

فإن نجو منها بطبع وعصمة فإني قد أصبحت حيا وهالكا

ويعرف مالك في كتب التراجم، وفي المراجع الأدبية والتاريخية القديمة والحديثة بابن المرحل (بفتح الراء والحاء مع تشـديدالحاء) بوزن إسـم المفعول من غيرالثلاثي، وأما ابن المرحل المعروف بابن الوكيل، وهو مشرقي غيرمترجمنا[1].

ولادته وتحصيله:

وُلد مالك بن المرحل في أوائل النصـف الأول من القرن السـابع الهجري، وهو محل إجماع من دارسيه ومترجميه الذين قرروا أن تاريخ ميلاده كان في سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) في مدينة مالقة يوم السبت سابع عشر محرم سنة ٦٠٤هـ، ووافق شهرالعجم أغشت[2].

ومن حسـن الحظ أن ابن المرحل قد كفى الباحثين مؤونة البحث في هذه المسـألة يتحديد تاريخ ميلاد يومه وشهره وسنته بدقة فضبطه في ثلاثة أبيات، حيث قال[3]:

ياسائلي عن مولدي كي أذكره وُلدتُ يوم سبعة وعشرة

من المحرم افتتاح أربع من بعد ستمائة مفسره

في يوم الاثنين طلوع شمسه من شهر آب إن أردت خبره

فبناء على هذا القول الذي لايرد، فإن تاريخ ميلاد أديب العدوتين مالك بن المرحل كان في صباح يوم الإثنين السابع عشر من شهرالمحرم (شهرآب) من سنة ٦٠٤هـ، الوافق سنة١٢٠٧م.

أما مكان ميلاده فقد كان محل إجماع المراجع التي اتفقت كلمتها على أنه كان في مدينة مالقة من بلادالأندلس،فهو بذلك أندلسـي الميلاد، وقد كان من اوائل من قرر ذلك وأيده تلميذه أبوعبدالله المراكشـي الذي نسـبه إلى وطنه مالقة باعتبار مولده

---

[1] مذكرات ابن الحجاج النميري،إبراهيم بن عبدالله النميري،مكتبة شركة التمدن الصناعية،القاهرة،ط:١٣٤٤هـ،ج:٢،ص:١٨٠

[2] الإحاطة بأخبار غرناطة،ج:٣،ص:٣٢٤

[3] المصدرالسابق،ج:٣،ص:٣٢٦

فيها.قال الأستاذ محمدبن شريفة: وهذا من تحريه وإنصافه وخضوعه التام لشرط كتابه، ونطبيقه المنهجي للمصطلح الذي سارعليه مؤلفوا الصلات[1].

شيوخه في الأندلس:

أخذ المترجَم به علومه وأدبه عن الجلة من علماء الأندلس في القرن السابع الهجري، بل في أوائله نكتفي هنا بذكر من وصلنا أسماؤهم وبعض أخبارهم وآثارهم، معتمدين في توثيق صلته بهم وأخذه عنهم المصادر والمراجع المعتمدة:

1- أحمدبن علي محمد بن علي الأنصاري، ويكنى أباجعفر، من أعلام مالقة الموصوفين بالتقدم في التجويد ورواية الحديث والتبريز في العربية،والبراعة في الوراقة مع ماعرف به من فضل وورع،وإيثارالخمولة والزهادة.

2- كما أشارت مراجع أخرى إلى تخرج المترجم به باشيخ ابن الفحام الأنصاري المالقي، أحمدبن أحمد بن بقي،المكنى أبالقاسم الموصوف بالإمام،وبقاضي الجماعة بقرطبة.

3- رضوان بن أبي يزيد الخالد بن الحسين بن عبدالرحمن بن مكرم المخزومي،ويكنى أبالنعيم.ذكر أنه كان من علماء مالقة وأدبائها، وقد توفي في أواخرالنصف الأول من القرن السابع.وقد وُصف بأنه:شاعرغزل مرقق، لم يكن فيما كتب به شئ يليق ذكره،سوى قطع غزليات.وأغلب الظن أن هذا الشيخ الأديب قد ترك بعض طوابعه في تلميذه ابن المرحل وفي أغزاله التي عرف بها في مرحلة شبابه، فقد كان أديبا شاعرا مجيدا، وقد حمل عنه بعض كلامه.

4- سالم بن صالح بن علي بن صالح الهمداني المالقي،المكنى أباعمر من جلة شيوخ مالقة، ومن أعلام القرن السابع، فقد وصفه ابن الأبار بأنه: كان شديدالعناية بالحديث، أديبا شاعرا مائلا إلى الزهد.

---

[1] الذيل والتكملة،ص:١٢٩

مظاهر ثقافته وأبعادها:

لامشـــاحة في أن مترجمنا قد حصـــل علومه على وفق الطريقة التعليمية الأندلســـية الشـــاملة والمتنوعة التي تخرج بها أمثاله من أعلام عصـــره الأندلســـيين كحازم القرطاجني، وابن الأبار، وابن ســـعيد الأندلســـي وغيرهم، فحذق علوم الآلة وعلوم المقاصـــد وعلم التاريخ والحساب ونحوها من معارف العصر.

وقد اتفقت كلمات الكتاب الأقدميين والمحدثين على وصـــف مالك بالنبوغ في الأدب ونظم الشعر، حتى سُمي: شاعرالمغرب وأديب صقعة،وحامل الراية المعلم بالشهرة، وقد مربنا قول ابن خلاد في تحليته، والإشادة بقيمة فنه: وإنما أنهضه أدبه وشعره وعوضه بالظهور من الخمول نظمه ونثره، نصـع في سـلك فصـحاء أوانه درة خطيرة، وحاز من جيله رتبة التقديم، وامتاز في رعيله بإدراك كل معنى وسيم[1].

لم يكن اهتمامه بالأدب مقصورا على صناعة الشعر والبراعة في النظم الذي أثرت له فيه المطولات والمعشـرات والعشـرينات، ونظم الكتب في اللغة على نحو "الموطأة" وغيرها من العلوم، وإنما عرف بالنثرالأدبي الفني أيضـــا،فقد كان في طليعة الكتاب في بلاط العزفيين (بسبتة)، وفي بلاط بني مرين في (فاس)، وكان له إسـهام في فن المقامة،ولكن لم نقف له فيها على مقامة واحدة،هي المقامة النجدية، وكان ناقدا أديبا بصيرا ينقد أشعاره ويهذبها،كما يستعمل حسه النقدي في تقييم مايعرض عليه من أشعارغيره ومنظوماتهم، يدلنا على هذا الجانب فيه الخبرالذي أثبته العلامة محمد الشـريف الحسـني السـبتي حيث قال: سمعت الإمام أبا القاسم بن عبدالله بن الشاط الأنصاري حفظه الله،يقول غيرمامرة: وصل إلى بلدنا جزء من كلام أبي الحسن حازم يحتوي على مقصورته الأبفية، وجملة من قصـــائده فدعاني الإعجاب بكلامه أن أوقفت عليه شـــيخ الجماعة أبا الحكم مالك بن المرحل فتأمل ذلك،ثم قال: لا أقول إن هذا شعر ولكني أقول هو ديوان علم[2].

---

[1] الإحاطة،ج:٣،ص:٣٠٤

[2] رفع الحجب المستورة،أبوالقاسم السبتي، وزارة الأوقاف بالمغرب،ط:١٩٩٧م،ج:١،ص:٣٢

مؤلفاته وآثاره:

ومما يســـتجلي به الباحث آثاره العلمية الدالة على عطائه الفكري والأدبي، وعلى تفاعله مع الحياة العقلية في الغرب الإســـلامي، تراثه التأليفي الغزير والمتنوع والموزع على مساحات مختلفة من المنظوم والمنثور، إبداعا ونظما وشرحا وترتيبا.

ويمكن أن نقسم هذه الآثار من ناحية منهجية إلى قسمين:

1- آثار وصلتنا أسماءها وعنواناتها، ولكن لم يقدر لنا كما لم يقدر للباحثين من قبلنا الوقوف عليها، أو الاهتداء إلى اماكن وجودها.

2- آثار باقية وصلت إلى أيدي الباحثين، ولها حيز في المكتبات العامة والخاصة.

فمن القسم الأول نذكر:

أ- أرجوزة في العروض.

ب- التبيين والتبصير في نظم كتاب التيسير، وهي منظومة مطولة تزيد على ألفي بيت عارض بها كما ذكر ابن القاضي الشاطبية وزنا وقافية، قال الذهبي:وقفت له على قصيدة أزيد من ألفي بيت نظم فيها التيسير بلارموز.[1]

ت- ترتيب كتاب الأمثال لأبي عبيدة على حروف المعجم.

ث- الجولات، وهو مختارات من مجموع شعره الحاوي الكثير من تجاربه الشعرية، قال الأستاذ محمد الفاسي:وسماه بهذا الاسم لأن جوالة الشئ في اللغة خياره، وهذا الديوان قد ضاع،[2] وقد أشارالاستاذ محمد الفاسي إلى ماوقف عليه في دفاتر خزانة القرويين من أسماء الكتب التي لايوجد لها أثر في فماطرها فذكر

---

[1] غاية النهاية،ج:٢،ص:٣٦

[2] مجلة الثقافة المغربية، ع;٧، ص;١٩٧٢

ديوان مالك بن المرحل[1]،ومعنى هذا أن الديوان كان موجودا بالخزانة إلى فترة قريبة.

ج- سلك المنخل لمالك بن المرحل، أرجوزة نظم فيها منخل أبي القاسم بن المغربي.

ح- شرح أرجوزة العروض،والراجح أن هذا الشرح لأرجوزته المتقدمة.

خ- الصدور والمطالع.

د- كتاب الحلي، ولايعرف موضوعه.

ذ- اللؤلؤ والمرجان.

ر- لوائح الإنابة وروائح القبول والإجابة.

ز- المعشرات الزهدية، وربما هي التي عناها التجيبي بقوله:وجزء فيه جملة من نظمه في الزهد أيضا.[2]

س- المعشرات اللزومية، وهي في مدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكره تلميذه القاسم التجيبي فقرر أنه:من نظم الأديب المعمر أبي الحكم مالك بن عبدالرحمن بن المرحل الماقي، التزم فيها أن يكون أول كل حرف من أبياتها لازما لحرف آخر، وآخر كل حرف منها، وهو حرف الروي لازما لحرف آخر فصارت لزومية من الطرفين.[3]

ننتقل الآن إلى بيان آثاره الأخرى التي انتهت إلينا أصـــولها ومنســـوخاتها، وتعاملنا معها كما تعامل الباحثون، وتعد من الأعلاق المصونة في بعض الخزائن العامة في المغرب واسبانيا،والخاصة بالمغرب وهي على ترتيب المتبع:

---

[1] مجلة الثقافة المغربية، ع;٧، ص;١٩٧٢

[2] نفس المصدر

[3] نفس المصدر

أ- أرجوزة في النحو،تقع في ثمان وثمانين صفحة، وتوجد منها نسخة مخطوطة بالخزانة العامة في الرباط.

ب- رسالتان في عروض الدوبيت، توجد في مكتبة الاسكوريال ضمن المجموع رقم ٢٨٨،وقد نهض الباحث العراقي الأستاذ هلال ناجي بتحقيق هاتين الرسالتين علميا،ولكنه رجح نسبة الأخيرة منهما إلى صهره ابراهيم التلمساني.

ت- الرمي بالحصاد والضرب بالعصا، وهي الرسالة التي سماها ابن القاضي "كان ماذا".

ث- شرح الموطأة، وهو شرحه على نظمه فصيح ثعلب، ويقع هذا الشرح في مجلدين تحتفظ بهما الخزانة العامة في الرباط من مكتبة الكلاوي.

ج- المعشرات النبوية، ولها مخطوطات في الأسكوريال، والخزانةالعامة،والخزانة الحسينية رقم١٧١.

ح- الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة،وهي العشرينيات المنظومة على حروف الألفبائية.

وفاته:

كما أجمعت المراجع والروايات على تحديد تاريخ ولادة مالك بن المرحل،أجمعت ايضا على تحديد تاريخ وفاته، فذكرت أنها كانت في السابع عشر من رجب الفرد عام تسعة وتسعين وستمائة(٦٩٩هـ/١٢٩٩م)[1].

شعرالزهد عند ابن المرحل

الزهد هو ترك التهافت على الدنيا ولذائذها، والتخلي عن زخرفها الخادع وبهرجها الزائف، والإقبال عما ادخره الله للصالحين من عباده في الآخرة وسبيله تحسين الصلة

[1] صلة الصلة، ابن بشكوال، المكتبة الأندلسية،ط:١٤١٠هـ،ج:٣،ص:٦٥

بالله، والاستعداد ليوم الميعاد، بالحفاظ على العبادات وفعل الخيرات، والاتساء بالنبي والتعلق به، وبشريعته السمحة.

وشعرالزهديات في منظومه كان التوطئة لفن الأمداح النبوية التي عرف بها واشتهر في إبان رجولته وكهولته، بل كانت هذه الأشعارالمتداخلة من الزهد في الدنيا، والتعلق بما يدني من حياة الرسول الطاهرة ردة فعل صادقة على ما كان قد تلبس به في بداية أطوار حياته من اللهو والبطالة، ومانعم به من ترف ومتعة.

لقد مر مالك في مرحلة شبابه التي أمضاها بين مدن الأندلس في مالقة وغرناطة وإشبيلية وغيرها، وفي مدينة سبتة بالمغرب بحياة لم تكن خالية، على الراجح من البطالة والمجانة، كما قدرله من خلاله أن يتصل خلالها بمجالس الكبراء في العدوتين، بل أن يعمل ويستخدم في الكتابة في بلاطات سلاطين عصره بسبتة وغرناطة وفاس.

ثم دلفت به السنون الطويلة إلى كهوله وشيخوخة ندم في صقيعها على مافرط منه في جنب الله، وفتح عينيه على واقع الحياة العامة الأليمة التي كا يحياها المغاربة والأندلسيون، ومالابسها من إضطراب وقلق وتوتر، وماصار يفجؤهم به النصارى من غزوات وكوارث، وماكان ينشب ينهم الفينة بعدالفينة من فتن وحروب، فلاذ من ذلك الذي كان يستشعره بالجناب الذي لايضام، وأفرغ أحاسيسه في العديد من المقطعات والقصائدالزهد، والروائع والمعشرات الزهدية ونحوها، يفزع فيها إلى الله مادحا نبيه، ومتوسلا به، ونادما عن تقصيره، ومتشبها بشيوخه الصالحين الذين أشرنا إليهم، وآية صدقه في هذا الزهد أنه يجرد من نفسه ذاتا يلهبها بسياط اللوم والتعنيف، ويشتد عليها بالتوبيخ والنكير.

وتدلنا قصيدة من قصائد هذا الباب أنه بدأ في سلوك هذا الطريق في الزهادة الصادقة، وارتضى لنفسه هذا التبكيت منذ أن بلغ سن الأربعين[1]:

أشف الوجد ما أبكى العيونا وأشفى الدمع ما أنكا الجفونا

فيا ابن الأربعين اركب سفينا من التقوى فقد عمرت حينا

[1] الإحاطة، ج:٣،ص:٣١٣

ونح إن كنت من أصحاب نوح لكي تنجو نجاة الأربعينا

وهو يرى الشـــيب فيها نذيرا مؤذنا بالرحيل، وداعيا إلى نبذالحياة الغرور، وإلى الاستعداد إلى يوم المعاد[1]:

بداك الشيب في فوديك رقما فيا أهل الرقيم أتسمعونا

نبات هاج ثم يرى حطاما وهذا اللحظ قد شمل العيونا

هي الدنيا وإن وصلت وبرت فكم قطعت وكم تركت بنينا

فلاتخدعك أيام تليها ليال واخشها بيضا وجونا

وقد أفضت به زهادته إلى نظرات تأملية، أوشكت أن تمثل فلسفته في الحياة، ورأيه الخاص فيها وفي أهلها، وقد بدت هذه الفلسفة تارة مستقلة في أبيات ومقطعات، وتارة أخرى ممزوجة ومتداخلة مع شـعر الأمداح النبوية، فمن ذلك قوله في الاسـتيحاش من الناس، وإيثاره الحذر منهم[2]:

وأعدى عدو المرء أبناء جنسه وشر صديقيه الصديق المجانس

وأعظم مكسوب الفتى من زمانه عدو مناف أو صديق منافس

ومن ذلك أنه عاف البطالة وزمن اللهو لما يطغيان به عن أفاعيل الزمان، وتقلبات الأيام، فيفيق المرء منهما على واقع أليم، ومرارة فاجعة[3]:

وصرت أعاف الصبا والمجون ورب طباع تعاف العسل

وما زين اللهو إلا الشباب ولاحسن الغي إلا الثمل

يدور الزمان كدور الرياح فطورا جنوبا وطورا شمل

فيوما يعز ويوما يذل فكم قد أعز وكم قد أذل

وما الناس إلا كمثل النجوم وما طلع النجم إلا أفل

---

[1] الإحاطة،ج:٣،ص:٣١٤

[2] الإحاطة،ج:٣،ص:٣١٦

[3] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٥٦

وما المرء إلا كمثل النبات إلى النقص يرجع مهما اكتمل

يمثل شـــعرالزهد في نماذجه القليلة جانبا من جوانب الشـــعرالنفســـي والأخلاقي في شـاعرية ابن المرحل، فقد طالت حياته، وتقلبت عليه صـروف الدنيا بالحلو والمر والعذب والعذاب، ثم انتهت به تجربته الطويلة الخصـيبة، كما يبين القدر الذي بين أيدينا من هذا الشـعر إلى التعرف على مواضـع الزيف في زخرف الدنيا الخادع، فعمل على تحرير نفسـه المخدوعة من أوقاره، وعلى تحذيرها من أقذاره، كقوله يخاطب نفسه[1]:

تنام وهذا الدهر أما مصبح بجيش الردى يوما وإما مبيت

تقوت بذكرالله تقوى فإنه حقيق بأن يقوى الذي يتقوت

تنافس في غيرالنفيس سفاهة فقدك هوى إن السفاهة تمقت

ويخاطب في موضـــع آخر المخدوعين بالســـراب، فيحذرهم من بريقه، ويصـــف لهم خلاله الدنيا وصفا منفرا[2]:

يا خاطب الدنيا طلبت غرورا وقبلت من تلك المحاسن زورا

دنياك إما فتنة أو محنة وأراك في كلتيهما مقهورا

وأرى السنين تمر عنك سريعة حتى لأحسبن صرن شهورا

بينا تروك أهلة في أفقها أبصرتها في إثر ذاك بدورا

والشـاعر في تأمله ينظر فيما يجيء به الليل والنهار ومايخادعان به الحمقى والمغفلين، فنراه يورد ما أورد شعراء هذا اللون الزهدي من نظرات، كقوله[3]:

حتى متى لاترعوي وإلى متى أو مالقيت من المشيب نذيرا

أخشى عليك من الذنوب فربما تلفي الصغير من الذنوب كبيرا

فانظر لنفسك إنني لك ناصح واستغفر المولى تجده غفورا

---

[1] الإحاطة، ج:٢، ص:٢٥٧

[2] الإحاطة، ج:٣، ص:٣١٣

[3] الإحاطة، ج:٣، ص:٣١٣

من قبل ضجعتك التي تلقي لها خد الصغار على التراب حقيرا

ابن المرحل مثيرالتذكر في هذا الباب بهذه المعاني التأملية، بل إننا نراه في مقام النظر في علاقته المتغير ياسى على السادرين في الأوهام ممن لم يحدثوا نفوسهم الضالة بتوبة أو أوبة[1]:

جدير بأن يبكي على نفسه أسى فتى كلما ترجي له توبة ترجا

جبان على التقوى جرئ على الهوى قريب من المهوى بعيد من الملجا

جرئ في مجال اللهو ملءَ عنانه إلى الآن ما ألقى لجاما ولاسرجا

جنى ما جنى واستهل الأمر في الصبا فلما نهاه الشيب عن فعله لجا

بل إن ليعجب أشـــدالعجب من هؤلاء المفتونين الذين لم يركبوا في عباب البحر اللجي سفائن النجاة، فيقول في نص آخر[2]:

بني الدهر أماالدهر فهو عدوكم وإن لاح يوما في ثياب حبيب

بوارقه لاريَ فيها لعاطش ولاخصب في أنوائه لجديب

بلاكم وأبلاكم تقلب صرفه فيا ويحها من أنفس وقلوب

بصائرها في الرشد غير ثواقب وأبصارها في الغي ذات ثقوب

بعيد من التوفيق من بات ساهرا رجاء بعيد لامخاف قريب

وما أروع قوله بعد ذلك[3]:

بطيء لعمري من سرى الليل كله وأصبح حول الحي بعد لغوب

يخيل لعمري من دعاه حبيبه هلم إلينا وهو غير مجيب

ويذم الدنيا قائلا[4]:

---

[1] النبوغ المغربي في الأدب العربي،عبدالله كنون،دارالكتب العمية بيروت،ط:١٩٦٥م،ج:٣،ص:١٤٥

[2] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٦٥

[3] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٦٥

[4] الإحاطة،ج:٣،ص:٣١٤

نذير جاءكم عريان يعدو وأنتم تضحكون وتلعبونا

أُخي إلى متى هذا التصابي جُننت بهذه الدنيا جنونا

هي الدنيا وإن وصلت وبرت فكم قطعت وكم تركت بنينا

فلاتخدعك أيام تليها ليال واخشها بيضا وحونا

فذاك إذا نظرت سلاح دنيا تعيد ساكنها سكونا

ويقول[1]:

هوى من غوى والغي أن تتبع الهوى فويل لذي غني أطاع هواه

هوى هذه الدنيا هوان وإنما يعز الفتى بالرشد لابسواه

هوانك غبنٌ فاطلب الفوز بالتقى فإن التُقى نهج تلوح صواه

ويبرز ابن المرحل في قصيدته صراعاً بين ذاته وبين نفسه،أو بين رغبات نفسه وبين كبحها والتشديد عليها،يقول:

بأي لسان أم بأي طبيب يداوَى عذارٌ من بياض مشيب

بياضٍ كما لاحت كواكب سحرة تُريك طلوعاً مؤذناً بغروب

بشيراً نذيراً لاح كالفجر صادقاً على كاذبٍ حلواللسان خلوب

بُنى ابك لي إن البكا يبعث البكا وليس جوابي منك غير وجيب[2]

ويضيف:

بِحاراً ركبناها بغير سفائن غروراً فإن تهلك فغير عجيب

برتني يوماً آيةٌ في براءة فإن ضحكت سِني فضحك مريب

---

[1] الإحاطة،ج:٣،ص:٣١٥

[2] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٧٣

بنيتُ لها قلبي على كربة الأسى فلم تتغير لاختلاف خطوب[1]

ولعل هذه الصــورة القاتمة المؤثرة تبرز أكثر في نهاية القصــيدة حين خصــص اللوحة الأخيرة للمآل الذي لابدمنه لنهاية كل شــئ في هذا الوجود، وهو – وإن وجه الخطاب إلى صاحبه– فإنه يصدق عليه هو أيضاً:

بكى صاحبي حتى إذا مال في الثرى وسالت مآقيه كمثل غروب

بسطتُ له كفي قبلتُ كفه وقلتُ له هذا مقام كئيب

بحقك لاتبرح أطارحك لوعتي على نغم من أنةٍ ونحيب[2]

[1] الإحاطة، ج:٢، ص:٢٧٣

[2] الإحاطة، ج:٢، ص:٢٧٤

الفصل الثاني:

ابن خميس التلمساني

و ابو زيد الفازازي

وأعمالهما

ابـن خميس التلمسانـي الغرنـاطي

اسمه ومولده:

هو أبوعبـدالله محمـدبن عمر بن محمـد بن عمر بن خميس الحميري التلمســـاني الغرناطي.ينمي نسبه إلى حمير وحجر ذي رعين،مساكن باليمن[1].

يرى جل الدارسين أن ولادة ابن خميس كانت سنة ٦٥٠هـــ استنادا إلى ما ذكره الرحالة المغربي الكبير أبوعبدالله العبدري لما ورد تلمسان سنة ٦٨٨هـ[2].

نشأته:

نشـأ الشـاعر في بلدة تلمسـان وترعرع في ربوعها يتقيل برد ظلالها ويسـتنشـق نسـيم صباها، فهي مسقط رأسه ومرتع صباه يحن إليها فيقول:

وإني لأصبو للصبا كلما سرت وللنجم مهما كان للنجم إصباء[3]

ووصـــفه لســـان الدين ابن الخطيب فقال: "كان رحمة الله نســـيج وحده زهدا وانقباضـــا...عاملا على الســـياحة والعزلة"[4]. ولعل هذا الإزواء والتقلل راجع إلى ظروفه الاجتماعية، وظروفه هذه فقر طوقه فجعله يجنح إلى الزهد والتصـــوف غيرمكترث بمتاع الحياة. لا بل ربما الزهد هوالذي جعله يفضل الفقر، ويذكره غير مرة،يقول:

الفقر عندي لفظ دق معناه من رامه ذوي الغايات عناه

كم من غبي بعيد عن تصوره أراد كشف معماه فعماه[5]

---

[1] الآداب السامية، محمدعطية الأبراشي،دارالحداثة للطباعة والنشر بيروت،ط:١٩٧٤م،ص:٧٦

[2] أهم الأحداث الفكرية بتلمسان، المهدي البوعبدلي، بحث نشر بمجلة "الأصالة"ع/٤٩-٥٠،(سبتمبر١٩٧٧م)ص:٩

[3] الإحاطة في أخبار غرناطة،ج:٤،ص:٥٢٨

[4] المصدرنفسه

[5] نفخ الطيب، المقري،ج:٧،ص:٢٣١

فهو يفضل علم على المال، ويجعلهما ضدان لايجتمعان، وهكذا تلاحقه صورة الفقر مرة أخرى طارقة خياله، فيأبى إلا أن يكون فقيرا، وإن جردها من معناه المادي ولكنها في أعماق نفسه حيث يقول:

يأبى ثراء المال علمي وهل يجتمع الضدان: علم ومال [1]

لم تذكرالمصادر التاريخية المطبوعة والمخطوطة عن أهله وأسرته إلا ما ذكره صاحب"أعلام الجزائرعن أبيه" عمربن محمد بن عمر بن خميس الحجري الرعيني التلمساني، أبوعلي: محدث فقيه مشارك في كثير من العلوم، وُلد بتلمسان وبها نشأ وتعلم"[2].

ولم تذكر شيوخه الذين أخذ عنهم ولا الأماكن التي تلقى فيها العلوم والفنون وتلقن مبادئ الفلسفة، على الرغم من أن بلدته آنذاك كانت تعج بالعلماء والفقهاء والأدباء.

فلا يستبعد أن يكون الشاعر قد أخذ العلوم الدينية والأدبية، كالفقه واللغة والتصوف والتاريخ من علماء وشيوخ عصره، كغيره من أبناءجيله الذين كانوا يحفظون القرآن في الكتاتيب والمساجد في مرحلتهم الأولى، ثم يقبون على دراسة النحو واللغة والأدب والفقه، ثم يتخصصون في العلوم الدينية والعقلية والأدبية التي كان مقرها بالمسجد الأعظم الذي كان شبه جامعة على شاكلة القرويين بفاس والزيتونة بتونس، والأزهر بالقاهرة. وقد أشارالشاعر إلى المرحلة الأولى من تعلمه في شعره عند رثائه بلدة تلمسان في قصيدة رائعة،مطلعها:

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو منى النفس لادرالسلام ولا الكرخ [3]

ولأن التاريخ كتم أسماء شيوخه، فقد باح لنا بأسماء بعض تلاميذه وأصدقائه ورواة شعره وجلسائه بتلمسان وفاس والأندلس، حتى وإن أحجم الشاعر عن ذكر أسمائهم حيث يقول:

---

[1] نفخ الطيب، المقري،ج:٧،ص:٢٣١

[2] معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض،دار فرحون،القاهرة،ط:١٩٩٨م،ص:١٣٥

[3] المنتخب النفيس، عبدالوهاب بن منصور،مطبعة مصطفى البابي الحلبي،ط:١٩٦٥م،ص:٣٥

وإخوان صدق من لداتي كأنهم جآذر رمل لاعجاف، ولابزخ[1]

فمن تلاميذه الإمام النحوي محمدبن علي بن الفخار الجذامي، والفقيه الأديب البارع محمدبن إبراهيم بن عيشون البلفيقي.أما رواة شعره فنهم القاضي الجليل عبدالمهيمن الحضرمي، والأديب الكاتب يحيى بن علي القيس، والقاضي محمدبن عبدالرزاق، والقاضي أبوالبركات بن الحجاج، والأستاذ أبوعثمان بن ليون الرحالة المغربي، وحازم القرطاجني صاحب المقصورة الشهيرة، حيث كان كثيرالافتخار به فيقول: "حازم وما أدراك ما حازم" يردد ذلك أكثر من أوقاته[2].

ومن أصدقائه أبوعبدالله بن حمدون، وأبوزكرياء بن عصام، وأبوغالب المغيلي قاضي فاس، أما بالأندلس فكثيرون لعل أشهرهم أبوعبدالله بن رشيد السبتي الذي أشاد بذكره في قصائده، وصديقه الوزير ابن الحكيم الذي بوأه منزلة سامية وعرفه بأصدقاء آخرين.

ويتضح من خلال كل الدراسات أن فترة طويلة من حياته قد أهملت، أى حوالي ثلاثين عاما، لذلك لايعرف عن وظائفه بتلمسان إلا ماذكره ابن خلدون في "بغية الرواد في ذكرملوك بني عبدالوداد"، أنه تولى رئاسة ديوان الإنشاء في أيام السلطان أبي سعيد بن غمراس، فراح يمدح بني زيان ويدافع عنهم بشعره ولكنه انقلب عليهم أثناء الحصار وحملهم مسؤولية تشتيت الناس بسبب تعجرفهم، وقدم لهم النصائح ليرجعوا عن غيهم فلما لم يستجيبوا لهم أوجس منهم خيفة فتسلل هاربا مودعا مسقط رأسه راحلا إلى سبتة ثم غرناطة،وأقام بها ما بقي من حياته.

رحلاته:

نزل الشاعر مدينة سبتة قصد الإقامة والتدريس فقد أعجب بها واستحسن منها ماءها وبحرها ومناخها، فقدم بين يدي أميرها طالب العزفي قصيدته التي يمدحه فيها مشيدا بأمرائها راثيا تلمسان وهاجيا ملوكها:

تركت لميناء سبتة كل نجعة كما تركت للعز أهضامها شمخ

---

[1] المصدر نفسه،ص:٩٥

[2] المنتخب النفيس، ص:٣٦

وآليت أن لا أرتوي غيرمائها ولوحل لي في غيره المن والمذخ

وحسبي منها عدلها واعتدامها وأبحرها العظمى وأريافها النفخ[1]

لم تذكر المصادر الأسباب التي دعت الشاعر لزيارة مالقة والتي والتي سبق له أن مربها عندما كان قاصـدا غرناطة،فلربما أرادالتجوال، لأنه كان كالدم بطبعه يتحرك في كل ربيع على حد قوله، أو لأنه أعجب بجمال المدينة فأراد أن يســتمد بمناظرها فقد مربها في الأول على عجل.

أما المرية "التي كانت منذ القرن الســابع الهجري الميناء التجاري الأول في الأندلس، الذي يتعامل مع الدول المســيحية إذ كانت تصــلها الســفن من ارغون والجمهوريات الإيطالية ومن أقطارها أخرى محملة بالبضــائع فتفرغها بالمرية وتحمل بضــائع أخرى أندلسية"[2]، فقد زارها سنة ٧٠٦هـ إذ كان يرسله ابن الحكيم إلى خادمه وقائد بحريته أبي الحسـن بن كماشـة الذي أكرمه إكراما يليق بمقامه وصـار صـديقاله، وفي هذا يقول ابن خاتمة: "وقدم ابن خميس المرية سنة ست وسبع مائة فنزل بها في كنف القائد أبي الحسن بن كماشة من خدام الوزير ابن الحكيم، فوسع له في الإيثار والمبرة،وبسط له وجه الكرامة وطلق الأسرة"[3].

موضوعاته الشعرية:

1- المدح:

إن نصيب المدح في شعر ابن خميس قليل، زيادة على ذلك أنه نجد أن الشـاعر قلما يخصــص قصــيدة كاملة لممدوحه،ولعل هذا مايوحي إلى أن الشــاعر لميكن متكســبا بشعره،متملقا لأهل المراتب والمناصب،ولوكان كذلك لافرد الممدوح بكامل قصيدة كما فعل الشعراء الأمويون من قبل.

---

[1] المنتخب النفيس،ص:١٠١

[2] تاريخ مدينة المرية الإسلامية،عبدالعزيز سالم، داربيروت لبنان،ط:١٩٦٩م، ص:٩٨

[3] نفخ الطيب،المقري،ج:٥، ص:٣٦١

ومن أمثلة المدح في شعره أنه يمدح آل العز في أمراء سبتة،وذلك بعد هروبه من تلمسان:

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو منى النفس لأدار السلام والكرخ[1]

ويمدح اباسعيد ابن عامر وذكر فيه الوحشة القائمة بينه وبين ابن خطاب:

مشوق زار ربعك يا إماما محا بثار دمنتها التثاما[2]

2- الفخر:

لم يطرق الشـــاعر ابن خميس الفخر في قصـــائد مفردة فخره يرد داخل القصـــيدة الواحدة المتنوعة الأغراض،وغالبا ما يكون في آخرها،وقد يجيئ بيتا أو بيتين.

ويبدو أن حالته الاجتماعية البســـيطة قد حرمته من دواعي الفخر فلم يجد في شخصيته إلا داعيين:داعي النسب وداعي الشعر.

يفتخر ابن خميس بانتمائه القبلي القحطاني وبيمانيته دون أن يخرج من المعاني السائدة من قبل في العصرالجاهلي، يقول:

إنا بنو قحطان لم تخلق لغير رغيات ملهوف ونعة لاجئ

بسيوفنا البيض اليمانية التي طبعت لحز غلاصم ووداج

تأبى الأحجام من أعدائنا يوم اللقاء طهارة الأمشاج[3]

ثم يعود ثانية للإفتخار بنســـبه وقومه ذاكرا أمجادهم التاريخية مبينا بأن التبابعة منهم خضـــعت لهم ممالك الدنيا طوعا وكرها لأنهم قوم كرام النفوس وأبوابهم مفتوحة دائما لضيوفهم، يقول:

ولنا مفاخر في القديم شهيرة كالصبح في وضح وفي إيلاج

منا التبابعة الذين ببابهم كانت تنيخ جباة كل خراج

---

[1] المصدرالسابق،ج:٧،ص:٢٢١

[2] نفخ الطيب،المقري،ج:٥ ص:٣٦١

[3] المنتخب النفيس،ص:٨٣

ولأمرهم كانت تدين ممالك الد نيا بلا جبر ولا إكراه

من يقتدح زندا فإن زنادهم في الجود وارية بلا إحراج

أبوابهم مفتوحة لضيوفهم أبدا بلاقفل ولا مزلاج[1]

3- الحنين:

لعل أهم غرض تفجرت فيه قريحة الشاعر وفاضت له عاطفته جداول حب زغدران شوق تسقي ربوع تلمسان من بعد هو الحنين.

فمثلا يصف الشاعر أصدقاءه فيشبههم بالجآذر حسنا وهيئة، وهم كذلك وعاة لايلتفظون فحشاء ولايرتكبون منكرا، الكبير منهم والصغير سيان،ولكنهم مضو ومضى ذلك الزمان فغاب عهدالشباب والأنس وولت أيام السعادة والبذخ:

وإخوان صدق من لداني كأنهم جآذر رمل عجاف ولابزخ

وعاة لم يلقى إليهم الهدى وعن كل فحشاء ومنكرة صلخ

هم القوم كل القوم سيان في العلا شبابهم الفزعان والشيخة السلح

مضوا ومضى ذلك الزمان وأنسه ومن الصبا والمال والأهل والبذخ[2]

4- الزهد:

وهو أهم غرض في ديوان الشعري،وسيأتي ذكره في الفصل القادم.

وفاته:

لم العيش الرغيد والمنزلة السامية التي تبوأها ابن خميس بغرناطة عند صديقه ابن الحكيم لتهدئ من شوقه أو تخفف من صبابته لمسقط رأسه فراح يتوق إليها في كل حين ويبعثها رسائل الشوق والحنين آملا أن يعود إليها يوما:

---

[1] المصدرالسابق،ص:٨٦

[2] المنتخب النفيس،ص:٦٢

وهل لي زمان أرتجي فيه عودة إليك ووجه البشر أزهر وضاء[1]

ثم عزم على العودة إلى وطنه وقد شق ذلك على صاحبه فأجابه: أنا كالدم بطبعه يتحرك في كل ربيع.ويقال إن آخر ماصدر من الشاعر هذا اليت:

لمن المنازل لايجيب صداها محيت معالمها وصم صداها[2]

هذا البيت أراده أن يكون مطلع قصيدة يمدح بها صديقه ابن الحكيم بمناسبة عيدالفطر ولكنه لم يقو على أن يزيد شيأ،ونضبت القريحة، وسكت عن الشعراللسان، وانقضى شهر رمضان، وفي هذا يقول ابن خاتمة الأنصاري:"فأشار معناه إلى معناه وأذن أولاه بحضور أخراه"، ثم وصف مصرعه وصفا مؤثرا فقال:"وكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ضحوة يوم عيدالفطر،مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة وهو ابن نيف وستين سنة، وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم"[3]،ويرجع سبب قتله إلى الأحقادالتي تكن ضدالوزير ابن الحكيم.

شعرالزهد عند ابن خميس

كان للأحداث السياسية والظروف الاجتماعية والفكرية دوركبير في صقل شخصية ابن خميس ونسجها على منوال عصره، فالأحداث السياسية المضطربة في المغرب العربي والأندلس آنذاك لم تدع مجالا للهو والمرح، ولم تترك سبيلا لتشيع الترف والمجون، فقد ركن الخاصة والعامة من الناس إلى التدين وشيدوا صرح الدين والعلم، ما أرسى ثقافة دينية وجعل الصراع على أشده بين الصوفية والسلفية، وقد بلغ عصرالشاعر نضجا فكريا وفقهيا أعطى للحياة صبغة دينية جعلت الشاعر ينشأ نشأة دينية ويتربى بين أحضان علماء وفقهاء كبار عرفته بلدته وينحو نحوالزهد فانزوى وعزف عن مباهج الحياة كما ذكره لسان الدين ابن الخطيب فقال:"كان رحمه الله نسيج وحده زهدا وانقياضا..بعيدا عن الريا والهوادة عاملا على السياحة والعزلة"[4].

---

[1] المصدر نفسه،ج:٧،ص:٢٩٦

[2] المصدرنفسه،ج:٥،ص:٣٦٢

[3] المنتخب النفيس،ص:٤٠

[4] الإحاطة في أخبار غرناطة،ج:٤،ص:٥٢٨

إن الدارس لشعر ابن خميس ليقف على شخصية راضية بما كتب لها في الحياة قنوعة بحظها اليسير، تؤثرالفقر من أجل العلم، لأن العلم والمال لايجتمعان، بينهما برزخ لايبغيان، يقول:

يأبى ثراء المال علمي وهل يجتمع الضدان علم ومال[1]

وترى في العودة إلى الغي ظلالا مبينا وخسارة عظيمة آخذة العبرة ممن افتتن أو ارتد:

لبعث رشاي فيه بالغي ضلة وكم صالح مثلي غدا وهو طالح[2]

وكان الشاعر كثيرالصيام والاعتكاف والخلوة، وهذه من صفات الزهاد،يقول:

أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي يقال فلان ضيق الصدر بائع[3]

ويدعوالناس إلى التزام البيت تجنبا للفتنة وحفاظا على الدين، ويأمر بفعل الخير وترك الحقد والضغينة،حيث يقول:

كن جلس بيتك مهما فتنة ظهرت تخلص بدينك وافعل دائما حسنا

وإن ظلمت فلاتحقد على أحد إن الظغائن فاعلم تنشئ الفتنا[4]

كما يدعو إلى صون اللسان لأنه مصدرالمصائب والوبال فهز جدير بأن يلجم،حقيق بأن يسجن، وينصح بالتزام الصمت لأنه آمن وأسلم في زمن الفتن:

تحفظ من لسانك ليس شيء أحق بسجن من لسان

وكن للصمت ملتزما إذا ما أردت سلامة في ذا الزمان[5]

وينظر إلى الدنيا نظرة ازدراء، يحذر منها ويسدي الحكمة والنصيحة ويلقي الموعظةالحسنة لتجنبها ضاربا لذلك أمثلة من التاريخ لمن شاء أن يعتب، فادنيا عندالشاعر تحمل على الفتى وإن كان محظوظا، فإما أن ترفعه وإما أن تذله فلاتوسط

---

[1] نفخ الطيب،المقري،ج:٧،ص:٢٨٥

([2]) المصدرنفسه،ج:٩،ص:٣٣٩

([3]) نفس المرجع

([4]) تاريخ الأدب الجزائري، محمدعمرو الطمار، المطبوعات الجامعية تلمسان،ط:٢٠٠٢م،ص:١٩٦

([5]) نفس المرجع،ن ص

عندها، لامفر من خيرها وشرها لذلك يقدم الشاعر نصيحة لتركها ويخاطب من يرجو ودها ويتمنى محبة منها بأن لايفرح بذلك فماهو إلا ظل سحاب سرعان ما يزول،فالأفضل تركها وتجنبها:

لكنها الدنيا تكر على الفتى وإن كان منها في أعز نصاب

وعادتها أن لاتوسط عندها فإما سماء أو تخوم تراب

فلاترج من دنياك ودا وإن يكن فماهعو إلا مثل ظل سحاب

ومالحزم كل الحزم إلا في اجتنابها فأسقى الورى من تصطفي وتحابي[1]

ثم يستدل على نصيحته بمافعلته من خراب في العمران والبشر، فقد فرقت الأسر والأصحاب والخلان، ومرغت في التراب أبطالا وأقوياء في الحروب واثكلت الكثير من النساء:

فكم عطلت من أربع وملاعب وكم فرقت من أسرة وأصحاب

وكم غرت من حاسر ومدجع و كم أثكلت معصر وكعاب[2]

وشبه الدنيا بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء فإذا وصله لم يجد شيأ، أو كشهد النحل الذي مليئ عسلا صافيا وقد دس فيها السم الناقع الخطليط بالصاب:

خدعتُ بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصادي بلمع سراب

تقول هوالشهد المسور جهالة وماهو إلا السم شسي بصاب[3]

ومن الزهديات التي لم تضيعها حافظة الرواة تلك المقدمة التي افتتح بها ابن خميس مدحية له بقوله:

تُراجع من دنياك ما أنت تاركُ وتسألها العتبى وها هي فارِكُ

تؤمل بعدالترك رجعَ ودادها وشر وداد ما تود الترائكُ

---

[1] نفخ الطيب،المقري،ج:٧،ص:٢٨٧

[2] المرجع ن ص

[3] المرجع ن ص

حلا لك منها ما حلا لك في الصبا فأنت على حلوائه متهالكُ

تظاهر بالسلوان عنها تجملاً فقلبك محزون وثغرك ضاحكُ

تنزهتُ عنها نخوةً لا زهادةً شعر عذار أسود اللون حالكُ[1]

لقد راح الشاعر يحذر من الدنا بل يدعو إلى اجتناب بني الدنيا عندما نصح ممدوحه السلطان محمد النصري بترك ضل الدنيا واعتزالها عساه يتذوق طعم الحياة ويجد راحة البال:

اترك بني الدنيا وأعرض عنهم فعساك تطعم لذة الإثلاج[2]

لايكتف الشاعر بذم الدنيا وذكر مثلها وتحذيرالناس منها بل يغور في التاريخ ويسردالقصة ويسوقها في معرض الاستشهاد والاستدلال بمنتهى اللباقة حتى لايشعرالقارئ أنها حشو زائد بل يأنس بها ويعدها جزءا متمما للموضوع ففي قصيدته التي مطلعها:

أنبئت ولكن بعد طول عتاب وبعد لجاج ضاع فيه شبابي[3]

وعظ المغتربين بزخرف الدنيا بقصة حرب البسوس، فيشير إلى منزلة القبيلتين المتحاربتين بكر وتغلب وعزة كليب وائل،ثم جرأة جساس وإقدامه على قتل كليب بسبب ناقة البسوس التي عقرها كليب فأنست الحديث عن عقر ناقة النبي صالح عليه السلام، فكان ذلك سببا في ترك الحيين يهويان من العزة والسؤدد إلى حضيض الذل والضعف والحزن والهوان:

وما صاحب الدنيا كبكر وتغلب ولا كليب ري فحل ضراب

إذا كعت الأبطال عنه تقدموا أعاريب غر في متون عراب

وإن ناب خطب أوتفاقم معضل تلقاه منهم كل أصيد ناب

تراءت لجساس مخيلة فرصة تأتت له في جيئه وذهاب

---

[1] أزهارالرياض،المقري،ج:٢،ص:٣٠٥

[2] المنتخب النفيس،ص:٨٠

[3] نفخ الطيب،المقري،ج:٧،ص:٢٨٨

فجاء بها شوهاء تنذر قومها بتشييد أرحام وهدم قباب

وكان رغاء الصقب في قوم صالح "حديثا فأنساه رغاء سراب"

فما تسمع الآذان في عرضتهم "سوى نوح ثكلى أو نعيب غراب" [1]

وفي قصيدته الخائية يضرب ابن خميس مثلين في الزهد، الأول بأبي الخورنق النعمان بن قيس الذي لما أتى على ملكه ثلاثون سنة علا مجلسه ونظر ماحوله فأعجبه، ففكر وقال: "أي درك في هذا الذي ملكته اليوم ويملكه غدا غيري"؟ ثم دعا حجابه ونحاهم عن بابه، وساح في الأرض وفيه يقول ابن خميس:

"وما الزهد في أملاك لخم ولا التقى" "ببدع وللدنيا لزوق بمن يرخو"

"وإلا ففي رب الخورنق غنية" "فما يومه سر ولا صيته رضخ"

تطلع يوما والسرير أمامه وقد نال منه العجب ماشاء والجفخ

"وعن له من شيعة الحق قائم" بحجة صدق لاعبام ولاشخ

"فأصبح يجتاب المسوح زهادة" وقد كان يؤذي بطن أخمصه النتج [2]

أماالثاني فهو أبوحاتم العزفي الذي تنحى عن الملك طواعية من نفسه تاركا كرسي العرش لأخيه وأقبل على العبادة معرضا عن الدنيا مستهينا بقيمتها، رغم أنها أهدته العم ووهبته الملك والجاه ولكنه قابل حبها وإقبالها بالإعراض والصدوف،يقول:

وفي واحدالدنيا أبي حاتم لنا دواء ولكن ما لادوائنا ننح

تخلى عن الدنيا تخلى عارف يرى أنها في ثوب نخوتة لتخ

وأعرض عنها مستهينا لقدرها فلم يثنه عنها اجتذاب ولامصخ

فكان له من قلبها الحب والهوى وكان لها من كفه الطرح ولطخ [3]

([1]) المرجع ن ص

[2] المنتخب النفيس،ص:١٠٣-١٠٤

[3] المصدر السابق

بيد أنه رغم هذا الادراك العميق لحيقة الدنيا والاعتبار بقصص بعض السابقين إلا، الإنسان في نظرالشاعر تعمى بصيرته وتصد آذانه، كأن لم يسمع شيأ، ولعل هذا ما يدل على أن الشـــاعر لم يكن مرائيا وإنما يعبر عن إخلاص في الزهد ومراقبة للنفس واعتراف بالنقص.

وهذا سبيل ينقله ضفاف الزهد إلى رحاب الصوفية التي تلمس في بعض قصائده خاصة في قصيدته النثرية"عجبالها":

عجبا لها، أيذوق طعم وصالها من ليس يأمل أن يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تعلة ساعة منها وتمنعني زكاة جمالها
كم ذا وعن عيني الكرى متألق يبدو ويخفى في حفي مطالها
يسمولها بدرالدجا متضائلا كتضاؤل الحسناء في أسمالها
وابن السبيل يجيء يقيس نارها ليلا فتمنحه عقيلة مالها
يعتاد في النوم طيف خيالها فتصيبني ألحاظها بنبالها
أنسيب شعري رق مثل نسيمها فشمول راحك مثل ريح شمالها
وانقل حديث الهوى واشرح غر يب لغاتها واذكر ثقات رجالها
وإذا مررت برامة فتوق من أطلائها وتمش في أطلالها
وانصب لمغز لها حبالة قانص ودع الكرى شركا لصيد غزالها
وأسل جداولها بفيض دموعها وانضد جوانبها بفضل سجالها[1]

ويتأسف ابن خميس على شباب مضى،وشيب أتى، وعمر انقضى، لم يتذوق فيه غيراللوعة والصبابة:

وما أسفي إلا شباب خلعته وشيب أبى إلا نصول خضاب

[1] المنتخب النفيس، ص:١٠٦

وعمر مضى لم أخل منه بطائل سوى ما خلا من لوعة وتصابي[1]

ويتذكر شبابه عند مشيبه فيرى أنه لم يبق له بعد ضياعه مايفقد:

ولى الشباب وشرخه لم يبق لي بعدالشباب وشرخه و أفقد[2]

[1] نفخ الطيب،المقري،ج:٧،ص:٢٨٩

[2] المصدرالسابق،ج:٧،ص:١١٥

أبـوزيـد الفازازي

اسمه ونسبه:

هو أبو زيد عبدالرحمن بن أبي سعيد يخلفتن بن أحمد بن تنفليت الفازازي، نسبة إلى فازاز بقبلي مكناسة الزيتون، وإليه ينتمي أصله، وتنسب أسرته إلى يجبش أو يخفش وهم من زناتة[1].

نشأته ورحلاته:

وُلد ونشـأ الأديب بعدالخمسـين والخمس مائة في قرطبة على قول ابن الآبار، وقال ابن الزبير منشـــؤه في مراكش[2]، غير أن المعلومات القليلة التي قدمها هذا الأخير عن الشـــاعر لاتدل على معرف تامة بحياته وأخباره، إذ فيها من الأخطاء في نســـبه وتاريخ وفاته، والاختصـارالمخل بأخباره مايجعلها ضـعيفة أمام ما أورده ابن الأبار من معلومات دقيقة عن الشاعر، وهوالذي عاصره وقصد زيارته مرتين في أشبيلية سنة ٦٢٦هـــ، أي قبل ولادة ابن الزبير نفسه.

ولذا فقد اعتمد أصـحاب التراجم والمؤؤخون القدامى والمحدثون على رواية ابن الأبار ولم يلتفتوا إلى رواية ابن الزبير،وذلك دليل آخر على ضعفها.

على أن في نشـــأته رواية أخرى لاتناقض رواية ابن الأبار وإن كانت تجعلها أكثر تحديدا، لأنها تفيد أن الفازازي تعلم في تلمسان قبل سنة ٥٧٦هـــ على يد أبي عبدالله التجيبي المتوفى سنة ٦١٠هـــ، فقد جاء في نفخ الطيب أن التجيبي المذكور أول من سمع عنه الفازازي في حياة الحافظ السلفي إذ قدم عليهم تلمسان[3].

ويبدو القيد بحدوث السـماع (في حياةالسـلفي) وكأنه اسـتطراد لالزوم له في سـياق الترجمة، والواقع أنه في غاية الأهمية، لأنه يعني أن أخذالفازازي من التجيبي تم قبل ســـنة ٥٧٦هـــ، وهو تاريخ وفاة السـلفي، ويقود ذلك إلى تعيين البيئة التي نشـأ وتعلم فيها

---

[1] الزيل والتكملة،ج:٨، ص:٢٠٨

[2] المصدرالسابق،ج:٨، ص:٥٤٢

[3] نفخ الطيب،ج:٤، ص:٤٦٨

الفازازي في آونة صـــباه وفي بعض مراحل تعليمه،كمايقود إلى تصـــحيح خبر في ترجمة التجيبي بالذيل والتكملة،جاء فيه:"ونزل مقفلة من رحلته هذه...(يعني رحلته المشـــرقية) بسبتة سنة ٥٧٤هـ، فأسمع بها وبفأس،ومراكش وغيرها من البلدان،ثم انتقل إلى تلمسين فاستوطنها"[1].

والذي يستفاد من التصحيح السابق أنه روى في تلمسان إثر عودته من المشرق وقبل ذهابه إلى المدن المذكورة أعلاه.

ولهذا التصـــحيح المســـتفاد مايؤكده من رواية أخرى من غيرالنفخ وبلفظ التجيبي نفســه،فقد جاء في معجمه عند ذكر جابر القرشـي قوله:"من أصـحابي الآخذين عني بتلمسان عند قدومي من البلادالمشرقية،كتب عني كثيرا"[2].

ولانخرج من البراهين الواردة في المصادرالمختلفة دون الإشارة إلى ماجاء

في بغية الوعاة من أن الفازازي كان نزيل تلمســـان[3]،ولايخفى للمتتبع لحياة الفازازي أن المراد بالنزول هنا قبل الفترتين الأندلسـية المتأخرة والمراكشـية الأولى والثانية، ولايكون ذلك إذن إلا في فترة صباه وتعليمه وهي فترة مبكرة في حياته.

ولدينا من أدب الفازازي أدلة أخرى قاطعة فيها إشارات واضحة الدلالة على علاقته بتلمسان زمن الصبا وآونة الطلب،منها قوله:

أهوى تلمسان وسكانها لو كان لي في الكون اختيار

أرض خلعت العذر في تركتها أضعاف ما فيها خلعت العذار

ولاندري من أقام بتلمســـان،ولكن هذه العلاقة الودية بينه وبينها لاتتكون في يوم وليلة،فلماذا يصفها بالقصر والاختصار في قوله:

يا لذاك العيش لو أنه كان في مدته مختصرا

---

[1] الذيل والتكملة،ج:٨،ص:٣٥٦

[2] المصدرالسابق،ج:١،ص:٢٤٩

[3] بغية الوعاة،ج:٢،ص:٩١

إن الإشـــارة إلى القص رهنا تدل على أنها من أيام الســـرور القليلة،ولاتدل على اختصارالمدة.

فهل يعني ذلك خللاً في رواية ابن الأبار التي يذكرفيها أن الفازازي ولد ونشـــأ في قرطبة؟،الحقيقة أن الأبار أكد ســكن الفازازي لتلمســان بعد قرطبة مباشــرة[1]، لكنه لم يحدد عمره في هذه الفترة،ويمكن أن نســتشــف من كل مامضــى أنها فترة الطلابة التي ينتهي فيها التلميذ من حفظ القرآن الكريم،ويتجه إلى دراســة العلوم المختلفة، فالتجيبي الذي درس له في تلمسان تصدر لتدريس الصحيحين،والترمذي وسيرة ابن هشام،ومعجم الصــحابة للبغوي وغيرها من الكتب الكبرى والمتوســطة،وتدرس مثل هذه الكتب عادة بعد مرحلة الطفولة وهومايجعل عمرالأديب عندتلمذته للتجيبي يبلغ ســن الحلم ويناهزالرشد،وبذلك يمكن الجمع بين رواية ابن الأبار حول النشأة القرطبية وهذه الرواية التي بين ايدينا حول الفترة التلمسانية.

انتقل الفازازي من تلمسان بعدذلك إلى فاس،ومنها راسل أصدقائه التلمسانيين في اســلوب رصــين وفكرواع.ثم انتقل من فاس دون أن نجدالكثير عن اخباره فيها، حيث مالبث أن دخل الأندلس وتجول في ربوعها، يطلب العلم حينا ويكتب للولاة أحيانا، ويؤلف المجموعات الشــعرية والنثرية ذات الطابع الديني،ويتولى الرواية فيما ألفه أو رواه عن شيوخه،ومن الثابت في تلك الفترة أنه أقام في أشبيلية وقرطبة ومالقة وغرناطة وربما غيرها أيضا.

من شيوخه:

وفي مالقة لقي الحافظين الشهيرين ابازيدالسهيلي، وأبا عبدالله الفخار، فأخذ عنهما كما اخذالكثير من الأندلســيين والمغاربة، فقد عرف عن الرجلين بروزهما في الحديث والفقه،قال ابن الخميس:"ورد علينا رحمه الله وكان بها كاتبا لأميرالمؤمنين أبي العلاء أيام ولايته،وكان من الكتاب البلغاء والشــعراء والادباء،كتب عن ســادات حياته،وكان بارع الخط،من جلة الطلبة النبهاء"[2].

---

[1] الذيل والتكملة،ج:٨،ص:٣٦٩

[2] أعلام مالقة،ابن خميس،ص:٦٧

ونجد في قائمة شيوخ الفازازي بالإضافة إلى السهيلي والتجيبي وابنالفخار،أعلام من فقهاء ومحدثي القرن السابع من أمثال أبي الوليد اليزيدبن عبدالرحمن بن بقي القاضي،وابن خلف الحافظ، وابي الحسن الصائغ، وأبي الصبر السبتي وغيرهم.

ثم عادالشاعر صحبة أبي العلاء إلى قرطبة طيلة سنة ٦٢١هـ، وفي السنة التالية انتقل معه إلى أشبيلية،وفيها نظم رسالة شعرية عن المأمون إلى أبي النجم هلال بن مقدم الخلطي، يشكره فيها على وفائه[1].

ثم بدت الجفوة بين الفازازي وابي العلاء جعلت أبالعلاء المأمون يأمره بالتزام بيته شهورا طويلة من سنة ٦٢٦هـ، حتى قال ابن الأبار:"دخلت قلرطبة وإشبيلية في وقتين مختلفين وهوبهما إذ ذاك فلم أقدر في أحدهما الوصول إليه لإلزامه داره بجفوة نالته من السلطان وذلك في سنة٦٢٦هـ[2]"، وفي نثره إشارة إلى لزومه البيت لعلها تومئ إلى هذه الفترة،يقول فيها:"وها أنا الآن حلس البيت،وحي في معنى الميت،وعاقتني من لجج الكير عوائق،وحالت بيني وبين الحدائق وأين الحدائق؟ وأمالناس فالجنسية معدومة،ووراء هذه الإشارة أمور مكتومة"[3].

آثاره:

ترك هذا الأديب آثارا أدبية أغلبها في الزهد والمدائح والمواعظ،ويمكن حصرالمؤلفات فيمايلي:

1- ديوان الوسائل المتقبلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

2- القصائدالعشريات.

3- قصائدالشوق والغرام.

4- الخطب التي كتبها لابن الحجام الواعظ.

5- مادة التحقيق وجادة الطريق.

---

[1] البيان المغرب،ابن عذارى المراكشي،دارالغرب،ط:٢٠١١م،ج:٣،ص:٢٧٠

[2] التكملة،ج:٢،ص:٥٨٥

[3] التكملة،ج:٢،ص:٥٨٥

وفاته:

توفي الفازازي بمراكش في شهر ذي القعدة سنة ٦٢٧هـ، أي بعد حوالي ثلاثة أشهر من قدومه إليها[1].

شعرالزهد عندالفازازي

تحقيرالدنيا:

يا نائم القلب معنىً وهو منتبه والقلب إن نام لم يستيقظ الحدق
لاتفتحن بغير الجد مشكلة فليس يبقى على مفتاحيه غلق
وكم تسابق أقوامٌ على أمدٍ لكنه لقليلٌ يُسر السبق
خاطِر بنفسك في بحر التقى أنفا إن الشهادة فيه العيش والغرق[2]

ويقول:

واصبر قليلا فإن الدار دراسة وكل من حلها غادٍ فمنطلق
وإن يفِ لك من عهد الصبا زمن فاضنن به قليلا يمكث الرمق
يا شائب الفود إلا من بطالته جدِد ملابس ثوب أيها الخلق
لاتنس صرعة موت سوف تذكرها إذ تغشاك كرب الفزع والعرق
وضجعة ترهب الأرواح فجأتها لو كان يعصمها من فجئها الفرق[3]

قال في التوكل:

توكل إذا نابتك يوما ملمة على من له في خلقه الخلق الحكم
وسلِم له تقديره وقضاؤه فبينهما يجري لك الحرب والسلم

---

[1] نفخ الطيب،ج:٤،ص:٤٦٨

[2] ديوان الفازازي:القصائدالعشريات، المكتبة الشعبية بيروت،ط:١٩٧٨م،ص:٦٨

[3] المصدرالسابق،ص:٦٩

ولاترج كشف الكرب من عند غيره فترجع عنه خائبا ولك الرغم

ضعيفا يُرجى من ضعيف إغاثة لقد غلط الإدراك وانعكس الفهم

فيا نائم الجفنين في حال يقظة وكم نائم معنى ولم يغشه نوم[1]

ويضيف:

هوالله جل الله فاعكف ببابه له البدء في مخلوقه وله الختم

فكم أمســـك الأرماق والروح زاهق وكم جلب الأرواح والقلب ومغتم وينصـــح أن لاترجو النفع من غيرالله سبحانه:

إني رأيت العز مستودعا في خدمة الخالق سبحانه

وخادم المخلوق في ذلة تعم أهليه وجيرانه

وقف بباب الله مستمطرا إنعامه الجم وإحسانه

ولاتُرج النفع من غيره فالطرس قد أعطاك عنوانه[2]

ويضيف قائلا في هذا المعنى:

يا ساريا في ظلمات الهوى وخادم المخلوق ماذا تريد

تطلب يسراً من يدي مُعسر أفِق فها مطلب لايفيد

قد قرب الله لك المجتنى لكن تنادي من مكان بعيد[3]

ويدعو إلى الثقة بذات الله في المكروهات:

ثِق بالإله فإنه لواثقين به قريب

ودعِ العبيد فمنتهى إحسانهم ظنٌ يخيب

---

[1] ديوان الفازازي:القصائدالعشريات، ص:٦٥

[2] القصائدالعشريات،ص:٦٥

[3] المصدرالسابق،ص:٦٦

إن تنجُ من مكروههم لم تنجُ من لمزالمغيب

لاح الصواب وإنما أسفي على الرأي المعيب [1]

وقال في مثل ذلك:

إلى الله فلترفع أكف الخلائق وبالله فلتدفع صعاب المضايق

وفي الله فليعظم رجاء عبيده تُعوِز المخلوق رحمة خالق

فيا أيها الآوي إلى غير بابه تمسك فقد أخطأتَ سمت الحقائق [2]

قال في التوبة:

ولاتُضع عمراً في غير فائدة فعن قريب، لعُمري، ينفذ العمرُ

وقم إذا صُبِغت في الليل دهمتُه وأُسرجت في دجاه الأنجم الزهرُ

فاندب ذنوبك واستوهب إقالتها فالعفو عند اعتراف العبد يُنتظرُ [3]

ويقول:

حكيتَ قوماً بأقوال في اللحاق بهم وللمحبين حال ليس تسترق

فاشدد حيازيم عزمٍ في اللحاق بهم فالعزم أحسن شيءٍ أنت تنتطق

ولاتُعلل بسوفَ فهي مهلكةٌ لم يرضها قط إلا الجهل والخرق [4]

وله قصـــيدة يفتتحها بالدعوة إلى التهجد والتبتل ليلاً،ونبذالنوم،والاســـتعداد ليوم الرحيل الذي لايعلم أوانه إلاالله الخبير:

يا راقداً ملء عينيه يهيئه لين الفراش وعين الله ترصده

لوكنت تعلم فوز الغانمين يا راقداً ليله ما كنت ترقده

---

[1] ديوان الفازازي:القصائدالعشريات، ص:٦٦

[2] المصدرالسابق،ص:٧٤

[3] المصدرالسابق،ص:٦٧

[4] المصدرالسابق،ص:٦٨

وكيف ترقد ليلاً أو تلذ به وأنت تجهل ما يأتي به غده[1]

ويمضي مع هذه الخواطر الذاتية المؤثرة فيقول من المقطوعة نفسها:

مهد لجنبك في التقوى بخشيته فليس شيء سوى التقوى تمهده

أليس ترحل عن حال وتتركها فاجنِ لنفسك منها ما تزوده

فسوف تجزَى بما قدمتَ من عمل وزارِع الخير في الدنيا سيحصله[2]

ويعود بعد ذلك إلى اللفظة (الرقاد) التي يشـمئز منها كثيراً ولكنه مع ذلك لايمل من تكرارها حتى يغرسها ويعمقها في ذهن المرسل إليه،يقول:

يا رُب راقد حشوٍ مضجعه شوك القتاد ولكن لايسهده

أغفَى على غير وعدٍ من منبه مع الصباحِ يوم الحشر موعده

يوم الندامة لوتُغني ندامته مبيض الوجه فيه أو مسود[3]

ثم يختم بقوله:

والمرء من كثرة التسآل مشتغل يقيمه هول يلقى ويقعده

حتى يقول طويل العمر وافره يا ليته كان ذاك اليوم مولده

قد كان أحمد عمر المرء أطوله فاليوم أقصر عمر المرء أحمده[4]

في الصبر:

لا تجزعن لمكروه تُصاب به فقد يؤذيك نحو الصحة المرضُ

واعلم بأنك عبدٌ لا فكاك له والعبد ليس على مولاه يعترضُ

فسلم الأمر تسلم في عواقبه وارض القضاء فقد فازالذين رضوا

---

[1] الإحاطة،ج:٤،ص:٢١١

[2] الإحاطة،ج:٤،ص:٢١١

[3] الإحاطة،ج:٤،ص:٢١٢

[4] الإحاطة،ج٤، ص:٢١٢

"وإن غدت أزمةٌ فاصبر لشدتها" "إن الشدائد تأتي ثم تنقرضُ" [1]

ويقول:

وارجع إلى الله واقرع باب رحمته واصبر فذو الصبر مضمون له الظفرُ

واجعل نعيمك في القرآن تقرأه فخير مايُقرأ الآيات والسورُ

وإن عراك عداءٌ في الدجى فبه يأتيك بالنجم في أعقابه السحرُ [2]

وقال في مثل ذلك:

تصبر إذا نابتك للخطب شدةٌ فبعد اشتدادٍ للحوادث لينُ

ولا تيأسن من فرحةٍ بعد ترحة فقد تخذل الأيام ثم تعينُ

فيعقوب لاقى الكرب في فقدِ يوسف ثمانين حولاً والحنين قرينُ [3]

---

[1] الإحاطة، ص:٧٢

[2] المصدرنفسه،ص:٦٨

[3] المصدرالسابق،ص:٧٣

الفصل الثالث:

لسان الدين بن الخطيب

و ابن الأبار القضاعي

وأعمالهما

لسان الدين ابن الخطيب

مولده ونشأته:

هو محمد بن عبدالله بن سعيد بن علي بن أحمدالسليماني، ينتسب إلى قبيلة تدعى سليمان من اليمن، لكنه لوشي المولد غرناطه النشأة[1].

وُلد في ٢٥ من رجب (٧١٣هـ) الموافق لـ (١٦ نوفمبر ١٣١٣م)[2].

جده الأعلى سعيد هو أول من تلقب بالخطيب، واستمر هذا اللقب في أسرته من بعده.

نشأ لسان الدين ابن الخطيب في مدينة غرناطة، آخر معاقل الإسلام بالأندلس، والتي كانت حينها مجمعاً لكبارالعلماء والأدباء، ومركزاً من أهم مراكزالدراسات الإسلامية.

وهو ينتمي إلى بيت أصيل لما كان عليه أسلافه من العلم والأدب والمنزلة الرفيعة، وهو مايشير إليه المقري في قوله:"وسعيد جده الأعلى أول من تلقب بالخطيب، فكان من أهل العلم والدين والخير.وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خصال حميدة من خط وتلاوة وفقه، وحساب وأدب خيراً صدراً"[3]، وأما أبوه فكان أهل العلم والأدب والطب، إذ اعتلى مكانة مرموقة في البلاط النصري لحمراء غرناطة، حيث ارتقى إلى منصب الوزارة فيها[4].

وكانت لهذه المكانة التي حظيت بها أسرته الأثرالقوي في إعداد هذه الشخصية المتميزة من جوانب شتى،فقد وفر له والده من الناحية العلمية جهابذة العلماء الذين كانت تشيع بهم مدينة غرناطة، فأخذ عنهم مختلف العلوم والآداب، فكتب في طفولته وحفظ القرآن على يد أبي عبدالله بن عبدالمولى الذي ذكره بقوله:"قرأت كتاب الله عزوجل على المكتب نسيج وحده في تحمل المنزل حق حمله تقوى وصلاحا، وخصوصية

---

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة،لسان الدين ابن الخطيب،دارالكتب العلمية بيروت،ط:١٩٧٤م،ج:٤،ص:٤٤٠

[2] نفس المصدر

[3] نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب،أحمدبن محمدالمقري،دراصادر،ط:١٩٦٨م،ج:٥،ص:٨

[4] الإحاطة في أخبار غرناطة،ج:٤،ص:٤٤١

وإتقانا، ونغمة وعناية، وحفظا وتبحرا، في هذا الفن واضـــطلاعا بضـــرابيه واســـتيعابا بسقطات الأعلام"[1].

شيوخه:

قرأ القرآن وعلوم العربية على أبي الحســن القيحاطي، وقال فيه:"إنه أســتاذ الجماعة، ومطية الفنون، وهو أول من انتفعتُ به"[2].

ومن الشــيوخ أيضــاً: أبوحســن علي بن الحباب الذي أذكى مواهبه الأدبية والفنية، والأســتاذ الخطيب أبوعبدالله بن الفخار البيري، والشــيخ أبوالبركات الشــهير الذي نعته ببقية الســلف، وأبوبكر بن شــيرين، والخطيب ألوجعفر الطنحالي، والقاضــي أبوعبدالله المقري التلمساني، وكذلك الرئيس أبومحمد الحضرمي السبتي، والشيخ أبومحمد بن أيوب المالقي آخرالرواة عن ابن أبي الأحوص، وأبوعثمان بن ليون من المرية، وأبو زكريا بن هذيل الذي أخذ عنه الطب والتعاليم وصناعة التعديل[3].

عاش ابن الخطيب هذه المرحلة مثل أبناء سلاطين الدولة النصرية وأمرائها، فساعات ينهل فيها العلم، وســـاعات أخرى تجده يتقلب في أحضـــان رياض مدينتي لوشـــة وغرناطة،متمتعا بخيراتهما ونعيمهما.

حياته السياسية:

أما حياته السياسية فتبدأ سنة (٧٤١هـــ) حين التحق بالخدمة بأمانة السر لدى أبي الحســـن بن الحباب وزيرالســـلطان أبي الحجاج يوســـف، وســـرعان مالفت إليه اهتمام الســـلطان فكلفه بعض المهام الجهادي ة، وعينه كذلك في رئاســـة الكتاب، أو ديوان العلامة والإنشاء خلفاً لشيخه ابن الحباب بعد وفاته، كما منحه رتبة الوزارة وألقابها[4].

وحين توفي السلطان أبوالحجاج على يد ممرور في سنة(٧٥٥هـ) يوم عيدالفطر،خلفه ابنه أبوعبدالله الذي لقب بالغني بالله الذي حفظ المكانة التي كان عليها ابن الخطيب،

---

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة،ج:٤،ص:٤٤١

[2] المصدرنفسه

[3] المصدرنفسه

[4] ينظر:فنون النثرالأدبي، محمد مسعود جيران،دارالكتاب اللبناني،ط:٢٠٠٥م،ج:١،ص:٤٩

بل أصـــبح في هذا العهد "ســـلطان حمراء غرناطة غيرالمتوج" لما حققه من نجاح باهر في مهامه الوزارية داخل القصـــر وخارجه، فزادت ثروته ومكتســـباته، وذلك لما أغدق عليه السلطان من الهدايا والعطايا.

ولما قامت الثورة على الغني بالله ذاق ابن الخطيب خلال هذه الفترة العذاب ومرارة العيش بسـبب كيدالحاسـدين، حيث اعتق وصـودرت أملاكه، إلا أن شـفاعة السـلطان المريني أنقذته، فأطلق سراحه والتحق بالغني بالله سنة(٧٦١هـ) وأقام بمدينة سلا.والحقيق بالذكر أن المغرب أحين إليه وأكرم وجوده لما لقيه من حفاوة واحترام.

كما التقى في المغرب المفكر ابن خلدون، فتوطدت العلاقة بين الرجلين، وانتفع كل منهما بالآخر علماً وصداقةً[1].

ثم عاد إلى غرناطة في سـنة (٧٦٣هـــــ) بعد أن أصـدرالغني بالله ظهيراً يؤكد عودته ومكانته التي كان عليها،لقد كانت عودة ابن الخطيب إلى غرناطة ســـلاحاً ذاحدين، فعادت خيراً على دولة بني الأحمر وأثرت سـلباً في حياته وذلك بفضـل سـعاية خصـومه ومنافســيه الذين أفســدوا علاقته بالســلطان الغني بالله. ولما أحس ابن الخطيب بخطر أعدائه واشـتدالضـيق عليه قررالـلجوء إلى العدوة الآخرى بعد أن أخبرالسـلطان عبدالعزيز سراً عن تركه الأندلس، وعبر إلى المغرب سنة (٧٧٣هـ).

وقد استقر بأسرته بالمغرب إلى أ، أرسل القاضي النباهي وثيقة يتهم فيها ابن الخطيب بالكفر والزندقة، ومفادالتهمة بعض ما ورد في كتاب "روضـة التعريف بالحب الشـريف"، فدعا النباهي ســلطان المغرب إلى تســليم لســان الدين لينال عقابه على تصــرفاته، ولما وصل الخبر إلى سلطان غرناطة أرسل وفداً إلى المغرب برئاسة عبدالله بن زمرك ومعه وثيقة التهمةالتي أعدها النباهي لمحاكمته، فعذب وقتل بسجنه[2].

---

[1] فنون النثرالأدبي ،ج:١،ص:٥٠-٥٦

[2] المصدرنفسه

مظاهر نبوغه ومنزلته العلمية:

لسان الدين ابن الخطيب شخصية فذة وفريدة غلبت عليها ملامح النبوغ والألمعية منذ صغره، وقد ساعدته البيئة الغرناطية المزدهرة حضاريا وعلميا،والحظوة التي كانت تتمتع بها أسرته على توفيرالظروف المناسبة التي ساعدته على صقل مواهبه العديدة والمتنوعة وتطويرها، وذلك باطلاعه على مختلف العلوم والفنون[1]، ملامسته في مختلف الآداب وتفتحه وتعرفه إلى ثقافات الأمم الأخرى، سواء من خلال رحلاته التي كان يقوم بها، وكثرة معارفه من الشخصيات المرموقة التي احتك وتفاعل معها.

ولم يكن لتحصيل لسان الدين أن يتوقف عند العلم والمعرفة بل امتد إلى السياسة، فقد تألق في ميدان الإنشاء بتحبيره لمختلف الرسائل والظهائر والعهود والبيعات بفضل البرعة اللغوية التي كان يتمتع بها.

وهكذا كان لسان الدين عبقري زمانه، تميز فكره بالموسوعية والشمولية، إذ جمع بين الأدب والسياسة والطب وعلوم الدين.

وانعكس ذلك في التراث الفكري الضخم الذي خلفه والذي انصب في تأليفه وكتبه، وهو ما أكده أحمد أمين في قوله:"فالذي يظهر لنا أن الثقافة الأندلسية من أولها إلى آخرها قد صفيت وتقطرت في لسان الدين ابن الخطيب في تعدد مناحيه وسعة علمه وكثرة إنتاجه، ولعل هذا المعنى هوالذي شعر به المقري فألف فيه كتاب نفخ الطيب وثقافة الأندلس وسماه باسمه كأنما هو هي[2].

وبقية من آثاره:

ريحانة الكتاب ونجعة الشباب في أسفار ثمانية

استنزال اللطف الموجود في سرالوجود

التاج المحلي مساحة القدح والمعلى

([1]) آفاق غرناطة بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي،عبدالحكيم الدنون،درالمعرفة دمشق،ط:٩٨٨م،ص:١٢٤

([2]) ظهرالإسلام، أحمدأمين، مكتبة النضة العربية،ط:١٩٦٢م،ج:٣،ص:٢٢٤

الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة

طرفة العصر في دولة بني نصر

ديوان شعري في سفرين

اليوسفي في صناعة الطب في سفرين

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب

عمل من طب لمن أحب

وفاته:

توفي سنة(٧٧٦هـ) في المغرب بمدينة فاس.

شعر الزهد عند ابن الخطيب

على الرغم مماجناه لسان الدين من مكتسبات مادية من خلال تقلده أرقى المناصب في الدولة، فإن مكابدته المشقة والعناء من جراء خدمة السلاطين والملوك، ومعايشته طورالزهادة والتعبد أبان له أن راحة الإنسان الحقيقية ليست في عيشه داخل القصور الفخمة واقتنائه الآنية الرفيعة واكتسائه الثياب الأنيقة، وإنما في التقرب إلى الله والزهادة في العيش وملازمة أهل الخير.

ومن موضوعات شعرالزهد عند ابن الخطيب هي كمايلي:

تحقيرالدنيا:

يجب على الإنسان أن يضحي بكل عزيز ونفيس، وتحمل الصعاب والمشقة، من أجل سعادة غايتها حب المحبوب وشهودالحق عن طريق الذوق،يقول ابن الخطيب في هذا المعني بأسلوب متصوف:[1]

هجرتُ حبائي من أجل ليلى فمالي من بعد ليلى حبيب

[1] ديوانه،ج:١،ص:١٦٥

وماذا أرتجى من وصل ليلى سيُجزى بالقطيعة عن قريب

يرى الشاعر أن لاعلاج للإنسان إلا أن يصبر ويمسك يده عن ملذات الدنيا:[1]

إن الهوى لشكاية معروفةٌ صبرُ التصبرِ من أجل علاجها

والنفس إن ألفت مرارة طعمها يوماً ضمنتُ لها صلاح مزاجها

بعد موت أبيه وأخيه يقول أنه لم يبق لي في هذه الدنيا حسن:[2]

لا حسن للدنيا لدي ولا أرى في العيش بعد أبي وصنوي مأربا

ويبين أسلوب الحياة المبنية على الزهد الذي نهجه، وذلك بتطليق الدنيا والابتعاد عن بهرجها وزخرفها،لعله يهتدي بها ويحيي على منهجها ليسعد في دنياه وآخرته.ويصف حقارة هذه الحياة الدنيا بأسلوب رشيق عذب:[3]

أقمنا برهةً ثم ارتحلنا كذاك الدهر حالاً بعد حال

فكل بداية فإلى انتهاء وكل إقامة وإلى ارتحال

ومن سامَ الزمان دوام حال فقد وقف الرجاء على المحال

ويدعو إلى القناعة قائلاً:[4]

فاقنع بما أعطاك ربك واغتنم منه السرور وخلِ مالا ينفع

التذكير بالموت والآخرة:

الموت هو الكأس الذي يشرب منه الميسور والمعدوم، وهو المصيرالمحتوم لأي بشر مخلوق لأجل غير معلوم لايعلم ميقاته إلاالله، وهو ملاقي الإنسان لامحالة وقد يأتي بغتتة. لهذا ذهب ابن الخطيب إلى تنبيه الغافلين وتذكيرالشاردين بحقيقته لأنه وعد على كل مؤمن ووعدالله حق.فيقول في هذا الصدد:[5]

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:٢١٣

[2] ديوانه، ج:١،ص١٠٧

[3] ديوانه، ج:٢،ص:٥٠٨

[4] ديوانه،ج:٢،ص:١١٢

[5] ديوانه،ج:١،ص:٢١١

ألا أذنٌ تصغي إلى سميعة أحدثها بالصدق ماصنع الموتُ

مددتُ لكم صوتي فأواه حسرة على مابدا منكم فلم يُسمع الصوتُ

هو الغرر الآتي على كل أمة فتوبوا سراعاً قبل أن يقع الفوتُ

الموت هو انتقال من حياة فانية إلى حياة باقية، وهو نهاية لذلك الامتحان العسير الذي يحيى من أجله الإنسان المتمثل في إخلاص العبادة لله وحده لاشريك له وطاعته، فمن أحسن الطاعة فله حست الجزاء، ومن ضل السبيل إلى ذلك فله شرالجزاء.

وعليه نرى ابن الخطيب ينظر إلى الموت نظرة فلسفية عميقة فهو يقرن رهبته برهبة الحساب والعقاب، فيقول: [1]

ولوكان هول الموت لاشيء بعده لهان علينا الأمر واحتقرالهولُ

ولكنه حشرٌ ونشرٌ وجنةٌ ونارٌ ومالا يستقل به القولُ

يجد الإنسان في زيارة المقابر خير دليل على خداع هذه الدنيا وفنائها، لهذا ينصح ابن الخطيب بالتردد على مدافن الآباء والأمهات للاستعبار والعظة، واستشعار قرب الموت من الإنسان في أي لحظة وقصرالعمر وهذا حتى يستغل وقته القصير في صالح الأعمال والعبادات ليفوز بالجنة ويسعد في آخرته،فيقول: [2]

خُذ من حياتك للمات الآتِ وبدار مادام الزمان مواتي

لاتغترر فهو التراب بقيعة قد خودع الماضي به والآتي

يامن يؤمل واعظاً ومذكراً يوماً ليوقظه من الغفلات

هلا اعتبرت ويالها من عبرة بمدافن الآباء والأمات

قِف بالبقيع ونادِ في عرصاته فلكم بها من خيرةٍ ولدات

---

[1] ديوانه،ج:٢،ص:١٢٥

[2] ديوانه،ج:١،ص:٢٢٤

يذكر الشـاعر أن على المرء أن لاينسـى الموت فإنه آت وقريب، وعندما يأتي يضـع فصلاً لكل الحدود:[1]

هو الموت للإنسان فصلٌ لحده فكيف نُرجي أن نصاحب مائتا

وللصبر أولى أن يكون رجوعنا إذا لم نكن بالحزن نُرجع فائتا

ويقول الشاعر أن أصل الداء والأذى هو الغفلة عن اليوم الآخر:[2]

كل أذىً فاجعله ما شئتَه يقطعه الموتُ فأهوِن عليه

فليحذر المرءُ دوام الأذى وأصله الغفلة عن ربه

وينصح أن لاتظنوا بأن الموت بعيد لأن كل آت قريب:[3]

لا تسل عن رجعتي كيف كانت إن يوم البين يومٌ عصيبُ

باقتراب الموت عللتُ نفسي بعدَ إلفي، كل آتٍ قريبُ

ويقول متوجعاً لفقدالشبيبة أنه ماحصل ولا ظفر بأي شيء من العمرالطويل:[4]

جهاد هوىً لكن بغير ثوابي وشكوى جوىً لكن بغير جوابي

وعمرٌ تولى في لعل وفي عسى ودهرٍ تقضى في نوى وعتاب

أما آن للمنبت في سبل الهوى بأن يهتدي يوماً سبيل صواب

تأملتها خلفي مراحل جُبتُها يناهز فيها الأربعين حسابي

وله قصيدة رائعة في التذكيربالموت وذم الحياة الدنيا،من أشعاره:

يا عامر الترب كم خلفت من كبد ومن فؤادبثاوي الحزن معمور

لو كنت تحمي وتفدي للعلا ابتذرت آلافها بالغنى أو بالقناطير

مشمرين إلى ورد الكريهة ما نالوا العلاء الذي نالوا بتقصير

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:١٧٧

[2] ديوانه،ج:١،ص:١٤٨

[3] ديوانه،ج:١،ص:١٥٥

[4] ديوانه،ج:١،ص:١٥٥

بنوا الكرام أولو الرايات قاد بهم إلى الوغَى ابن نصير كل منصور

ساقتهم غيرة الايمان فانتدبوا لنصرة الدين كالأسد المهاصير

بعزمِ كل معدى يسايره فتح الجزيرة بين السرج والكور

حُفوا بباطل لذريق بحقهم فابطلوه بإبطال مغاوير

وإنما الموت حكم ليس يدخله نسخ لخلق وعدل دون تحوير

يقضي على الأسد في الآجام حاكمه وفي الكنائس على البيض اليعافير

ويقنص الشهب في شم الجبال كما في الوكر يعتام أفراخ العصافير

أعظِم بآياته من آية عظمت فليس تدرك في حال بتفسير

فسلم الأمر فالأقدار قد نفذت وكل شيء بتقدير وتدبير

ولا الحمام بنقصٍ في المزاج ولا ضُعف الطبيعة من أسباب تدبير

فكم صحيحٍ قضى فيها بلا مرض وكم مريض أقامته لتعمير

كلهم في مدى الأعمار تحسبهم كحالها بين معدود ومقصور

والموت مثل عروضي يقطع من أبياتهم كل موزون ومكسور [1]

التوكل:

أول ما يجب أن يدركه الفرد هو زوال هذه الحياة الدنيا لهذا يجب على الإنسان أن يتزهدفي حياته، وأن يتجنب التهافت على حطامها والاهتمام بزخرفها وبهرجها من لذات وشهوات ورغبات،لأن مهمة الإنسان في هذه الحياة محدودة فعليه أن يسخر كل حواسه وجوارحه في سبيل ذلك بحب الإله والخضوع لطاعته.

ويظهر من هذه الأشعار أن حب الإله والتوكل عليه غلب على قلب ابن الخطيب: [2]

الحمدلله موصولاً كما وجبا فهوالذي برداء العزة احتجبا

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:١٩٨

[2] ديوانه،ج:١،ص:١١٨

الباطن الظاهر الحق الذي عجزت عنه المدارك لما أمعنت طلبا

علا عن الوصف من لاشيء يدركه وجل عن سبب من أوجدالسببا

والشكر لله في بدءٍ ومختتم والله أكرم من أعطى ومن وهبا

وقد نظم ابن الخطيب أبياتاً استهل بها رسالة وجهها إلى أبي علي عمرابن عبدالله ينصحه فيها بالاعتماد على الله والثقة به والاتجاه إليه في الشدائد، كما نصحه بشكرالله متمثلاً بشفقته على عباده ورحمته بخلقه:[1]

لا ترجُ إلا الله في شدة وثق به فهو الذي أيدك

حاشاك أن ترجو إلا الذي في ظلمة الأحشاء قد أوجدك

واشكر بالرحمة في خلقه ووجهك أبسط بالرضا وأيدك

والله لا تهمل الطاقةُ قلادةَ الحق الذي قلدك

ما أسعد الملك الذي سُستَه ياعمرالعدل وما أسعدك

يقول إن من يتوكل على الله ويرضى بقدره يجني حسن العواقب:[2]

فمهما غرستَ الصبر في تربة الرضا بحكم القضا فلتجن حسن العواقب

يجب على المرء أن يعتمد على ذات الله سبحانه وتعالى:[3]

وإذا اعتمدتَ الله يوماً مفزعاً لم تُلفِ منه، سوى إليه المهربا

قال في عقب خلوة تكيفت بها النفس، وذهب اللبس، والمشكورُالله، وهو المؤمل للمزيد من فضله:[4]

إليك مددتُ الكف في كل لأواءِ ومنك عرفت الدهر، ترديدَ نعماءِ

ويسرتني قبل ابتدائي ونشأتي لشقوةٍ بُعدي أو سعادة إدنائي

---

[1] ديوانه، ج:٢، ص: ٢٣١

[2] ديوانه، ج:١، ص: ١١٤

[3] ديوانه، ج:١، ص:١٠٨

[4] ديوان لسان الدين ابن الخطيب، تقديم:محمد مفتاح،دارالثقافة،المغرب،ط:١٩٨٠م، ج:١، ص:١٠٠

إذا اعتبرت فكرتي سواك بفكرتي فيا خُسرَ أوقاتي وضيعةَ آنائي

وإن أبصرت عينايَ غيرك فاعلاً فقد تِهتُ للأوهام في جُنح ظلماء

يقول أن لامهرب من المقادير:[1]

قدَرٌ جرى في الخلق لا يجد امرؤٌ عما به جرت المقادر مهربا

وإن من يعتمد على نفسه ويظن أن تجاربه في الحياة كافية يخاب ويفشل:[2]

ما لي أُعذبُ نفسي في مطامعها والنفس تُزري بتهذيبي وتَهذي بي

وإذا استعنتُ على دهرٍ بتجربةٍ تأبى المقادير تجريبي وتجري بي

وعنده اليقين أن قسمته من الرزق تأتي من السماء:[3]

تملأتُ بالدنيا الدنيئة خبرةً فأعظم ما بالناس أيسر ما بي

وأيقنتُ أن الله يمنح جاهداً ويرزق أقواماً بغير حساب

ويعتقد أن من يعتمد على الله ويتوكل لا يخيب:[4]

ولكنك المولى الجواد، وجاره على أي حال كان، ليس يخيبُ

وكيف يضيق الذرعُ يوماً بقاصد وذاك الجناب المستجار رحيبُ

ومن خلال قصيدة أنشدها في مدح السلطان ينصحه أن يتوكل على الله دائماً في الأمن والحرب:[5]

وإن أنت في روض الجهاد غرستَه تبسم عن زهرالفتوح افتتاحه

ومهما استعنت الله في الأمر وحده أتاك به من كل أمرٍ نجاحه

---

[1] ديوانه، ج:١،ص١٠٧

[2] ديوانه، ج:١،ص:١٤٧

[3] ديوانه، ج:١،ص:١٥٦

[4] ديوانه، ج:١،ص:١٥٨

[5] ديوانه، ج:١،ص:٢٢١

فما ضل من كان الإلهُ دليله وما ذل من حسن اليقين سلاحه

ويقول في مقام آخر أن من لايرضـــى بســـلطان الله ولايفوض أموره إليه ينزل عليه سخط السماء:[1]

رضيتَ ومن لم يرضَ بالله حاكماً ضلالاً فلله الرضى، وله السخطُ

حياتك للإسلام شرط حياته ولايوجد المشروط إن عُدم الشرطُ

المناجاة والدعوة للتقوى والعبادة:

الحث على الزهادة والتقرب إلى الله بصالح الأعمال منفذ من منافذ الفرج والسعادة، وخاصة إذا كان المتلقي بحاجة إليها.الشاعر ابن الخطيب يعرف هذه الحكمة والسر لذا دعا إلى التحلي ببعض الصفات التي تميز بها الأسلاف والتشبه بأخلاقهم.

فيدعو الشاعر الخليفة أن يتحلى بالأخلاق الكريمة والتقوى:[2]

وعليك بالتقوى وبالخلق الذي ينهى النفوس عن القبيح ويعدل

واشغل عن اللذات نفسك بالذي نفس الحكيم به تلذ وتُشغل

وبنوا الزمان على سبيل أبيهم إن عز عزوا، إن تذل تذللوا

بالعفو خذ منهم ولاتكشف لهم ستراً، فلستَ على كبير تحصل

يتوســـل إلى الله تعالى أن يشـــفيه من داءالذنوب، ويمد يده للعون بقبول التوبة لأن التوبة اعتبر أول مقامات الإحسان، وأول درجات الزهد والعرفان.لذا يدعو ابن الخطيب إلى تحســـين العلاقة مع خالقه وتمتينها بترك المعاصـــي والإقبال على الله والتبتل والعبادة بولوج باب التوبة،يقول متوسلاً إلى الله عزوجل:[3]

مولاي أنت فدائي أجِب خَفي ندائي

إن لم تدارك برُحمي فقد هلكتُ بدائي

---

[1] ديوانه، ج:٢،ص:٤٦٢

[2] ديوانه،ج:٢،ص:٥٠٤

[3] ديوانه،ج:١،ص:١٠١

ويقول مخاطباً اللاهين في ملذات الدنيا أنها فانية لاتضيعوا وقتكم وصلاحياتكم فيها:[1]

بني الدنيا بني لمع السراب لِدُوا للموت وابنوا للخراب

ويخبر أن أهل الملذات يتركون الأحباء والأصـــدقاء عندما يشـــيب ويفقد طاقته فلا تميلوا إلى الخسارة:[2]

لما علاني الشيبُ قال صواحبي لانبتغي خِلاً يُصير أشيب

فصبغتُه خوف الفراق فقلن لي هذي رواة "أصبغٍ" عن "أشهب"

وقال مضيفاً:[3]

وقالوا عجبنا لضحك المشيب بوجهك في هذه المدةِ

تكاثر شيبُك من بعدنا فها هو يضحك في الشدةِ

وينصح أن لا يُستخف بقيمة صغائرالأمور، ولك لأهميتها وخطرها:[4]

"والأمر تحقره وقد ينمي كما" "تنمي الجسوم على الغذاء وتعبلُ"

"فاحذر صغيرالأمر ولتحفل به" "وإذا غفلت فإنه يستعجلُ"

"والنار أول ماتكون شرارة" "والغيث بعد رذاذة يسترسلُ"

وينبه إلى وجوب صيانة اللسان عن كل ماهو قبيح وذميم،فيقول:[5]

"وصن اللسان عن القبيح فربما" "يمضي اللسان حيث ينبؤ المنصلُ"

"وإذا جرحتَ فؤاد حر لم تطق" "إدمالَه وبأي شيء يُدملُ"

وقد دلت هذه الأشـعار على المعرفة الدقيقة التي اكتسـبها ابن الخطيب من تواصـله مع الحكام وتقربه إليهم،والتي صبها في هذا الأسلوب.

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:١٦١

[2] ديوانه،د/١،ص:١٦٣

[3] ديوانه،ج:١،ص:١٧٤

[4] ديوانه، ج:٢،ص:٢٣١

[5] ديوانه،ج:٢،ص:٢٣٤

ابـن الأبـار القضاعي

اسمه ونسبه:

"هو أبوعبـدالله محمـدبن عبـدالله بن أبي بكر بن عبـدالرحمن بن أحمـد بن أبي بكرالقضاعي،البلنسي،اشتهر بلقب ابن الأبار"[1].

""وذكر بعض الدارسـين الذين تعرضـوا لحياته أن هذا اللقب أطلقه عليه خصـومه لسوء وهيأته ولباسه،وبذاءة لسانه وحدته، ومن هؤلاء نجد ابراهيم الأبياري محقق كتاب المقتضـب من تحفة القادم لابن الأبار،حيث ذكر في مقدمة التحقيق أن هذا اللقب أطلق على أبي عبدالله لصفات كان يتصف بها،منها خبيث اللسان إذا هجا،بالإضافة إلى دمامة منظره ورثاثة هيئته"[2].

"غير أن هناك من نفى هذه المزاعم،وأكد أن هذا اللقب أصيل كان أجداده يحملونه ويعرفون به،وكان هو يوقع بعض رسائله به،ومن الخطأ القول بأن هذااللقب جديد أطلق أول ما أطلق عليه، كما أنه لم يكن لسبب بذاءة لسانه أو رثاثة هيئته"[3].

مولده:

"وُلد ابن الأبار في مدينة بلنسية التي أنجبت كثيراً من العلماء والشعراء والشخصيات، وذلك في فجر يوم جمعة في أحد شهري ربيع سنة ٥٩٥هـ"[4].

"إن مولده كان في نهاية القرن السـادس الهجري الذي شـهد أحداثاً كبيرة في الأندلس، وصراعات عنيفة بين المسلمين والصليبيين الذين بدأ خطرهم سزداد يوما بعد يوم، وشرعوا في حشد قواتهم وتوحيدكلمتهم تحت راية الصليب، استعداداً للانقضاض على المسلمين في الأندلس الذين بدأت أحوالهم في التدهور، بسبب الخلافات السياسية الحادة بين العصب المتنافسة على السلطة هنا وهناك".

---

[1] ديوان ابن الأبار:مقدمة،داربيروت،ط:١٩٨٧م،ص:٩

[2] تحفة القادم،مقدمة التحقيق،دارالكتاب اللبناني،ط:١٩٨٢م،ص:١٦

[3] ديوان ابن الأبار،مقدمة التحقيق،ص:٩

[4] ديوانه،مقدمة التحقيق،ص:١٠

نشأته وتعليمه:

"بمدينة بلنسية المشهورة بجمال طبيعتها واعتدال مناخها،وفي عائلة معروفة بالعلم والثراء، نشأ ابن الأبار تنشئة صالحة محاطاً برعاية عائلته التي وفرت لابنها ظروفاً تساعد على النبوغ والتفوق، فشب الشاعر شغوفا بالمعرفة، حريصاً على طلب العلم، فقد كان والده من أعيان بلنسية وعلمائها،حيث يذكر محقق الديوتن متحدثاً عن الأجواء التي أحاطت الشاعر منذ ولادته": "نشأ ابن الأبار في بيئة تمتاز بجمال الطبيعة وبين أهل عُرفوا بحسن الطباع وكرم النفوس وأناقة الأزياء،وفي حو علمي مثقف متفقه،كان والده من علماء بلنسية،له علاقات وصلات علمية بعدد من علماء الأندلس عموماً وشرقيها خصوصاًاشتهر بملازمته لشيخ الأندلس أبي الربيع سليمان الكلاعي إذ كان من أخص بطانته وأدنى صنائعه إليه"[1].

"لقد جند والد ابن الأبار كل مافي وسعه من الوقت والجهد، واستغل جل معارفه وعلاقاته من أجل تنشئة وتعليم ابنه وتوجيهه الوجهة الصحيحة،وقد كان يطمح أن ينال ابنه مكانة مرموقة بين أقرانه ومعاصريه، وأن يتبوأ أعلى الدرجات العلمية، فيحقق الوالد من خلال الولد كل رغباته التي عجز هو عن تحقيقها في بيئة كانت تقدرالعلم وتجل العلماء وتعترف لهم بالعلم والفضل وترعى لهم المكانة".

يقول محقق الديوان: "اهتم الوالد بتوجيه ولده محمد الذي كان فيمايبدو ولده الوحيد، وحرص على أن يوفر له كل الظروف والفرص لطالب العلم،ومن ذلك أنه كان يصحبه معه إلى مجالس العلم وزيارة العلماء ويستجيز له الأعلام وهو بعد لم يتجاوز مرحلة الطفولة والصبا"[2].

"لقد كان ابن الأبار محظوظاً خلال مسيرته العلمية حيث تداول على تعليمه وتكوينه العدد الجم من خيرة شيوخ الأندلس وعلمائها،فلاعجب –والحال هذه– أن يكتسب الشاعر ثقافة واسعة وزخماً علماً كبيراً،له الأثرالبعيد في غزارة التأليف لديه في مختلف مجالات العلم والمعرفة".

---

[1] ديونه،المقدمة، ص:١١

[2] المصدر السابق

من شيوخه:

"نعتقد أن أول من جلس إليه ويتعلم عليه هو والده، يتعلم عليه القرآن بقراءة نافع ويسمع منه الاخبار والأشعار، فهوالمعلم الأول لابنه،وبعد أن حفظ عليه وامتحنه وتأكد من استيعابه وتمثله لماتحصل عليه، منحه جميع كتبه ثم سمح له بمصاحبته للأخذ من الشيوخ الذين روى عنهم الوالد،وانفردالولد بالأخذ عن شيوخ آخرين لم تتح الفرصة للوالد أن يجالسهم بحكم مهامه المختلفة"[1].

"لم يكتف ابن الأبار بالدراسة على علماء بلنسية بل قام برحلة طويلة جاب بها الأندلس،وأصبح يجمع إلى تضلعه في الحديث ثقافة جامعة لعلوم عصره، ثم عاد أخيراً ولما يبلغ الثلاثين"[2].

"فهو قد درس على شيوخ كثيرين يردد أسمائهم في مؤلفاته، وينقل عنهم، أمثال: أبي عبدالله بن نوح، وأبي جعفر الحصار، وأبي الخطاب بن واجب، وأبي الحسن بن خيرة، وأبي سليمان بن حوط، وأبي عبدالله محمدبن عبدالعزيز بن سعادة، ويمكننا أن نعد أباالربيع بن سالم في طليعة شيوخ ابن الأبار، فقد لزمه قرابة عشرين عاماً، وأبو الربيع أكبرمحدث في عصره، وأشهر علماء الاندلس في زمانه،وهوالذي علم ابن الأبار صناعة الكتابة وأورثه إياها"[3].

رحلاته:

"عرف ابن الأبار القضاعي في حياته الرحلة وألف السفروالتنقل، وكان ذلك لطلب العلم أو لدواعي السياسة التي اشاغل بها، فبعد أن اخذ بعض المعارف والعلوم في مدينته خرج يطوف في حواضرالأندلس ومراكزها اثقافية، يدفعه إلى ذلك طموحه العلمي الذي تميز به منذ صغره".

"لقدكانت رحلة ابن الأبار الأولى من اجل طلب العلم، فبعد أخذه عن شيوخ بلده شدالرحال وولى وجهه شطرالمراكز الثقافية المعروفة إذ ذاك بالأندلس".

---

[1] شعراء موريتانيا:القدماء والمحدثون، محمديوسف مقلد،مكتبة الوحدةالعربية،بيروت،ط:١٩٦٢م،ص:٣٢١

[2] المصدرالسابق،ن ص ٣٣٢

[3] المصدرالسابق،ص:٣٢٢

"لقد أفاد ابن الأبار من رحلته هذه الشـــئ الكثير،حيث زار خلالها معظم المدن الأندلسـية ومراكزالثقافة بها،وحصـل من العلوم والمعارف رصـيدا متميزا ماكان ليتأتى له لولا سفره هذا الذي استغرق عدة سنوات".

عاد إلى بلنسة عندما بلغه نعي والده، وخلفه في مكانته لدى أبي الربيع الكلاعي الذي استأثر ابن الأبار بإعجابه وحبه حتى أصبح أقرب تلامذته وأحب طلابه.

"غير أن إقامته لم تستمر طويلا،فقد عاد إلى السفر والتجوال من جديد، لكن هذه المرة لم تكن رحلته لطلب العلم بل كانت رحلة اضـطرارية لدواعي السـياسـة ومشـاكل الحكم والإدارة،وكانت وجهته بلاد النصارى"، "وقد أشار ابن الأبار في شعره إلى رحلته هذه مع حاكم بلنســة المخلوع،محاولا تبرير مافعل والتخفيف من جســامة ذلك الخطأ الذي ارتكبه في حق نفسه ووطنه، حيث يقول":

"قالوا الخروج لأرض الروم منقصة" فقلت كلا ولكن صادها باء

إذا خرجت وفاء ثم عدت تقي أثنت بفعلي عداتي والأحباء

وكان لي في قريش أسوة وكفى مع النجاشي ترضاها الألباء[1]

وفاته:

"لم تختلف المصـادر التي ترجمت لابن الأبار القضـاعي حول تاريخ وفاته، إذ اتفقت جلها أن وفاته كانت بتونس في يوم الثلثاء ٢١ محرم سنة ٦٥٨هـ"..

"وتحدث ابن خلدون عن وفاته وسـاق العديد من الاسـباب التي أدت إلى مقتله،إذ قال: وعاد هو إلى مساءة السلطان بنزعاته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكرمولدالواثق، وساءل عنه السلطان فاستبهم فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها، فالتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها كما كان اعداؤه يشـــنعون عليه، لما كان ينظر في النجوم فتقبض عليه"، وبعث السلطان إلى داره،فرفعت إلى كتبه أجمع، والقى أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات،أولها:

---

[1] ديوانه،مقدمة التحقيق،ص:١٦

طغى بتونس خلف سموه ظلماً خليفة

"فاستشاط السلطان وأمر بامتحانه ثم بقتله قعصاً بالرماح وسط محرم من سنة ثمان وخمسين، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه"[1].

"كما أحصى بعض من ترجموا له جملة من الأسباب أدت إلى مقتله، منها"[2]:

١- "أنه ألف كتاباً في التاريخ خاض فيه بما لايرضى الأمير"

٢- "اتهامه بتوقع المكروه للدولة، بسبب اطلاع الأمير على بطاقة تبين ساعة المولد والطالع لولده".

٣- "توقع شق العصا والخروج على الأمير".

٤- "نمى للأمير أنه ينتقصه،وقد تكون هذه التهمة معقولة ولكن المحقق أنه كان محسوداً لأدبه وتوقد ذكائه، وقد ساعد أعداؤه وحساده على نجاح المؤامرة والدس".

شعرالزهد عند ابن الأبار

كان ابن الابار متقدماً في قرض الشـــعر، وقد نظم ديناً في الزهد والحكم والتخويف والنصائح، كان في وقته مدوناً مشهوراص بأيدي الناس، ومن شعره في الزهد قوله:

سليخة وحصير لبيت مثلي كثير

وفيه شكر لربي "خبز وماء ونمير"

وفوق جسمي ثوب من الهواء ستير

إن قلتُ إني مقل إني إذاً لكفور

قررت عيناً بعيني فدون حالي الأمير [3]

---

[1] كتاب العبر،ابن خلدون،دارالكتب العلمية بيروت،ط:١٩٦٧م،ج:٦،ص:٦٥٤

[2] ديوانه،مقدمة التحقيق،ص:١٥

[3] الذيل والتكملة، ج:٣،ص:٦٧٨

ويصدر في قصائده أحياناً عن دوافع ذاتية خالصة فيصور مايدور في أعماق الإنسان من صـــراع بين المادة والروح ويصـــور حيرة النفس البشـــرية وتذبذبها بين الخير والشـــر ويتحدث عن تجاهل الإنســان حقيقة الموت في حين أن الموت يترصـدنا كل لحظة، وقد نلمس بعض هذه المعاني في قوله:

أي كم أقول ولا أفعل "وكم ذا أحوم ولا أنزل"

وأزجر عيني فلاترعوى "وأنصح نفسي فلا تقبل"

"وكم ذا تعلل لي ويحها" "بعل وسوف وكم تمطل"

"وكم ذا أؤمل طول البقاء" "وأغفل والموت لا يغفل"

"وفي كل يوم ينادي بنا" "منادي الرحيل: ألا فانزلوا" [1]

وتحمل بعض قصائده روح الوعظ والتحذير والتذكير بما ينتظر المرء من مصير،والدعوة إلى ترويض النفس ومحاسبتها من مثل قوله:

لاتبك ثوبك إن أبليت جدته وابك الذي أبلت الأيام من بدنك

ولا تكونن محتالاً بجدته فربما كان هذا الثوب من كفنك

ولا تعفه إذا أبصرته دنساً فإنما اكتسب الأوساخ من درنك [2]

وتدور معاني الزهد حول الدعوة إلى ازدراءالدنيا والانصـراف عنها، ويكثرالشـاعر من ذكرالموت وتصـويره في صـور شـتى،ويفيض في أحوال الجحيم وعذاب الآخرة ويعكس في شـعره ما كان يتردد في حلقات الوعاظ والنسـاك، فمن القصـائد التي تدعو إلى نبذالدنيا وتحقيرها والإعراض عنها قوله:

يا راكضاً في طلاب دنيا ليس لمن تصرع انتعاش

دعها فطلابها رعاع طاشت بألبابهم فطاشوا

---

[1] الغصون اليانعة، أبوالحسن علي بن عيسى الأندلسي،دارالمعارف،ط:١٩٥٦م،ص:١٣٦

[2] نفخ الطيب،ج:٣،ص:٢٥٢

واظمأ لتروى كقوم ماتوا بها عفة وعاشوا [1]

ويتكئ على التراث الديني الذي يصورالدنيا على أنها رحلة قصيرة أو جسر قصير يعبر عليه المرء للوصول إلى الدار الأخرى،ويعبر عن هذا المعنى بقوله:

لم يدر من ظن الحياة إقامة أن الحياة تنقل وترجل

في كل يوم يقطع الإنسان من دنياه مرحلة ويدنو المنهل

فإذا يفارق دار منشئه امرؤ فله إلى دارالمعاد تنقل [2]

ويرسم الشاعر صوراً لتجاربه العملية في الزهد فيصف طريقته في الحياة وأسلوبه في العيش إذ يتخذ الأرض سكناً ويتجرد من المال ويؤثر الانقطاع، ويعبر عن ذلك بقوله:

أنا في حالتي التي قد تراني إن تأملت أحسن الناس حالا

منزلي حيث شئت من مستقر الأرض أسقي من المياه زلالا

ليس لي كسوة أخاف عليها "من مغير ولا ترى لي مالا"

أجعل الساعد اليمين وسادي "لم أثني إذا انقلبت الشمالا"

ليس لي والد ولا لي مولود ولا حزت مذ عقلت عقالا [3]

ويذم الدنيا ويقول أنها دارفناء:

حديث الأمان في الحياة شجون إن أرضاك شأن أحفظتك شؤون

يميل إليها جاهل بغرورها فمنه اشتياق نحوها وأنين

تجاف عن الدنيا ودِن باطراحها فمركبها بالمطمعين حرون [4]

ويقول أنه دائما يتوكل على ذات الله:

رجوت الله في اللاواءَ لما بلوت الناس من ساهٍ ولاهي

---

[1] المصدرالسابق، ن ص ٢٥٣

[2] أزهارالرياض، محمد بن أحمدالمقري، مطبعة الترجمةوالنشر، القاهرة، ط١٩٨٧م، ج:٣، ص:٣٦٩

[3] نفخ الطيب،ج:٣،ص:٢٠٧

[4] الإحاطة، ج:١،ص:٩٦

فمنك سائلاً عنك فإني غنيتُ بالافتقار إلى إلهي [1]

ويقول في التضرع أمام الله واللجوء إلى جنابه:

أيا من له الحكم في خلقه ويأمن بكربي له أشتكي

تول أموري ولا تُسلمني وإن أنت أسلمتني أهلك

تعاليت من مفصل منعم ونزهت من طالب مدرك [2]

ويتوب إلى الله قائلاً:

يا رب إن ذنوبي قد عظمت فما أطيق لها حصراً ولا عددا

وليس لي بعذاب النار من قِبل ولا أطيق لها صبراً ولا جلدا

فانظر إلهي إلى ضعفي ومسكنتي ولا تذيقني حر الجحيم غدا [3]

وللشاعر أبيات يستشف منها طلب العفو والنصح والتوبة:

أيا غوث الفقير أجب فإني دعوتك بافتقار يا كريم

ولا تدع السعال يهد جسمي وكيف وأنت رحمانٌ رحيم

فعجل بالشفاء وجُد وسامِح فأنت القادر البر الحليم

ومُن بما أنت أُرجي منك فضلاً فإنك بالذي أرجو عليم

سألتك بالشفع وكيف أخزَى ومعتمدي جبيبك ياحليم

وحاشا أن أضام وقد أواني بمدح المصطفى كهفٌ رقيم

ولُذتُ بجاهه لا زال قصدي قضيب البان اِذهبَ النسيم [4]

---

[1] الإحاطة،ج:٣،ص:٢٠٦

[2] الإحاطة،ج:٢،ص:١٨٠

[3] الإحاطة،ج:٢،ص:١٨١

[4] الإحاطة،ج:٣،ص:٢٣٢

الباب الخامس

دراسة فنية

الفصل الأول:

الألفاظ والتراكيب

سهولة الألفاظ ووضوحها

تتميز اللغة في شعرالزهد بأنها تهدف إلى وصف ما يجب أن يسلكه الإنسان في حياته اليومية استعداداً للآخرة، فشُغل الشعراء بالتفكير في معاني الزهد التي يرويدون التعبيرعنها،وكان يشغلهم كذلك أن يوصلوا معانيهم إلى سامعيهم أو قارئيهم بطريق مباشر، فهم لايشغلون في غيرذلك، أو فيما يخرج عنه، والذي قد يعيق تقرير معاني الزهد في النفوس.

اتصفت أشعارالزهد بسهولة الألفاظ والتراكيب، وعدم الغرابة،والبعد عن التصنع،ولوتصفحنا ماقيل في الزهد من قصائد أو مقطوعات لوجدناالشعراء قد بدءوها بالوعظ أو بالدعوة إلى القناعة،والتذكير بالموت والحساب يوم الحشر،ولعل مرد سهولة الألفاظ والتراكيب في شعرالزهد واقترابها من لغة الحياة اليومية يرجع إلى أن هذه الأشعار تنطوي على قيم خلقية وفكرية،ولم تكن الطبقة المخاطبة ممن ترغب في اللغة الجزلة والأسلوب الرفيع قدر رغبتها في المعنى الطريف، كما أن أغلب شعراء الزهد ليسوا ممن يكترث بالتكلف والتشدق وتعقيدالكلام، لأن موضوعه قريب إلى النفس ومحبب إليها، لهذا كان من الضروري اختيار عناصرلغة شعرالزهد من واقع الحياة اليومية،ليفهمها الناس فهماً مباشراً ويتأثرون بمعانيها فتحدث الاستجابة المطلوبة.

وقيل في لغة شعرالزهد:" إنها ليست مذاهب الملوك،ولاطلاب الغريب، وهو مذهب أشفق الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء العامة،وأعجب الأشياء عندهم مافهموه"[1]. فصيغت الأشعار بما يتناسب مع المتلقي، فكانت لغة شعرالزهد جراء ذلك "قريبة من الصياغة النثرية وتشبه الخطبة الوعظية"[2].

ولعل من الأمور التي تساهم في أن يكون أسلوب أشعار الزهد واضحاً بعيداً عن التكلف، هو أن كثيراً من شعراء الزهد في هذه الفترة غيرمختصين بالشعر، ولم تشتهر أسماؤهم فيها، لذلك كانوا يعبرون في أشعارهم عما يدور في خلجات صدرهم دون عناية فنية كبيرة، وغالباً ما نجدالشاعر يضع أفكاره في مقطوعات تحمل أفكاراً جزئية، تعبر عن

---

[1] كتاب الأغاني،أبوالفرج الاصفهاني،دارالكتب العلمية،بيروت،ط:١٩٨٩م،ج:٧،ص:٧٤

[2] التيارالاسلامي في شعرالعصرالعباسي،مجاهد مصطفى،دارالمعارف،ط:١٩٩٧م،ص:٧٣٠

بعض المجاهدات والرياضات التي يعيشها، ويرغب في نقلها للناس، بالإضافة إلى ذلك فإن الظروف السياسية والاجتماعية وغيرها من الظروف التي حاقت بالخلافة الأندلسية في القرنين السابع والثامن جعلت لغة شعرالزهد أكثر تأثيراً في عواطف الناس وأفكارهم، فكان لابد لهذه اللغة أن تتسم بسمات خاصة معينة.

واللغة عندشاعرالزهد تعتمد أصلاً على "عاطفة الزهد، وتنبع هذه العاطفة من عدة قيم تعيش بداخله،وهذه القيم هي تراث الزهد، فشعره إذن يمثل فكره،والشاعر لايتحدث من فراغ،ومن ثم تتحول الفكرة إلى قيمة تعايشه، وتحول الإنسان فيه إلى سلوك عملي.

ومن أهم الأمور التي أثرت في لغة الشاعرالزاهد في هذه الفترة القيم الدينية التي مصدرهاالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة،وصورالآخرة بالألفاظ والمعاني الدينية، وتحدث عن الموت والحساب والعقاب بذات الصورالتي رسمهاالله سبحانه وتعالى من خلال آيات القرآن الكريم في أذهاننا، لذلك كله تحولت هذه القيم الدينية إلى سلوك فهمه الشعراء وعملوا به، وكما أثرت في نفوسهم وسلوكهم،فقد أثرت في لغتهم أيضاً، فكان نتيجة التعلم في مدرسة الإسلام على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن وُجد شعراء سحملون من الرقة والعاطفة الدينية مايؤلهم ليكونوا زهاداً وعباداً لله سبحانه وتعالى، فأصبح منهل ألفاظهم ومعانيهم ينبثق من فكرالحياة والموت والبعث والزوال والتقوى، ولعل أول السمات الفنية التي تطالعنا في أشعارالزهد السهولة التي تمنح هذا الصنف من الشعر القاعدة الشعبية الواسعة من الناس، فهذا كلام سهل لاخشونة فيه ولانقصان، يعرفه العاقل، ولاينكره الجاهل، وقد ادت أشعارالزهد معانيها بيسر وسهولة، فاستخدم الشعراء ألفاظاً بسيطة سهلة تلامس شغاف القلوب،وتحرك العاطفة فيها.

من ذلك ماقاله ابن المرحل: [1]

وصرت أعاف الصبا والمجون ورب طباع تعاف العسل

وما زين اللهو إلا الشباب ولاحسن الغي إلا الثمل

يدور الزمان كدور الرياح فطورا جنوبا وطورا شمل

---

[1] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٥٦

فيوما يعز ويوما يذل فكم قد أعز وكم قد أذل

وما الناس إلا كمثل النجوم وما طلع النجم إلا أفل

وما المرء إلا كمثل النبات إلى النقص يرجع مهما اكتمل

لاتعني سهولة الألفاظ وتراكيبها أنها تحوي معاني سطحية، أو قضايا قليلة الاهتمام، بل على العكس من ذلك، فبساطتها لاتمنع وجودالمعاني العميقة المؤثرة في النفوس،والتي تثر فيها عاصفة من الخوف والاتعاظ بما يُسمع أو يقرأ، ومن ذلك ما قاله لسان الدين ابن الخطيب بأسلوب رشيق عذب:[1]

أقمنا برهةً ثم ارتحلنا كذاك الدهر حالاً بعد حال

فكل بداية فإلى انتهاء وكل إقامة وإلى ارتحال

ومن سامَ الزمان دوام حال فقد وقف الرجاء على المحال

والسهولة والبساطة سمة غالبة في هذه الأشعار، وليس هناك حاجة إلى ذكرها كلها، لذلك نكتفي ببعضها على سبيل المثال لاغير، فالشاعر في الأبيات التالية يعبر عن حزنه وخوفه من الموت ومابعده بعبارات بسيطة لايبعدها عن النشر إلا القافية والوزن، ويستخدم فيها بعض العبارات والألفاظ الدارجة على ألسنة العامة،يقول ابن الخطيب:[2]

الحمدلله موصولاً كما وجبا فهوالذي برداء العزة احتجبا

الباطن الظاهر الحق الذي عجزت عنه المدارك لما أمعنت طلبا

علا عن الوصف من لاشيء يدركه وجل عن سبب من أوجدالسببا

والشكر لله في بدءٍ ومختتم والله أكرم من أعطى ومن وهبا

وعدا عن التعبيرالسهل المباشر في معانيه وألفاظه، فإنه يستخدم عبارات(الحمدلله،رداءالعزة،الشكرلله،الله أكرم) وهي عبارات تدرج على لسان عامة الناس،عدا أن الفكرة التي يتحدث عنهاالشاعر في الأبيات مطروقة ومعروفة عندالناس.

---

[1] ديوانه، ج:٢،ص:٥٠٨

[2] ديوانه،ج:١،ص:١١٨

وقد تزيد نقمة العنف في بعض أشعارالزهد، إذ يستخدم الشاعر العبارات الدالة على الزجر في مخاطبة الناس عند وعظهم، لكنه يعود بعد ذلك إلى الرقة واللين فينهي عن البطر والتمسك بالدنيا، وهو هنا يستخدم ضميرالمخاطب في لغة الزاهد الواعظ المرشد،ويستخدم الأسلوب التعليمي القائم على الأمر والنهي والنصح،قال أبوالبقاءالرندي:[1]

دعِ الغرور فما للخلد من سبب ولا قراراً بداراللهو واللعب

يا بانياً للقصور سوف تتركها لمن سيأخذها قسراً بلاتعب

يا ابن الشباب أفِق من سكر خمرته كم من فتى فارق الدنيا ولم يشبِ

فعامة لغة الزهد تكون رقيقة الألفاظ،قوية الرنين،تقحم الأسماع بمافيها من دلالات على التخويف والتحذير، وبما يصطنعه فيها الشاعرالزاهد من رقة العاطفة وبساطة النسيج اللغوي.

تتميز لغة شعرالزهد في هذه الفترة أنها لغة خطابية تعليمية، إذ كثيراً ما يوجه الشاعر النصائح والارشادات في أسلوب تعليمي يتوجه إلى الناس به، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ولعل استخدام ضميرالمخاطب في هذه الأشعار بكثرة يوضح ذلك، فالشاعر يعطي المتلقي عصارة فكره بعبارات سهلة بسيطة،تتميز بسهولة الحفظ والتداول والفهم، ويظهر في الأبيات التالية لابن المرحل بشكل واضح، وكأن الشاعر رجل مجرب خبرالدنيا وتقلبها وزيفها، فيوصي من حوله سواءالسبيل،ولعل العبارات التي استخدمها تدل على ذلك دلالة واضحة مثل قوله: (حتى متى لاترعوي، أخشى عليك،انظرلنفسك، استغفرالمولى) يقول: [2]

حتى متى لاترعوي وإلى متى أو مالقيت من المشيب نذيرا

أخشى عليك من الذنوب فربما تلفي الصغير من الذنوب كبيرا

فانظر لنفسك إنني لك ناصح واستغفر المولى تجده غفورا

---

[1] ديوان أبي البقاء الرندي،دار صادر بيروت، ط:١٩٩٨م،ص:١١٦

[2] الإحاطة،ج:٣،ص:٣١٣

من قبل ضجعتك التي تلقي لها خد الصغار على التراب حقيرا

فالشاعر يوصي بالعبادة والتقوى،ويحذر من غرورالدنيا ويذكر بقصرالعمر وزوال المرء عن الدنيا إلى الآخرة.فالفكرة التي تحملها الأبيات لايستغربهاالعاقل،ولايرفضها الجاهل،فهي بسيطة في ألفاظها وتراكيبها، لكنها كبيرة عميقة في معانيها وأهدافها،ويعبر ابن المرحل عن فلسفة الإنسان المادية في الحياة الدنيا فيسجل ذلك بلغة سهلة وبسيطة غيرمعقدة، فلايحتاج إلى توضيح أوشرح أوتسهيل، ومفاد هذا الدرس أن الإنسان قد يعمل ويجد في كسب ماله،ويحرم نفسه من هذا المال الذي يجمعه ويحرص عليه، فيغني نفسه وينفق وقته في السعي له، ثم يؤول بعدموته للوارثين القاعدين.

لقد ثبت مما ذكرنا من الشواهد أن أشعار هؤلاء الزهاد سهلة تجنح إلى تعليم الناس القيم الفاضلة،وتطهيرنفوسهم من الشر، والكلف الشديد بالحياة الدنيا، وحثهم على الاستعداد ليوم الآخرة والتفكر في ملاقاة الله عزوجل.

المعجم الشعري :

تُعَّد اللغةُ عنصًا ر أساسيا في تكوين القصيدة، فيي وسيلة الَّ شاعر في التعبير والإبداع، وهي موسيقاه وألوانه، ومادته الخام التي يخمق منها كائًنا ينبض بالحياة والحركة، ويحمل في الملامح والسمات ما يميزه عن غيره[1]، حيث إنّ اللغة تعبّر والأسلوب يُبرز عن معانٍ ودلالات، لذا يلجأ الشعرا في التعبير عن تجاربيم الشّعرية استعمالَ الألفاظ، وصياغتيا في أحسن أسموب، ولأهمية اللغة وقيمة الألفاظ في تشكيل الصُّورة الأدبية نجد النُّقاد قد أولَوها عناية خاصة، وبسطوا الكلام فيها،فقد جعل العسكري مدار البلاغة على تحسين اللفظ، لأنَّه إذا كانت الألفاظ منتقاةً حَسُنَ الكلام.[2] وكان النُّقاد المحدثون أيضاً يولون عناية باللغة وأهميتها، فاللغة عندهم هي "الظَّاهرة الأولى في كل عمِل فنيَ يستخِدُم الكلمة أداةً للتّعبير، هي أَّول شيء يصادفنا وهي النافذة التي من خلاليا نطل، ومن خلالها نتنسَّم، هي المفتاح الّذهبي الصغير الذي يفتح كل

[1] فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، ط١، ٢٠٠٨ ص ٢٣٧.

[2] أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص.٥٨

الأبواب، ومن ثم كان الشعر هو الوسيلة الوحيدة لغنى اللغة، وغنى الحياة على السَّواء"[1] "واللغة الشعرية تختلف اختلافًا بيِّنا عن اللغة في الحياة اليومية فالشاعر حين يستخدمها فهو ينفي عنها قيَمتَها العادية المعهودة، ويُكِسبُها قَيَّما جديدة وهو يحاول بشتى الوسائل أنَ يْبعُد بها عن ميدان النثر، وعن قيمتها فيه، فينظمها بطريقة خاصٍة تختلف عن الاستعمال العادي لها".[2]

"و الشاعر الحِذق هو من ينتقي أرقى الألفاظ وأفضلها، حتى تساعده في أداء المعنى وإتْمامه، فلا يصح أن يكون المعنى صائبًا، واللفظ فاترا ركيكا، وفي ذلك مدعاة إلى إستِهجانه وذمِه ورفضه.[3] إذ يتوجب عليه أن يُحِسَن كلامه وذلك بحسن سلاسته وسهولته، وأن يتخيّر لفظه ويُجيَد معناه، ويجْود مطمعه".[4]

وإذا نظرنا إلى شعر ابن الخطيب؛ "نجده موافقًا لما ذهب إليه النُّقاد واشترطوه، فلغته تتَّصف بالسلاسة والسُّهولة، والتلاؤم بين اللفظ المعنى، وابتعد عن الألفاظ الحوشية والسوقية المبتذلة"، وأجاد في استعمالها بحيث جاءت معبرةً عن تجربته الشعرية. وبالرغم من سلاسة الألفاظ، ووضوحها لدى شاعرنا في قصائده، خاصة المدحية منها، إلاَّ أننا نجد بعض الألفاظ تحتاج في فهمها الرجوَع إلى المعاجم اللغوية، وهي قليلة إذا ما قورنت بالألفاظ الواضحة، وذلك مثل "الثأي، الوضَمُ ،الشّتنُ الرّأل.[5]

وقد اعتنى ابن الخطيب بأن يجعل لكل غرض مايليق به من ألفاظ، وهذا يوافق ما قاله النُّقاد "أن لكل خطاب معجمهُ الخاص به، إذ للشعر الصُّوفي معجمه، والمدحي

---

[1] عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظاره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، القاهرة مصر، ط،٣، ١٩٧٨، ص ١٧٣

[2] ينظر: عزالدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنو، دار الفكر العربي،القارة،مصر، ط، ١٩٩٢، ص٢٩٧٣

[3] ينظر: أبو اليلال العسكري، الصناعتين، ص٥٩

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص٥٥

[5] ابن الخطيب ،الديوان، ينظر الصفحات على الترتيب، ج ٢ (٥٨٨،٥٣٣، ٦٤٦، ٤٩٦)

معجمه ... فالمعجم لهذا وسيلة للمتَّميز بين أنواع الخطاب وبين لغات الشعراء والعصور."[1]

ومن خلال قصائده المدحية نراه قد استخدم ألفاظا قام بتكرارها ألا هي:

١- **ألفاظ الحرب**: وما يتعلق بها من خيل وسلاح... والأمثلة على هذه الألفاظ كثيرة في قصائد ابن الخطيب، فنراه يمدح السُّلطان أبا الحجاج بقوله:

مُثِيرُ رِياح العَزمِ فِي حَومَة الوغى ومختطف الأبطال يوم نزاله [2]

فكلمة الوغى، وكلمة النزال من ضمن الحقل الدلالي لكلمة الحرب. وفي قصيدة أخرى نرى ابن الخطيب يمدح فيها أبا الحجاج، حيث يوظف فيها بشكل مكثف لألفاظ الحرب فيستهلها بقوله:

السعد جندك والقضاء دليل والله بالنصر العزيز كفيل [3]

ومنها أيضا قوله:

في عسكر لجب كأن جموعه فوق الوِهاد، إذا زحفن سيول

كالبحر إلا أنهن كتائب والريح إلا أنهن خيول [4]

وفيها نذكر الرماح والسيوف فيقول:

ثم انثنيت وبالرماح تقصد مما غزوت وللسيوف فلول

لا يغررن "الروم" في إملائها قدر، فأيام الحروب تدول [5]

(وقد توسَّع ابن الخطيب في ذِكْرِه لألفاظ الحرب؛ لتشمل الجيش وكل ما يتعلق به كاللهام، والخميس، والجحفل، والكتائب، ....)

---

[1] محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، الدار البيضاء، المغرب، ط ٣، ١٩٩٢، ص ٥٨.

[2] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٤٨٤.

[3] المصدر نفسه :ج ٢، ص ٤٨٦.

[4] المصدر نفسه :ج ٤٨٧.

[5] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٤٨٤

ولفظتا الجيش والكتائب؛ هي الأكثر استخداماً في قصائده، ومن الأمثلة على لفظة الجيش ماجاء في مدحه "لأبي الحجاج" فيقول:

فاهزز برعبك قبل الجيش ماجمعوا واضرب بسعدك قبل الصارم الذلق [1]

أَما لفظة "الكتائب" فجاءت على الصيغتين التاليتين: كتائب وكتيبة، وقد وردت في مواطن كثيرة من شعره منها ماجاء في مدح أبي الحجاج:

وبعثت إلى أرض العدى بكتيبة تكاد بها شمس الظهيرة تكسف [2]

والُمتَتَبِّعُ لقصائد ابن الخطيب، يرى أنّه قد ضّمنها –خاصة قصائده المدحية– ألفاظ الحرب وما يندرج تحتها كالسلاح، والخيل، والجيش.

٢–**ألفاظ أخرى**: وقد استعمل فيه ابن الخطيب ألفاظا كّررها كثيرًا (كالشمس، البدر، النّجم، السعود، الشهب، السماء، القمر...) وهي ألفاظ مناسبة لقصائد خاصة المدحية منها.

فلفظ الشمس يُضِفي على الممدوح نوعاً من السمو الّرفعة، والتفّرد، يقول:

الشمس أنت قد انفردت وهل يرى بين الورى في مطلع شمسان؟ [3]

ويقول في ممدوحه أيضا:

متجسدا من جوهر النور الذي لم ترم يوما شمسه بغروب [4]

وقد استعملها أيضاً في وصف الخمر والغزل فقال:

نبه نديمك للصبوح وهاتها كالشمس تشرق من جميع جهاتها [5]

---

[1] ابن الخطيب ،الديوان، ج ٢، ص ٦٩٢.

[2] المصدر نفسه: ج ٢، ص ٦٧١.

[3] المصدر نفسه: ج ٢، ص ٦٠٧

[4] المصدر نفسه: ج ٢، ص ١٣٠.

[5] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ١٦٩

وقوله:

شموسا كلما غربت ولاحت على الأفواه تطلع في الخدود [1]

أما لفظة البدر فقد استعمله في كثير من المواطن منها قوله في المدح:

وكفى بإبراهيم بدر خلافة تعنو لغرته البدور الكمل [2]

أما لفظتي النجم، والشهب فهي كثيرة يستحيل حصرها، وانّما نورد مثالاً يقول في مدح بني زيَّان:

وان بني زيان في أفق العلا لأنجم هدي كلما أفل النجم [3]

وقوله:

فمن سحب لاحت بها شهب القنا ومن كتب بيض بدت فوق كثبان [4]

لقد وظف الشاعر في لغتة الشعرية نوعين من الألفاظ، وهما ألفاظ الحرب، وما تعلق بها ، وألفاظ أخرى، وكان حظورها بشكل مكثف في القصائد المدحية، حيث قام ابن الخطيب باستعمالها وتوظيفها بطرق مختلفة وفق حاجة المعنى لها، والمقام الذي يفرض ذلك.

المعجم اللغوي:

لا شك أن كل شاعر يمتلك معجما لغويا خاصا به بحيث يظل مميزا ومنفردا على بقية الشعراء، وذلك لنوعية ألفاظه المختارة، وكيفية توزيعها في القصيدة، والموضع الذى يريد الشاعر أن يبرز من خلاله الفكرة، فالألفاظ التي يستعملها فى الفخر غير الألفاظ التي يوضفها في المدح وكذلك تختلف الألفاظ من غرض لآخر، وقد علمنا مما سبق أن نونية أبي البقاء الرندي قالها في سياق التفجع والبكاء على ما ضاع من أركان الأندلس،

---

[1] ابن الخطيب، الديوان: ج١، ص ٢٨٢

[2] المصدر نفسه: ج١، ص ٤٩٩

[3] المصدر نفسه: ج٢، ص ٥٤٣

[4] المصدر نفسه: ج٢، ص ٥٩٠

ولذلك جاءت ألفاظه رقيقة شجية دالة على الهول الذي أصيب به أهل الإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية، آخذا العبرة مما سبقهم من الأمم التي فجعها الزمان فآلت إلى زوال، حتى كأنا لم تمكن شيئا يذكر، وعلى هذا فإننا نستطيع هيكلة المعجم اللغوي في نونية أبي البقاء على الشكل التالي:

١. الألفاظ الدالة الأمم السابقة.

٢. "الألفاظ الدالة على العقيدة".

٣. "الألفاظ الدالة على الحسرة والأل"م.

أولا :الألفاظ الدالة الأمم السابقة :إن التاريخ ليس مجرد ظاهرة عابرة، تنتهي بمجرد

انتهاء زمنها، ولكن التاريخ خالد خلود الإنسان ومتجدد على مر العصور والأزمان، والشاعر ينهل من هذا التاريخ كيفما شاء ومن أي نقطة أراد لأنه ملك الجماعة، وكل يوظفه على حسب ما يراه مناسبا، ولذلك نجد الشاعر وظف تاريخ الأمم الغابرة لأخذ العبرة منها، ومحاولة تسلية النفس عما أصابها، وذلك فى قوله:

"أين الملوك ذوي التيجان من يمن" "وأين منهم أكاليل وتيجان"

"وأين ما شاده شداد في إرم" "وأين ماساسه في الفرس ساسان"

"وأين ماحازه قارون من ذهب" "وأين عاد وشداد وقحطان"

"أتى على الكل أمر لا مرد له" "حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا"

فقوله: "شداد، إرم، ملوك اليمن، ساسان، الفرس، قارون،عاد، قحطان"، يعود بنا بالذاكرة إلى أمم سابقة بائدة لأخذ العبرة منها، فبعد غلبتها وتجبرها وغفلتها أتاها أمر الله فكأنها لم تغن بالأمس، وهذه سنة الله في الكون، ولكن هيهات فالذي أصيب به المسلون في الأندلس أعظم من أن تسلى النفس عنه، ذلك أن المصاب هو الإسلام

ومن ذا الذي يستطيع أن ينعى الإسلام و أهله وقد ذكر هذا أبو البقاء وهو مدرك بأن الذي أصيب به أهل الإسلام في الأندلس ليس له سلوان، ولذلك قال بعد ذلك:

فجاءع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حل بالإسلام سلوان

ثانيا :الألفاظ الدالة على العقيدة :ليس المقصود هنا العقيدة المصطلح عليها بين علماءالشريعة، وإنما المقصود رموز الديانة، وبما أن أبا البقاء من أهل الإسلام، والقصيدة قيلت تفجعا على ما أصيب به المسلمون فإن القصيدة ضمنت بالضرورة معجما لغويا دالا على رموز أهل هذا الدين، وخاصة أن الحرب هي حرب صليبية بالدرجة الأولى، فأول ما وجهت له أيدي التخريب هي تلك الرموز، وعلى هذا فإن القارئ لنونية أبي البقاء يجد كثرة تردد الألفاظ الدالة على ديانة أهل الأندلس، الذين نالتهم أيدي العدوان، ك:

"الإسلام، الإيمان، المحاريب، المنابر الحنيفية البيضاء، المساجد، أنتم يا عباد الله إخوان، بلاد الإسلام، بلاد الكفر، نواقيس صلبان"، فهذه مجموعة من الألفاظ دالة بمجرد قراءتها أن المصاب هو الدين الإسلامي، والمتأمل يجد أن جميع هذه الألفاظ مذكورة في القرآن والحديث الشريف، وقد وضفها الشاعر ليحرك مشاعر المجاهدين من أهل المغرب، لأنهم من أهل ديانة واحدة، والرموز المصابة في الأندلس هي رموزهم جميعا، لا يختص بها أهل بلد دون بلد.[1]

ومن ذلك قوله:

"تبكي الحينفية البيضاء من أسف" "كما بكى لفراق الإلف هيمان"

"على ديار من الإسلام خالية" "قد أقفرت ولها بالكفر عمران"

"حيث المساجد قد صارت كنائس ما" "فيهن إلأ نواقيس وصلبان"

[1] عزوز زرقان، شعر الإستصراخ فى الأندلس، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت /لبنان ٢٠٠٨م / ص ١٨٩

"حتى المحاريب تبكي وهي جامدة "　　"حتى المنابر تبكي وهي عيدان"

ثالثا :الألفاظ الدالة على الحسرة والألم:

علم مما سبق أن نونية أبي البقاء الرندي قيلت في سياق هول كبير أصيب به الشاعر خاصة وأهل الأندلس عامة، و هذا كفيل بأن يوحي بمشاعر المأسات والتأوهات التي أصيب بها المسلمون هناك، ولذلك تجد أن الذي يقرأ القصيدة يحس بمشاعر الحزن والأسف، ذلك أن الشاعر نجح في تصوير الموقف للقارئ أو السامع على حد سواء، وهذا ما جعل من هذه القصيدة أروع ما كتب في هذا الفن، وكتب لها من الشهرة مالم يكتب لغيرها، قال الأستاذ أحمد الطاهر مكي:" هي أروع شعره على الإطلاق، وتجيئ في مقدمة القصائد التي عرضت لمثل هذا اللون من الأحداث ومن الواضح أن أبا البقاء بكى صادقا وعميقا، لأن قصيدته تثير الشجى في نفس كل من يقرؤها أو يسمعها، ولم تفقد جدتها و تأثيرها حتى يومنا"، وبالنظر إلى هذا المعجم يمكن إجماله فيما يلى: "تبكي، بكى، ترثي، المستضعفون، ذلة، عبدان، حيارى، بكاهم استهوتك، حيران يذوب، كمد، أحزان، أنصار، أعوان، التقاطع في الإسلام"، فهذه الألفاظ تعتبر نموذجا يخدم الغرض الذي قيلت فيه القصيدة، فالأسى والحزن واليأس كلها قد سببت الرعب والروع في قلوب الأندلسيين، فشملتهم الأهوال وأحاطت بهم الحسرات، ف:

"يا من لذلة قوم بعد عزتهم"　　"أحال حالهم كفر وطغيان"

"بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم"　　"واليوم هم في بلاد الكفر عبدان"

"فلو تراهم حيارى لا دليل لهم"　　"عليهم من ثياب الذل ألوان"

"ولو رثيت بكاهم عند بيعهم"　　"لهالك الأمر واستهوتك أحزان"

"يارب أم وطفل حيل بينهما" **"كما تفرق أرواح وأبدان"**

"وطفلة مثل حسن الشمس أذ برزت" **"كأنما هي ياقوت ومرجان"**

"يقودها العلج للمكروع مكرهة" **"والعين باكية والقلب حيران"**

"لمثل هذا يذوب القلب من كمد" **"إن كان في القلب إسلام وإيمان"**

المطلب الثالث :الأصوات:

١- تعريف الصوت:

هو أثر سمعي يصدر طواعية واختيارا عن أعضاء النطق، والملاحظ أن هذا الأثر يظهر في صورة ذبذبات معدلة وموائمة لما يصاحبها من حركات الفم بأعضائه المختلفة ويتطلب الصوت وضع أعضاء النطق فى أوضاع معينة ومحددة، ومعنى ذلك أن على المتكلم أن يبذل جهدا ما لكي يحصل على الأصوات التي يريدها.[1]

٢ -الجهر والهمس:

أ –الجهر: هو عبارة عن تذبذب الحبال الصوتية خلال النطق بصوت معين، وهى: ب،ج، د، ذ، ر، ز،ض، ظ،ع،غ، ل، م،ن و، ى.

ب –الهمس:هو عدم تذبذب الحبال الصوتية خلال النطق،وهي: الهمزة ت، ث، ح،خ، س ش،ص، ط، ف،ق، ك،هـ.[2]

	العدد	النسبة	المجموع
الحروف المجهورة	١٠٩٦	%٦٨,٢٤	١٦٠٦

[1] كمال بشر، علم الأصوات، دط، دار غريب بالقاهرة، تاريخ النشر ٢٠٠٠م، ص ١١٩

[2] برتيل مالبرج، علم الأصوات، ترجمة عبد الصابور شاهين، دط،مكتبة الشباب بالقاهرة، تاريخ النشر ١٩٨٤م ص ١١٠

الحروف المهموسة	٥١٠	% ٣١,٧٦	

من خلال تأملنا للجدول نلاحظ طغيان الأصوات المجهورة على الأصوات المهموسة، وهو ما يتوافق مع ما أصيب به الشاعر، وأهل الأندلس عامة، حيث نراه يستغيث مرة، و يسخط على الصليبيين مرة كما أني رأيت من خلال تحليل القصيدة صوتيا أن من أكثر الحروف المجهورة ترددا في القصيدة حرف النون والميم، وهما من الصوائت الغناء كما يسميهما علماء الأصوات،[1]وهو ما يتوافق مع موقف الحسرة والألم الذي وقع على أهل الأندلس،كما أنهما يبعثان في النفس نغمة حزينة شجية تسفر عن الأسى العميق، والتماس العظة والعبرة فيما حل بهم، ومن ذلك قوله:

يا غافلاً وله في الدهر مو عظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان

وما شياً مرحاً يلهيه موطنه أبعد حمص تغز المرء أوطان

تلك المصيبة أنست ما تقدمها وما لها من طوال الدهر نسيان

فأنت ترى كثرة ما يتردد في هذه الأبيات القليلة من الحروف المجهورة خاصة الميم والنون وغرضه من ذلك واضح كما أشرنا إليه آنفا.

أما الحروف المهموسة على قلة ترددها في القصيدة، فقد وظفها مع ما يناسب مقام الحزن والأسى أيضا الذي وقع فيه أهل الأندلس.

٣ - الشدة والرخاوة:

أ –الشدة: هو أن يحبس الهواء الخارج من الرئتين حبسانا ما في موضع من المواضع، وينجم عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة، فيندفع محدثا صوتا انفجاريا، وتجمع في عبارة أجد قط

[1] محمود السعران، علم اللغة، دط، دار الفكر العربي بالقاهرة، تاريخ النشر ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م ، ص ١٤٠.

بكيت.[1]

ب –الرخاوة أو الإحتكاك" :هي خروج الصوت مستمرا في صورة تسرب للهواء محتكا" بالمخرج وهي الفاء والثاء والذال و الظاء و الحاء والزاي و السين والصاد والشين والخاء والغين والعين والهاء.[2]

	العدد	النسبة	المجموع
الأصوات الشديدة	٤٨٥	% ٣٠,١٩	١٦٠٦
الأصوات الرخوة	١١٢١	% ٦٩,٨١	

نلاحظ من خلال الجدول أن هناك تفاوتا كبيرا بين الحروف الشديدة والرخوة، وهذا ما يتناسب مع المقام الذي نظمت فيه القصيدة فحالة الهلع والحزن الشديد الذي وصفه لنا الشاعر منه ومن أهل الأندلس لا تتناسب مع اختيار الحروف الشديدة، ومما يدل على ذلك إكثاره من حروف الصفير السين والصاد مما يوحي بالأسى العميق الذي يحاول أن يبثه أبو البقاء في ثنايا كلماته وأبياته،كقوله:

كأنما الصعب لم يسهل له سبب يوماً ولا ملك الدنيا سليمان

فجاءع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حل بالإسلام سلوان

وأما الأصوات الشديدة التي وظفها الشاعر في نونيته على قلتها بالنسبة للأصوات المهموسة فإنها تدل على القوة والصبر رغم ما وقع.

٤ – الإستعلاء والإستفال:

---

[1] كمال بشر، علم الأصوات،ص ١٠٠

[2] برتيل مالبرج، علم الأصوات،ترجمة عبد الصابور شاهين،ص ١١٣

أ – "الإستعلاء :هو صفة لبعض الأصوات الخلفية التي يرتفع اللسان فيها بجزئه الخلفي نحو اللهاة ليخرج الصوت غليظا مفخما، وحروفه هي: القاف والغين والخاء".

ب –الإستفال :هو نظير الإستعلاء وهو وضع اللسان في قاع الفم و حروفه هي بقية الحروف العربية غير المستعلية.[1]

	العدد	النسبة	المجموع
الأصوات المستعلية	٦٤	٣,٩٨ %	١٦٠٦
الأصوات المستفلة	١٥٤٢	٩٦,٠٢ %	

من الملاحظ أن الحروف المستفلة شكلت الجزء الأكبر من حروف النونية، وهذا ما يتناسب مع موضوع القصيدة، فحالة البكاء والحزن لا تتناسب معها الحروف المستعلية، لأن الذي يتناسب مع الحروف المستعلية الفخر والمدح، أما في حال الحزن والهلع فلا يمكن إلا التعبير بالحروف المستفلة، لتدل على الاستكانة والذل والمهانة.

ه - الإطباق والانفتاح :

أ –الإطباق :هو ارتفاع مؤخر اللسان حتى يقترب من الحنك أثناء نطق الأصوات، وحروف الإطباق هي:الصاد والضاد والطاء و الظاء .

ب –الإنفتاح : وهوعكس الإطباق يعني أن اللسان لا يرتفع أثناء النطق بالحرف، وحروفه هي بقية الحروف العربية باستثناء الحروف المطبقة.[2]

	العدد	النسبة	المجموع

[1] برتيل مالبرج، علم الأصوات،ترجمة عبد الصابور شاهين،ص ١١٧

[2] منصور محمد الغامدي، الصوتيات العربية، دط، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٩٣.

الأصوات المطبقة	٦٨	٤,٢٣ %	١٦٠٦
الأصوات المنفتحة	١٥٣٨	٩٥,٧٧ %	

شكلت الحروف المطبقة في القصيدة نسبة ضئيلة بالنسبة للحروف المنفتحة، إذ أن الحروف المنفتحة توحي بنوع من اليأس والاستسلام ومثال ذلك فى قوله:

أعندكم نبث من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان

٦- التقطيع الصوتي:

يحتاج الباحث إلى تقسيم الكلام المتصل إلى مقاطع صوتية عليها تنبنى في بعض الأحيان الأوزان الشعرية،وعليها يعرف نسج الكلمات في لغة ما،[1] وقد عرف بعض العلماء المقطع بأنه تأليف صوتي، يتفق مع إيقاع التنفس الطبيعى، ومع نظام اللغة في صوغ مفرداتها،[2]وقد ورد مصطلح المقطع في تراثنا عند كثير من علماء الأصوات،ومن ذلك قول ابن جني: "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنية وامتداد واستطالة، فيسمى المقطع أينما عرض له حرف وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها"، فالمقطع أو المقاطع عند ابن جني تعنى قطع الهواء كليا أو جزئيا عند بعض الحروف [3]والمقاطع الصوتية نوعان: متحرك وساكن، والمتحرك هو الذي يبدأ بحرف لين طويل أو قصير، والساكن هو الذي ينتهي بحرف ساكن، فالفعل الماضي فتح يتكون من ثلاث مقاطع متحركة،

[1] إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية،دط ت،مطبعة نهضة مصر،ص٨٧

[2] برتيل مالبرج، علم الأصوات،ترجمة عبد الصابور شاهين،ص ١٦٤

[3] كمال بشر، علم الأصوات،ص ٥٠٦

وأما مصـــدره فتح فإنه يتكون من مقطعين ســـاكنين[1] هذا بالنســـبة لتعريف المقطع الصوتي،أما إذا طبقنا ذلك على النونية،فإننا نجد أن المقاطع الصوتية قد لعبت دورا هاما في تشـكيل الموسـيقى الداخلية للقصـيدة، حيث سـاهمت كثرة المقاطع الطويلة في إبراز نغمة الألم والحزن لدى الشاعر،ومن ذلك قوله:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

حيث نلاحظ كثرة المقاطع الصـوتية الطويلة، "ذا، ما، صـا، لا، طي سـا، مو، ما، شا، ها، سا، ما، لا ..."، ففي هذه المقاطع امتداد للصوت مما يزيد من آهات الشاعر المكلومة على أن سؤالا قد يثار على هذا الصنيع، وهو هل للشاعر قصد في ذلك،ولكن ما يمكن قوله: أن اســتغلال المواد الصــوتية هو أحد مميزات النص الشــعري، وأحد معتمداته ومرتكزاته.[2]

خاتمة: من خلال دراستي لنونية أبي البقاء الرندي واستخراج البنى الإيقاعية والتركيبية والدلالية، التي كشـفت عن مواطن الحسـن والجمال عن طريق السـمات الأسـلوبية التي شـــكلـت نظـامهـا اللـغوى العـام توصـــلـت إلى النـتـائـج التـاليـة:

-الأسلوب جزء لايتجزأ من البلاغة العربية،فهو يستمد جمالياته وخصائصه من البلاغة فهي تلك الصورة الجمالية، والأسلوب هو طريق نسج وتنظيم هذه الصورة الجمالية مع المادة اللغوية في نظام وطريقة محكمة البناء.

- أما في الجانب الإيقاعي فقد لاحظت أن الشـاعر قد وفق في اختيار الأصـوات الملائمة لجو الحزن والحسـرة التي ألمت بالمسـلمين في الأندلس ومما زاد من بلاغة التصـوير للمأســات، حرف الروي لنون الذي يعد من الأحرف الغناء، مما يبعث في النفس نغما شجيا يوحي بمرارة المصاب كما أن الشاعر درج على من سبقه من الشعراء وهو اختياره

---

[1] الأصوات اللغوية،ص ٨٧

[2] في سيمياء الشعر دراسة نظرية تطبيقية، ص ٦٣

لبحر البسيط للمواءمة بينه وبين حالات النفس المنغلقة، مما يدل على براعة الشاعر اللغوية والحس المرهف،وهذا الذي تميز به أهل الأندلس عامة.

أما من الناحية التركيبية فالشاعر أكثر من أسلوبي الإستفهام والنداء فالإستفهام كان لأخذ العبرة والسؤال عن الأمم السابقة الغابرة، كما أنه يتساءل عن المدن الأندلسية الضائعة حسرة وتيمنا بذكرها، وقد شاع ضرب الخبر الإبتدائي في النونية لأن الشاعر يصف أحداثا مروعة لاتخفى على أحد من الناس فلم يحتج مع هذا إلى كثرة المؤكدات وتواليها.

– إن شيوع الألفاظ الدالة على الرموز الإسلامية، يوحي بأن الشاعر يريد من خلالها أن يثير همم الغيورين من أهل هذا الدين، فهذه الرموز التي أصيبت ليست ملكا لأهل الأندلس وحدهم بل ملك لأمة الإسلام عامة، كما أن شييوع الألفاظ الدالة الزفرات والتأوهات، يدل على عظمة ما أصيب به الناس، فالنصارى لم يكتفوا باسترداد أراضيهم فقط كما زعموا، وإنما نكلوا بأهل هذه الملة التي سلبتهم أرضهم لقرون وخربوا رموزهم، وهذا ما يدل عليه كثرة تردد مادة بكى بمختلف الصيغ.

– إن دراسة مثل هذه النماذج من القصائد وخاصة الأندلسية منها ترجع بالفائدة الكبيرة على دارسها، فبالإظافة إلى كون القصيدة نسيج لغوي رائع، فيها من الحكمة واسترجاع أيام التاريخ.

مناسبة المعاني للألفاظ المطروقة

قضيّة "اللفظ والمعنى" من قضايا النقد الأدبي التي كانت وما زالت موضع اهتمام النقّاد قديماً وحديثاً، على أساس أنّهما من عناصر العمل الأدبي، ومن الخصائص التي تؤخذ في الاعتبار عند تقديره والحكم عليه[1].

ويراعى المعنى الذي يعطيه اللفظ لا صيغة اللفظ وحدَهُ[2]. ولهذا يجب أن تتآلف الألفاظ والمعاني في قالبٍ واحد، بحيث يوافق أحدهما الآخر، وهذا ما دفع الشعراء

[1] عتيق, عبد العزيز: تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ط. :٣بيروت: دار النهضة للطباعة والنشر. ١٩٨٠ص. :٣٢٦

[2] ابن حزم الأندلسي, علي بن أحمد: التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامّية والأمثلة الفقهيّة. ت: إحسان عبّاس. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة. ص. :١٣٧

لاستخدام ألفاظ لها خصائص تختلف من غرض إلى آخر. وجاءت أشعارهم مناسبة للغرض المطروق، وإضافة إلى هذا، فقد كانت هذه الألفاظ تسبك ضمن قواعد تختلف من شاعر إلى آخر، فالألفاظ واحدة، ولكنَّها تختلف في سياق الكلام، وهنا تبرز مقدرةُ الشاعر على حسن استغلالها ووضعها في المكان المناسب التي تعطي فيه المعنى اللازم. إن هذا الأمر جعلنا نُعجبُ بشاعر دون آخر، فظهر الشعراء المبدعون الذين استطاعوا أن يتركوا خلفهم نتاجاً شعريّاً زاخراً ويحمل في طيّاتهِ فنّاً راقياً تناقلته الأجيال فيما بينها.

ونستطيع أن نقول: "إن قضيّة مناسبة الألفاظ للمعاني المطروقة، هي قضيّةٌ نسبيّةٌ تختلف من شاعر إلى آخر، فالشاعر الذي يمتلك ناصية اللغة، يستطيع أن يلائم بين اللفظ والمعنى، على نحو يتيح لجوهر المعنى أن يبدو كاملاً وواضحاً بحيث يمنحهُ قوة التأثير في النفوس. وإذا ما نظرنا إلى أشعارهم فإنّنا نرى التآلف واضحاً بين ثنايا أشعارهم، فاللفظة تساق فتوضع في مكانها المناسب الذي لا يمكن أن يقبل غيرها". وكأنّنا أمام فنّانٍ عبقريٍّ يقيم لوحة غاية في الروعة والجمال، فهي من الفسيفساء الجميلة التي تآلفت فيها العديد من الألوان، فلا نرى تنافراً بينها. وهذا الترابط نراه واضحاً في أشعار ابن الخطيب، فهو يقود الألفاظ بعنايةٍ وإتقان، وكأنّه فارس يمتطي جواده الذي لا يتحرّك إلا بإشارةٍ من صاحبهِ، وهذا ما جعلهُ قادراً على الربط بين الأغراض الشعرية المختلفة في قصيدةٍ واحدة، فهو يبدأ بالغزل ثم يدخل في المديح، حيث يقول مادحاً السلطان أبا الحجاج يوسف:

خُضتَ بحرَ الحبِّ والدَّمْعِ وهَلْ ... تُدْرَكُ الآمَالُ إلا بالغَرَرْ [1]

فسطا الوَصْلُ على الهَجْرِ كمَنْ ... "ببني نَصْر" على الدَّهر انتصر

أبْحُرْ الجودِ وأملاكُ الوَرى ... وسيوفُ الله تُرْدِي من كَفَر

لهُم الفخرُ بحقٍّ، وكفى ... "بأبي الحجاج" اسماً مُفْتَخَر

أيُّ مَجْدٍ أُحْكِمت، آياتُهُ ... فهي تتلى مثلما تُتلى السور

---

[1] الغَرَرْ: المغامرة, ينظر حاشية الديوان. ص. :٣٩٤

دام في سعدٍ جديدٍ ومُنىً تصلُ الآصال فيها بالبُكَر

ما ارتدى بالغيثِ رَوْضٌ فرَوَتْ نَسْمَةُ الرّيح عن الزَّهرِ خَبَرْ[1]

(الرمل)

و"الخوض" لفظةٌ تدل على العموم، وهذا الفعل يقوم به الجميع مشاةً وركباناً[2]وهذا جاء متناغماً مع مدلول "بحر الحبِّ" فهذهِ العاطفةُ يعانيها الجميع، والتي تأتي في نتائجها بالدموع، ولا يقوم بهذا العمل في النهاية إلا مَنْ أرادَ أن يخوض غمار هذهِ المعاناة، وغالباً ما تكون من نصيب العاشقين الذين يدافعون عن حبّهم. والشاعر يأتي بالنتائج بناء على المقدّمات (الحبّ+ الدموع) (الإصرار + المغامرة).

ويبدأ صدر البيت الثاني بقوله: "فسطا" والسَّطوة فيها معاني القوّة والإقدام، وهما تأتيان بالقهر والبطش[3] وهذا يتناسب مع قولهِ: "فسطا الوصل على الهجر"، لأن وصل الحبيب يحتاج إلى التضحية والصبر، والهجر لا ينتهي إلا بدوام الوصل. ونرى ابن الخطيب يحاول أن يصلَ إلى فكرة أرادها منذ البداية وتتلخص في قوله: "إنّ النصر لا يأتي الإنسان إلا من خلال (آلِ نصر)، وعبّر عن هذا من خلال الرابط وهو الاسم الموصول "مَنْ"، فالشاعر يربط بين الصدر والعجز ربطاً محكماً، (الوصل الهجر) (بني نصر الانتصار.) والمتتبع لبقيّة الأبيات يرى هذا البناء اللغوي واضحاً، وكأنَّ ابن الخطيب عالم منطق ورياضيات، فالجود عندهُ يُذهِبْ الفقر، كما تذهب سيوف المجاهدين الكفر، والمجد يدوم كما تدوم الآيات التي تُتلى تقرُّباً إلى الله، والآصال ترتبط بالبُكَر كما ترتبط الأزهار بالمطر.

وفرّقوا بين المحسوس والمتخيّل في أشعارهم، فما وقعت عليهِ العين المجرّدة، جاء وصفه بألفاظ محسوسة ومدركة، على نحو ما رأينا في الأشعار التي تصفُ الرّياض

---

[1] ابن الخطيب, لسان الدين: الديوان. ط. :١ص. :٣٩٤

[2] الفيروز آبادي, مجد الدين: القاموس المحيط. ص. :٨٢٧

[3] الفيروز آبادي, مجد الدين: المصدر السابق. ص. :١٦٧٠

والقصور، والغزل الحسيّ. ومن هذا ما جاء في وصف أحمد بن عبد الحقّ الجدلي لشجر النارنج المزهر حيث يقول:

وثمارِ نارنجٍ نرى أزهارها مع نأتيء النارنجِ في تنضيدِ

فإذا نظرتَ إلى تأَلُّفِها أتتْ كمباسمِ أوْمَتْ لِلثمِ خُدودِ[1]

(الكامل)

"فالألفاظ التي ساقها الشاعر، جاءت ملبيةً للغرض المطروق، وهو وصف جمال هذه الأشجار، فبدأ الوصف بقوله: "نرى"، وهذه الرؤية تتعلق بالعين والمحسوس، والتآلف الذي ظهر بينها يستوجب النظر بالعين المجرّدة، واستطاع الشاعر أن يختم أبياته بصورة حسيّةٍ مناسبة للموقف الذي يراه أمام عينهِ، فاستحضر صورة الفتاة ذات الخدود الجميلة التي يطيب تقبيلها، وهو ما يتناسب مع الأزهار التي يطيب لنا أن نستنشق طيب عبيرها. فالألفاظ كلها تعتمد على المحسوس الذي نلامسه ونشعر به".

ولابن الزمرك أبيات في وصف دار الملك، وما فيها من جمال صنعته وأبدعته يد إنسان حيث يقول في وصفها:

والله مبناكَ الجميلُ فإنّهُ يفوقُ على حكمِ السعودِ المبانيا

بهِ البهوُ قد حازَ البهاءَ وقد غدا به القَصْرُ آفاقَ السّماءِ تباهيا

به المرمر المجلوُّ قد شَفّ نورُهُ فيجلو من الظلماء ما كان داجيا

بهِ البحرُ دفّاع العبابِ تخالُهُ إذا ما انبرى وفرُ النسيم مُباريا

ولم نرَ قصراً منهُ أعلى مظاهراً وأرفع آفاقاً وأفسح نادياً

ولمّا دعوتَ الناسَ نحو صنيعهِ أجابوا لهم من جانبِ الغور داعيا[2]

(الطويل)

---

[1] ابن الخطيب, لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :١ص. :٦٨

[2] ابن زمرك: الديوان. ص. :١٤١ – ١٤٠

ويبدأ ابن زمرك وصفه لهذا القصر – وهو الحمراء – بأنّه أجمل القصور التي أبدعتها يد الإنسان، وهو يسلك في هذا السبيل الوصف الحسّي، فيوظّف الألفاظ التي يستطيع من خلالها، أن يجعل هذا البناء ماثلاً أمام أعيننا وكأننا نراه الآن، فيصفُ لنا البهو وما فيه من مرمرٍ وحجارةٍ كريمة تسطعُ بحسن بريقها الذي يبدّد الظلمات، ثمّ يصف المياه التي تنساب من البرك التي تنشر في حدائقهِ، وكأنّها تسابق الرّياح وهذا دليلٌ على غزارة مياهها.

ويعود في نهاية وصفهِ إلى تعبير (لم نرَ، ولما دعوتَ الناسَ إلى حسن صنيعهِ)، وهو بهذا يستند على ألفاظ تؤكد على الرؤية بالعين المجرّدة، وهذا أيضاً ما فعله منذ بداية وصفهِ لهذا القصر. فالألفاظ كلها تنطلق من باب المحسوسات، وهو ما يتناسب مع وصف القصور والآثار التي ابتناها أمراء وملوك بني الأحمر.

"وظهر هذا أيضاً في الغزل، فجاءت ألفاظ الغزل الحسيّ الذي يعتمد على الشهوة مختلفة عن ألفاظ الغزل العفيف الذي يستند في جوهره إلى الروح والقيم الإنسانية وما فيها من معاني الحبّ والعاطفة الصادقة بين المتحابين". وظهر هذا التفريق واضحاً بين الألفاظ، فالغزل الحسّي جاءت ألفاظهُ مناصرةً للجسد وأوصافه، فوصفوا الشعر والرقبة والعيون والشفاه والرّيق التي شبهوها بالخمرة، وكلّها أوصاف تدخل في باب الحسّ المدرك باللمس والرؤية بالعين. ومن هذا ما جاء في غزل ابن خاتمة حيث يقول:

غُزَيِّلٌ غَزَلَتْ ألحاظهُ جسدي ... أرقُّ من غَزَلي في لُطفِ معناهُ

ساجي الجفونِ وَقاحُ الوَجْه ماجنُهُ ... مفرَّغُ البال عمَّن بات يهواهُ

يَفْتَرُّ عَنْ مَبْسمٍ يا ما أُمَلِحَهُ ... يجولُ فيه رضابٌ ما أُحَيْلاهُ

كالوردِ وجنتهُ، والشهدُ ريقتهُ ... والسِّلْكِ مبسمُهُ، والمسكِ ريّاهُ

بدرٌ، ولكن سواد العينِ مطلعهُ ... ظبيٌ ولكن سُوَيدا القلبِ مرعاهُ[1]

(البسيط)

[1] ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص. :٨٠

والشـاعر يرسـم صـورة باهرةً لمحبوبته، وهو يسـتفيد من معطيات الجمال الحسّـي المتعدّدة بوسـائل التعبير المباشـرة، فيصـفُ العيون الجميلة التي أثرت في جسـدهِ، ويصـف فمها وابتسـاماتها التي تدل على الجمال والرّقة، ويشـبه حلاوة ريقها بالشـهد، وخدودها بالورد، والعيون السـوداء بالبدر. وكلها أوصـاف حسيّة مسـتوحاةٌ من البيئة التي عاشـها الشاعر وغيره من شعراء بني الأحمر، وهي تدل على مظاهر التّرف والتمتع بملذات الحياة التي انتشرت في هذه المملكة.

"أما ألفاظ الغزل العفيف فقد جاءت بعيدة عن ألفاظ الجسـد والشـهوة فعبرّت عن روح الجمال وجوهره الإنساني الذي يصبو إلى القيم وصدق المشاعر"، يقول ابن خاتمة:

في راحتيكِ حياةُ الرّوح والبَدَن وفي رضاك مجالُ السِّرِ والعَلَن
وفي ضميري لكم مكنونُ سِرِّ هوى ما زلتُ أكتمُهُ صوناً فيكتمنُ
خفيتُ عن كلّ شيءٍ غير عِشقكُمْ من السَّقامِ، ولولا الطّبعُ لم يرني
بيني وبين الهوى أجلى مناسبةٍ فذاك أعرفُهُ حقّاً ويعـرفُني[1]

(البسيط)

فالشـاعر يخاطب المحبوبة دون ذكر اسمها، أو التلميح بصـفات جسـدها على نحو ما فعله في قصـيدته السـابقة، فدارت أبياته حول اسـتئثار المحبوبة بجانبي الروح والبدن، وهو يقـدّم الروحَ ويجعلـه محوراً وأسـاسـاً لحبّـه الـذي يكنّـه في صـدرهِ. ونرى أن الشـاعر قد أكثر من الألفاظ التي تخاطب العاطفة والوجدان، فجاء بكلمات الروح والضـمير، وهـذا يجعلنـا نفكر بهـذه المكنونات التي تثير فينـا كـل العواطف والأحاسيس.

وجاء الشعر الديني بعيداً عن المحسوسـات، فهو يخاطب الأفئدة والعقول، فيتحدث عن أسرار الوجود ومواطن راحةِ النفسِ وسكونها، وهذا ظاهر في أشعار التصوف والزهد والمدائح النبوية. ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب في الوعظ حيث يقول:

---

[1] ا بن خاتمة الأنصاري: المصدر نفسه. ص. :٩٧

أعُشّاقَ غَير الواحِد الأحد الباقي حُنُونُكم والله، أعْيَ على الرّاقي [1]

حننتم بما يَفْنَى وتبقى مضَاضةٌ تعذّبُ بَعْدَ البَيْن مهجَةَ مشتاقِ

وتربطُ بالأجسامِ نفساً، حَياتُها مبايعَةُ الأجسام بالجوهرِ الرَّاقي

فلاهي فازت بالذي عَلِقَتْ به ولا رأسُ مالٍ كان ينفعها باقي

فِراقٌ وقبرٌ وانقطاعٌ وظلمةٌ قِني البُعدَ من نَيْلِ السَّعادةِ يا واقي [2]

(الطويل)

ونرى أن الوعظ جاء من خلال استخدام ألفاظ خاطبت في جوهرها النفس الإنسانية بمعانيها السامية التي تدخل إلى القلوب، فالعشق لا يكون إلا الله وحَدْهُ، وأنّ هذه الدار الدنيا فانيةٌ لا محال، والخلود الأبدي لا يكون إلا في جوار الله عز وجل، ويمضي ابن الخطيب واصفاً الإقبال على الدنيا بالجنون، والأَجساد عنده تربط فيما بينها برابطٍ معنويٍّ بعيدٍ عن المعاني المجرّدة، فالجوهر الإنساني يكون بالروح لا بالجسد.

والدعاء إلى الله يستلزم التمسك بهذه الروحيّات، وخطاب ذي الجلالة يكون بالمعاني التي تدلّ على الجانب الروحي البعيد عن التخصيص أو التجسيد، يقول ابن الخطيب مخاطباً ربّه ومعترفاً بذنبه:

مولايَ، إن أذنبتُ يُنْكَرُ أن يُرَى منكَ الكمالُ ومنّي النقصانُ

والعفوُ عن سبب الذنوب مسبّبٌ لولا الجنايةُ لم يكن غفران [3]

(الكامل)

فالذنوب والنقصان يقابلهما الكمال والعفو والمغفرة من الله عزّ وجل، والكمال والعفو والمغفرة، هي صفاتٌ تتسم بالشموليّة، وهي ما تتصف به الذات الإلهية.

---

[1] الراقي: وهي التعويذة تستخدم لدفع الشر عن الإنسان وتكتب بالأسماء والحروف, ينظر حاشية الديوان. ص. :٧٠٣
المقرّي, أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج. :٨ص. :١٣

[2] ابن الخطيب, لسان الدين: الديوان. ج. :٢ص. :٧٠٤ – ٧٠٣

[3] المقرّي, أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج. :٨ص. :١٩٩

ولجأ الشعراء في أشعارهم الحماسية إلى استخدام الألفاظ التي تدل على الجانب الديني، وهم بهذا يعزفون على وتر العاطفة الدينيّة، فيستثيرون الهمم والعزائم في النفوس، فالحال يقتضي مثل هذه الألفاظ. ولم تغب عن أشعارهم طوال حكم المسلمين في الأندلس، ولكن كَثُرَ استخدامها في عصر بني الأحمر، ويرجع هذا إلى التسارع الذي حدث في سقوط المدن خلال القرن التاسع الهجري، يقول الملك يوسف الثالث:

معاذَ مَنْ كتبَ الحسنى لأندلس مِنْ أن يجوسَ عدوَّ الدِّين أندلسا

مُستعصمُ الدينِ ما كانت فوارِسُهُ يوماً ليترك حزب الكفرِ مُفترسا

كم أثبتوا قدما كم جدَّلوا صنما كم شيدوا للمعالي أربعا دُرُسا

مَنْ لم تكن لإلاهِ العرش وجهتهُ ألفى على ظمأ ورْدِ الندى يَبِسَا[1]

(البسيط)

ونرى أن الملك يوسف الثالث قد استخدم الألفاظ التي تثير الجانب الديني عند المسلمين فهو يقول: "عدوّ الدين، مستعصم الدين، حزب الكفر، الأصنام" ونراه في البيت الأخير يتوّج ما بدأ به من استثارة الهمم بِقوله: إنّ العمل يجب أن يكون من أجل الله عز وجل ونصرةِ دينهِ، فلا خير في عمل لا يكون في جانب الله، فهو كالورد الذي جفّ من العطش، ففقد رائحته الزكية التي يتميّز بها.

وجاء ذكر المسجد كثيراً في أشعارهم، وهو ما يتلاءم مع الموقف الذي كان يجري في ذلك الوقت، ونقصد في هذا القول، الاعتداء الذي كان يجري عليهِ بوصفهِ رمزاً للإسلام والمسلمين. يقول:

تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ مِن أسفٍ كما بكى لفراق الإلف هيمانُ

على ديارٍ من الإسلام خاليةٍ قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصلبانُ

حتّى المحاريب تبكي وهي جامِدةٌ حتى المنابِرُ ترثي وهي عيدانُ

---

[1] لمقرّي, أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج. :٨ص. :٢٩٩

ماذا التقاطع في الإسـلام بينكم وأنتم يا عبادَ اللهِ إخـوانُ

بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازلهـم واليومُ هم في بلادِ الكفر عَبْدانُ[1]

(البسيط)

فالشـاعر يربط بين واقع المسـلمين وما حلّ بالمسـاجد بعد سـقوط المدن الأندلسـيّة، فهو لم يرَ عزّاً إلا في ظلّ دولة الإسـلام. وتأتي الأفكار عندَهُ رتيبةً، وتتفق مع واقع الحال الذي يعيشـهُ المسـلمون. ولعلّ اسـتخدامه لهذه الألفاظ كان من أهمّ الأسـباب التي ساعدتْ على تكوين الصورة التي أراد أن يوصلها إلى بقيّة المسلمين في أصقاع الأرض، واسـتطاع الشـاعر من خلال هذه الرتابة أن يربط بين هذا البكاء والمعاني التي تدلّ في جوهرها على الإسلام ،وما يذكّر المسلمين بالمكائد التي تحاك ضدهم ،وعبر عن هذا من خلال الكلمات (ديار الإسلام، الحنيفيّة البيضاء، الكفر، المساجد، عبد الله، الكنائس، النواقيس، الصلبان، بلاد الكفر).

وارتبطت معاني الألفاظ التي جاءت في أشـعارهم بالحالة النفسـيّة التي عاشـوها، فالشـاعر – كما هو معروفٌ – يخضـع لعوامل نفسـيّة تقودهُ إلى اختيار الغرض الذي يرمي إليه، مما أدى إلى اختلاف العاطفة من شـاعر إلى آخر. وتبدو مسـحة الحزن واضـحة في أشـعار الرثاء، فهم يبكون حبيباً قد مضـى، أو مدينةً قد سـقطت بيد الأسبان، وفي الحالتين يبكي الشاعر على أيام قد مضت ولن تعود، ومن هذا ما جاء في رثاء أبي الحسن علي بن عمر القيجاطي، حيث يقول في غرض الرثاء:

حَمَامُ حِمَامُ فوق أيك الأسى تشدو تهيجُ من الأشجان ما أوجَدَ الوجْدُ

أرى أرجلَ الأرزاء تشتدُّ نحونا وأيديها تسـعى إلينا فتمتـدُّ

وإن خطرتْ للمرءِ ذكرى بخاطرٍ فتسبيحةُ السَّاهي إذا سُمِعَ الرَّعْدُ

مصابٌ به قُدَّتْ قلوبٌ وأنفسٌ لدينا إذا في غيرهِ قُطِعَتْ برد

تلينُ له الصمُّ الصِّلابُ وتنهمي عيونٌ ويبكي عنـدهُ الحجرُ الصَّلْدُ

---

[1] يوسف الثالث: الديوان. ص. :١٨٧

فلا مقلةٌ ترنو ولا أذنٌ تعـي ولا راحةٌ تعطو ولا قدمٌ تعـدو [1]

(الطويل)

ونرى أنّ الشـاعر يعيش حياة حزينة بعد فقدِهِ مَنْ أحبّ، وجاءت الألفاظ مناسـبة للغرض المطروق، واستطاع الشاعر أن يضعنا في جوٍّ من الكآبة والحزن، ولم يترك لنا مجالاً إلا واستخدمه لكي يضعنا ضمن الأحاسيس التي يشعر بها، فبدأ أبياتَهُ ببيت قلد فيه مَنْ سبقوه من الشعراء في تصويرهم لآلامهم، وهي صورة الحمام وهو يرسل ألحاناً حزينة، ولكنَّ الشاعر جاء بصورة جديدة وهي شجرة الموت التي تقف فوقها هذه الحمامة.

ويستمر في استخدام ألفاظ تدلّ على نفسٍ قد تحطّمت، وفقدت ما هو جميل في هذه الحياة، فالمصائب تتسارع مقبلةً عليه، وكأنّها تتسابق فيما بينها للوصول إليه، ولهذا لم يجد شيئاَ يخفّف من مصائبهِ إلا الدّموع التي تغسلُ الهموم. ولكثرةِ بكائه فقد بكى الصخر الذي يعتبر عنواناً للقسوة والجمود. وفي النهاية نراه فاقداً لكل معاني التفاؤل بهذه الحياة. ولجأ الشاعر في أبياتهِ هذه إلى استخدام ألفاظ تتصل بعالمهِ الحزين الذي يعيشهُ، واستطاع من خلال هذه الألفاظ أن يدخلنا إلى هذا العالم ودليل هذا، أننا استطعنا أن نشعر بآلامه، وأن نتعاطف معه، وجاء هذا نتيجة لحسن استخدامهِ لهذه الألفاظ.

وظهرت الألفاظ الحزينة في أشعار السجون والعتاب والغزل، فَعبّروا عما يجول في نفوسهم بسبب فرقة الأحباب، وما يعانون من هذه الأحوال، وهم يتسابقون فيما بينهم إلى خلق الصور التي تدل على هذه المعاناة، ومن هذا ما جاء في قول الملك يوسف الثالث:

هجروا وخَطْبُ الهَجْرِ ليسَ يسيرُ بدرٌ يسير البدرُ حيث يسيرُ

كم ذا تعـجِّلُهُ القطيعةُ والجفا والدَّهرُ يصدعُ والحمام يجور

زموا ركائبهم وخُلف بعدهـم تهمي وتضرِم أمدُع وصُدور [2]

---

[1] المقرّي, أحمد بن محمد: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. ج. :٥ص. :٣٧٤

[2] ابن الخطيب, لسان الدين: الكتيبة الكامنة. ص. :٣٨

(الكامل)

فالهجر أمر عظيمٌ قد أصـابه، وهو غير محتمل عنده، ونرى أن المحبوب بالنسـبة إلى الشـاعر، يمثّل كلّ معاني الجمال في هذه الحياة، فالبدر يسـتمد نورَهُ منه، ويسـير معه حيث يسير. وهذه من الصور الجميلة التي جاء بها الشاعر، ويستخدم في البيت الثاني ألفاظاً تقليدية استخدمها الشعراء من قبله، وهي صورة الحمام الذي يعتبر رمزاً للوداعة والحزن في آن واحد.

ونرى أن الشـاعر يمسـك بزمام اللغة، وهذا يدلّ على فصـاحته ومعرفتهِ باللغة، فاستخدم تعبير "زمّوا" وهو الربط والعقدُ بشدّة[1] ولم يَقُل: "ربطوا" فقد يكون الربط غير محكم، ولكنّه أراد أن يبيّن أن ربط الأمتعة كان بشـدّة وإحكام، لأنّ السـفرَ سـوف يطول، وهذا دليلٌ على بعد المحبوب، مما يزيد من آلامهِ ومعاناتهِ.

"وجاءت ألفاظ الهجاء شـديدة ومؤلمة مما جعلها ثقيلةً على النفس، فالمهجو يشـعر بوقعها في نفسه، فهي أحَدُّ من السيف". واستخدموا في هجائهم الألفاظ التي تنال من شرف وكرامة الإنسان، واعتمدت ألفاظهم على العوامل والظروف الاجتماعية والسياسية والدينيّة التي كانت سـائدة في هذا العصـر[2]. ومن هذا ما جاء في هجاء ابن زمرك لابن الخطيب حيث يقول:

هذا وزير الغرب عَبْدٌ آبـق ... لم يلفِ غيرَك في الشدائدِ مِنْ وَزَرْ

كفرَ الذي أوليتهُ من نعمـة ... والله قد حتمَ العذاب لِمَنْ كَفَـر

إن لم يَمُتْ بالسيف مات بغيظهِ ... وصلى سعيراً للتأسُّفِ والفِكَـرْ

ركب الفرارَ مطيّةً ينجو بها ... فجرَتْ به حتى استقرْ على سَـقَر[3]

(الكامل)

---

[1] المقرّي, شهاب الدين أحمد: أزهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض. ج. :٢ص. :٣٧

[2] يوسف الثالث: الديوان. ص. :٧٦ ينظر ما جاء في الهجاء: الفصل الثاني من الرسالة.

[3] الفيروز آبادي, مجد الدين: القاموس المحيط. ص. :١٤٤٤مادة: زمم.

فهو يصفهُ بالعبد الآبق وهي لفظة شديدةٌ على النفس، ولا ننسى ابن الخطيب وهو شـــيخ لهذا الشـــاعر، فابن زمرك هو تلميذٌ له، وهذا يزيد الأمر تعقيداً، ولم يتوقف ابن زمرك عند هذا الحدَّ، بل وصـفهُ بالكفر، وهذا يخرجه عن ملَّةِ الإسـلام، لذلك فهو من وجهة نظرهِ لا يستحقُّ إلا الموت. "ونرى أن الألفاظ جاءت شديدةً على الأذن والنفس، واعتمد في حشد ألفاظهِ على الناحية النفسيّة ومدى تأثير هذه الألفاظ فيها".

واســتخدموا الألوان بما يتناســب والغرض الذي يريدون، فلم تخرج عن المعنى المراد، ومن هذا ما جاء عند ابن زمرك في وصـفه للحسـد ،ومن يتَّصـف بهذة الصِّـفة، حيث يقول في سياق مدحه للسلطان الغنيّ باالله:

لمَّا أرتكَ الشَّمسُ صُفرَةَ حاسِدٍ لجبينِكَ المتألِّقِ الأنوار[1]

(الكامل)

فابن زمرك يأتي لنا باللّون الأصـــفر في وصـــفه للحاســـدين ،وهو ما يتّفق والمعنى المقصـود ، فصـاحب هذة الصِّـفة يعيش حياةً يشـوبها الحقد والكراهية على الآخرين ، ويميل وجهه إلى الشحوب الذي يشير إلى المرض والقلق، وهو ما يتّفق مع صفات اللّون الأصفر.

وجاء اللّون الأبيض ليدلّ على النقاء والعفّة ،وهي صـــورة قديمة ، فقد كان العرب يبغضـون اللون الأسـود بقدر ما يحبّون اللون الأبيض ، وقد وصـفوا كلّ شـيء ممدوح عندهم ماديّاً أو معنويّاً بالبياض، وكان مما يمدح به الرجل أو يُفتخر به أنّه أبيض ، وكانت المرأة تمدح بالبياض وكذلك الرجل . والبياض ليس مجرّد لون ، وإنّما يرتبط في المفهوم العام بنقاء العرض من الدنس والعيوب .

يقول ابن خاتمة:

ما بينَ فاترِ طرفها وجُفُوني خبر تمازَجَ جِدَّة بِمُجـونِي

قُل للَّتي خَضَبَت بياضَ بنانِها بدماء دَمعي أو سواد عُيوني

---

[1] ابن زمرك: الديوان. ص. :٥٦ عودة ،خليل: المستوى الدلالي للّون في شعر عنترة . مجلّة الدارة /العدد . ٢السنة ١٤١٧. ٢٢هـ. ص. :٢٢٥

مِن أين للغزلان وهي عواطل صَبغُ الحواجبِ أو خِضاب يمين

(الكامل)

فابن خاتمة يستخدم اللّون البيض ليدلّ على جمال ونقاء هذة الفتاة، التي تتّصف بالتمنُّع والعفة، وجاء استخدامه لهذا اللّون ، ليؤَكِّدَ على أمر آخر، وهو الحياة الرغيدة التي كانت تحياها هذة الفتاة ،والتي نستقيها من خلال قوله: (بياض بنانها) فالبياض لا يأتي مع كثرة العمل ، وهذا من صفات النساء الشريفات عند العرب. وظهر اللّون الأسود عندهم في المواقف الاجتماعية التي تدلّ ترتبط بمظاهر نفسيّة منفِّرة، كالحداد وما يصاحبه من حزن وكآبة)[1]. ونجد هذا واضحا في رثاء ابن زمرك حيث يقول:

وتبكيه حتى الشُّهبُ في أفق العلا وتلبسُ جلباب الظلام جواريها[2]

(الطويل)

فالبكاء يتناسب في جوّه الحزين وواقع اللّون الأسود، الذي ينتج عن الظلمة الحالكة، فالشاعر يوجد موازنة بين البكاء والسَّواد ، للدلالة على هذا المصاب الجلل الذي حلّ بهم. وعبّروا عن الكفر باللّون الأسود ، لما فيه من الضياع والبعد عن الصراط المستقيم، يقول ابن زمرك في وصفه للكفر:

واسودَّ وجه الكفر من خزيٍ متى ما احمرَّ وجه الأبيض البتَّارِ[3]

(الكامل)

فالحالة التي يعيشها الكافرون، وما يرافقها من بعد عن الهداية والإيمان ،تتناسب مع اللّون الأسود الذي يعدُّ رمزا للظلم والضلالة.

---

[1])١(ينظر : عودة، خليل : المرجع نفسه . ص. :٢٢٧

[2] ابن زمرك : الديوان : ص . :١٢٧

[3] ابن زمرك: المصدر نفسه : ص . :٦٠

فالتفاعل بين الألفاظ والمعاني المطروقة كان واضحاً في أشعارهم، فالشعر ينفعل بانفعال صاحبهِ ولهذا جاء مؤثّراً في النفوس، وهذا التأثير يتراوح من شاعر إلى آخر ويعتمد في هذا على مدى إجادة الشاعر لهذا الفن الأدبي.

بنية التراكيب

ظاهرة التكرار:

أفرد ابن فارس باباص في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) تحدث فيه عن التكرار وذكر أن سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر[1]، فعناية الشاعر بكلمة معينة أو عبارة ما تدفعه إلى تكرارها، لذا ترى نازك الملائكة "أن التكرار في حقيقته إلحاح على جهة هامة في العبارة يعني بهاالشاعر أكثر من عناية بسواها"[2].

"والقدماء يرون أن التكرار البياني –وهوأبسط أصناف التكرار– هوالأصل في كل تكرار تقريباً"[3].

"فالتكرار إذن من أساليب العربية التي تسلط الضوء على جزء هام في العبارة، ويأتي في الأصل لغرض التأكيد إذا تطلب المقام ذلك،وقد يخرج لأغراض أخرى بحسب السياق".

وشعرالزهد من الاشعارالتي تحتاج إلى التكرار سواء اللفظي أو المعنوي، وذلك لتأكيد بعض المعاني التي قد تكون غائبة عن البعض، إلا أنه ينبغي أن لايجيء به بغيرهدف لأنه حينها يضرالبيت ويعيبه.

ويمكن للباحث أن يرى هذه الظاهرة في العديد من أبيات الزهد في القرنين السابع والثامن،منها قول ابن الأبار يكررالشاعر كلمة (لي) في أبياته لغرض التأكيد:

أنا في حالتي التي قد تراني إن تأملت أحسن الناس حالا

منزلي حيث شئت من مستقر الـ أرض أسقي من المياه زلالا

---

[1] الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها، أبوالحسن أحمدبن الفارس،مكتبة المعارف بيروت،ط:١٩٩٣م،ص:٢١٣

[2] قضاياالشعرالمعاصر،نازك الملائكة، دارالعلم للملايين بيروت، ط:١٩٨٧م،ص:٢٧٦

[3] قضاياالشعرالمعاصر،ص:٢٨٠

ليس لي كسوة أخاف عليها من مغير ولا ترى لي مالا

أجعل الساعد اليمين وسادي لم أثني إذا انقلبت الشمالا

ليس لي والد ولا لي مولود ولا حزت مذ عقلت عقالا [1]

وكذلك كررالشاعر كلمة (كم) في الأبيات لغرض التكثير والتعظيم:

أي كم أقول ولا أفعل "وكم ذا أحوم ولا أنزل"

وأزجر عيني فلاترعوى وأنصح نفسي فلا تقبل

وكم ذا تعلل لي ويحها بعل وسوف وكم تمطل

وكم ذا أؤمل طول البقا ء وأغفل والموت لا يغفل

وفي كل يوم ينادي بنا منادي الرحيل: ألا فانزلوا [2]

وفي بعض الأحيان عمد شـــعراءالزهد في هذه المرحلة تكرار بعض العبارات التي تتناسب مع رؤيتهم للموضوع،وتأثرهم به.

بعض مظاهر الصناعات التركيبية:

أحياناً يبدع الشاعر ويأتي بصناعات تركيبية جديدة ورائعة، كما يظهر من قصيدة ابن المرحل هذه، يقول:

بأي لسان أم بأي طبيب يداوَى عذارٌ من بياض مشيب

بياضٍ كما لاحت كواكب سحرة تُريك طلوعاً مؤذناً بغروب

بشيراً نذيراً لاح كالفجر صادقاً على كاذبٍ حلواللسان خلوب

بُنى ابك لي إن البكا يبعث البكا وليس جوابي منك غير وجيب [3]

---

[1] نفخ الطيب،ج:٣،ص:٢٠٧

[2] الغصون اليانعة، أبوالحسن علي بن عيسى الأندلسي،دارالمعارف،ط:١٩٥٦م،ص:١٣٦

[3] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٧٣

نلاحظ أن القصيدة قد استفتحت بخطاب إلى مجهول أو خطاب غيبة،ليس متوجهاً إلى شـخص معين (بأي؟)، ولقد غلب هنا بنية على أخرى بحذفه للربط الذي كان من المفروض أن يقرن بلفظ (لسان) لتبرز بنية "المداواة" وتمحو ماكنت ترومه اللفظة الأولى.

فالمتخيل من المقصدية أنه كان يتساءل عن لسانه الذي سيصيبه العي ويدركه العجز فلايستطيع أن يجيب المهاول التي يشاهدها،ولكثرة الهفوات والسيئات التي اجترحها.

لقد جاء الوصـف في هذه اللوحة الأولى مشـوباً بما ينشـر على لوائه الناصـع اغبراراً وامتقاعاً،فلقد سـيطرت بنية "بياض" ومافي حكمها،لكنه بياض ممتقع لونه،وإن كان يوهم أنه بياض رائع: "مثل كواكب سـحرة" (اليت الثاني) لكن التشـبيه الذي شـبهه بالكواكب الناصعة المتلألئة والتي تكون على وشك الأفول.

إنها مقارنة عجيبة بين هذه النجوم الآفلة التي وإن أرتك طلوعاً لفجر جديد فإنها تكون في الطريق إلى الغروب، هذا البياض المتجلى في الشـيب شـخصـه بكونه رسـولاً يبشـر وينذر ممايضـفي على خطابه الذي يبثه صـدقاً وجلاء كما لوكان فجراً وضـاء أتى لينبه من كان في غفلة ساهيا متخذا من لسانه إشارة وحديعة.

بعد ذلك يصـل إلى الخطاب الصـريح فينادي ابنه آمراً إياه بالاسـتعداد للحزن والبكاء،وهو لايرى في ذلك مذمة ولامثلبة، بل على العكس من ذلك،لأن البكاء يبعث بكاء آخر، وثالثاً..وعاشـراً، ممايكون سـبباً مقنعا لردالنفوس من غواياتها، لقد سـيطرت بنية "الشـيب" إذاً في اللوحة الأولى،وكان ذلك مثيراً وشـديداً يعتصـر ماسـيلحق من لوحات أخرى.يقول:

بِحاراً ركبناها بغير سفائن غروراً فإن تهلك فغير عجيب

برتني يوماً آيةٌ في براءة فإن ضحكت سِني فضحك مريب

بنيتُ لها قلبي على كربة الأسى فلم تتغير لاختلاف خطوب[1]

لقد ظلت الخاصـية التي أشـرنا إليها قبلئذ سـائدة قصـيدة الشـاعرحيث يظل حرف "الباء" هو المحور الدلالي والإيقاعي الذي تصـب فيه مختلف القوالب الأخرى،إذ أن كل

[1] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٧٣

بيت ينبني أصـــلاً على حرف "ب" لينتهي كذلك على حرف الباء،وبين البداية والنهاية بنيات حشوية يتحكم فيها هذا الحرف ويفرض عليها سلطته ليسجنها داخل حيز لاتريم عنه،إنه قدرها ومآلها.

وهذه هي الصورة التي تسيطر على القصيدة كلها.

والهام أن الشـــاعر انطلق في اللوحة الأولى من حيث التدرج لكن بطريقة معكوســـة حيث أوضـح حالته الصـحية، وأبرز تحول شـجرته التي كانت يانعة خضـراء إلى شـجرة طفق اليبس يعتريهـا،فغدت متآكلة توشـــك على أن تقلعهـا رياح التغيير إلى العـالم الآخر،فيقوده ذلك ويذكره بماعاشه وتقلب فيه:

لقد دخل لجج البحار بلاســـفائن يحدوه في ذلك طغيان الأماني وفورة الشـــباب واندفاع الغرور،فلاغرو أن غرق هو ومن خاض معه هذه الأمواج المتلاطمة،فهذا التلهف على ذخرف الحيـاة ولـذتهـا وبهرجهـا وزينتهـا لم يُنجـه من الانزلاق إلى المهـاوي الســـحيقة،وهولايملك حيال هذه الخطوب التي أحاطت به إلا أن يتمعن في التنزيل الحكيم،ويتذكر آياته ويتلو سوره وأحكامه،فيلقى آية في سورة براءة يقشعر لمعانيها جلده وتتفتت قطع جسـمه بسببها إرباً إرباً،وهوماصيرالضـحك لديه مجرد صورة باهتة وعملية شكلية:

فمه مفتوح

وقلبه مجروح

وخياله تائه

وهو من أجل ذلك كله وطن نفسه وهيأ فؤاده لاستقبال الخطوب والرزايا،والاهتمام بالمآسي أكثر من الافراح.

ولعل هذه الصـورة القاتمة المؤثرة تبرز أكثر في نهاية القصـيدة حين خصـص اللوحة الأخيرة للمآل الذي لابدمنه لنهاية كل شـــئ في هذا الوجود،وهو —وإن وجه الخطاب إلى صاحبه– فإنه يصدق عليه هو أيضاً:

بكى صاحبي حتى إذا مال في الثرى وسالت مآقيه كمثل غروب

بسطتُ له كفي قبلتُ كفه وقلتُ له هذا مقام كئيب

بحقك لاتبرح أطارحك لوعتي على نغم من أنةٍ ونحيب [1]

لقد انتهت الرحلة من حيث ابتدأت،إكتسب طوال بقائه على هذه الارض أحباباً وأصحاباً وعاش مع زوج ولدت له بنين وبنات،ولكن حان الفراق الذي يجب أن ينتظره كل مخلوق،وهويصورذلك كله في اللوحة الأخيرة مثلما مهدله بالأولين.

فقد تعرضت الاولى إلى نذيرالشيب الذي ينم عن رحيل صاحبه.

واستعرضت الثانية الانغماس في لذائذالحياة وبهرجتها ثم الاستيقاظ على آية منبهة في براء.

وتلخص الأخير المصير المحتوم لكل حي.

ولقد هيمن الصراع في هذه القصيدة على محوري الذاتية والموضوعية، وكان الباث ممثلاً للدورين أبدى فيهما تأبياً وقبولاً لكنه غلب الموضوعية على الذاتية في نهاية المطاف.

وعلينا أن نقف ولوقليلاً إزاء الصنعة العجيبة التي وردت في خطاب الشاعر،حيث ورد حرف الباء ثمانا وثلاثين مرة موزعة بطريقة فنية عجيبة،إذ أن الأشطارالأولى هي التي يكثر فيها الحرف ليختفي في الأشطار الثانية باستثناء حرف الروي طبعاً أو ليُذكر على استحياء مرة واحدة أحياناً.

هناك أيضاً دقة في توزيع البنى:

الاستفهامية (البيت الأول)

البدلية (البيت الثاني)

الحالية (البيت الخامس)

---

[1] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٧٤

الندائية والنفية (البيت الرابع)

الفعلية (اليت العاشر،ومعظم الأبيات القسمية)

ثم هناك كثرة الاســـتعارات والمجازات والتضـــمينات التي وُظفت لتبعث في الخطاب إشراقة ولتضفي عليه جمالاً خاصاً.

ومن البنيات التي نقف عندها كذلك بنية التكرار التي لم تخل بالمعنى أوتحدث اهتزازاً في البناء،بل لقد أفضـــت إلى روعة في الغيقاع وأحدثت نغماً في الترداد كمايؤكده البيت الأول: "بأي لسان أم بأي؟"

والبيت الرابع "بُنى ابك لي إن البكا يبعث البكا"

والبيت السادس "برتني يوماً آية في براءة"

والبيت التاسع "بسطتُ له كفي وقبلت كفه"

أضف إلى ذلك: التجامس بين "غروب" التي تعني غروب الشمس(البيت الثاني)،وبين "غروب" التي تعني الدلو العظيمة(البيت الثامن).

ويلاحظ أن الشاعر قد نوع مابين الإرجاعات المختلفة،حبث اعتمد على:

- رجع الروي على الحشو

طبيب، بياض،مشيب (البيت الأول)

بياض،كواكب،غروب(البيت الثاني عشر)

- رجع الحشو على الحشو(التناغم المتداعي)

بني ابك لي إن البكا يبعث البكا

وليس جوابي منك غيروجيب

برتني يوماً آية في براءة

بسكت له كفي وقبلت كفه

- رجع الحشو على الحشو(التقفية الداخلية)

بشيراً نذيراً

حلواللسان خلوب

بحار ركبناها

فإن نهلك فغيرعجيب

فإن ضحكت..فضحك

فلم..لاختلاف

وقلت..مقام

والقصيدة غنية من حيث الأسلوب والإيقاع.

في هذا المشـــهدالمطول تذكير بالموت والآخرة وإيراد لحكم مختلفة تتناص مع مافي الدين من أحكام إلهية على هذا الكون وعلى ساكنيه مفتتحاً إياه بنداء:
"ياء" وهذا الحرف كماهو معروف يستعمل لإصدارالآهات والتطويل في النفس، فالنداء إذاً قاعدة تنبني عليها متختلف اللواحق.

فالموت حكم صادر من الله الذي لايستطيع الخلقُ إزاءه أن يحدث نسخاً أو يؤخر أجلاً،وهذا الحكم فيه عدل ســـائر على البشـــر جميعاً،لافرق في ذلك بين العظيم في ملكه،والغني في قصـره،وبين المعدم الفقير في كوخه،والضـعيف في وكره، فيالها من آيات عظيمات لاتدركها الابصار ولاتشرحها الأفهام، لذلك يجب الرضوخ للأمر،فالأقدار قد تغلغلت،وكل شيء بقدر وتدبير من الجبار المتصرف وحده في هذا الكون.

بعد ينصح الشاعر المرسل إليه أن يصحي السمع إليه ليعرض عليه طائفة من الحكم النيرة، مستفتحاً إياها بأن مقدمات الليالي لها نتائج،وأن السلامة ليست دائمة، وعامل الموت عبارة عن مهندس قد عد المنازل من غيرتشـــويش أو اضـــطراب،والأرض صحيفة،والدهر بين إظهار وإضمار.

ماذا تعني الصورة الشعرية؟

الصورة الشعرية عند كولودج قوامها الخيال الإبداعي، أوالصورة الذهنية الذي يرتكز عليه الشاعر،وفي الشعرالعربي "الوحدة التي تسيطر على العمل الخيالي تعني بتوافق التام بين العقل وبين الملاحظة الصادقة والملكة المتخيلة بين المحسوس واللامحسوس"[1]،ومن ثم فإن الصورة الشعرية لاتكتمل صورتها إلا إذا اجتمعت كل عناصرالإبداع من خيال،وماتقتضيه اللغة التعبيرية وتقريب اللامحسوس إلى المحسوس لتكون لذة عندالقارئ كل ما أعاد قراءةالنص، "فالاختلاف يتطلبه العصر بمكوناته الثقافية،والفرق يكمن في أن النظرة حرست على إيجاد الشبه الحسي بين طرفي التشبيه في العالم الخارجي،وألحت على التطابق والتجانس بين الممثلات في أن النظرة المعاصرة للتشبيه تقيم التماثل وفق الادراك الداخلي لحركة الأشياء وانفعال الشاعربها"[2]، والتالي فإن الشاعر أمام مهمة خلق ديناميكية وحيوية في شعره يبعدالملل عن القارئ.

لايخلو الشعرالزهدي من الصورة المجازية فهو كغيره من الشعر المليء بالصورة المجازية والذي يعد من دونها نصاً جافاً، ويقول كولودج:"الشعر من غيرامجاز يصبح كتلة جامدة،ذلك أن الصورة هي جزء ضروري من الطاقة التي تمدالشعر بالحياة"[3].

بناء الصورة الشعرية ومظاهرها

من الزهديات التي لم تضيعها حافظة الرواة تلك المقدمة التي افتتح بها ابن خميس مدحية له بقوله:

تُراجع من دنياك ما أنت تاركُ وتسألها العتبى وها هي فارِكُ

تؤمل بعدالترك رجعَ ودادها وشر وداد ما تود الترائكُ

حلا لك منها ما حلا لك في الصبا فأنت على حلوائه متهالكُ

تظاهر بالسلوان عنها تجملاً فقلبك مخزون وثغرك ضاحكُ

---

[1] قضاياالنقدالأدبي، محمد زكي العشماوي،ص:٧٤

[2] الصورة الشعرية بين النظرية والتطبيق،عبدالحميد قاوي،ص:١٣٢

[3] مقدمة "ديوان ترجمان الأشواق"،خضرالحاكمي،منشورات مكتبة منيمة،بيروت،ط:١، ص:٢٨٠

تنزهتُ عنها نخوةً لا زهادةً شعر عذار أسود اللون حالكُ[1]

هذه المقطوعة التي سارت على نسق واحد متسق هادىء يتماشى،وهذا الغرض ارتأينا لو أن صاحب "الأزهار" أثبت لنا القصيدة كاملة، ولكنه كدأب القدامى يقتصر على إيراد الأبيات الخمسة الأولى،ويقول بكل بساطة"وهي من القصائد الطنانة،وتركتها لطولها"[2].

بمثل هذه العبارات المقتضبة إذاً ضاع التراث العربي واندثر في جدران النسيان،والذي يهمنا الآن هو ليس النوح على ما ضاع، ولكن التعريف بما فضل على الأقل.

أول ما يسترعي الانتباه في هذه المقطوعة هو أن الشاعر يوظف "الأنت" – المخاطب– ليكون خطابه أصلح للحديث مع المنفس ولمناجاتها بحقائقها التي يعلمها عنها، والتي لاتستطيع إنكارها أوجحودها بطبيعة الحال.

ولقد اختار لمقطوعته حرف الروي كافاً لما يجعله من معنى الاستكانة والليونة والهدوء، أو ليتحول إلى صياح وزمجرة وفضح، وهو مايرومه الشاعر هنا بلاشط حيث إنه عازم على أن يذيع سر نفسه موبخاً إياها على اتكالها وسهوها وغيها، هذه المعاني الكثيرة حصرها بين أزمنة حاضرة طموحة إلى المستقبل،وهو طموح مبالغ فيه، وبين أزمنة ماضية فيهاالحقيقة التي عاشها:

تراجع...حاضر، نحو مستقبل مجهول

تارك...حاضر، نحومستقبل مجهول

(اسم الفاعل في الواقع لا زمان له ولامكان)

فارك...حاضر، تواق إلى مستقبل

تؤمل...حاضر، تواق إلى مستقبل

تود...حاضر،تواق إلى مستقبل

---

[1] أزهارالرياض،المقري،ج:٢،ص:٣٠٥

[2] أزهارالرياض،المقري، ج:٢،ص:٣٠٥

ثم يعود إلى الماضي الذي هو على بينة من حاله:

حلا (مرتان) مشـــفوعة باســـم الفاعل (متهالك)، لكنه بفاجئنا بالعودة إلى الزمن المســـتمر"تظاهر"ليقرنه باســـم مفعول واســـم فاعل متتابعين يعززان وظيفته، ويؤديان مايستطيع هو أن يقوم به:
محزون/ضاحك.

ويختم هذه السلسلة من الأزمنة بالتركيز على الماضي الذي يدل على أنه هو الخالد، لأن كل حاضـر أومسـتقبل إنما هو عائد إلى أصـله(الماضـي)، ولابد أن يصـير يوماً ما ماضياً.

والشاعر بعد أن وفر عاملا من عوامل النجاح لخطابه هذا،وبعد أن مهد بالبنيات اللفظية والتراكمات الحرفية ركز على ناحية نفسية مهمة يمر بها كل واحد منا ولاسيما بعد فترة من عصره تكون طويلة أوقصيرة،حينما يستيقظ الضمير،ويتفخم التفكير،فيصعد ربوة حياته، ويقف في أعلى قمتها ليطل على أعماله من الرأس إلى السفح محاولاً استذكار مافات ونادماً على ما فرط فيه، ويكون الأمر أكثر تمثيلاً إذا كان المرء نكداً في حياته وفي عيشته،فيردد ماقال الشاعر:

تُراجع من دنياك ما أنت تارك وتسألها العتبى وها هي فارك

إنه يشـبهها بزوج غنوج غضـوب يلففها ثوب التغجرف، وتطبعها صـورة التصـلف، كما أقبل عليها زوجها وتحبب إليها صـــدته عنها وأعرضـــت هازةً كتفيها، بل هاجرة إياه،وهذه شرالزوجات إطلاقاً،وهو يسألهاالرضى،وهي تصليه بُعداً،وتقليه بغضاً.

وورود "فارك" هنا لم يكن في الواقع صـــادراً عن الدنيا مع تلهف القارئ عليها، بل كان بعد ان هجرها هو وألقى بها.ويتضـح ذلك أكثر في البيت الثاني حين يصـرح بأنه هوالذي ســـلها من ثوبه، فكيف يبحث من جديد عن اســـترجاعها؟ إنه لوفعل ذلك لكان كمن يجري خلف امرأة تريكة، نبذها أقواها القاصـــي منهم والداني، ثم جاء هو يسعى إليها، راغباً في الاقتران بها.

والشاعر هنا يشبه الدنيا بأنها حلوة نضيرة –كما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم–[1]،وقد جعل الله الدنيا هذه محبوبة للبشر كي يعمروا الأرض بطبيعة الحال[2]، لذلك جاءت أنفسهم مجبولة على حلاوة مافيها حيث لم يتغير حالها منذالشباب إلى الشيخوخة، فهي مقبلة عليها إلى درجة التهالك حتى إنها لتفكر فيها أبداً بجوارها كلها.

ويختم هذه الأبيات بأن الزهد في الدنيا ليس بالأمرالهين، لذلك قد نزه نفســـه عن الإقبال عليها ترفعاً ومروءةً ليس حين أدرك عوده الجفاف واستحصد شعر رأسه، ولكن منذ أن كان في معية الشباب بطبعه شعره الحالك، ويزينه عِذار المورد.

هذا وقد احتوت المقطوعة على قضايا أسلوبية تسترعي النظر، من ذلك أن الشاعر ركز على الثنائية التضادية:

تراجع...تارك

العتبى...فارك

الترك...رجع

قلبك...ثغرك

محزون...ضاحك

ونشـــير في آخر هذا التحليل إلى أن غرض الزهد يعتبر من الجنس الاحتفالي كما يطلق عليه ذلك،لأن هذا النص –الذي يدخل في إطار هذا الغرض مثلاً– ســـحتوي على التحقير للدنيا وكراهيتها.

والنص في النهاية يعود إلى مرجع زماني يتمثل في الحاضـــر،وهذه الصـــفات المذكورة تندمج تحت خاصية أساسية،هي "الانفعال" الذي يشعر به المرسل إليه مبثوثاً من قبل المرسل.

---

[1] إعجازالقرآن للباقلاني،تحقيق أحمدصقر،دارالمعارف مصر،ص:١٣٣

[2] سورة آل عمران:رقم الآية: ١٤

وللشاعر ابن الأبار أبيات يستشف منها طلب العفو والنصح والتوبة:

أيا غوث الفقير أجب فإني دعوتك بافتقار يا كريم

ولا تدع السعال يهد جسمي وكيف وأنت رحمانٌ رحيم

فعجل بالشفاء وجُد وسامِح فأنت القادر البر الحليم

ومُن بما أنت أُرجي منك فضلاً فإنك بالذي أرجو عليم

سألتك بالشفع وكيف أخزَى ومعتمدي جبيبك ياحليم

وحاشا أن أضام وقد أواني بمدح المصطفى كهفٌ رقيم

ولُذتُ بجاهه لا زال قصدي قضيب البان اِذهبَ النسيم[1]

إن الفكرة العامة لهذه المقطوعة واحدة وأفكارها الفرعية تصب في قالب واحد أيضاً حيث يتوجه عبد فقير ضـــعيف عليل عاجز إلى إله غني قوي جبار قاهر،يهيمن على دعائه الالتماس الذي يحرك المشاعر، ويهزالأحاسيس.

فدعواه توجه بها إلى ربه الســـميع البصـــير الذي لاتخفاه خافية في الأرض ولا في السماء،هوالذي يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور،بل كل مايسقط من ورقة،ومايختفي من حبه في ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا في كتاب مبين، وهوالذي يســـتجيب الدعاء وحده،ولاسيما للمتذلل الخاشع الخاضع، ولقد كان الشاعر يدعو،والسعال يهد صدره،ويمزق أحشاءه،ويوهن قوته، ويسهل انصباب العبرات،وترددالآهات.

فالمقطوعة إذاً وإن أدرجناها في الزهد فإنها كانت عبارة عن دعاء من مضـطر منهك إلى الله الرحمان الرحيم، خاتماً إياها بالتشفع إلى الله سبحانه وتعالى.

ولقد جاءت المقطوعة تحمل تضـــميناً من القرآن الكريم، وهو تناص مركب كمانعلم حيث يورد ذلك في البيت السادس في قوله:"كهفٌ رقيمٌ"[2].

---

[1] الإحاطة،ج:٣،ص:٢٣٢

[2] سورة الكهف:رقم الآية: ٩

وتبدو ثقافته الواسعة في كيفية استعماله للبنى الإفرادية والصرفية والنحوية من مثل توظيفه لحرف "لا" مع "زال" التي تعني الاستمرارية المطلقة أوالدعاء، ولو أنه استعمل حرف الميم "مازال" لاعتبر ذلك نقصاً وغبناً للموضوع،وقتلاً للعاطفة من خلال القطعة.

ولأبي زيد الفازازي قصيدة يفتتحها بالدعوة إلى التهجد والتبتل ليلاً،ونبذالنوم،والاستعداد ليوم الرحيل الذي لايعلم أوانه إلاالله الخبير:

يا راقداً ملء عينيه يهيئه لين الفراش وعين الله ترصده

لوكنت تعلم فوز الغانمين يا راقداً ليله ما كنت ترقده

وكيف ترقد ليلاً أو تلذ به وأنت تجهل ما يأتي به غده[1]

إن الخطاب الافتتاحي في هذه الأبيات الاولى يدل على أن الشاعر متمكن من عمق الغرض ومستوعب للبنى اللفظية والأدوات الملائمة للخوض في خضم هذا الموضوع.

فالنداء الموجه إلى مجهول/معلوم، هو في واقع الأمر خطاب إلى غافل قد انغمس حتى ذقنه في سبات عميق لايزعجه صوت خارجي،ولايقلق راحته الم الوصاب،وحرقة العذاب:فالفراش وثير، وصبوحة العيش طاغية، بيد أن هذا المرء قد نسى أن عين الله حاضرة ترقبه، راصدة تترقبه.

وهذا المهمل لواجبه الديني، الساهي عن تأدية فرائضه ماكان ليفعل ذلك لو أنه اطلع على ماأعدالله للمتقين الخاشعين الزاهدين الذين سيحققون مآربهم،ويظفرون بآمالهم.

ثم يوجه سؤالاً استنكاريا للمخاطب كيف يستلذ طعم النوم ويستعذب سهاده وهو جاهل بما يأتي به الغد بالنسبة له.

ومثل هذه المعطيات هي التي أفاد منها الشاعر، فقد برزت خلفياته الثاقفية الدينية جلية وهو يتناول هذا الغرض بالاضافة إلى تجربته المعيشة،وإلى رصيده الفني والجمالي

---

[1] الإحاطة،ج:٤،ص:٢١١

الذي انعكس على حرف الروي "الهاء" المضـــمومة الطويلة التي تفيد الانشـــراح وطول النفس وحرقة الآهات،ثم تلك البنيات الاسلوبية المختلفة:

"ياء" التي تفيد الانتباه

"لو" الشرطية

"كيف" الحالية

بالاضافة إلى الواو المفيدة للحالية،والواردة في بداية الشطرالثاني.

وهذا النداء المنبه المتكرر الذي جاء بمثابة دق الناقوس المجلجل:

"يا راقداً ملء عينيه" (البيت الأول)

"يا راقداً ليله" (البيت الثاني)

ويلاحظ أن بنية "رقد" هي التي هيمنت على هذه المجموعة الأولى، فهي البؤرة التي تعود إليها مختلف المعاني،وهي "المفتاح" المفضي إلى سبر أغوار مافيها من بنى عميقة تؤدي معنيين مزدوجين على الاقل.

ويمضي مع هذه الخواطر الذاتية المؤثرة فيقول من المقطوعة نفسها:

مهد لجنبك في التقوى بخشيته فليس شيء سوى التقوى تمهده

أليس ترحل عن حال وتتركها فاجنِ لنفسك منها ما تزوده

فسوف تجزَى بما قدمتَ من عمل وزارِع الخير في الدنيا سيحصله[1]

إنه ينطلق من بنية "الرقاد" إلى ماهو أصلح وأنجح للمخلوق فيستفتح ذلك بأمر يراد منه النصح:

---

[1] الإحاطة،ج:٤،ص:٢١١

"مهّد" ملصـــقاً إياها بلفظة "الجنب" التي هي كناية عن النوم، كما ورد في القرآن الكريم من وصـف للمؤمنين العابدين: "لا تتجافى جنوبهم عن المضـاجع"[1]، إنه يريد أن يقول:

كـان على المرء أن يمهـد لنومه الطويـل جداً[2]، بوجله وبخوفه من الله بالتقوى، لأ،هـ خيرالزاد ليوم عســير لاينفع فيه مال ولابنون، فالتقوى هي الملجأ الآمن،وهي الحصـــن المنيع له من الوقوع في المهامهِ والمتاهات، جاء في الأثر أن علي بن أبي طالب طُلب منه أن يفسر مدلول لفظ التقوى،فأجاب بأنها:

- الخوف من الجليل
- والعمل بالتنزيل
- والاستعداد ليوم الرحيل

بعد ذلك يستعرض الشاعر أفكارً أخرى لكنها تظل تصب في قالب الزهد دائماً موظفاً النفي الاستفهامي هذه المرة "أليس؟"، ومثل هذه العبارة الاستفسارية لاتفتقر إلى جواب، بل جوابها تحمله في داخلها، وهذا يحيل إلى قوله تعالى:أليس الله بكافٍ عبده؟[3]" متبعاً إياها بلفظة "أجنِ" من الجنى،أي القطف.

فالبســـتاني النشـــيط المجد ينتظر دائماً نتيجة عمله، والفلاح العامل ينتظر نتيجة محصـــوله، أمالذي يزرع الشـــوك فإنه لايحصـــدالعنب بلاريب،والدنيا دار حرث وغرس، والآخرة دار جنى وحصاد.

ويعود بعد ذلك إلى اللفظة (الرقاد) التي يشـمئز منها كثيراً ولكنه مع ذلك لايمل من تكرارها حتى يغرسها ويعمقها في ذهن المرسل إليه،يقول:

يا رُب راقد حشوٍ مضجعه شوك القتاد ولكن لايسهده

---

[1] سورة السجدة:رقم الآية: ٦

[2] وتزودا فإن خيرالزاد التقوى، البقرة:١٩٧

[3] سورة الزمر:رقم الآية: ٣٦

أغفَى على غير وعدٍ من منبه مع الصباحِ يوم الحشر موعده

يوم الندامة لوتُغني ندامته مبيض الوجه فيه أو مسوده[1]

فلفظة "الرقاد" هنا قد تحولت إلى عذاب بعد أن كانت من قبل مطية للذة والراحة الخلو إلى الملاهي والقصف، لأن الرقاد هنا سيستفيق صاحبه على حقيقة مُرة،هي أنه قد كان متكئاً على شجر صلب له شوك كالإبر،ولكنه لجهلهلم يكن يحس به فيؤرقه ويوقظه حتى أتاه المنبه المزعج مع إشراقة الصباح والناس في حركة جديدة لايعلمون عنه شيئا،بل لايعرفون عن أنفسهم شيئا،فهم نيام حتى إذا ماتوا استيقظوا، إن الأجل أقبل، ويوم الحشر أُهل،وهو يوم "كان مقداره خمسين ألف سنة"[2] فيه، لكن لااعتبار للندم ولا للتحسر على ما مضى أوفات، ففي هذا المقام الجزاء لاالتأوه، "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه"[3]، ولقد جاءت هذه الآية الكريمة متضمنة في الشطر الثاني من البيت التاسع.

ثم يختم بقوله:

والمرء من كثرة التسآل مشتغل يقيمه هول يلقى ويقعده

حتى يقول طويل العمر وافره يا ليته كان ذاك اليوم مولده

قد كان أحمد عمر المرء أطوله فاليوم أقصر عمر المرء أحمده[4]

هذه الخاتة يغلفها الندم والتحسر على مامضى وفات من غير جدوى،يدل على ذلك كثرة تساؤله، واشتغاله بمصيره وتفكيره في الأمل المستحيل إلى درجة إن من عُمر في الدنيا طويلا يتمنى أن لو وُلد هذا اليوم فحسب،وهذا عكس مايعيش عليه الناس ويتعارفون من أن أفضل امرئ في الحياة من كان أطول عمراً، فانعكس المفهوم وتغيرت الأمنية، فغدا من هو أقصر عمراً أحسن وآمن وأسعد.

---

[1] الإحاطة،ج:٤،ص:٢١٢

[2] سورة المعارج:رقم الآية: ٤

[3] سورة آل عمران:رقم الآية: ١٠٦

[4] الإحاطة،ج٤:ص:٢١٢

والمجموعة الأخيرة هذه تحمل حكمة بينة في بيتها الأخير، كما تمتاز بكونها تشـــتمل على إيقاع متراكم:

الهاء في البيت الأول

التاء في البيت الثالث

والدال في البيت التاسع

واللام في البيت الحادي عشر

ونختتم حديثنا عن هذه القصيدة أخيراً بأنها تحتوي على أفكار أربع،هي:

1- الدعوة إلى التهجد والتبتل ليلاً ونبذالنوم،لأن الخاتمة مجهولة.

2- الحث على العمل الصالح لأن الرحيل حتمي وستُجزى كل نفس بما كسبت.

3- تنبيه الغافلين وتبصيرهم بيوم الحساب.

تيهان المرء وحيرته ممايلقاه حتى يتمنى أن تكون تلك اللحظة هي فقط ســاعة مولده وليس ماغبر من عمره الطويل في الدنيا.

ومن مظاهرالصورة الشعرية أخذ التشبيه حيزاً وافراً من شعر الزهد في هذه المرحلة،قال ابن خميس موظفاً أداة الكاف:

عجبا لها، أيذوق طعم وصالها من ليس يأمل أن يمر ببالها

وأنا الفقير إلى تعلة ساعة "منها وتمنعني زكاة جمالها"

كم ذا وعن عيني الكرى متألق يبدو ويخفى في حفي مطالها

يسمولها بدرالدجا متضائلا "كتضاؤل الحسناء في أسمالها" [1]

وقع التشبيه في الشعر الأخير من هذه الأبيات،وهو ترتيب أصلي لأن أركان التشبيه جاءت مرتبة.

---

[1] الإحاطة، ص:١٠٦

ويقول في مكان آخر:

خدعتُ بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصادي بلمع سراب

تقول هوالشهد المسور جهالة وماهو إلا السم شسي بصاب[1]

شبه الدنيا بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء فإذا وصله لم يجد شيأ، أو كشهد النحل الذي مليئ عسلا صافيا وقد دس فيها السم الناقع الخطليط بالصاب.

ووردالتشبيه في زهديات ابن المرحل أيضاً عندما ذكر اللهو وطغيانه به عن أفاعيل الزمان، وتقلبات الأيام، فيفيق المرء منه على واقع أليم، ومرارة فاجعة،يقول:[2]

وصرت أعاف الصبا والمجون ورب طباع تعاف العسل

وما زين اللهو إلا الشباب ولاحسن الغي إلا الثمل

يدور الزمان كدور الرياح فطورا جنوبا وطورا شمل

وفي نفس القصيدة أوردالتشبيه مرتين موظفاً أداة (مثل)، يقول: [3]

فيوما يعز ويوما يذل فكم قد أعز وكم قد أذل

وما الناس إلا كمثل النجوم وما طلع النجم إلا أفل

وما المرء إلا كمثل النبات إلى النقص يرجع مهما اكتمل

ويوظف الشاعر أبوالبقاءالرندي أداة (كأن) في الأبيات التالية: [4]

وقد أجهدتُ نفسي في اجتهادي وما إن كل مجتهد مصيب

وماتجري الأمور على قياس ولوتجري لعاش بها اللبيب

كأن العقل للدنيا عدوٌ فما يقضي بها أرباً أريب

---

[1] الإحاطة،ج٤:ص:٢١٢

[2] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٥٦

[3] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٥٦

[4] ديوانه،ص:١٠٩

ومن شعرابن الخطيب في هذا المجال: :[1]

والأمر تحقره وقد ينمي كما تنمي الجسوم على الغذاء وتعبلُ

فاحذر صغيرالأمر ولتحفل به وإذا غفلت فإنه يستعجلُ

والنار أول ماتكون شرارة والغيث بعد رذاذة يسترسلُ

ويرى الباحث الحقول الدلالية الخاصة بتقلبات الدهر في شعرالرندي،مثاله:

أما ترى الدهر لا يُبقي على أحد أين الملوك وماضانوه في الحجب

الدهر لايبقى على حالة لكنه يُقبل أو يُدبر

خليق الزمان كما علمت تقلبا وسلِ الهوى يُنبئك عن أخباره

خليلي ما الدهر إلا دُول وإلا فأين الأيام والأُول

وهذه الدار لا تُبقي على أحد ولايدوم على حال لها شأن[2]

في هذه الأشـــعار نرى الكثير من الألفاظ الحاملة لمعاني التقلب وعدم الاســـتقرار، وهذا كله راجع لكون الشـاعر بصـدد تصـوير حال الشـعوب والبلدان في الحقبة الزمنية عاصــرها وعاش بها، مما اســتدعى الشــاعر تضــمين أبياته هذه الألفاظ التي تخيرها من معجمه،للتعبير عن هذا الحقل الدلالي،وهي:

- لايُبقي
- يُقبل
- يُدير
- تقلباً
- دُول
- لاتُبقي

---

[1] ديوانه، ج:٢،ص:٢٣١

[2] ديوانه،ص:١٢٢

- ولايدوم

وفي هذا المشـهد نكت نحوية وعروضـية حيث يذكر من النحو المرفوع والمجرور ليكني بهما عن تقديرالبشـر،والمقصـور والممدوح لكني بهما عن طول العمر وقصـره،على حين يصـــف الموت مع الخلائق كـالعروضـــي المـاهر القـادر على تقطيع الشـــعر كيفمـا يكن،مكسوراً أو موزوناً.

الفصل الثانـي:

الصورة الشعرية

تُعدُّ الصورة الشعرية بي العنصر الجوبري في لغة الشعر، (وهي أداة الشاعر الأمثل؛ يبني بها أعلى مراتب الشعر ،حيث تتشكَّل الصورة بفعل الخيال متأثرةً بكل العوامل السابقة والآنية، وذلك حسب التجربة والحالة النفسية لدى الشاعر[1]) فيترجمها حسب ما يقتضيه الموقف؛ مشكّلا بذلك صورةً شعرية، وقد تكون تلك الصورة إمّا بهانية (تشبيه، استعارة ،كناية)، أو صورةً بديعية: (تصريع جناس، طباق) أو غيرها من الصور.

وفي دراستنا هذه ركّزنا على صورتين هما: الصورة البديعية ، والصورة البهانية والتي كان ابن الخطيب قد وظفها بشكل مكثّفٍ في قصائده المدحيةِ.

1 – الصورة البديعية:

أ– التصريح:

قل أنْ نجد قصيدة مدحية يبتدأ بها ابن الخطيب إلا وتراه يعتمد على التَّصريح (والتَّصريح هو استواء عروض البيت وضربه في الوزن والإعراب والتفقية)[2]، وعنه يقول ابن الأثير: (هو في الشّعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور، وفائدته في الشعر أنّه قُفل كمال البيت الأوَّل من القصيدة تعلم قافيتها.)[3]

والتَّصريح أيضًا دليل على اقتدار الشاعر وسعة بحره. هو من الأساليب الجمالية التي تفنَّنَ الشعراء فيها لإثبات قدرتهم، فلمْ يغادرهُ معظم الشعراء، وذلك لما يضفيه المن إيقاعٍ موسيقي على القصيدة، ولهذا نجد ابن الخطيب قد اعتنى في قصائده بالتّصريح ونادراً ما يستغني عنه، ومن أمثلة قصائده التي جاء فيها بالتّصريح يقول في مستهل مدحه للسلطان أبي الحجَّاج:

وسواس حليك أم هم الرقباء للقلب نحو حديثهم أصغاء[4]

---

[1] خالد بن سعود الحميبي، البناء الفنّي في شعر عمربهاء الدين الأميري، نادي الأحساء الأدبي، السعودية، ط١، ٢٠٠٩، ص ٢٧٧.

[2] ابن جاب ا رلأندلسي ، الحمة السيْرى في مدح خير الورى ، ص ٦٢.

[3] نصر الله ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة – مصطفى الباهي الحلبي، مصر،(د،ت)، ١٩٣٩، ج١، ص ٢٩٥.

[4] ابن الخطيب، الديوان، ج١، ص ٩٣.

فالتصـــريح في هذا البيت بين كلمة الرقباء وإصـــغاء يحدث نغماً موســـيقيا، يهيئ النفوس لتلقي بقية أبهات القصيدة.

ومن التصريح قوله أيضاً في مدح السلطان:

مقامك مرفوع على عمد السعد وحمدك مسطور على صحف المجد[1]

فابن الخطيب ينتقي الألفاظ التي يأتي بها في التّصـــريح ليجِلَّ بذلك ممدوحه و يُعْلي من مقامه ، فكلمتا "السَّعْد" و"المجد"؛ لها دلالات السُّؤدَدُ، والرفْعَة. ومن تصريحه أيضا ما يمدح به:

حنت لحضر ربى وزرق مياه وجآذر من قومها أشباه[2]

وأيضا قوله مهنئاً:

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده وفي الله ما تبديه أو ما تعيده[3]

وأيضا في قوله في مدح السلطان أبي الحجّاج أتى بالتصريح في مستهل القصيدة:

زارت ونجم الدجى يشكو من الأرق والزهر سابحة في لجة الأفق.[4]

فقد زان التصريحَ حرف الروي القاف، حيث أضفى عليها نغمًا موسيقيا متوافقا ما بين كلمة الأرقِ، و الأ فُقِ. وقوله أيضاً:

بشرى يقوم لها الزمان خطيباً وتارج الآفاق منها طيباً[5]

وقال مادحًا أيضًا مبتدئًا بتصريحٍ جميلٍ :

ألا حدثاها فهي أم العجائب وما حاضر في وصفها مثل غائب[6]

ويقول أيضًا مادحًا:

---

[1] ابن الخطيب، الديوان، ج١، ص ٢٩٦.

[2] المصدر نفسه: ج ٢، ص ٧٤٦.

[3] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ٢٧٠

[4] المصدر نفسه: ج٢، ص ٦٩٠

[5] المصدر نفسه: ج ١ ص ١٠٣

[6] المصدر نفسه: ج ١ ص ١١٢

لقدرام كتم الوجد يوم ازتحاله ولكن دمع العين باح بحاله. [1]

وعلى طريقة الشُّعراء الجاهلين يستهل إحدى قصائده مما يدل على تفننهِ في الشعر:

حي ربوع الحي من نعمان جود الحيا وساجم الأجفان [2]

وقوله أيضا:

سقى دارهم هام من السحب هامع ولا أجدبت تلك الربي والأجازع [3]

ولعلنا من خلال هاته الأمثلة نستشف مدى قدرة ابن الخطيب على تطويع الأساليب وتوظيفها توظيفا يدل على شاعريته الفذة، وأنّه سار على نهج الشعراء الأولين مقتفياً آثارهم سالكا نهجهم في كل ما طرقوه من شعر جميل.

ب – الجناس:

"يقوم الجناس على أساس التَشابه بين لفظين في الشكل، مع اختلا فهما في المدلول فإن اتفق اللفظان في أنواع الأصوات، وعدد ترتيبها، وهيئتها الحاصلة من الحركات والسَّكَنَاتْ كان التجانس تامّا، وانْ اختلف اللفظان في واحد من الأربعة المتقدمة كان التَّجانس ناقصاً"[4].

وتحدث النقاد عن قيمة الجناس في العمل الأدبي (فبيّنوا أنه إذا جاء غير متكلف تمَّ به المعنى، وللجناس ما للتكرار من تأكيد النَّغم ورنته، الأمر الذي يزيد من تأثير الكلام على المتلقي)[5] ومن جماليات الجناس أيضًا "يكمن في إيهام النّفس أنَّ الكلمة المكررة

---

[1] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢،ص ٤٨٣

[2] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٥٧٦.

[3] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٦٤٧.

[4] جلال الدين القزويني ،التمخيص في عموم البلاغة ، شرح عبد الرحمن الب رقوقي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٩٣٢، ص ٣٨٨

[5] عبد القاهر الجرجاني، أسرارالبلاغة، تعليق محمود شاكر، دار المدني، جدة السعودية، ط ١، ١٩٩١، ص٨

ذات معنىً واحد، فإذا أمعنَّا النّظر اتّضح أنّ الكلمتين مختلفتين فيدفع هذا إلى الاعجاب بالشاعر الذي اهتدى إلى هذا الاستخدام".[1]

واذا نظرنا إلى هذا المحسن البديعي عند ابن الخطيب نجده قد استعمله استعمالا حسنًا راعى شروط النقاد مبتعدًا عن التكلف، مثال ذلك قوله

ماعلى القلب بعدكم من جناح أن يرى طائراً بغير جناح[2]

فكلمة جُناح تعني الحرج، وجناح جناح الطائرالمعروف، لتشكل الكلمتين، جناسًا ناقص؛ جاء غير متكلّف يُضْ في على مطلع القصيدة نغمًا موسيقيًا، مما يزيد في تحسين صورة القصيدة وبهائها ،ويترك أثراً في المتلقي.

وكذلك من أمثلة الجناس التَّام قوله:

في موقف يا هوله من موقف يذوي له رضوى[3] **ويذبل يذبل**[4]

فقد جانس بتين يَذبلُ، وهي اسمُ علمٍ على جبلٍ معروفٍ في المدينتة النبوية، ويَذْبُلُ والتي هي الفعل ذبل فالشاعر يوهم المتلقي بأن للكلمتين المعنى نفسه ، مما يزيد من اعجاب المتلقي بالشاعر.

لكن الجناس الأكثر حضوراً لدى ابن الخطيب، والأوفر استعمالاً في قصاءده المدحية هو الجناس الناقص، وغالباً مايكون الضرب هو موقع أحد طرفي هذا الجناس مثال ذلك قوله:

ومالى لا أبكى بعين قريحة على فرقة الأحباب تهمى وتهمع[5]

فلاحظ أن الجناس الناقص بين كلمتي تهمي من الهيام، وكلمة تهمع من فعل همع أي دمع، نرى أن هذا الجناس وقع في ضرب البيت.

---

[1] ينظر: أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة، القاهرة، مصر، (د ط) ١٩٩٤، ص ٤٧٦.

[2] ابن الخطيب، الديوان، ج١، ص ٢٥٠

[3] "رضوى، و يذبل" : جبلان معروفان بالمدينة

[4] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٩.

[5] المصدر نفسه:ج٢، ص ٦٦٥.

ومثال أيضا على الجناس جاء في ضرب البيت قوله:

هفهافة يقضى لطيف هبوبها بتذكر الأوطان والأوطار [1]

فقد جانس بين الأوطان، والأوطار، جناساً ناقصاً، فتم له المعنى المطلوب بما تركه في النفس، من خلال اشتراك اللفظ الذي يجعل المتلقي يحس بظروف الشاعر النفسية، وحنينه إلى الأوطان والديار. ومن الجناس أيضاً قوله:

وسرت بشائرها بكل تحية شدت لها الأقتاد والأقتاب. [2]

فالجناس حاصل في قوله الأقتاد، والأقتاب وهو " جناس ناقص". وكذلك قوله في قصيدة مدحية:

هي أسعد ما دونهن حجاب لا ينقضي عد لها وحساب [3]

فقد جانس بين حجاب، وحساب. وأيضا من الجناس الناقص قوله:

وهوت إليه أسنة وأسرة ومواكب وكتائب وكتاب [4]

فالجناس في وقوله " أسنة" والتي هي الرماح، وأسرة والتي هي جمع سرير، تشكل هاتين الكلمتين جناساً ناقصاً لتغير الحرف الثالث في كلتا الكلمتين. والجناس الناقص أيضاً بين كلمتي كتاءب التي تعني الجيش وكلمة كتاب المعروف، حيث زاد الأول كتائب على الثاني كتائب صوتاً وهو (الهمزة) التي فرقت بين مدلول الكلمتين.

ومن خلال هذه الأمثلة يتضح لنا حضور الجناس بشكل مكثف في قصائد ابن الخطيب المدحية، وخاصة الجناس الناقص، ولو بطنا أمثلة أكثر على الجناس لما اتسع المقام للذكرها.

ج – الطباق:

---

[1] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص٣٦٧.

[2] ابن الخطيب، الديوان، ج١، ص ١٠٥.

[3] المصدر نفسه: ج١، ص ١٠٥

[4] المصدر نفسه: ج١، ص ١٠٦.

يعد الطباق فنا من الفنون البلاغية، ومن المحسنات البديعية المعنوية، قد أكثر شعراء الأنسلد منه، حتى لا يكاد واحد من أشهارهم يخلو منها.[1]

وقد أورد أبوهلال العسكري تعريفاً للطباق حيث قال: "المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة، أو الخطبة، أو البيت من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين البهاض، والسواد، والليل، والنهار، والحر والبرد"[2] ، وهو الجمع بين معنيين متقابلين سواءً كان ذلك التقابل، والتضاد ايجاباً أو سلباً.[3]

إنَّ توظيف ابن الخطيب للطباق يتم عن وعي كبير، ينُمُّ عن مقدرته، براعته في التفنن في استخدام الأساليب البلاغية، وخاصة الطّباق حيث إنّه لا يتكلف في اختيارالكلمة، وما يضادُّها، فأغلب الكلمات التي جاءت في قصائده ضمن نطاق الطّباق كانت معروفة ، ولم تكن غامضة فمنها قوله:

وأتاح أندلساً بجد حسامه قسراً فأحيا الأرض بعد مماتها.[4]

فوظف كلمة "أحيا" واستدعى ما يُضادها وهي "مماتها" من غير تكلف ويقول أيضاً:

أبادوا شياطين الضلال وزينت سماء رسوم الحق منهم مصابح[5]

فالشاعر يطابق بين كلمتي الضلال والحق، مشكلا بذلك طباق الايجاب. وقوله في قصيدة مدحية طويلة قد أكثر فيها الطباق:

ومددت كف الفقر أسأله فيا عز الغني وذله المحتاج[6]

وطابق بين كلمتي البعاد من البعد، وبين كلمة دان من القرب، وذلك في قوله

---

[1] ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د ط)، ١٩٧٤ ص ٧٢.

[2] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٣٠٧

[3] ينظر : عبد الله ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١ ١٩٨٢ ، س ٢٠٠.

[4] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ١٧١

[5] المصدر نفسه: ج١ س ٢٢٧

[6] ابن الخطيب، الديوان، ج١ ص ٢٠٠

كيف أشكو بعاد من هو دان قاتل الله شرتي ولجاجي[1]

وقوله أيضاً:

واسلك في السير به منهجاً عن مادح جل وعمن هجا[2]

فالطباق هنا بين كلمة مادح وهجا.

والشاعر يجنح كثيراً ألى استخدام الطباق الموجب على حساب الطباق السلبي الذي كان حضوره ضعيفاً في قصاءده، ومن أمثلة الطباق الايجابي قوله:

أفض في الرعايا الدل تخط بحبها وحكم عليها الحق في الحل والعقد[3]

فقد طابق بين كلمتي الحل والعقد، مشكلا طباق إيجاب. وقوله أيضا من الطباق الايجاب:

واللحن قد وشجت غصون ضروبه فسبى العقول خفيفه وثقيله[4]

من أمثلة طباق السلب قوله:

فضاء تضيق الثرض عنه برحبها وشيمة حلم لا يضيق بها صدر[5]

فالطباق السلب يتمثل في لمتي يضيق ولا يضيق. وأيضا قوله:

يؤلف بالحُسنى قلوباً تفرقت يفرق بالإحسان ما لا يؤلف.[6]

فقد جمع ابن الخطيب في هذا البيت بين طباق الايجاب وذلك في كلمة يُؤلفُ ويُفرق، وأيضا في البيت طباقُ السلب بين كلمتي يؤلف و لا يؤلف.

---

[1] المصدر نفسه: ج١ ص ١٩٦.

[2] ابن الخطيب، الديوان،: ج١، ص ٢٠٤

[3] المصدر نفسه: ج١، ص ٣٠٨،

[4] المصدر نفسه: ج٢، ص ٤٧٩

[5] المصدر نفسه: ج١، ص ٤٠٠

[6] المصدر نفسه: ج٢، ص ٦٧٠

من خلال هذه الأمثلة التي أوردناها لا نكاد نرى قصيدة من قصائد ابن الخطيب إلاَّ وقد قرعت أسماعَنا جملة من الصُّور الطباقية، إذْ كثيرا ما يعْمِدُ الشّاعر إلى هذا الأسلوب، ويوظفه في تصويراته الفنيّة.

ويُسْتَخلصُ ممَّا تقدَم أنَّ ابن الخطيب، قد وفّقَ في انتقاء اللغة المعبّرة، والأسلوب الواضح ، وذلك لإخراج مادته الشّعرية في شكل مناسب، فقد كانت لغته ،وأسلوبه في قصائده شبيهة بتلك التي وُجدتْ عند الشعراء الأوائل، لا من حيث النوع فقط، بل من حيث التوظيف أيضًا.

– الصورة البهانية:

الصورة البهانية مصطلح تناوله العديد من النّقاد قديمًا وحديثًا، فقديمًا كان ينظر إليها من منظور بلاغي من حيث تشبيه واستعارة، واعتبرت وسيلة لتقريب المعنى نتيجة ربط الشاعر المعنوي بالمحسوس لايصال المفاهيم للمتلقي، والمراد بالصّورة ابراز المعنى العقلي، أو الحسي في صورة محسوسة، وهي خلق المعنى والأفكار المجردة أو الواقع الخارجي من خلال النفس خلقًا جديدًا.[1]

أ–التشبيه:

هو الحاق أمر بأمر معروف في وصف أداة لغرضٍ ، والأول المشَبّه، والثاني المشَبَّه به والوصف هو وجه الشبه، والكاف هي الأداة[2] هو العلاقة التي أو " تجمع بين طرفين لاتحادهما،أ و اشتراكهما في صفةٍ، أو حالةٍ أو مجموعةٍ من الصّفات، أو الأحوال، هذه العلاقة تستند إلى مشابهة في الحكم، أو المقتضي الذّهني الذي ربط بين الطرفين المقارنين دون أن يكون من الضروري أن يشترك الطرفان في هيئة مادية،أ وكثير. من الصفات المحسوسة [3]

---

[1] ينظر: أحمد حسن الزيّات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٩٦٧، ص ٦٢.

[2] ينظر:عبد القار الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، (د ط)، (ت)، جدة، السعودية ص ١٤٤.

[3] جابر عصفور، الصورة الفنية في الت ا رث النّقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير، بيروت ، لبنان، ط ٢، ١٩٨٣، ص ١٧٢.

بالنظر إلى ديوان ابن الخطيب نراه قد اســـتخدم التشـــبيه، وذلك أنّ المدح يتطلب الصّور الفنية بكثرة ومنها التشبيه، ومن أمثلة تشبيهاته قوله مادحًا:

فكأنهم والمشرفية فوقهم نار القبول أتت على قربان[1]

حيث يصور سيوف ممدوحه، وهي فوق الأعداء مسلولة، فيشبّهها بتلكَ النَّار؛ التي تأتي على ما يُقَدَّمُ لها من قرا بين، وهو تصـــوير بديع من وحي خيال الشـــاعر ويقول أيضًا:

تقي حذا حذو الخلائف واقتدى بهم مثل ماخط الكتاب على الرسم [2]

فقد شـبه الشـاعر ممدوحه، وهو يقتفي آثار الخلفاء الراشـدين، بحالِ من يجري في الكتابة على خطّه له غيره، وهي صورةٌ مستوحاةٌ من جوّ الكُتّاب وتعليم الكتابة.

ونراه يعقد التشبيه بالأداة أحيانًا لرسم صورة بهية لممدوحه، ومن ذلك مَدْحُه لأبي عامر الهنتاتي:

مآثرهم في الدين غير خفية فهم كالنجوم الزاهرات لمهتدي [3]

فقد جعل صـورة قوم الممدوح كالنجوم المضـيئة التي يهتدي بها السّـاري إلى الطريق الصّحيح، وذلك بواسطة أداة التشبيه الكاف.

وقد وظف ابن الخطيب التشـــبيه البليغ في عدة مواطن؛ والذي عدّه علماء البلاغة بأنَّه أعلى مراتب التشبيه، لما فيه من ادّعاء أنّ المشَبَّه هو نفسه المشبَّه هو، ولما فيه أيضا من إيجاز ناشـئ عن حذف الأداة ووجه الشَّبه معًا[4]، ومن أمثلة ذلك قوله في السُّـلطان أبي الحجّاج:

ويا أمير الهدى هنيتها نعما موصولة العد قد جلت عن النعم[5]

---

[1] ابن الخطيب، الديوان، ج٢، ص ٥٧٧

[2] ابن الخطيب، الديوان، ج٢، ص ٥٣١

[3] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ٣١٣

[4] ينظر: عبدالعزيز عتيق، عمم البيان، دار الآفاق العربية، القاهرة، (دط)، ٢٠٠٤، ص ٨٠

[5] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٥٣٢

حيث صـور ممدوحه بأنّه أمير الهدى، واسـتغنى في هذه الصّـورة عن أداة التشـبيه، مشكلا بذلك تشبيها بليغًا، ومن ذلك قوله:

هو السحب جودا والكواكب همة وبدر الدجى وجها وشمس الضحى رأيا [1]

وقوله أيضًا من التشبيه البليغ:

وجهك في الناءبات بدر دجى لنا وفي المحل كفك المطر [2]

ففي البيت الأول جعل ممدوحه كالسُّحب التي تَسِحُّ بالأمطار، وشبَّه وجْه السلطان بالبدر، وأنّه هو الشِّمس لوضوح رأيه، ممثلا بذلك تشبيها بليغًا، أمَّا في البيت الثاني فقد وصف وجو الممدوح بأنّه بدر دجى، وأنّ كفّه كالمطر لا تَخْشَى عطاءً.

يلجأ ابن الخطيب أحيانًا إلى التشبيه الضّمني؛ الذي يُعقد فيه الشَبه بين الطرفين عن طريق التَّلميح دون التصّـريح، فهو تشـبيه مضـمرٌ في النفس[3]، مثال ذلك قوله في حقّ الغني بالله من قصيدة طويلة:

فاذر صغير الأمر ولتحفل به واذا غفلت فإنه يستفحل

فالنار أول ما تكون شرارة والغيث بعد زداده يسترسل [4]

فشـبه ابن الخطيب تلك الأمور الصّـغار؛ التي يتولّد عنها عظائم الأمور، إذا لم يملقَ لها بالاً، وش بَّي ي ا بأوّل المطر وهو الرذاذ ما إنْ يمبث حتى يصـــير مط اً ر ىَ ط الا فالشاعر لم يصرّح بما يؤول إليو الأمر، وليكن لجأ إلى الإيحاء، والتلميح.

ب– الاستعارة:

---

[1] المصدر نفسه، ج٢، ٧٧٦.

[2] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ٤٠٤

[3] ينظر: الأزبر الزنَّاد، دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م، ص ٣٥.

[4] ابن الخطيب، الديوان، ج٢، ص ٥٠٣.

تُعدُّ الاستعارة نوعًا من التعبير الدلالي القائم على المشابهة[1]، ويعرفها السكَّاكِيُّ هي أن تذكر أحد طرفي التشـــبيه وتريد بو الطرف الآخر مدعيًا دخول المشـــبه في " بقوله" جنس المشـبه به دالاً على ذلك بإثباتك لملشـبه ما يخص المشـبه به[2]، والاسـتعارة على نوعين:

١- استعارة تصريحية: وهي ما صُرح فيها بلفظ المشبه هو.

استعارة مكنية: وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوزمه[3]

وابن الخطيب في قصائده المدحية قد استعمل الاستعارة بنوعيها ،والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها قوله في المدح:

وأنتعل الجوزاء عجبا وان غدت تقرط آذان بها وتشنف[4]

"فالشـاعر في هذا البيت قد استخدم الاستعارة ال تَّصـريحية في قوله وأَنْتَعِلُ الجوزاء فحذف المشبه ، وهو الحذاء ،وأبقى على شيء من لوازمه ألا وهو الانتعال".

وأيضًا قوله يمدح شيخه:

كأن لسان الدهر نفث يراعه يترجم عما أضمرته المقادير[5]

حيث جعل ابن الخطيب للدهر لسـانًا فحذف المشبه به وهو الإنسـان، وأبقى على شيء من لوازمه وهو المسان مُشكلاً بذلك استعارة مكنية.

فلا برحت أيامك الغر تقتفي بك الفتح والآمال لاتتوقف[6]

---

[1] ينظر: ابتسام احمد حمدان، الأسس البلاغية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، مراجعة أحمد فرنود، دار القمم – العربي، حلب ، سوريا، ط١، ١٩٩٧م، ص ٢٥٠.

[2] يوسف بن علي السكاكي، مفتاح العموم، تعليق، نعيم زرزور، دار الكتاب العممية، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٧م، ص ٣٦٩.

[3] ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص ١٣٣.

[4] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٦٧١

[5] المصدر نفسه ج١، ص ٤٠٣

[6] المصدر نفسه ج ٢، ص ٦٧٢

فقد حذف الشـــاعرُ المشـــبَّه به وهو "الانســـان"، وترك مايدل عليه ،وهو الاقتفاءُ مشـكّلا بذلك استعارةً مكنية، حيث شـخّص أيام ممدوحه وبثَّ فيها حيويةً وماذاك إلا ليرفع من قدره ويجله.

ج: التشبيه

التشـبيه أحد ألوان البيان في البلاغة العربية، ولذلك تناوله علماء البلاغة واسـتطردوا في شـرح تقسـيماته، وتعمق كثير منهم في رصـد القيم الجمالية له، وبيان مواطن الحسـن منه، ذلك أن التشبيه فن جميل من فنون القول، إذ يدل على دقة ملاحظة الأشياء سواء كـانـت من المـاديات التي تـدرك بالحواس أو من المعنويات، كمـا أنه يعد من أبرز أنواع التصوير اطرادا في كلام البشر عامة المسموع والمقروء على حد سواء قال المبرد رحمه الله: "التشـــبيه جار كثيرا في كلام العرب، حتى لوقال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد "، ومع ذلك فإنه لم يفقد قيمته الفنية الســامية بســبب اطراده وســهوله بنائه، قال القزويني في الإيضـاح:"إعلم أن التشبيه مما اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره في فن البلاغة وأن تعقيـب المعـاني بـه لاســـيمـا قســـم التمثيـل منـه يضـــاعف قواهـا في تحريـك النفوس إلى المقصـــود بهـا مـدحـا كـانـت أو ذمـا أو افتخـارا أو غير ذلـك."

– ويقصد بالتشبية في اللغة التمثيل، قال ابن منظور " :الشبه والشبيه :المثيل، والجمع أشباه وأشبه الشيء الشيء ماثله، وفي المثل: "من أشبه أباه فما ظلم"، وتشابه الشيئان واشتبها،أشبه كل واحد منهما صاحبه والتشبيه التمثيل "، أما في اصطلاح أهل البلاغة: "هو بيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف أو نحوها، وله أربعة أركان :المشـــبه والمشـــبه به ويســـميان طرفي التشـــبيه وأداة التشـــبيه ووجه الشـــبه"،كقولك: "العلم كالنور في الهداية" فالعلم مشـــبه والنور مشـــبه به،والهداية وجه الشبه، والكاف أداة التشبيه.

بعد أن عرفنا أقوال أهل البلاغة في هذا الفن الجميل، نحاول أن نعمل على تطبيق ذلك في نونية أبي البقاء الرندي محاولين حصـــر كل أســـاليب التشـــبيه التي اســـتعملها الشاعر، مع بيان دورها في الكشف عن حالته النفسية .

الصورة	نوعها

"وصار ما كانَ من ملك ومن ملك كما حكى عن خوالي الطيف وسنان"	تشبيه مجمل
"أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأنّ القوم ما كانوا"	تشبيه مجمل
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان	تشبيه بليغ
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبقِ عقبان	تشبيه مجمل
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران	تشبيه مجمل
عليهم من ثياب الذل ألوان تشبيه بليغ	تشبيه بليغ
يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان	تشبيه مجمل
وطفلة مثل حسن الشمس إذا طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان	تشبيه مرسل

-معانى التشبيه في النونية :من خلال دراستنا لتراكيب أبي البقاء الرندي في نونيته، وجدنا أنه قسم قصيدته إلى عدة أجزاء يريد من كل جزء معنى معين كما رأينا مسبقا، وهذا ما نلاحظه أيضا في استعماله لأسلوب التشبيه

ومن تلك المعاني:

١- تسلية للنفس :نلا حظ من خلال الجدول أن من الأدوات الفنية التي وظفها الشاعر في رثائه الأندلس، الصورة التشبيهية الموروثة عن البيئة العربية في عاداتها وتقاليدها وهي

بسيطة قريبة التناول سريعة الفهم واضحة الدلالة، يفسر بها بعض المعطيات، ويوضح بها بعض الحقائق والأحداث حيث في قوله:

"وصار ماكان من مُلكٍ ومن مَلكٍ" "كما حكى عن خيال الطيف وسنان"

شـــبه الملك والملوك بخيال الطيف الذي لا وجود له، وإنما الطيف ما يمر بخيال الإنســان وهو لا حقيقة له، ومن باب أولى لا حقيقة للخيال. ويؤكد التشـبيه بآخر فى قوله:

"أتى على الكل أمر لا مرد له" "حتى قصوا فكأن القوم ماكانوا"

"حيث شبه هؤلاء بعد اندثارهم، بالشيء المعدوم الذى لا أثر له، ليؤكد أن الأمركان عجبا في القضــاء عليهم، وكان يجب على العقلاء أن يسـتوعبوا الدرس، ليحافظوا على بلادهم، وقد رأوا الأقوام أمامهم كأنهم لم يوجدوا".

"وواضح التشبيه في قوله:واعد كن أركان البلاد، فقد شبه الحـــواضر التي سقطت بالأركان لبلاد الأندلس، فكما أن أركان أي شـيء هي أسـسـه، فكذلك هذه الحواضـر هي الأسـس والعمد بالنسـبة إلى بلاد الأندلس، فإذا سـقطت الأركان سـقط كل شـيء بعدها".

"وترجع مزية التشبيه إلى :كونه عنصرا أساسيا في التركيب الجملي والمعنى العام المراد لا يتم إلا به، فالنص لا يقصد إلى التشبيه بوصفه تشبيها فحسب، بل بوصفه خاصية فنية تبنى عليها ضـرورة الصياغة والتركيب فهو وإن كان عنصـراً أسـاسـياً يكسـب النص روعة واســتقامة وتقريبا للفهم، إلا أنه يبدو عنصــر ضــروري لأداء المعنى المراد من جميع الوجوه لأن في التشـبيه تمثيلا للصـورة وإثباتا للخواطر، وتلبية لحاجات النفس وتسـتطيع من خلال التشـبيه تكييف النص الأدبي نحو المعنى المراد، دون توقف لغوي أو معارضــة بيانية، مسيطرا على الموقف من خلال تصورك لما تريد إمضاءه من حديث، أو إثباته من معنى".

٢- استغاثة واستصراخ: "ولإظهار جماليات النص يحلق بنا الشاعر في آفاق الخيال،وعمق المعاني في خصوصيات تمنح الكلام أوصاف غيره فيلجأ إلى التشبيه، حيث قوله":

"يا راكبين عتاق الخيل ضامرة" "كأنها في مجال السبق عقبان"

"فقد شبه الخيل بالنسور في القوة والإنقضاض والسرعة، وعلى القارئ أن يلتقط سر هذاالنسيج، والوصف الدقيق، والخيال الواسع".

وكذلك التشبيه في قوله:

"وحاملين سيوف الهند مرهفة" "كأنها في ظلا النقع نيران"

حيث شبه هيئة السيوف وهي تبرق وسط غبار المعركة الكثيف لامع، بالنار التي تضئ ظلام الليل فتبرز وتتضح.

٣ – حسرة وألم : بعد أن استصرخ الشاعر بأهل المغرب من المجاهدين يذكر لنا ما حصل لأهل الأندلس من ذلة ومهانة من طرف الصليبيين بعد أن كانوا أعزة.

"يا من لذلة قوم بعد عزتهم" أحال حالهم كفر وطغيان

"بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم" "واليوم هم في بلاد الكفر عبدان"

"فلو تراهم حيارى لا دليل لهم" "عليهم من ثياب الذل ألوان"

"ولو رأيت بكاهم عند بيعهم" "لهالك الأمر واستهوتك أحزان"

بحيث يأتي التشبيه فى قوله:

"يا رب أم وطفل حيل بينهما" "كما تفرق أرواح وأبدان"

"ليشبه فرقة الأم عن طفلها، بفرقة الروح عن الجسد، فبعد الطفل عن أمه وبعدها عنه موت لكليهما، وخص الطفل دون الولد أو الابن، لشدة ارتباطه بها كما يرتبط الجسد بالروح، فيكون الجزع أشد، والحزن على الفراق أصعب، وتكون الحاجة للنصرة والنجدة أسرع وكذلك إيثاره" طفلة فى قوله:

وطفلة مثل حسن الشمس إذ برزت كأنما هي ياقوت ومرجان

"فقد شبه الطفلة بالشمس؛ لأنها تبث الدفء لوالديها كما تبث الشمس الدفء للخليقة، ثم يشبهها بالياقوت والمرجان في نفاستها وارتفاع قيمتها، لهذا وجب عليهم أن يكونوا أشد حرصا عليها".

المطلب الثانى :الإستعارة:

"تعتبر الإستعارة من أعظم أدوات رسم الصورة الشعرية، لأنها قادرة على تصوير الأحاسيس الغائرة وانتشالها وتجسيدها تجسيدا يكشف عن ماهيتها وكنهها"، بشكل يجعلنا ننفعل انفعالا عميقا بما تنضوي عليه لذا يرى كثير من النقاد أنها من أهم الوسائل للحكم على شاعرية الشاعر والإستعارة في اللغة من قولهم استعار المال إذا طلبه عارية، وفي اصطلاح البيانيين :هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي، والإستعارة ليست إلا تشبيها مختصرا لكنها أبلغ منه كقولك رأيت أسدا في المعركة، وأصلها رأيت رجلا كالأسد في المعركة فحذفت المشبه "رجلا"، والأداة "الكاف"، ووجه الشبه الشجاعة وألحقته بقرينة المعركة، لتدل على أنك تريد الرجل الشجاع[1] قال عبد القاهر الجرجاني: "اعلم أن الإستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين الوضع، ثم يستعمله الشاعر أو غيره في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية"،[2]ويعتبر البلاغيون هذا النوع من أجمل الصور البيانية لما فيه من التشخيص والتجسيد وبث الحياة والحركة في الجمادات وتصوير المعنويات في صورة حية، قال الجرجاني: "ومن الفضيلة الجامعة فيها، أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا...ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر، وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة ومعها يستحق وصف البراعة، وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حلاها وتقصر عن أن تنازعها مداها،وصادفتها نجوما هي بدرها، وروضا هي زهرها وعرائس ما لم تعرها

---

[1] جواهر البلاغة، ص ٢٥٨

[2] أسرار البلاغة فى علم البيان، ص ٣٠

حليها فهي عواطل، وكواعب ما لم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل.[1]

د- الكناية:

تعريف الكناية:

١-لغة :الكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره،وكنى عن الأمر كناية يعني إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه، وسمى هذا النوع كناية لما فيه من معنى الخفاء، لأن "ك ن ي "كيفما تركبت دارت مع تأدية معنى الخفاء من كنى عن الشئ إذا لم يصرح به ومنه الكنى بالضم وهو أبو فلان وابن فلان وأم فلان.

٢-اصطلاحا :قال الجرجاني: "والمراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيئ إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم كثير الرماد يعنون كثير القرى.."

وسنحاول في هذا المبحث حصر التراكيب التي وضف فيها أبو البقاء أسلوب الكناية من خلال الجدول التالي:

الصورة	نوعها
هي الأمور كما شاهدتها دول	كناية
تلك المصيبة أنست ما تقدمها	كناية
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة	كناية
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كناية
فما يهتز إنسان	كناية
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم	كناية

"تأتى الكناية فى قوله :تلك المصيبة أنست ما تقدمها، لتكشف عن قسوة المصيبة، وشدة وقعها على النفس، وكذلك الكناية عن :رشاقة وقوة الخيل وحسن تدريبها وتهيؤها للقتال، فى قوله: يا راكبين عتاق الخيل ضامرة، والكناية فى قوله :وحاملين سيوف الهند مرهفة، فهى كناية عن فهمهم ووعيهم وحسن تدريبهم على تلك السيوف، والكناية فى

[1] أسرار البلاغة فى علم البيان، ص ٤٠

قوله :فما يهتز إنســـان، تدل على عدم الإســـتجابة وعدم المبالاة بالإســـتغاثة أو مجرد الإنشـــغال بها، وجاءت الكناية فى قوله :فلو تراهم حيارى لا دليل لهم، لتدل على انقيادهم لغيرهم، وشـدة ذلهم، وفى قوله :هي الأمور كما شـاهدتها دول، كناية عن تغير الحال وعدم ثبات الحياة على وتيرة واحدة وجاء تقديم ضمير الشأن (هي) للتخصيص؛ إذ يريد أن يلفت انتباه السـامع لهذا الأمر .ولأن الكناية من نعوت الفصـاحة والبلاغة"، قال عبد القاهر الجرجاني: "قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصـــريح، فنحن نعلم إذا قلت:هو طويل النجاد وهو جم الرماد،كان أبهى لمعناك،وأوقع من التصريح به."[1]

الكناية هي ترك التصّـــريح بذكر الشـــيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك[2]، والناظر لقصـائد ابن الخطيب المدحية يراه قد وظف الصـورة الكنائية بشـكل مقتدر ومن ذلك قوله يمدح السلطان أبي الحجّاج:

ملك عزيز لجار ممنوح الحمى ممنوح منهل الندى مبذوله[3]

فالشاعر يعطي وصفًا لممدوحه بأنَّ الذي يلجأُ إليه لا يلحقه أذىً ، ومن احتمى به فلا سبيلَ لموصول إليه. وتُعد هذه الصّفة من أنبل ما تمدح به العرب:

ومن أمثلة كناياته أيضًا يمدح قوم بني نصر:

الطاعنون الخيل يوم الملتقى والمطعمون إذا عدت الشهباء[4]

فقد مدحهم بالشـجاعة في الحرب، وهو الجود والكرم في العطاء بل وأكثر من ذلك أنّهم يُطعمون ويقرون الأضياف حتى في السَّنوات العجاف.

ومُجملُ القول إنَّ ابن الخطيب قد تفنَّن في الصـورة الفنية أيّما تفنُّنٍ ، ووظّف صُـورهُ سواء التشبيه، أو الاستعارة ،أو الكناية، على حسب المقام الذي يقتضيه القول مستفيدًا

---

[1] دلائل الإعجاز، ص ٧٠

[2] ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي، (دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية)، مطبعة الرسالة، مصر ط ٢، ١٩٥٨، ص ٣٣٢.

[3] ابن الخطيب، الديوان ، ج ٢، ص ٤٧٩

[4] المصدر نفسه: ج١، ص ٩٥.

من الشعراء الذين سبقوه، مستوحيًا صور البيئة الأندلسية لتنسيق ما يستعمله من أساليب فنّية تطرب السامع ، وتشد ذهن الملتقي.وللسان الدين ابن الخطيب قصيدة رائعة في التذكيربالموت وذم الحياة الدنيا،من أشعاره:

يا عامر الترب كم خلفت من كبد ومن فؤادبثاوي الحزن معمور

لو كنت تحمي وتفدي للعلا ابتذرت آلافها بالغنى أو بالقناطير

مشمرين إلى ورد الكريهة ما نالوا العلاء الذي نالوا بتقصير

بنوا الكرام أولو الرايات قاد بهم إلى الوغَى ابن نصير كل منصور

ساقتهم غيرة الايمان فانتدبوا لنصرة الدين كالأسد المهاصير

بعزمِ كل معدى يسايره فتح الجزيرة بين السرج والكور

حُفوا بباطل لذريق بحقهم فابطلوه بإبطال مغاوير

وإنما الموت حكم ليس يدخله نسخ لخلق وعدل دون تحوير

يقضي على الأسد في الآجام حاكمه وفي الكنائس على البيض اليعافير

ويقنص الشهب في شم الجبال كما في الوكر يعتام أفراخ العصافير

أعظِم بآياته من آية عظمت فليس تدرك في حال بتفسير

فسلم الأمر فالأقدار قد نفذت وكل شيء بتقدير وتدبير

ولا الحمام بنقصٍ في المزاج ولا ضُعف الطبيعة من أسباب تدبير

فكم صحيحٍ قضى فيها بلا مرض وكم مريض أقامته لتعمير

كلهم في مدى الأعمار تحسبهم كحالها بين معدود ومقصور

والموت مثل عروضي يقطع من أبياتهم كل موزون ومكسور [1]

ومن الناحية الأسلوبية والإيقاعية استعان الشاعر بأدوات بلاغية تثري أسلوبه وتويه، من ذلك مايطبع المشهد هذا من طباق يعتمد السلبية:

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:١٩٨

- التشمير...التقصير
- السرح...الكور
- باطل...أبطلوه
- عدل...تجوير
- الاسد...البيض اليعافير
- الآجام...الكناس
- صحيح...مرض

إلى غيرذلك من الطباقات الكثيرة فضلاً عن الجناسات والمترادفات،واستعانته بتوشية الخطاب وتوشيحه عن طريق:

ردالعجز على الصدر(البيت الأول والسادس،والثاني العشر)

يضاف إلى ذلك كله التوشيح الداخلي بين نصير/منصور(البيت الرابع)

و "كل شيء بتقدير/وتدبير(البيت الجادي العشر)،وهكذا.

وإذا نظرنا إلى الشعرالزهدي في هذا العصر لاحظنا أن الرندي يعمد في شعره الزهدي على استخدام التشبيه، وذلك للتأثير في القارئ وتقريب،يقول:

والناس اكثرهم مهما بلوتهم أغصان شوك بلا ظل ولاثمر[1]

شـــبه كثرة الناس مع عدم فائدتهم بأغصـــان الشـــوك التي لايرجى منها ظل أوثمرن والجامع عدم الفائدة والنفع بهم.وهو تشبيه بليغ.

وقوله:

"أتى على الكل أمر لا مرد له" "حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا"[2]

---

[1] ديوانه،ص:١٤٣

[2] ديوانه،ص:١٤٤

شبه كل من قضى عليه بالموت أوالهلاك بالشئ الذي لم يكن ولم يوجد أصلا،فلا فائدة ترجى منهم،ولاقيمة لهم، وفي هذا التشبيه تقليل وتحقير لشأن المشبه.
ويقول:

"وصار ما كان من مُلك ومن مَلك" "كما حكى عن خيال الطيف وسنان" [1]

شبه سرعة تبدل احوال الملوك وزوال ملكهم بمن طاف بخياله طبقا سريعا وماهي إلا لحظات حتى انتبه منه.وفي ذلك تقليل من شأن المشبه، فبعد أن كانوا في عز وإجلال آلوا إلى ذهول وهوان،ومن ثم زوال.
فالتشبيه يقرب الصور ويجليها في ذهن المستمع والقارئ وكأنها مائلة امام عينه.

ويلجأ الرندي في شعره الزهدي إلى التشخيص الذي يقوم على الاستعارة ليقرب ويوضح الصورة الذهنية في ذهن المتلقي ويقربها له.

يقول في الصبر على تقلب الدهر:

الدهر لايبقى على حالة لكنه يُقبل أو يدبر [2]

شبه الدهر وتقلب أحواله بالانسان الذي يقبل ويدبر، "وحذف المشبه به،وأتى بشئ من لوازمه وهو الإقبال على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية"، ووجه التشابه بينهما تبدل الأحوال وعدم الاستقرار.
ويقول في وصف الدهر:

وينتضي كل سيف ولو كان ابن ذي يزن وغمدان [3]

---

[1] ديوانه،ص:١١٢
[2] ديوانه،ص:١٤٣
[3] ديوانه،ص:١١٣

شـخص الدهر بوصـفه يشـهر سـيفا للفناء يقاتل به الناس،وحذف المشـبه به وهو الانسان.وجاء بشئ من لوازمه وهو انتضاءالسيف وإشهاره على سبيل الاستعارة المكنية الشخصية.

وقوله:

يا غافلا وله في في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان[1]

شـبه الدهر بالإنسـان الذي لايغمض له جفن، وحذف المشـبه به، وجاء بشـئ من لوازومه على سبيل الاستعارة المكنية التشخيصية.

وكذلك قوله:

"يمزق الدهر حتما كل سابغة" "إذا نبت مشرفيات وخرصان"[2]

شبه الدهر في تقلبه وعدم دوام نعمة السـابغة بالانسـان يمزق كل مالايريده،وحذف المشبه به وجاء بشئ من لوازمه "التمزيق" على سبيل الاستعارة المكنية التشخصية.

أراد الشـاعر في هذه الابيات الثلاثة السـابقة أن يعمق إحسـاس القارئ بالرهبة من الدهر وتقلباته.

فإذن يلحظ أن غالب استعارات الرندي مكنية، إذ يعمد إلى تشخيص كل ماحوله قصدا إلى إيراد المعنى المراد توصيله في صورة قريبة من متلق.

وأحيانايستخدم الرندي فن المقابلة لإبراز صورة التعبير وعدم ثبات الأوضاع في الإنسان والزمان والمكان.يقول:

أيا حسرتي لمشيب أتى ويا حسرتا لشباب رحل[3]

لمشيب أتى، لشباب رحل. بينهما مقابلة.

وقوله:

---

[1] ديوانه،ص:١١٣

[2] ديوانه،ص:١١٢

[3] ديوانه،ص:١٢٤

"هي الأمور كما شاهدتها دول" "من سره زمن ساءته ازمان" [1]

سره زمن، ساءته أزمان. بينهما مقابلة، كما أنه أستدالسرور والإساءة للزمان.

وسنحاول في هذا المبحث تتبع الصور الإستعارية التي وضفها أبو البقاء في نونيته، مبرزين علاقتها في بناء الصورة الشعرية في النونية.

الصورة	نوعها
"وهذه الدار لا تبقي على أحد"	استعارة مكنية
"يمزق الدهر حتما كل سابغة"	استعارة مكنية
دارالزمان على دارا وقاتله	استعارة مكنية
وأم كسرى فما آواه إيوان	استعارة مكنية
"فجائع الدهر أنواع منوعة"	استعارة مكنية
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له	استعارة مكنية
هوى له أحد وأنهد ثهلان	استعارة مكنية
أصابها العين فى الاسلام فامتحنت	استعارة مكنية
تبكي الحنيفية البيضاءُ من أسف	استعارة مكنية
حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ	استعارة مكنية
حتى المنابر ترثي وهي عيدانُ	استعارة مكنية
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم	استعارة مكنية

نلاحظ من خلال الجدول أن شيوع أسلوب الإستعارة،وذلك من أجل تصوير أحاسيسه ومشاعره الملتهبة تجاه ما يجري فى ديار الإسلام في الأندلس، ومن ذلك قوله:

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

يمزق الدهر حتما كل سابغة إذا نبت مشرفيا وخرصان

[1] ديوانه،ص:١١٢

"حيث شبه الدار بالإنسان الذي يتحرك، فيعطي ويترك على سبيل الإستعارة المكنية وكذلك في قوله": "يمزق الدهر حتما كل سابغة" استعارة مكنية أيضا، شخصت الدهر، وجعلته مفترسا يمزق كل نعم أُنعم بها على الإنسان، وقد جعلت الاستعارة القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، إذ صورت المنظر للعين ونقلت الصورة للأذن، وجعلت الأمر المعنوي ملموسا ولا شك أن للإستعارة المكنية هنا أثر كبير في نقل المشهد إلى السامع، والوصول به إلى الغرض لما لها من قدرة فائقة على التصوير الخيالي، ونقله في صورة محسوسة شاهدها المتلقي فتحركت نفسه وانفعلت معها، وفى قوله:

"دار الزمان على دارا وقاتله" "وأم كسرى فما آواه إيوان"

"كأنما الصعب لم يسهل له سبب" "يوماً ولا ملك الدنيا سليمان"

"فجائع الدهر أنواع منوعة" "وللزمان مسرات وأحزان"

"دار الزمان، آواه إيوان، فجائع الدهر"، استعارة مكنية شبه الزمان بالشيء الذي يدور على الناس، والشخص الذي يأوى كذلك الناس وبالشئ الذي يغدر وينقلب على صاحبه وكعادة أبي البقاء في النص إيثاره الأساليب الخيالية، كالاستعارة المكنية في قوله:

"دهى الجزيرة أمر لا عزاء له" "هوى له أحد وأنهد ثهلان"

"حيث شبه الأندلس بإنسان تساقطت وهوت عليه المصائب، ويرفض قبول العزاء، وكذلك في قوله: أصابها العين فامتحنت، فقد جعل الأندلس كالرجل الذي يحسد، كما يلجأ الشاعر إلى الإستعارة المكنية أيضا، في قوله: تبكي "تبكي الحنيفية البيضاء – حتى المحاريب تبكي –حتى المنابر ترثي"، حيث شبه بكاء المسلمين على فراق هذه البلاد، ببكاء المحب لفراق حبيبه وكذلك المحاريب والمنابر على سبيل المبالغة، وإلا فكيف تبكي الجمادات وهذا من روعة أسلوب الإستعارة قال عبد القاهر الجرجاني: "ومن خصائصها: ... التشخيص والتجسيد في المعنويات، وبث الحركة والحياة والنطق في الجماد"، وقال أيضا :"فإنك لترى بها الجمادَحيا ناطقا والأعجم فصيحا والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية".

المجاز.

تعريف المجاز

١-لغة :تقول جزت الطريق وجاز الموضع جوزا وجوازا ومجازا وجازه :سار فيه وسلكه،قال الراجز:

خلو الطريق عن أبي سيارة حتى يجيز سالماً حماره[1]

٢-اصطلاحا:هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة، مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي، والقرينة قد تكون لفظية وقد تكون حالية[2]

الصورة	نوعها	القرينة
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية	مجاز مرسل	محلية
ألا نفوس آبيات لها همم	مجاز مرسل	جزئية
من سره زمن ساءته أزمان	مجاز حكمي	الفاعلية

استخدم الشاعر المجاز الحكمي فى قوله: من سره زمن ساءته أزمان فقد أسند الفعل:(سر) إلى: (زمن)، والفعل(ساءته) إلى (أزمان)والزمن ليس فاعلا للسرور، ولا للإساءة، لكن السرور والإساءة واقعان فيه، وفي ذلك مبالغة في حدوث الفعل، وضرب من التوسع والتفنن في بناء العبارة، ولأن الشاعر أراد أن يعرض المعاني في نسق خيالي، وأسلوب جمالي، لجأ إلى المجاز المرسل في قوله :ألا نفوس آبيات لها همم :فالنفوس ليست وحدها آبيات، بل الإنسان كله ولكنه عبر بالجزء عن الكل لمزيد اختصاصه بالمعنى المطلوب.

---

[1] لسان العرب، ص ٧٢٤، مج ١.

[2] جواهر البلاغة، ص ٢٠١

الفصل الثالث:

ظواهر أسلوبية

أشهر الأساليب الدارجة في زهديات القرنين السابع والثامن

1- أسلوب الأمر:

"نجد هذا الأسلوب في الكثير من أشعارالزهد،ولكن ليس بمعنى سلطوي، بل الأمرالخفيف الذي يحمل معنى النصيحة والإرشاد.وفي ذلك قول لسان الدين ابن الخطيب":

خُذ من حياتك للمات الآتِ وبدار مادام الزمان مواتي

لاتغترر فهو التراب بقيعة قد خودع الماضي به والآتي [1]

"فالأمر في قوله "خذ" خرج إلى الوعظ،وطلب المبادرة،والإسـراع إلى التوبة دون توان أوتراجع".

وكذلك قوله:

قِف بالبقيع ونادِ في عرصاته فلكم بها من خيرةٍ ولدات [2]

وفيه قول الرندي:[3]

دعِ الغرور فما للخلد من سبب ولا قراراً بداراللهو واللعب

يا بانياً للقصور سوف تتركها لمن سيأخذها قسراً بلاتعب

"استخدم الشاعر الأمر الذي هو يمثل السبب والنتيجة حيث جعل المبادرة والإسراع إلى التوبة قبل الممات سبباً لإنقاذالله وعده بقبول التوبة".

ويتوجه الرندي إلى الشباب ويقول أن يفيقوا من سكرهم في هذه الدنيا وملذاتها،فكم من مرء يموت في شبابه:[4]

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:٢٢٤

[2] ديوانه،ج:١،ص:٢٢٤

[3] ديوان أبي البقاء الرندي،دار صادر بيروت، ط:١٩٩٨م،ص:١١٦

[4] ديوانه،ص:١٧٠

يا ابن الشباب أفِق من سكر خمرته كم من فتى فارق الدنيا ولم يشبِ

"الأمر في قوله "أفق" أريد به التحفيز والترغيب في هذه المنافسة الشريفة التي تطمح إلى رضاالله عزوجل".

وقوله: [1]

أرفق على النفس يامعذبها إن دامت الحال سوف تفقدها

وقول مالك ابن المرحل: [2]

فيا ابن الأربعين اركب سفينا من التقوى فقد عمرت حينا

ونح إن كنت من أصحاب نوح لكي تنجو نجاة الأربعينا

وقال ابن خميس:

كن جلس بيتك مهما فتنة ظهرت تخلص بدينك وافعل دائما حسنا

وإن ظلمت فلاتحقد على أحد إن الظغائن فاعلم تنشئ الفتنا [3]

وقوله:

تحفظ من لسانك ليس شيء أحق بسجن من لسان

وكن للصمت ملتزما إذا ما أردت سلامة في ذا الزمان [4]

وقول الفازازي:

خاطِر بنفسك في بحر التقى أنفا إن الشهادة فيه العيش والغرق [5]

---

[1] ديوانه،ص:١٢٨

[2] الإحاطة، ج:٣،ص:٣١٣

[3] تاريخ الأدب الجزائري، محمدعمرو الطمار، المطبوعات الجامعية تلمسان،ط:٢٠٠٢م،ص:١٩٦

[4] نفس المرجع،ن ص

[5] ديوان الفازازي:القصائدالعشريات،المكتبة الشعبية بيروت،ط:١٩٧٨م،ص:٦٨

2- أسلوب النهي:

"هذا الاسلوب استخدمه الشعراء في كثيرمن الأغراض الشعرية خارجين به عن معناه الحقيقي إلى العديد من المعاني الأخرى،ومن ضـــمن هذه الأغراض الزهد الذي حظي باستخدام هذا الاسلوب في طلب الكف عن الكثير من الأمورالمنكرة".

وفيه قول لسان الدين ابن الخطيب:

لاتغترر فهو التراب بقيعة قد خودع الماضي به والآتي

يامن يؤمل واعظاً ومذكراً يوماً ليوقظه من الغفلات [1]

ويوصي الرندي بالابتعاد عن ملذات الدنيا:[2]

لاتلهك الدنيا ولذاتها عن نهي مولاك وأمره

ينصح الرندي على الثقة بالله والتحلي بصفة التفاؤل والابتعاد عن اليأس:[3]

لا تيأسن من المُنى يوماً فكم عسرٍ أتى واليسر في آثاره

وقوله:[4]

ولا تُقصر في اغتنام المُنى فما ليالي الأنس إلا قصارُ

وقوله:[5]

لا تأخذ الجاني بماهو أهله واغفر بجاه المصطفى المختار

وقول مالك ابن المرحل: [6]

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:٢٢٤

[2] ديوانه،ص:١٦٥

[3] ديوانه،ص:١٦٢

[4] ديوانه،ص:١٦٦

[5] ديوانه،ص:١٦٠

[6] الإحاطة،ج:٣،ص:٣١٤

فلاتخدعك أيام تليها ليال واخشها بيضا وجونا

وقال ابن خميس:

وإن ظلمت فلاتحقد على أحد إن الظغائن فاعلم تنشئ الفتنا[1]

وقول الفازازي:

لاتنس صرعة موت سوف تذكرها إذ تغشاك كرب الفزع والعرق

وضجعة ترهب الأرواح فجأتها لو كان يعصمها من فجئها الفرق[2]

3- أسلوب الاستفهام:

استعمل الشعراء أسلوب الاستفهام على غير دلالته الحقيقية في طلب الفهم إلى دلالات مجازية يقتضيها السياق لتوضيح المعنى وجذب السامعين بواسطة أدوات خاصة، لها أثرها في دلالة الكلام على الاستفهام،وفيه قول ابن الخطيب:

هلا اعتبرت وياالها من عبرة بمدافن الآباء والأمات

قِف بالبقيع ونادِ في عرصاته فلكم بها من خيرةٍ ولدات[3]

أراد بالاستفهام هنا التعجب من حال المخاطب حيث أنه حتى الآن مااعتبر بمدافن الآباء والأمهات.

وقوله:

هو الموت للإنسان فصلٌ لحده فكيف نُرجي أن نصاحب مائتا[4]

وقوله:

---

[1] تاريخ الأدب الجزائري، محمدعمرو الطمار، المطبوعات الجامعية تلمسان،ط:٢٠٠٢م،ص:١٩٦

[2] المصدرالسابق،ص:٦٩

[3] ديوانه،ج:١،ص:٢٢٤

[4] ديوانه،ج:١،ص:١٧٧

أما آن للمنبت في سبل الهوى بأن يهتدي يوماً سبيل صواب [1]

جاء الاستفهام هنا للإنكارالتوبيخي.

والرندي في تقليب الدهر وعدم استقراره على حالة واحدة يقول متسائلاً:[2]

أما ترى الدهر ما يُبقي على أحدٍ أين الملوك وما صانوه من الحجبِ

وقوله:[3]

ما أصعب الموت ومابعده لو فكرالإنسان في أمره

وقوله:[4]

"أين الملوك ذوا التيجان في يمن" "وأين منهم أكاليل وتيجانُ"
"وأين ماشاده شدادٌ في إرم" "وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ"
"وأين ما حازه قارون من ذهب" "وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ"
"أتى على الكل أمر لامرد له" "حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا"

وقول مالك ابن المرحل[5]:

بداك الشيب في فوديك رقما فيا أهل الرقيم أتسمعونا
نبات هاج ثم يرى حطاما وهذا اللحظ قد شمل العيونا
هي الدنيا وإن وصلت وبرت فكم قطعت وكم تركت بنينا

وقوله:

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:١٥٥

[2] ديوانه،ص:١١٦

[3] ديوانه،ص:١٦٤

[4] ديوانه،ص:١١٤

[5] الإحاطة،ج:٣،ص:٣١٤

بأي لسان أم بأي طبيب يداوَى عذارٌ من بياض مشيب

بياضٍ كما لاحت كواكب سحرة تُريك طلوعاً مؤذناً بغروب[1]

يحمل هذا الاستفهام دلالة التعجب والتوبيخ.

د. أسلوب الاستفهام: وهو من الإنشاء الطلب[2] ويستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب[3]. ولهذا فقد أكثر الشعراء من استخدام هذا الأسلوب في أغلب أغراضهم الشعرية.

ووجد الشعراء باستخدام أدوات الاستفهام ملاذاً لهم، يستطيعون من خلالهِ أن يعبّروا عن أغراضٍ كثيرة، كالتعجّب والتقرير والإنكار[4]. وجاء استخدام (مَنْ) واضحاً في أشعارهم المدحية ومراثيهم. ومن هذا ما جاء في رثاء ابن الجيّاب لأبي مسعود المحاربيّ حيث يقول:

ومَنْ كعليٍّ ذي الشجاعةِ والرِّضا لإصراخِ مَذْعورٍ وإيواء مَطْرود

ومن كعليٍّ ذي السَّماحةِ والنّدى لإسباغِ إنعام وانجاز مَوْعودِ

ومن كعليٍّ للوزارةِ قائماً عليها بتصْويب عليها وتصْعيدِ

ومن كعليٍّ للإدارةِ سالكاً لها نهجَ تليين مشوبٍ بتشديدِ[5]

(الطويل)

ويكمل الشاعر تكرارهُ لاسم الاستفهام (مَنْ) فهو يرفع من مكانة المرثي علي بن مسعود المحاربي. وخرج الاستفهام في هذه الأبيات إلى درجة التعظيم. ودلّ هذا على صفات عديدة أرادها الشاعر أن تكون ملازمة له، كالشجاعة والكرم والسيادة.

---

[1] الإحاطة، ج:٢،ص:٢٧٣

[2] عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص. :٩٦

[3] الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص. :٩٧

[4] ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب. ص :

[5] ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٤ص. :٥٥

وخرج الاستفهام إلى معنى التعجّب، ووجه خروجهِ، أن السؤال عن السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب، والجهل بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجّب.[1] وهذا يتّفق مع الشعراء في مديحهم، فحرصوا على إظهار ممدوحيهم بصفات لم يستطع الآخرون أن يتّصفوا بها. ومن هذا ما جاء في مدح ابن زمرك للسلطان الغنيّ بالله حيث يقول:

مِنْ أينَ للشمسِ المنيرةِ منطقٌ ببيانهِ دُرُّ الكلام يفصَّلُ

مِنْ أينَ للشمسِ المنيرةِ راحة تسخو إذا بخل الزمانُ المُمْحِلُ

مِن أينَ للبدرِ المنير شمائلٌ تسري بريّاها الصَّبا والشَّمألُ

مِن أينَ للبدرِ المنير مناقبٌ بجهادها تُنضى المطيُّ الزُّلَّلُ [2]

(الكامل)

وجاء تكرار اسم الاستفهام (أين) والمسبوق بحرف الجر، ليؤكد على المبالغة في إظهار الممدوح متفرّداً بهذه الصفات. وإن تكرار أدوات الاستفهام، جعلها قادرةً على نقلِ الانفعالات بصورةٍ بارزة عندنا، مما دفعنا لأن نرسم في خيالاتنا العديد من الصور المتخيَّلة حول هذا الممدوح، كلها تبقى حبيسة في دائرة هذا الأسلوب.

4- أسلوب النداء:

وجدالشعراء في النداء التعبيرالمناسب عن معان عميقة يلتمسون فيها تأدية جانب من أغراضهم في المناجاة أو في التحسر أوالندب أوالدعاء،وشعراءالزهد هذه المرحلة أكثروا من التعبيرفيه، وكان أكثر هذا النداء وروداً في شعرهم بحرف "الياء"،مثل قول لسان الدين ابن الخطيب:

يا عامر الترب كم خلفت من كبد ومن فؤادبثاوي الحزن معمور [3]

---

[1] عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص. :١٠٦

[2] ابن زمرك: الديوان. ص. :١٠٠ – ٩٩ -- – ينظر: المقّري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج. :٢ص. :

[3] ديوانه،ج:١،ص:١٩٨

النداء هنا يُشعر بالحرص على المنادي والخوف عليه.يحمل النداء في طياته الهيبة لهذا الموقف. وقوله:

يامن يؤمل واعظاً ومذكراً يوماً ليوقظه من الغفلات

هلا اعتبرت وياالها من عبرة بمدافن الآباء والأمات [1]

الرندي:

يا غافلاً وله في الدهر موعظة إن كنتَ في سِنة فالدهر يقظانُ [2]

النداء هنا ورد لغرض إظهارالضجر والغضب.

وقوله: [3]

يا قلب صبراً لما تلقى ويا كبدي فإنما خلق الإنسانُ في كبدِ

وقوله: [4]

ويا أخا الشيب ماذا أنت منتظر خذ في الرحيل فقد نوديتَ من كتَبٍ

وقول مالك ابن المرحل: [5]

فيا ابن الأربعين اركب سفينا من التقوى فقد عمرت حينا

ونح إن كنت من أصحاب نوح لكي تنجو نجاة الأربعينا

ب. أسلوب النداء: ويُعتبر من أساليب الإنشاء الطلبي، وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة، ينوب كلّ حرف منها مناب

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:٢٢٤

[2] ديوانه،ص:١٠٩

[3] ديوانه،ص:١٣١

[4] ديوانه،ص:١١٦

[5] الإحاطة، ج:٣،ص:٣١٣

الفعل "أدعو[1]"ولجأ الشعراء إلى تكرار الاسم الممدوح حرصاً منهم على التنويه به، والإشادة بذكرِهِ تفخيماً له في القلوب والأسماع[2]. وظهر هذا في أغراض المدح والفخر بالنسب والاستعطاف. ومن هنا ما جاء في مدح الغني باالله حيث يقول ابن زمرك:

يا ابنَ الإمامِ ابنِ الإمام ابنِ الإما مِ ابنِ الإمام وقَدْرُها لا يُجْهَلُ[3]

فابن زمرك يسعى جاهداً ليؤكد على أصالة الغنيّ باالله وأحقيّته بتولي أمور المسلمين، فلجأ إلى تكرار "ابن الإمام." وجاء التكرار هنا لرفع الشـــأن والمنزلة والتعظيم، والدليل على ذلك، هو أنّه أكد على أنّه ابن إمام، وأبوه ابن إمام وجدّه ابن إمام، وهكذا... ولجأ بعض الشعراء إلى تكرار المنادى وحذف حرف النداء، حيث يقول ابن الخطيب:

مولايَ، مولايَ إن أرضاكَ بذلُ دمي فقد أتيتُ بهِ أسعى عَلى قدمي[4]

(البسيط)

واستخدم الشعراء حرف النداء كثيراً في أشعارهم، ولعلّ (الياء) من أكثرها استخداماً. والمتتبع لأشعار ابن زمرك يجدهُ قد استخدم هذا الحرف أكثر من مئة مرّةٍ. ولجأ أكثرهم إلى تكرارهِ إلى جانب غيرهِ من حروف النداء الأخرى[5].

---

[1] ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ت: مازن المبارك وآخرون. دمشق : ١٩٧٢ص. :٤٨٨.

[2] ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابهِ، ونقدهِ. ج. :٢ص. :٧٤

[3] ابن زمرك: الديوان. ص. :٩٦

يُنظر: المقّري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. ج. :٢ص. :١١٥

ينظر: المقري: نفح الطيب. ج. :٩ص:٦٧

[4] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :٢ص. :٥٥٤

[5] ينظر تكرار حرف النداء)الياء(ديوان ابن زمرك. الصفحات. :١٠٠ – ٦٠ – ٥٠وديوان الملك يوسف الثالث: الصفحات .٤٦وابن خاتمة الأنصاري. ص. :٧٩الكتيبة الكامنة. الصفحات. :٤١،٥٠،١٠٥،١٦٨،١٦٩،٢١٧

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص. :١٣٧،٤٤٢،٤٢٨،٤٢٩،٦١٦

ينظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٣ص. :٨٤،١٩٢الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٤ص :

وهذا ابن الخطيب يبني قصـــيدةً كاملة على تكرار حرف النداء (الياء)، في أثناء خطابٍ يوجههُ إلى ساقطٍ أفرط في الكبر والتباهي حيث يقول:

يا طَلْعةَ الشُّؤم التي مهما بَدَتْ يَئِسَتْ عُفَاةُ النُّجحِ مِنْ أسبابهِ

يا وَقْفَةَ النّاعِي بمَقْتلِ واحدٍ أذكى على الأحشاءِ حَرَّ مُصَابِهِ

يا مَنْ تَشَكَّى عَصْرُهُ مِنْ عارِهِ يا مَنْ تبرَّمَ دَهْرُهُ مِنْ عَابِـهِ

يا مَنْ يَغُصُّ بهِ الزَّمانُ نَدَامةً من كَفّهِ وتراهُ قارِعَ نابِـهِ

يا مَنْ تَجَمَّلَ بالحَرَامِ وإنَّما قَدَرُ الفتى ما كان تحت إهابهِ[1]

واستطاع ابن الخطيب من خلال تكرار هذا الحرف، أن يجعل هذه الصفات الذميمة قريبةً من هذا الشـخص. ولم يكتفِ بتكرار هذا الحرف، بل نراه يقرنه باسـم الاسـتفهام (مَنْ) الذي يسـتخدم للعاقل[2] وكأنّه بهذا يوجّه نصـحاً لبني البشـر جميعاً، لكي يبتعدوا عن هذه الصفات، فهو بهذا يخرج من باب الهجاء إلى النّصح والإرشاد. وهذا يدلّ على شـاعريةٍ تتسـم بالعبقرية والقدرة على اسـتحضـار الصـور وربطها بعضـها ببعض. ولجأ بعض الشعراء إلى تكرار البيت كاملاً، على نحو ما فعل ابن الخطيب حيث يقول:

مُثيرُ رياحِ العزمِ في حَوْمةِ الوَغى ومُخْتطفُ الأبطالِ يومَ نِزالِهِ

مُثيرُ رياحِ العزمِ في حَوْمةِ الوَغى ومُخْتطفُ الأبطالِ يومَ نِزالِهِ[3]

(الطويل)

ومن قولهِ أيضاً:

رحيبةَ ألطافٍ إذا الوَفدُ حَلَّها تكنَّفَهُمْ غَمْرُ النَّوَالِ عَمَيْمُهُ

٢٩٤،١٢٥.

ينظر: المقري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج. :٢ص. :٤٩

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :١ص. :١٣٧

[2] عَدس، محمد: الواضح في قواعد النّحو والصرف. ط. :١عمّان. دار مجدلاوي للنشر. ١٩٩١.ص. :٩٣

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :٢ص. :٤٨٤

رحيبةَ ألطافٍ إذا الوَفدُ حَلَّها تكنَّفَهُمْ غَمْرُ النَّوَالِ عَمَيْمُهُ[1]

(الطويل)

وظهر تكرار الأبيات عند ابن زمرك حيث يقول في باب المديح:

يا فخرَ أندلسٍ وعصمةَ أهلِها يجزيك عنها اللهُ خيرَ جزاءِ[2]

(الكامل)

بالوسيلة، أو ارتباط العلة بالمعلول[3].فهذا الأسلوب يميل إلى الجانب العقلي، الذي يعتمد على أسبابٍ تصل في النهاية إلى نتائج متوقّعة. ونجد أنّ الشعراء يميلون إلى استخدام أدوات الشرط، بغية الإقناع والوصول إلى ما يريدون. وأكثروا من استخدام أداة الشرط "لو" ومن هذا ما جاء في فخر يوسف الثالث حيث يقول:

لو أنّ ما بي بالأفق مِنْ أسفٍ ما لاح نورٌ للأنجم الزُّهرِ

لو أنّ ما بي بالروضِ مِنْ كَلَفٍ ما انتشقتْ منه رائحةُ الزَّهرِ

لو أنّ ما بي بالسحب مِنْ ألمٍ ما أرسلتْ واكِفاً من المطرِ

لو كنتَ تفدي بالمال لابتدرتْ أكفّنا بالهباتِ للبدرِ[4]

(الكامل)

هذه البنية التكرارية بدأت بحرف الشرط غير الجازم (لو). وهو حرف امتناع لامتناع، فجواب الشرط يمتنع لامتناع فعل الشرط. وفعلها لا يمكن أن يكون قد حصل، وبالمحصّلة جوابها لا يتحقق، لذلك لا جدوى منها، فأَراد الشاعر هنا، أن يبيّن شدة

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :٢ص: ٥٥١

[2] ابن زمرك، الديوان. ص. :١٦يُنظر التكرار في الصفحات. :٤١،٩٥،١١٣ينظر تكرار عجز البيت عند ابن زمرك "نصر من الله

وفتح قريب" أزهار الرياض. ج. :٢ص: ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٤

[3] الخطيب، حسام وآخرون: اللغة العربية. ط. :٢حلب: منشورات جامعة حلب. .١٩٨٥ص. :٧٧

[4] يوسف الثالث: الديوان. ص. :٧٨

الألم والأسـف والأعباء، فلو وضـعت على ظواهر الطبيعة لغيّرت في نظامها من شـدّة الهموم المترتبة عليه. فالألفاظ المكرّرة هنا لا تكتسب أهميتها من القيمة العدديّة فحسب، وإنّما من ارتباطها بالحالة الشعورية المسيطرة على الصياغةِ أيضاً، وهي حالة إثبات القوّة له، ونفي الضـعف والخوار، ووضـعهُ في صـدر الصـياغة يضـفي عليهِ أهمية تؤازر أهميتهُ السابقة[1].

وقد يتآلف أسلوب الشرط في تكرارهِ مع أساليب أخرى يلجأ الشاعر إلى تكرارها مجتمعةً على نحو ما جاء عند محمد بن عبد الله بن لب الأمي حيث يقول:

لو أنّ للبدرِ المنيرِ كمالَهُ ما نالَهُ كَسْفٌ ونُكسُ مَحاقِ

لو أنّ للبحرينِ جُودَ يمينهِ أمِنَ السَّفِينُ غوائلَ الإغراقِ

لو أنّ للآباءِ رحمةَ قلبهِ ذابتْ نفوسُهُمْ مِنَ الإشفاقِ[2]

(الكامل)

فقد بدأ بتكرار حرف الشرط (لو)، بأن جعله أساساً للكلام، ثم أتبعه بتكرار آخر جاء من خلال حرف التوكيد "أنّ"، فازداد الكلامُ بذلك قوةً وترابطاً. وظهر إبداع الشـاعر الفنيّ من خلال إدخال تكرارٍ ثالث وهو حرف (اللام.) وكل هذا جاء ضـمن سياق الجملة الإسمية التي سدّت مسد فعل الشرط، واستطاع بتعدد التكرارات أن يضع السـامع في حالةٍ من الشـوق والانفعال والترقّب، لما سـيحدث من نتائج قد تظهر من خلال جواب الشرط. ووجد الشعراء في أسلوب الشرط متنفَّساً، يستطيعون من خلالهِ أن يعبّروا عما يجول في نفوسهم.)فالشرط يتعلق بمجموع الجملة).[3]

وهذا يُظْهِر صدق ما جاء به الشاعر، فهو برهان على شيء سيحصل في المستقبل، أو أنّه حصـل في الماضـي. إنّ المتتبع للأشـعار التي ظهرت في هذا العصـر، يجد أن كثيراً

---

[1] مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. ص. :٨٨

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٢ص. :٣٠٢

[3] أنظر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص. :٥٠

منها اعتمد على أسلوب الشرط[1]. ولهذا فلم يجد ابن زمرك أسلوباً يعبر فيه عن حزنهِ بعد فقدهِ لسلطانه الغنيّ باالله غير هذا الأسلوب، لما فيه من فسحةٍ يستطيع من خلالها أن يأتي بالأدلةِ والبراهين، على أنّ هذا السلطان لم يأتِ مثله في أي زمان ومكان، وفي مقابل هذا، فهو متفائل بأنّ وليّ عهده سيكون عظيماً مثلهُ. يقول:

"لئنْ غَرَبَ البدرُ المنيرُ محمدٌ" "لقد طلعَ البدرُ المكمَّلُ يوسفُ"

"وإنْ رُدَّ سيفُ الملكِ صَوْناَ لِغْمدِهِ" "فقد سُلَّ من غِمدِ الخلافةِ مُرْهفُ"

"وإنْ طوَتِ البُردَ اليماني يدُ البلَى" "فقد نُشِرَ البردُ الجديدُ المُفَوَّفُ"

"وإنْ نضبَ الوادي وجفَّ معينُهُ" "فقد فاض بَحْرٌ بالجواهرِ يقذفُ"

"وإنْ صوّح الرَّوض الذي ينبتُ الغِنى" "فقد أنبتَ الروضُ الذي هو يُخلِفُ"

"وإنْ أقلعت سُحْبُ الحيا وتقشَّعت" "فقد نشأت منها غمائم وُكّفُ"

"وإنْ صدع السَّمْلَ الجميعَ يدُ النَّوَى" "بيوسفَ فخرِ المنتدِي يتألّفُ"

"وإنْ راع قلبَ الدَّينِ نَعْيُ إمامِهِ" "فقد هُزَّ منهُ بالبشارةِ مَعْطِفُ[2]"

(الطويل)

"فابن زمرك في أبياته هذه، يعتمد على أسلوب الشرط، وهو بهذا يقيّد الفعل بالشرط، و"إن" هي حرف شرط للاستقبال، وقد تستخدم للتفاؤ" [3]وهذا بدا واضحاً في الأبيات. فالشاعر يظهر تفاؤلاً من خلال تعزية نفسه بأنَّ هذا السلطان العظيم قد أورث ملكه إلى وليّ عهد عظيم من شأنه أن ينهض بأعباء الدولة:

---

[1] أنظر: تكرار أسلوب الشرط، ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات. :١١٧،٤٧٠،٤٧٥،٤٧٨

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات. :٢٣٥،٢٨٥،٤١٥،٤٥٨،٥٤٤

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :١ص. :١٤٤الإحاطة في أخبار غرناطة. ج :٣.الصفحات:،٣٠٢،١٣١ .٣١٨

ينظر: المقري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج. :١الصفحات. :١١٩،١٤٩

ينظر: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج. :٢ص. :

[2] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص. :٤٤٠

[3] أنظر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص. :١٨٣

التوكيد:

مال الشعراء إلى أسلوب التوكيد وسيلة لتثبيت وتقوية المؤكد وتمكينه في ذهن السامع وقلبه، ويكون الغرض لغرض إزالة ماعلق في نفس المخاطب من شكوك وإماطة ماخالجه من شبهات.

وقد وردالتوكيد في زهديات هذه المرحلة بأنماط متنوعة،منها:

استعمال "إنَّ" التي تفيد توكيد مضمون الجملة،ومن الشاهد على ذلك قول ابن الخطيب:

لا تسل عن رجعتي كيف كانت إن يوم البين يومٌ عصيبُ [1]

واستعمال "إنما"،وفيه قوله:

وإنما الموت حكم ليس يدخله نسخ لخلق وعدل دون تحوير [2]

واستعمال "قد"،يقول ابن الخطيب:

لاتغترر فهو التراب بقيعة قد خودع الماضي به والآتي [3]

وقول الرندي: :[4]

وقد أجهدتُ نفسي في اجتهادي وما إن كل مجتهد مصيب

واستعمال "لام التوكيد"،جاء فيه شعرالرندي:

وللصبر أولى أن يكون رجوعنا إذا لم نكن بالحزن نُرجع فائتا [5]

واستعمال النفي وإلا، قال مالك ابن المرحل[6]:

---

[1] ديوانه،ج:١،ص:١٥٥

[2] ديوانه،ج:١،ص:١٩٨

[3] ديوانه،ج:١،ص:٢٢٤

[4] ديوانه،ص:١٠٩

[5] ديوانه،ج:١،ص:١٧٧

[6] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٥٦

وما الناس إلا كمثل النجوم وما طلع النجم إلا أفل

وما المرء إلا كمثل النبات إلى النقص يرجع مهما اكتمل

إن أبسط قاعدة نستطيع أن نصوغها بالاستقراء ونستفيد منها، هي أنّ التكرار في حقيقتهِ، إلحاحٌ على جهة مهمّةٍ في العبارة. وهذا هو القانون الذي نلمسهُ كامناً في كلّ تكرار يخطر على البال. فالتكرار يسلّط الضوء على نقطةٍ حساسةٍ في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلّم بها، وهو بهذا المعنى، ذو دلالةٍ نفسيّةٍ قيّمة.[1] فهذه الظاهرة ليست حليةً لفظيّة تزيّن النّص، ولا عملاً عشوائياً يأتي به الشاعر كيفما شاء، إذ أن اللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام. والتكرار هو ذكر الشيء مرتين فصاعداً. ولهذا نستطيع أن نضع ولم يعارض البلاغيون العرب التكرار، وعدّوه نوعاً من أنواع التأكيد. "فمن سنن العرب التكرير والإعادة، والغرض منه إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر."[2] ومن البلاغيين مَنْ عاب التكرار إذا وقع في اللفظ والمعنى، "لأنّه يقعُ في الألفاظ دون المعاني، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينهِ"[3].

ويرى الجاحظ أن التكرار لا يجوز أن يستخدم إلا عند الضرورة والحاجة، وهذه الحاجة تكون ضمن دائرة المعنى الذي نريده، فلا يخرج إلى العبث. "فالتكرار لا يكون زيادة ما دام الحكمه كتقرير المعنى، أو خطاب السَّاهي، كما أن ترداد الألفاظ ليس بعيّ ما لم يجاوز مقدار الحاجة[4]" والتكرار يأتي لأغراضٍ كثيرةٍ، منها إبراز المعنى وتقريرهِ في النفس واستمالة المخاطب، فهو من ضمن الإيقاع الداخلي للنص على مستوى

---

[1] الملائكة، نازك: قضايا الشعر المعاصر. ط. :٩بيروت: دار العلم للملايين .١٩٩٦ص. :٢٧٦

[2] أنظر: السيوطي، عبد الرحمن: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ج. :٢ضبط وتصحيح: محمد أحمد جاد المولى. بيروت: دار إحياء الكتب العربية. .٣٣٢: ص

[3] أنظر: ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقدهِ. ج. :٢ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط : .٣ مصر: المكتبة التجارية الكبرى. .١٩٦٤ص. :٧٤

[4] أنظر: البيان والتبيين. ج. :٣ت: عبد السلام هارون. ط. :٣القاهرة: مكتبة الخانجي، .١٩٦٨ص. :٣١٤ينظر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ت: محمد عبد المنعم خفاجي. ط. :٤بيروت: لبنان: دار الكتاب اللبناني. .١٩٧٥

البيت أو الأبيات، وهذا التكرارينجح في كسر رتابة الإيقاع الخارجي، مما يجعل القصيدة "سيمفونيةٍ" متعددة الألحان[1].

أ. الاسم الموصول: إن تكرار الاسم الموصول ينقل السّامع إلى ما يدور في نفس الشاعر[2]،فقد استطاع الشعراء من خلال الاسم الموصول "ما" أن يعبّروا عن معاني الكمال التي يريدونها، ومن هذا قول ابن خاتمة في وصف مالقة.

ما شِئْتَ مِنْ حُسْنٍ ومن حَسَنٍ ما شِئْتَ مِنْ شمس ومن بدرِ

ما رمتَ مِنْ أمنٍ ومن أملٍ ما رمتَ مِنْ بُشَرٍ ومن بشْرِ[3]

(الكامل)

فقد لجأ الشاعر في هذه الأبيات إلى تكرار الاسم الموصول "ما." ولكن هذا التكرار لم يكن في "ما" وحدها، بل لجأ إلى استخدام التركيب الفعلي الذي ظهر من خلال قوله "ما شـــئتَ، مارمتَ." وهذا دفع السّـــامع لكي يجول في خياله راسماً لوحة فنيّة جميلة، تتكون من كل معاني الجمال التي تآلفت فيما بينها لكي ترســـم معالم هذه المدينة التي أرادها الشاعر أن تكون أجمل المدن. "وبهذا فقد استطاع من خلال استخدامه للاسم الموصول أن يعلمَ بشيء لم يكن عندهُ[4]"

---

[1] عتيق، عمر: دراسة أسلوبية في شعر الأخطل. رسالة جامعية: نابلس: منشورات جامعة النجاح الوطنية . ٢٠٠٠.ص. :٥٥

[2] الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص. :٥٥

[3] ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص. :١٢٠

[4] أنظر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ت: الدكتور فايز الداية ومحمد رضوان الداية. ط. :٢دمشق: مكتبة سعد الدين. ١٩٨٧. ٢٠٤: ص

ينظر: تكرار الاسم الموصول: ابن زمرك، محمد: الديوان. ص. :٣٢٧،٣٥٤،٤٦٠ابن خاتمة الأنصاري، جعفر: الديوان. ص:،٣٩،١٥٣.١٥٧،٢٠٤

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص. :٢١٥،٢٢٥،٣٣٧،٣٣٩،٤٤٣،٦٠٠،٦١٦،٦٢٠،٧٠٧ابن الخطيب، لسان الدين: -- الإحاطة. ج. :٣ص. :٢١٤،٣٥٠ينظر: المقرّي، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج. :٢ص. :

وظهرت هذه الصورة عند ابن زمرك، وهو يستعطف السلطان أبا الحجاج، ونرى أنّه لجأ إلى استخدام الاسم الموصول "ما" ليدلّ على حاجتهِ التي يريدها، وأدخل عليهِ حرف الجر "الباء" الذي يفيد الاستعانة. حيثُ يقول:

بما قَدْ حُزتَ مِن كرمِ الخلالِ بما أدركْتَ من رتبِ الجلالِ

بما خُوِّلْتَ من دينٍ ودنيا بما قد حُزتَ من شرفِ الجمالِ

بما أوْليتَ من صنعٍ جميلٍ يُطَابقُ لفظُهُ معنى الكَمَالِ

تغَمدْني بفضلِكَ واغتفرها ذنوباً في الفِعَال وفي المقالِ[1]

(الوافر)

"فالشاعر اعتمد في استعطافهِ على مقدمات بدأها بـ "ما." وجاءت النتيجة بعدها، لتظهر في قوله: "تغمدني." والشعراء في التركيب الوصلي يتحركون بين نقطتين هما: الاسم الموصول وجملة الصلة".[2]

المبحث الثاني: التقديم والتأخير

"إن الجملة العربية تخضع لترتيب ينظّم تتابع أجزائها في الهيكل الأساسي للبناء اللغوي النحوي، ومن ثمّ تستكمل عناصر أخرى يتمّ بها التعبير ونقلُ الآراء والانفعالات، فهناك التركيب الاسمي، وفيهِ يتقدم المبتدأ على الخبر. والتركيب الفعلي الذي يبدأ بالفعل والفاعل وبعده المفعول به"[3].

---

[1] ابن زمرك: الديوان. ص. :١٠٥

[2] الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص. :٥٤

[3] الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص. :٧٦

وليس من الممكن النطق بأجزاء أي كلامٍ دفعةً واحدة، من أجل هذا، كان لا بدّ عند النّطق بالكلام من تقديم بعضهِ وتأخير بعضهِ الآخر. (والتقديم لا يرد اعتباطاً في نظم الكلام وإنّما يكون مقصوداً بما يلبي الحاجة وهذا هو سرّ التقديم[1])

فالأهميّة تلعب دورا فاعلا في بيان رغبة الشعراء في التقديم والتأخير، فالمتقدّم يخالف المألوف وهو مجيئه متأخرا، والمتأخّر في مقابل ذلك يأتي متقدما للسبب المذكور، وكأنّه يضع السّامع في بؤرة التركيز على هذا المتقدّم ومن أساليب التقديم الشائعة ما جاء في باب تقديم المجرورات، والتي تعين الشاعر في تعبيره عما يبغي إيصاله، ومن هذا ما جاء في مخاطبة ابن الخطيب للوزير ابن الحكيم حيث يقول

في سبيل الإلاهِ مجدٌ تواترث كريمَ الإصدار والإيرادِ
في سبيلِ الإلاهِ أخلاقُك اللا تي هِي العَذبُ في احتدامِ الجُوَادِ[2]
في سبيل الإلاهِ علمٌ تُروِّيهِ ونقْلٌ مصحَّحُ الإسنادِ
لي ثناءٌ كما علمتَ هو الوَشْيُ وصنعاءُ في فمي وفؤادي[3]

(الخفيف)

فابن الخطيب يلجأ إلى تقديم شبه الجملة وهي الخبر على المبتدأ، وهذا التقديم جاء ليرفع من مكانة ابن الحكيم، حيث إنّه جعل حياتهِ كلّها مكرّسةً الله. فنراه يقدّم قوله (في سبيل الإلاهِ) ليؤكد على هذا الأمر، وهو بهذا فقد قصر الصفة على الموصوف. فالمجد والخلق والعلم، كلّها أمور تآلفت لتصل إلى تحقيق هذا الهدف. ويعود ابن الخطيب في نهاية الكلام ليؤكد على ثنائهِ على هذا الشخص من خلال الأسلوب نفسه .

---

[1] أنظر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص. :١٣٥
ينظر: عبّاس، فضل: إعجاز القرآن. ط. :٢الأردن: منشورات جامعة القدس المفتوحة. .١٩٧٧ص. :١٩٦
ينظر: عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص. :١٤٩

[2] الجُوَاد: شدة الحرّ

[3] ابن الخطيب، لسان الدين. الديوان. ج. :١ص. :٢٩٦

إنّ أهميّةَ أمرٍ، أو شـــخوصٍ أو انفعال، تلعب الدور الأســـاســـي في التقديم. وهذه الأهميّة مرتبطة بالسّـياق وتوجّهه، ونقصـد هنا ما يشـغل الشـاعر من قضـايا ومواقف وانفعالات. إنّ تقدّمَ المفعول به يحدّد نقطة الاهتمام التي سـوف ينصـبّ التركيز عليها. وهنا يوجه السَّامع كلّ تركيزه لكي يوضع في دائرة المفعول به. يقول ابن خاتمة الأنصاري مغرياً بالصمت:

لسانَكَ اسْجُنْ ولْتُطِلْ حَبْسَهُ إن شئتَ إكراماً وتصوينا

لو لم يكنْ للسِّجنِ أهلاً لما غدا بقعْرِ الفم مَسْجونا[1]

(السريع)

فالشـــاعر لجأ إلى تقديم المفعول به على الفعل والفاعل؛ لأن الإنســـان إذا أراد أن يحفظ كرامته وهيبته بين الناس، فلا بدّ له من أن يحافظ على كلامه، وهذا لا يتأتى له إلا من خلال ضـبط لسـانه ومن هذا ما ظهر عند ابن زمرك، فهو يقدّم ممدوحه ليظهره بصفاتٍ جعلها متأصلةً فيه، فالغني بالله سلطان فان الجميع بأفعاله التي عجز عن فعلها سائر الملوك، يقول:

نشَرَتْ مَحمِدَكَ الرِّفاقُ فأَصبحتْ تُطوَى بها الأنجادُ والأغوارُ

علمت مُلوكُ الأرض أنّك فخرُها فلها ما تبتغيه بـدارُ

ناجتْكَ قاصيةُ البلاد بشـكرِها وأتي رسُولُك بالذي تختارُ

وافتْكَ من مِصْرَ الهَدَايا تمتري مِنكَ القَبُول ونعمَ ما تمتارُ

خطبَتْ نوَالكَ بالثنا أعـلامُها فأَتتْكَ منها الكتبُ والأشعارُ[2]

(الكامل)

فابن زمرك يلجأ إلى تقديم المفعول به على الفاعل، ســـعياً منه للتأكيد على ما جاء به من صفاتٍ وأفعال تتعلق بهذا السلطان دون غيرهِ

---

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص:

[2] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص

التضمين والاقتباس :

المعجم الديني: (القرآن والحديث النّبوي)

"إن الدارس للشعر الأندلسي يمحظ بشكل جلي أن القرآن الكريم كان مصدراً أساسًيا من المصادر التي عكف عليها شعراء الأندلس"، ورافدا مهما في ثقافتهم، وليس هذا غريًبا؛ لأن الشعر الأندلسي لا ينفصل عن التّقاليد الموروثة للشعر العربي عمومًا فهو يجري في الاتجاه نفسه، ويشيح فيه هذا التّيار الذي يصل الماضي بالحاضر.[1] (وتمثّل تأثّرهم الذي لو حظ كبير في أشعارهم بتضمين الآيات القرآنية حيًنا والاكتفاء بمعناها مع تصرف في اللفظ حيًنا آخر، وهو مظهر من مظاهر التَّأثر بالُّروح القرآني[2]) كما أنّه اتَّخذوه وسيلة لتجميل الشعر وتحسينه، يشير ابن سهل الاشبيلي إلى ذلك بقوله:

كالبيت كان من القصيدة بيتها وازداد حسنا حين جاء مضمنا[3]

وكان لسان الّدين من الشعراء الذين قرؤوا وتَعمَّموا في صباهم القرآن ، وعلومه من حديث وفقه، وغير ذلك من علوم الدين، لذا فلا عجب أن نجد ديوانه يحفل بكم هائِل من الموروث الديني، وخاصة قصائده المدحيّة التي ضمنها تراكيب من القرآن، وأخرى من الحديث النّبوي الشريف، و قد سارعلى نمطين، إّ ما تضميًنا بشكل مباشر، أوغير مباشر، وتعددت تضميناته، حيث يوظف مخزونه الديني سواء كان ذلك المخزون قرآنا أوحديثا نبويا على حسب مايقتضيه الموقف، ونورد على ذلك أمثلة منها قوله في مدح السلطان أبي الحجاج يوسف:

---

[1] ينظر: محمد شهاب العاني، أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي (من الفتح وحتى سقوط الخلافة) دار الشؤون العامة، بغداد، العراق، ط ١، ٢٠٠٢، ص ١٤.

[2] محمد بن لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس اليجري،مذكرة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي،اشراف ربعي بن سلامة، تخصص أدب عربي قديم ،كمية الآداب واللغات ،قسم اللغة العربية وآدابها،جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٤، ٢٠٠٥، ص ٢٣٣.

[3] ينظر: فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص ٤١.

ونادى لسان الفتح في عرصاتهم كذلك مكنا ليوسف في الأرض[1]

فنرى أن الشطر الثاني من البيت مأخوذ من قوله تعالى: "كَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ"[2] وهي من الموافقات التي خدمت ابن الخطيب، حيث شبَّه السُّلطان يوسف باسم **سيدنا يوسف عليه السلام**، ليّجل بذلك السُّلطان.

وفي أبهات أخرى نراه قد ضمن آية في شطر البيت الثاني فيقول:

لو بدا للحور يوما وجهه قلن جل الله ماهذا بشرا[3]

وذلك ليزيد من رفعة ممدوحه، فقد وظف قوله ماهذا بشرا، ليصفه بأوصاف الملائكة من الحسن والجمال مستوحيا تعبيره من قوله تعالى:" وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ"[4]، وقال قصيدة يمدح بها الغني بالله قصَّة سيدنا **سليمان عليه السلام** مع الجن، وما اختصَّه الله بالملك العظيم الذي آتاه الله له، ولم يؤته لأحد من العالمين فيذكر القصة بتمامها، إلاَّ أنَّه يُغيِّر في لفظها ليوافق المقام:

أن خصك الرحمان جل جلاله بمعجزة منسوبة لسليمان

أمار على كرسيه بعض جنه فألقت له الدنيا مقالد إذعان

فلما رآها فتنة خر ساجدا وقال إلهي أمنن علي بغفران

وهب لي ملكا بعدها ليس ينبغي تقلده بعدي لا إنس ولا جان

فآتاه لما أن أجاب دعاءه من العز مالم يؤت يوما لإنسان 5

---

[1] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٦٣٨

[2] سورة يوسف، الآية ٢١

[3] ابن الخطيب، الديوان ٣٩٣

[4] سورة يوسف، الآية ٣١

[5] ابن الخطيب، الديوان ج ٢ ص ٥٩٨

وهو في هذا يشير إلى قوله تعالى:" وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيۖ إِنَّكَ ...."[1]

ونراه في قصيدة أخرى يهنئ السلطان أبا الحجاج يُضمنها جزء من آية فيقول:

والله ما تغنى وما تنفع الرقى وهاروتها في عقدة السحر نافث [2]

فقد استمد كلمة "هاروت" من قوله تعالى "وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ "[3]

أما الصيغ غير مباشرة للتضمين، والاقتباس من القرآن، فنجدها بكثرة في شعره، وهو غالب في المدح، فيه يأتي بالآية، ويغيّر في التّركيب لتوافق والموقف الذي استحضرها من أجله فمثلاً قوله:

وهل منة ترضي إذا كلت القوى وبان اشتعال الرأس أو وهن العظم[4]

فقد أخذها من قوله تعالى:" قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا"[5] حيث اعتمد على التقديم، والتأخير لتتوافق مع التركيب الشعري.

إلى جانب اقتباس ابن الخطيب من القرآن الكريم فيه كذلك يستوحي من الحديث النبوي استيحاء واعياً، نابعاً من اهتمامه الكبير به، فمثلا قوله:

ظللتها من الجفون سيوف جنة الخلد تحت ظلال السيوف [6]

فهو يشير إلى حديثه ﷺ: "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"[7] ويقول مضمناً حديثاً في الشطر الثاني:

---

[1] سورة ص، الآية ٣٤.

[2] ابن الخطيب، الديوان ج ١، ص ١٨٩.

[3] سورة البقرة، الآية ١٠٢

[4] ابن الخطيب، الديوان ج ٢، ص ٥٤٧.

[5] سورة مريم، الآية ٤.

[6] ابن الخطيب، الديوان ج ٢، ص ٦٨١

[7] عبد الله بن أبي شيبة ، المصنَّف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض السعودية، ط ١، ١٤٠٩ هـ، ج٤، ص ٢٢٤.

ولى في دعائك ظن جميل وكل اِمرئ فله ما نوى[1]

فيه إشارة إلى حديثه ﷺ إذيقول "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"[2] ويقول أيضا مضمّنا لحديث نبوي:

مطل الغنى ظلم ففيم ظلمتنى ولويت دينى عن وجود يسار [3]

هو بذلك يشير بقوله : مطل الغني ظُلم، إلى الحديث الشريف: "مطل الغني ظلم، وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع[4]" والَمطل: منع قضاء ما يستحق أداؤُهُ. من خلال هذه الأمثلة التي أوردناها حول تضمين ابن الخطيب قصائده من القرآن، والحديث النبوي، يظهر مدى تأثره الكبير بهما، حيث لا تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة في ديوانه من أثر المعاني الدينية، وهذا يرجع إلى البيئة الأندلسية التي نشأ فيها فهي بيئة اسلامية، تنهل من معين لا ينضب، ذلك المعين هو القرآن والحديث النبوي الشريف.

لقد عَرف شعراء بني الأحمر التضمين كغيرهم من شعراء الأندلس والشعراء المشارقة، ويرجع هذا إلى عامل التأثر والتأثير بين الشعراء أنفسهم. وعلاوة على هذا فقد لجأ إليه بعضهم من باب الإعجاب بكبار الشعراء أمثال المتنبي وأبي تمّام وغيرهم من كبار شعراء المشرق والأندلس والتضمين: هو أن يضمّن الشاعر كلامه شيئاً من مشهور شعر غيره مع التنبيه عليه إن لم يكن الشاعر مشهوراً،[5] فإن كان معروفاً فلا يشترط التنبيه[6]"وأحسن وجوه التضمين ما دَخلَهُ التورية والتشبيه".[7]

---

[1] ابن الخطيب، الديوان ج ٢، ص ٧٦٠.

[2] محمد ابن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، دمشق، سوريا ط١، ١٤٢٢ هـ، ج١، ص٦.

[3] ابن الخطيب، الديوان ج ١، ص ٣٦٨.

[4] مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (د ت) (د ط)، ج٣، ص ١١٩٧.

[5] ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ج. :٢ص. :٨٤

[6] الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص. :٥٨٠

[7] أنظر: الخطيب القزويني، جمال الدين: المصدر السابق. ص. :٥٨٢

وجاء التضـمين واضـحاً في أشـعارهم، وربّما يكون المتنبي من الشـعراء الذين أثّروا في أشـعار هذا العصـر، لما لهِ من عبقريّة أُعجب بها كبار شـعرائهم أمثال: ابن زمرك، وابن الخطيب، وابن خاتمة الأنصـــاري، وغيرهم... والملاحظ في تضـــمينهم هو ذكر البيت صريحاً دون تغيير عليه، وإن حدث هذا يكون طفيفاً محتفظاً بإيقاعِ موسيقيّ ثابتٍ. ومن ذلك ما جاء عند ابن الخطيب في أبياته حيث يقول:

ومحتملُ الرَّكْبـان طيبَ حَديثهِ "فيأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ[1]

(الطويل)

وهذا البيت ضَمَّنهُ من قول طرفة بن العبد حيث يقول:

ستبدي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبـارِ مَنْ لم تُزَوِّد [2]

(الطويل)

ونرى أن شـــاعراً كبيراً كابن الخطيب لم يأخذ من شـــعراء غير معروفين، ولهذا فكلُّ الذين تأثّر بهم، هم من الشـــعراء الكبار وإن كانوا من النســـاء، فقد تأثر ببعض أبياته بالخنساء حيث يقول:

هيهات يَجْحدُ فضْلَ مَجْدِكَ جاحِدٌ إنّ العُلا عَلَمٌ وفَخْرُكَ نارُهُ[3]

وهذا البيت مأخوذ من قول الخنساء:

"وإنّ صـخراً لتأتمُ الهداةُ بهِ" "كأنّهُ علمٌ في رأسـهِ نارُ" [4]

(الكامل)

وابن خاتمة يعاتب محبوبته التي تمكّنت من قلبهِ، ولكنّها تُعرِض عنه زيادةً في

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :١ص. :٣١٢

[2] طرفة بن العبد: الديوان. ت: فوزي عطوي. بيروت: دار صعب. .١٩٨٠ص:

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :١ص. :٣٧٣

[4] الخنساء: الديوان. بيروت: منشورات دار الحياة. ص.:٥١

تعذيبه، وهو لا يغيب عن ذهنهِ أن يصوّر حاله بحال المتنبي الذي أحبّ سيف الدولة، ولكنّه لم يرع هذه المحبة. يقول ابن خاتمة الأنصاري مصوراً هذا:

أنتِ الأميرُ وأنتِ خصمي فاحكمي لي أو عليَّ فلن أُسائِلْ: ذا لِمَهْ ؟ [1]

(الكامل)

ونرى معنى هذا البيت مأخوذ من قول المتنبي حيث يقول:

يا أعدلَ الناسِ إلا في مُعَاملتي فيكَ الخصَامُ وأنتَ الخصمُ والحَكَمُ [2]

(البسيط)

فالتضـــمين لم يقتصـــر على أشـــعار البعضِ منهم دون الآخر، بل ظهر عند جميع شعرائهم [3]فهو ظاهرة عامّة نلحظ فيها احتراماً كان يبديه هؤلاء لمن سبقوهم من شعراء المشرق وغيرهم.

وقد ضمّنوا أشعارهم الكثير من الأمثال، وساقوها تحقيقاً لغاياتٍ في نفوسهم، فالمثِل يعطي الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ، ولذلك جاءت الأبيات متناســـقة مع مضمون القصيدة، ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب حيث يقول:

مَنْ كعمرو مُضْني البرَاجِمْ والمُدْ نِ وَقَدْ أُلقِحَتْ حُرُبُ الشَدادِ [4]

(الخفيف)

---

[1] ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص. :١١٢

[2] المتنبي، أبو الطيّب: الديوان. ص:

[3] ينظر التضمين في: ابن الخطيب: الديوان. ج. :٢فهرس التضمينات والاقتباسات الشعرية. ص. :٨٢٠ – ٨١٩

ينظر: ابن خاتمة الأنصاري: الديوان: الصفحات. :١٥٦ – ١٢١ – ١١٢ – ١٠٨- ١٠٠ – ٩٩ – ٩٧

ينظر: نثير فرائد الجمان، الصفحات، .٣١٧ – ٣١٦

ينظر: ابن الخطيب: نفاضة الجراب. ص. :٣٦٠

ينظر: ابن زمرك: الديوان: فهرس أشعار سائر الشعراء. ص. :١٩٤

ينظر: يوسف الثالث: الديوان. ص. :١٠٩ – ٦٢ – ٦١ – ٤٦ – ٣٩

[4] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :١ص. :٣٩٥

والبراجمُ: هم قومٌ من تميم. وفي المثل "إنّ الشـقيَّ وافدُ البراجم[1]"ويضـرب لمن يوقع نفسـه في هلكةٍ طمعاً. ومن الذين ضـمّنوا أبياتهم بعض الأمثال، ابن خاتمة الأنصـاري، حيث يقول في حفظ اللّسان والحضّ على صونهِ:

لسانك كالسيف في شكلهِ وأعدى من السّيفِ في سطوتهِ

فاغمـد ظُباهُ فقد يُتّقى على حامِلِ السّـيفِ من شفرتهِ[2]

(المتقارب)

فقد ضـمّن أبياته المثل الذي يقول: "مقتلُ الرّجل بين فّكيهِ[3]." ولذلك نرى أن تضـمين الأشعار بالعديد من الأمثال، قد جاء من أجلِ تدعيم مقولة الشـاعر وما يؤمن به.[4]

أمّا الاقتباس: "فهو تضـمين النثر أو الشّـعر شـيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشـريف من غير دلاله على أنّه منهما، ويجوز أن يغيّر في الأثر المقتبس قليلاً.[5]" ونحن نظنّ أن سـبب إطلاق هذه التسـمية على هذا النوع من المحسـنات اللفظية، راجعٌ إلى قداسةِ المقتبس منه وهو القرآن الكريم والحديث الشريف. "فالقبسُ شعلةٌ من نارٍ تقتبس

---

[1] العسكري، أبو هلال: كتاب جمهرة الأمثال. ج. :١ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. :٢بيروت: دار الفكر . ١٩٨٨ص. :١٢١.

[2] بن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص. :١٥٩

[3] العسكري، أبو هلال: كتاب جمهرة الأمثال. ج. :٢

[4] ينظر: تضمين الأمثال في: ابن الخطيب: الديوان. ج. :٢ص. :٨٢٢ – ٨٢١

ينظر: ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص. :١٦٥ – ٤١

ينظر: يوسف الثالث: الديوان. ص. :١٢٩٩ – ١٢٨

ينظر: أزهار الرياض. ج. :٢ص. :٥١ – ١٨الكتيبة الكامنة: ص. :١٨١ – ١٧٨ – ٩٤

[5] الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص. :٥٧٥

ينظر: الجارم، علي وآخرون: البلاغة الواضحة. ط. :٢١مصر: دار المعارف. .١٩٦٩ص. :٢٧٠

من معظم النّار بقصـــدِ الهداية[1]" ومنهم مَنْ ذهب إلى القول: "إنّ الاقتباس يجب أن يحصلَ دون شعور المقتبِس، فإن شعر باقتباسه، فلا يكون اقتباساً، بل استشهاداً[2]."

وفي الاقتباس تكون الصـــلة بين المعنى اللغوي والمعنى البلاغي ظاهرة؛ "لأنَّ المقتبِس مستفيدٌ بما اقتبسَهُ[3]"

فالأصــل في الاقتباس: هو تقوية النّص وتوضـيح المعنى، إذا ما عدنا إلى بدايات بني الأحمر وجدناهم حريصـين على إرجاع نسـبهم إلى أنصـار الرسـول الكريم، لهذا نرى أن كثيراً من شـــعرائهم قد تنبّه إلى هذه القضـــيّة، فحاولوا أن يظهروا لهم بأنهم على معرفةٍ بكتاب الله وسـنّته، فجاء إكثارهم للاقتباس من القرآن والحديث الشـريف، وظهر هذا واضـحاً في المدائح النبوية التي كانوا يلقونها أمام سـلاطينهم. ومن هذا ما جاء عند ابن الخطيب في مدح رسول الله حيث يقول:

كدَحتَ إلى رَبِّ الجمالِ مُلاقياً "فيا أيُّها الإنسـانُ إنّك كادحٌ[4]"

(الطويل)

فابن الخطيب أراد أن يظهر المعاناة التي واجهها الرســـول الكريم في بدايةِ دعوته، فجاء بالفعل "كدح" وهو الإجهاد في العمل، ثم اقتبس الآية الكريمة "يا أيّها الإنســـان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه[5]"ليرسّـــخ من حجم المعاناة في أذهاننا، وجاء اســـم الفاعل الذي يدلُ على الفعل ومَنْ قام به، مرتبطاً بالفعل "كَدَحَ." فالاقتباس ظهر في كثير من أشـعارهم، فاسـتعانوا به على مخاطبة الآخرين في معظم قضـاياهم التي تمرّ بهم،

---

[1] الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. ٧٢٧.

[2] قيّود، بسيوني: علم البديع، دراسة تاريخيّة وفنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع. ص. :٢٦٨

ينظر: العلي، فيصل: البلاغة الميّسرة في المعاني والبيان والبديع. ص. :٢٢١

ينظر: معطي، يحيى: البديع في علم البديع. ص. :

[3] المطعني، عبد العظيم: البديع من المعنى والألفاظ. ص. :١٩٥

ينظر: الصابوني، محمد: الموجز في البلاغة العربية والعروض. ط. :١بيروت: المكتبة العصرية. ١٩٩٨.ص. :٨٤

[4] بن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :١ص. :٢٢٥

[5] القرآن الكريم: سورة الانشقاق. آية. ٦

ومن هذا ما جاء عند أبي القاســـم الخضـــر بن أحمد بن أبي العافية، في وصـــفهِ للفقر والغنى، حيث يقول مخاطباً زوجتهُ:

وهُـزّي إليكِ بجذْعِ الرّضى تُسـاقِط عليكِ الأماني ثماراً[1]

(المتقارب)

ويظهر أن زوجته لم تكن قانعةً بالحياةِ معه، ولهذا فهو يحثُّها على الرضـــى بالقليل والصبر على ما قسم الله لهما، وهو يستحضر قصة مريم من خلال اقتباسه للآية الكريمة: "وهزّي إليكِ بجذعِ النخلةِ تُسـاقِطُ عليك رطباً جنيّاً[2]" والشـاعر في هذا الاقتباس يحاول أن يقيم على زوجته الحجّة من خلال الإقناع، فمريم أثناء ولادتها عيســـى لم يكن لديها سوى حباتٍ من التمر تقتات بها.

وإلى جانب القرآن الكريم جاء اقتباســـهم من الحديث الشـــريف، وهذا نلمحهُ في أشعار ابن الخطيب واضحاً، ومن هذا قوله منشداً السلطان أبا الحجاج بن نصر:

"مطلُ الغنيّ ظلمٌ" ففيم ظلمتني؟ ولوَيتَ ديني عن وجُودٍ يسـارِ[3]

(الكامل)

فهو يضـمن قولَهُ الحديث الشـريف "مطلُ الغنيّ ظلمٌ[4]"فهو بهذا يوجه لوماً للسـلطان أبي الحجاج على تأخّرهِ في أعطياتهِ له. واسـتحضـر حديث الرسـول؛ لينبّه أبا الحجاج ويحذّرَهُ من أن يكون كذاك الرجل الغنيّ الذي يماطلُ في أجر عامله؛ وهذا مكروه عند رسول الله. وبهذا الاقتباس، اسـتطاع ابن الخطيب أن يكشـف مهارته في إحكام الصـلة بين كلامهِ وبين النّص الذي اقتبسَـهُ[5]. فالاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشـريف،

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. ص. :١٨١ج. :٢

[2] سورة مريم: آية. ٢٥

[3] ابن الخطيب لسان الدين: الديوان. ج. :١ص. :٣٦٨

[4] البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري. ت: طه عبد الرؤوف سعد. المنصورة مكتبة الإيمان. .٢٠٠٣ص : .٤٩٣باب الاستقراض) (.٣ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص. :١٥٧ – ١٥٦

[5] الزين، نبيل: المرشد في البلاغة.ط. :١عمّان: دار أسامة. .١٩٩٦ص. :١٠٧ينظر الاقتباس في: المقّري: أزهار الرياض.

ج:الصفحات. :٢٠٤ – ٢٠٣ – ١٩٨ينظر ابن زمرك: الديوان: فهرس الآيات القرآنية. ص. :١٨٩ينظر ابن

دليل قاطع يقوّي ما ذهب إليه الشـــاعر من أفكار ووجهات نظر. ولجأ ابن خاتمة في وعظهِ إلى الاقتباس من الحديث الشريف يقول:

إذا وجدْتَ فجُدْ للنّاسِ قاطبةً فالحالُ تفنى ويبقى الذكرُ أحوالا

لاسيما ورسولُ الله ضامِنُهُ أنفق ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالا[1]

(البسيط)

فابن خاتمة يلجأ إلى مدح البذل والعطاء والحضّ عليهما من خلال الاســـتعانة بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي يقول فيه: "أنفِق يا بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا" .ويظهر الاقتباس واضـــحاً في أبيات أحمد بن علي الهواري، ويعرف بابن جابر، حيث يقول في حضّ الناس على حسن النيّة:

حسِّن النيّة ما اسطعَتَ ولا تتّبع في النّاس ما قد نوى

إنّما الأعمال بالنيّات، مَنْ ينوِ شيئاً فلهُ ما قد نوى[2]

(الرمل)

وقد أخذ هذا البيت من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل أمريء ما نوى[3]"

-٢المقابلة: هو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معاني متوافقة ثم يقابلها بما يقابلها على الترتيب،نحو

الخطيب: الديوان. ج. :٢

فهرس التضمينات والاقتباسات القرآنية والتضمينات الحديثيّة. الصفحـات. :٨١٨ – ٨١٧ – ٨١٦ – ٨١٥ينظر ابن الخطيب: الإحاطة. ج. :٤ الصفحات .٥٢١ – ٢١٣ – ١٠٣يتظر ابن الخطيب الكتيبة الكامنة. الصفحات : .٢٥٨ – ١٨١ينظر: ابن خاتمـة: الديوان. الصفحات. :٢١١– ١٦٤ – ١٥٥ – ١٣٧ – ٩٤ –٦٥ينظر نثير فرائد الجمان. :٢٤٧– ٢٣٨ينظر يوسف الثالث: الديوان. :٨٦– ٦٥– ١٧ينظر: المقري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج. :٩الصفحات – :٢٠٢،٢٠٣،٢٠٤ .٢٠٥،٢٠٧،٢٦٦

[1] المقري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج. :٩ص: ١٥٦-١٥٧

[2] المقري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج. :٩ص. :١٩١

[3] البخاري، محمد: صحيح البخاري. ص: ٢٥

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ الليل ،١٠_٥

وقول الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وما أقبح الكفر والإفلاس بالرجل[1]

إن أسلوب المقابلة في النونية قليل جدا، ورد مرة واحدة فى قوله:

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

ومع ذلك لا يخفى دورها في تحريك النفوس، وقد كشفت لنا عن المعاني، وتجلت سافرة بذكر أضدادها، ومزية المقابلة :أنها شكلت علاقة بين الطرفين تحركت في تواتر متجاذب.

٣-الجناس : هو استعمال لفظين يرجعان إلى مادتين مختلفتين، أو مادة تمحضت مع كل دال من من الإثنين إلى التعبير عن معنى خاص، متقاربتين أو متحدتين في الأصوات، ومختلفتين في المعنى[2]

وينقسم إلى قسمين:

أ –الجناس التام :وهو ما توافقت فيه حروف اللفظتين في عددها وترتيبها وضبطها، وهذا القسم أفضل الأنواع .

ب –الجناس الناقص :وهو الذى لم تتوفر بين لفظيه شروط التام، سواء كان ذلك بتغير بعض الحروف أو عددها أو غيرذلك .

ومن أمثلة الجناس الواردة في النونية مايلى:

الجناس	نوعه	البيت
شاده، شداد	ناقص	وأين ما شاده شداد في إرم

[1] محمد بن عبد الرحمان القزوينى،الإيضاح في علوم البلاغة،دط ت، تحقيق مجدي فتحى السيد،المكتبة التوفيقية بالقاهرة،ص ٢١٨.

[2] خصائص الأسلوب، ص ٦٤

ساسه، ساسان	ناقص	وأين ماساسه في الفرسِ ساسان
أحالَ، حالهم	ناقص	أحال حالهم جور وطغيان
دار، دارا	ناقص	دارالزمان على دارا وقاتله
ملك، ملك	ناقص	لو صار ماكان من مُلك ومن مَلَك
التيجان، تيجان	ناقص	أين الملوك ذو وا التيجان من يمن وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ؟
مكروه،مكرهة	ناقص	يقودها العلج للمكروه مكرهة
البقاء، تبق	ناقص	قواعد كن أركان البلاد فما
أركان،أركان	تام	عسى البقاء إذا لم تبق أركان

من الواضح شيوع الجناس في الأبيات، ومزيته أنه ذو وقع شجى وتأثير قوي في استمالة النفوس، وتنشيط الأذهان، وإنصات الآذان، ومن خصائصه أيضا تقوية العلاقة المعنوية بين الوحدات المعجمية، إذ أن المطابقة الصوتية توحى بقرابة معنوية بين المتطابقين، كما أن التأويل الأوربي الحديث يذهب إلى أن العلاقة بين الدوال هي نفس العلاقة بين المدلولات، فدوال مختلفة لها مدلولات مختلفة، ودوال متشابهة لها مدلولات متشابهة،[1] وبخاصة أنه إذا جاء عفوا دون قصد.

قال عبد القاهر:"... وعلى الجملة فإنك لا ترى تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه، واستدعاه وساقك نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا ومن هناكان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه ..."[2]

---

[1] محمد مفتاح،في سيمياء الشعر دراسة نظرية تطبيقية،دط، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالدار البيضاء، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٨٧.

[2] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق محمد رشيد رضا، دط ت،المكتبة التوفيقية بالقاهرة، ص ١٦.

الفصل الرابع:

الموسيقى

الوزن والقافية:

تعدّ الأوزان والقوافي من الأركان الجوهرية لموسيقى الشّعر، إذْ أنها تُضفي عليه رونقا جميلا، يتمثل في النّغم المتّزن "وبهما يُفَّرقُ الشعر من النثر، ولذلك عَد العرب " القدامى الشعر بأنّه قول موزون مُقَفَّى يدل على معنى[1]

فالوزن والقافية يمثلان الموسيقى الخارجية لمقصيدة، حيث تساهم في سهولة تلقي الشعر، والانفعالَ به وتترك أثرا بالغًا في نفس المتلقي[2]، وكان النّقاد لا يرون في الشعر أمراء جديدًا يميّزه عن النثر؛ إلا ما اشتمل عليه من الأوا زن والقوافي.[3]

١- الوزن:

"يُعدُّ الوزن من أبرز الأدوات التي يستخدمها الشّاعر في تكوين نسيج قصيدته، وهو أخصُّ مميزات الشعر، وعنه يقول ابن رشيق الوزن أعظم أركان حدّ الشعر وأولاها به خصوصيته، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة".[4]

وقد التزم شعراء العرب منذ القدم بما جاء به الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي استطاع أنْ يحصر أوا زن الشعر العربي في خمسة عشر بحرا، ثم جاء بعده الأخفش فتدارك عليه وزنًا آخر سمّاه المتدارك، فأصبحت بحور الشعر العربي ستة عشر بحرا.

وفي دراستنا لقصائد بن الخطيب المدحية، نلاحظ أنّه سلك مسلك الشُّعراء الذين سبقوه، إذ نظم على أحد عشر بحرا مع تفاوت في نسبة الاستعمال فيما بينها، وذلك لاختلاف مواضيع شعره، وأنه كان يختار البحر الذي يناسب المقام الذي يقول فيه قصيدته، ومن خلال تتبعّنا لقصائده المدحية فقد جاء تواتر البحور على النحو الآتي:

البحر	عدد القصاءد	البحر	عدد القصاءد
الطويل	٦١	المتقارب	٣

[1] سلام على الفلاحي، البناء الفنّي في شعر ابن جابر الأندلسي، دار غيداء، عمان الأردن، ط ١، ٢٠١٣، ص ٢٦٤

[2] ينظر: فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود أبا بطين، الكويت، (د ط) ٢٠٠٤، ص ٢١١.

[3] ينظر: ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ط٢، ١٩٥٢، ص ١٢

[4] ابن رشيق، العمدة ج١، ص ١٣٤

الكامل	٥٦	الرمل	٣
البسيط	٢٠	المنسرح	٣
الخفيف	١٠	المتدارك	١
السريع	٦	الرجز	١
الوافر	٦	المجموع	١٧٠ قصيدة

من خلال هذا الجدول نلاحظ أنّ ابن الخطيب بنى أغمبية قصـــائده على البحر الطويل، فالكامل، فالبسيط، فالخفيف، ثم تأتي بقية البحور. من خلال استقا رء

ونرجع إلى البحر الطويل الذي يقول عنو اب ا ربيم أنيس " نصـوص الشـعر العربي لاحظ العلماء أنّ هذا البحر يتردد بكثر ة في الشعر القديم[1]

ويفسّر بعض النّقاد سبب تسميتو بالطويل، لأنّو أطول الشعر، وليس في الشعر ما يبمغ عدد حروفو ثمانية وأربعين حرفًا غيره، والسبب الثاني أنَّ الطويل يقع في أوائل أبهاتو الأوتاد، وبعد ذلك الأسباب، والوتد أطول من السبب فسُمّي لذلك طويلاً.[2]

وقد جاء بحر الطويل عند ابن الخطيب على صورتين:

هي تلك الصُّورة ذات العروض المقبوضة، والضرب صحيح، كقوله:

سلالة أنصار الهدى وحماته ووارث حب الله ناهيك من حزب[3]

فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فقد جاءت كلمة "وحماته" مقبوضة، وكلمة "من حزب" صحيحة .

أمّا الصورة الثانية: وهي ذات العروض المقبوضة، والضرب مقبوضة ، مثال ذلك :

---

[1] – . ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ٣٩

[2] ينظر: محمد حماسة عبد المطيف، البناء العروضي لمقصيدة العربية، دار الشروق، القارة، مصر، ط ١، ١٩٩٩، ص ١٠٠

[3] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ١٢٣

خليفة صدق لم يجد بشبيهه زمان ولم تأت الدنا بمثاله[1]

فعول مفاعيلن فعول مفاعلن فعولن مفاعيلن فعول مفاعلن

فنلاحظ من خلال المثالين أنّ الزّحاف دخل على تفعمية فعولن لتصبح فعول ويدخل على تفعمية مفاعيمن لتصبح مفاعمن، وهذا الزّحاف يسمى بزحاف القبض، وهو حذف الحرف الخامس السَّاكن. [2]

أمَّا عن بحر الكامل عند الشاعر فقد جاء في المرتبة الثانية من حيث تواترا ويسمى البحر الكامل لكمال حركاتو ففيه ثلاثين حركة، وهو يصمح لكل نوع من أنواع الشعر، وأقرب إلى الشّدة منه إلى الرقّة[3]. ونرى ذلك واضحًا في قصائد ابن الخطيب المدحية منها قوله:

قالو وقد عظمت مبرة خالد قارى الضيوف بطارف وبتالد

ماذا تمت به فجئت بحجة قطعت بكل مجادل ومجالد[4]

فالألفاظ في هذه الأبهات جزْلةٌ شديدة، وذلك لعظم الممدوح الذي عَظُمت خصاله من ذلك أنّو يُقْري الأضياف، ويَقْطَعُ بالحجَّة، والبُرهان كل مجادلٍ وكلّ مجالدٍ عنيدٍ. وقد جاء الكامل على صورتين رئيستين في ديوان ابن الخطيب نما:

الصُّورة الأولى: جاءت فيه العروض صحيحة ،والضرب صحيح أيضًا، مثال ذلك قوله:

عجبا لوجد لايلين شديده وغرام قلب شب فيه وقوده[5]

متفاعلن مستفعلن متفاعلن متفاعلن مستفعلن متفاعلن

والصورة الثانية: جاءت فيه العروض صحيحة، والضرب مقطوعة، ومنها قوله:

---

[1] المصدر نفسه: ج٢، ص ٤٨٤.

[2] ينظر : هشام منّاع، الشافي في العروض والقوافي، دار الفكرالعربي،بيروت، لبنان، ط٤، ٢٠٠٤، ص ٦٠

[3] ينظر: غازي يموت، بحور الشعر العربي (عروض الخليل)، دار الفكر المبناني، لبنان، ط ٢، ١٩٩٢، ص ٣١

[4] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ٣٦١

[5] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ٢٩٠

ياصفوة الله المكين مكانه ياخير مؤتمن وخير نصيح [1]

مستفعلن مستفعلن متفاعلن مستفعلن متفاعلن متفاعل

فقد ورد في البيت علة القطع متفاعلْ وهي علة بالنّقص، حيث يحذف فيها آخر " الوتد المجموع، واسكان ثانية مُتَفَاعِلنْ مُتَفَاعِلْ"[2]

و في بعض قصائده المدحية التي نظميا على بحر الكامل يمتزم بعمة القطع إلى جانب زحاف الخبن وهو تسكين الحرف الثاني[3]، مثال ذلك:

أمحمد المحمود دم في عصمه لله يمضي حكمها المقدار

بدرا وما غير الخلافة هالة شمسا وما غير العلاء مدار

غيثا وما غير النوال سحابة ليثا وما غير الظبا أطفار

مرت من الساعات عشر فصلت حزب الدجى كأنه أعشار [4]

ففي هذه الأبهات جاءت الضّـــرب ممتزمة بالوزن متفاعلْ في كامل القصـــيدة، ممَّا أضفى عمييا لونا ايقاعيا متغيرا يبعِدُنا عن ركاكة الالت ا زم بتفعيلات بحر الكامل تامة.

أمَّا البحر الثالث الذي نظم عليه ابن الخطيب قصـــائده المدحية فيه بحروسُميَ بذلك لأنّه أكثر استيعابًا للأغ ا رض، والمعاني المختمفة، وهو يفوق الطويل «، البسيط » رقةً وجا زلةً، وقد جاءت فيه معظم المدائح النبوية الدينية، وعليه نظم أصحاب البديع[5] وقد ســـار ابن الخطيب على هذا المنوال ونظم عليه عشـــرين قصـــيدة في المدح وبمغت أبهاتو على هذا البحر ثلاث مئة ،وثمانية وثمانون بيتًا (٣٨٨)، ومن أمثلة اســـتخدامو ليذا البحر قوله في قصيدة مطلعها:

مولاي مولاي إن أرضاك بذل دمى فقد أتيت به أسعى على قدمى [6]

---

[1] المصدر نفسه: ج ١، ص٢٤٣

[2] محمود على الهاشمي، العروض الواضح وعلم القافية، دار القمم، دمشق، سوريا، ط ١، ١٩٩١، ص ١٢٩.

[3] ينظر:محمد بن حسن بن عثمان، المرشد الوافي في العروض والقوافي، دار الكتب العممية، بيروت، لبنان ط

[4] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ٤٣١

[5] – ينظر: عبد الله الطيب، المرشد إلى فيم أشعار العرب وصناعتيا، الدار السودانية الخرطوم، السودان

[6] محمود عمي الياشمي، العروض الواضح وعمم القافية، ص

"مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن" "مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن"

ونرى أنّ البيت قد ط أ ر على ضـــربو، وعروضـــو زحاف الخبن (فاعلن ت فعلن) مستفعلن تت متفعلن.

ومن أمثلة الأبهات التي جاءت على البحر البسيط قوله:

ومن كيوسف في الأملاك من ملك بالحلم متسم بالحز محترم

تنمى علاها من الأنصار سادتها في معشر ككعوب الرمح منتظم

خلائف لم تزل بالهدى صادعة بالعدل في الظلم أو بالنور في الظلم

السابقون إلى الغايات إن ركضوا والناطقون بفصل الحكم في الكلم[1]

فجميع أشطر القصيدة قد انتيت بالوزن فَعِ مُن و وُرود هذه الصورة ممّا تستريح لو الأذن، وتطمئن إليه النّفس.[2]

وبالإضـــافة إلى هاته البحور (الطويل، الكامل، البســيط) نرى ابن الخطيب قد نظم على بحور أخرى كالسريع، والوافر، والخفيف، والمتقارب ،والرمل ...

وهذا ما يدل على اقتدار الشاعر وتمكنّه المطمق من النّظم على البحور الخليلة مقتفيا آثار الشعراء الذين سبقوه.

٢- القافية:

تعتبر القافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، وهي عند الخميل بن أحمد الف ا ربيدي آخر حرفٍ في البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن [3]، أمَّا هي عدّة أصـوات تتكرر في أواخر " من منظور المتأخرين فقد عرّفيا ابراهيم أنيس بقوله" الأشطر أو الأبيات من القصيدة.[4]

---

[1] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٢٣٥

[2] ينظر: ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ٧١

[3] ينظر:ابن رشيق، العمدة، ج ١، ص ١٥١

[4] ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ٢٤٤

ولقد اهتم ابن الخطيب بقوافي قصـــائده كانتمامو بالوزن، مراعيًا المعنى الذي يلائم ذلك الوزن وتلك القافية، ممّا أضفى ذلك قيمة جمالية، وموسيقية في جُ لّ مدائحو وقد استخدم القافية بنوعييا المطمقة والمقيدة، فقد جاءت مئة وسبعون(١٧٠) قصيدة ذات القافية المطمقة، وعشرة (١٠) قصائد ذات القافية المقيدة مثال القافية المطمقة قوله:

"ولدت من نصر الإله حساما" "حاط العباد ومهد الأياما"

"فإذا تنبه حادث نبهته" "وتركت أجفان الأنام نياما" [1]

إذ نلاحظ أنّ القافية المطمقة الأياما ونياما زادت من جمال الأبيات وبهائها وأحدثت جرساً موسيقيًّا تيتزُّ له النُّفوس طربًا. أمَّا من أمثلة القافية المقيدة قوله:

روض من العلم همى فوقه من صيب الفكر الغمام السفوح

فمن بيان الحق زهر ند ومن لسان الصدق صدوح [2]

ومن خلال استقرائنا لقوافي أشعار ابن الخطيب نجد أنّ الرّوي جاء عنده كالنحو الآتي:

الروى	عدد القصائد	الروي	عدد القصائد
الدال	٣١	الهاء	٠٥
الراء	٢٤	القاف	٠٤
النون	١٦	السين	٠٤
الميم	١٥	الألف	٠٣
اللام	١٤	الثاء	٠٣
الباء	١٣	العين	٠٣
الحاء	١٣	الفاء	٠٣
الجيم	٠٩	الكاف	٠٣

[1] ابن الخطيب، الديوان، ج ٢، ص ٥٣٤

[2] المصدر نفسه ج١، ص ٢٣٨

فأكثرُ الحروف عنده استعمالاً هي (الدال، ال ا رء، النّون، الميم، اللام الباء)،وهو في ذلك يعتمد على الأصوات المجهورة، ليحقّْقَ وضوحًا في الإيقاع،وزياده في قوة النَّغَم الموسيقي لمِدْحَة.

"وعن حروف الرَّوي وشيوعها في دواوين العرب وأشعارهم يقول ابراهيم أنيس كثرة شيوع حروف الروي أو قلتها لا يعود إلى ثقلٍ في الأصوات، ولا إلى خفتها، بقدر ماتُعزَى إلى نسبة ورودها في أواخر كممات المغة، فالدال مثلاً تجيء في أواخر كلمات المغة " العربية بكثرة [1] ،والملاحظ لقصائد ابن الخطيب يجد أنّ روي الدال هو الأكثر تكرار ومن أمثلة هذا الرَّوي قوله:

خليفة من صميم العرب دوحته فيها انتهى المجد مستوفى ومنها بدي[2]

وقوله أيضًا من روي الدال:

أنتم من مناسب الأمجاد موضع العقد من طلا الأجياد

ولكم من مناصب الفخر أسما وعز الندى وغر الأيادي[3]

أمَّا الحرف الذي يلي الدال هو حرف الراء، "وهو صوت تكراري يمنح القافية ايقاعًا موسيقيًا، ووقوع رويّا شائعٌ جدًا في الشعر العربي" وأمثلته عند ابن الخطيب قوله في المدح:

وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره ففى ضمن ما تأتي به العز والأجر

وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم بحق فما زيد يرجى ولا عمرو[4]

ويُعد الراء من الحروف الأثيرة لدى الشاعر إذ استخدمو بكثرة ونجده في المرتبة الثانية بعد حرف الدال.

---

[1] ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص٢٤٦

[2] ابن الخطيب، الديوان، ج١، ص ٢٧٦.

[3] المصدر نفسه ج٢، ص ٢٩٤.

[4] ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ٢٤٦

ويأتي حرف النّون ثالثًا حيث وروده في الديوان، وهو كثير في ديوان العرب اوستخدمه شعراء الاندلس بكثرة من أمثلتة عند ابن الخطيب من قصيدته التي يمدح بها السلطان أبا سالم ، ويهنئه على انتصار جيشه في إحدى المعارك:

هنيئا أمير المسلمين بمنة حبيت بها من مطلق لجود منان

لزينت أجياد المنابر بالتي أتاح لها الرحمان من آل زيان

أياديك لا أنسى على بعد المدى نعوذ بك اللهم من شر نسيان[1]

يقول النقاد عن رويّ النون ، وعن سبب وروده في أشعار العرب بكثرة " والقصائد النونية كثيرة الشُّيوع في الشعر العربي نظراً لخفة صوت النّون وجمال جرسه [2] فالشاعر يسعى جاهدا في كل ما ينظمه على أنْ يستميل قلب ممدوحه إليو ليرضى عنه، لاسيما إن كان الممدوح ذا شأن كبير.

أمَّا حرف الميم حلّا ربعًا، فقد جاء في أربعة عشر (١٤)قصيدة مدْحِية منها قول ابن الخطيب:

جمع الإله "بيوسف" شمل الورى وثنى النوائب، وهي فاغرة الفم

ثبت الجنان إذا الخطوب تعاظمت مبتسم في الحادث المتجهم[3]

ويعد حرف الميم بالإضافة إلى حروف أخرى كاللاّم والباء والدال والنّون من الحروف التي تجيء بكثرة، وان اختمفت نسبة شيوعها بين شعراء الأندلس، وقد ساروا على النّيج الغالب لمشعر العربي من حيث الاكثار من القوافي السَّمسَة والتي تسمح لهم بالتنقل بين المعاني والألفاظ بما يتوافق وطول القصائد المدْحِيَة وغزارة معانيها، أضف إلى ذلك ميل الشاعر الأندلسي إلى القوافي المطمقة التي تُسْهمُ في خلق كيان صوتي يخدم الموسيقى الخا رجية، وقد أ رينا ذلك عند شاعرنا ابن الخطيب؛ إذ جاءت قوافيه المطمقة تربو على مئةٍ وسبعين قصيدةٍ (١٧٠)، وما ذاك إلاَّ حرصًا منه على امتداد صوته للإشادة بممدوحيه بواسطة ما ينسجه من عذْب الموسيقى ليطرب لها سامعه، لا سيما

---

[1] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ٤١٦

[2] المصدر نفسه، ج٢ ص ٥٩٢

[3] المصدر نفسه ، ج٢، ص ٥٣٩

إنْ كان المخاطب ســـلطاناً أو ممكًا، ولعلَّ خيرمثال على ذلك ما مدح به ابن الخطيب سلطان المغرب:

خليفة الله ساعد القدر علاك مالاح في الدجى قمر

ودافعت عنك كف قدرته ماليس يستطيع دفعه البشر

ليس لنا ملجأ ناملـه سواك أنت التمثال والوزر[1]

فما كان من السُّـلطان إلاَّ أنْ أكرمه إكرامًا عظيمًا، لِمَا اسْـتَعْذَبَ من ســلاســة ألفاظيا ودقَّةِ اختيار معانيها.

ومن خلال دراستنا لموزن والقافية نرى أنَّ ابن الخطيب لم يخرج في إطاره الثابت عمَّا عُرفَ عند الشـعراء القدامى بل ســار على نهجهم ، واقتفى أثرهم ، فنظم على عروض الخميل ملتزما في ذلك وحدة البحر والقافية، شأنه شأنَ الشعراء الأُوَلِ

تمهيد:

تميز الشعر العربي عبر العصور بسمات جميلة أهلته لأن يكون فنا متكاملا، والمقصود بالفن المتكامل هو الشـعر الذي توافرت له شـروط وتقسـيمات البحور، والأعاريض التي تعرف بأوزانها وأسمائها، وتطور قواعدها في كل ما ينظم من قبيلها،[2]وتعتبر الموسـيقى من أبرز الظواهرالتي تميز الشعر عن سائر الفنون الإبداعية، فهي التي تساهم في تشكيل جو النص الشعري بما تشيعه من ألحان، ونغمات تنسـجم مع المعنى العام والفكرة الأسـاسية للنص، إذ تتلون الموسيقى الشعرية تبعا لتنوع الموضوعات الشعرية واختلافها، مما ينعكس على مشـاعر الناس وأحاسـيسـهم، فتنقلهم إلى جو النص الشـعري ليعيشـوا معانيه من خلال الموسيقى العذبة التي تنساب لتوقظ إحساس المتلقي ولذلك نجد أنها لاقت عناية كبيرة من الدارسـين قديما وحديثا، ما جعل مسـائلها موزعة على خمسـة علوم،أربعة منها علوم لغوية منها اثنان يختصـان بالشـعر، وهما علم العروض وعلم القوافي، والدرس فيهما يختص بالموسيقى المقيدة بالشعر، نضيف إليهما علم البديع، ويتسع الدرس فيه إلى كل

---

[1] ابن الخطيب، الديوان، ج ١، ص ٤٠٣.

[2] عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة،دط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، تاريخ النشر ١٩٩٥م،ص ٢٢٠.

ضروب الموسيقى المطلقة سواء في الشعر أو في النثر، أما العلم الرابع فهو علم الأصوات، وهو الذي يدرس أثر كل مسموع، والعلم الخامس هو علم الموسيقى، وهو علم غير لغوي لأنه لايتركز على الكلام.[1] مع العلم أن الشعر العربي يتميز بثائية تشكيله الموسيقي، إذ يقوم على الموسيقى الخارجية التي يحكمها العروض، وتتمثل في الوزن والقافية،ويعتبر الوزن والقافية العماد الذي يقوم عليهما الإطار الموسيقي الخارجي وليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية، وهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بهذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة[2]. وهناك موسيقى داخلية تقوم على تنوعات القيم الصوتية،سواء كانت جملة أو كلمة أو مجموعة من الحروف ذات جرس مميز، لتتضافر الموسيقى الخارجية والداخلية في تشكيل البناء الموسيقي، الذي يعمل على خلق إيحاء شعوري مؤثر ينسجم مع معنى النص، وقبل أن نبدأ في تحليل القصيدة من ناحية الإيقاع لابد أن نعرض لمفهوم هذا المصطلح أولا.

مفهوم الإيقاع:

١-الدلالة اللغوية :قال الفيروزآبادي:"والإيقاع إيقاع ألحان الغناء وهو أن يوقع الألحان ويبينها"[3]، وقد ذكر ابن منظور مثل هذا الكلام فى لسان العرب[4]، ومن خلال هذا الكلام نلاحظ أن الإيقاع مرتبط باللحن والغناء .

٢-اصطلاحا: هو ذلك النسيج من التوقعات والإشباعات والإختلافات التى يحدثها تتابع المقاطع، وهو يرتكز على الحالة النفسية للسامع والمتكلم على حد

---

[1] محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب،دط،المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية،١٩٨١م، ص.٢٢

[2] إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، الطبعة الثانية،مكتبة الأنجلو مصرية بالقاهرة، ١٩٥٢م،ص.٢٤٤

[3] القاموس المحيط، ص .٨١٣

[4] لسان العرب، ص، ٤٨٩٧، مج ٦

سواء، لأنه يعتبر إيقاع للنشاط النفسي الذي من خلاله ندرك فيها المعنى مع الشعور.[1]

الوزن:

"وهو مجموع التفعيلات التي يتألّف منها البيت، وقد كان البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة العربية في معظم الأحيان"[2]".ولا ريب أنّ لبحورِ الشعر وأوزانهِ، أثراً في الأداء، وفي موسيقا العبارة"، وفي قوّة الأسلوب. ولذلك فالوزن يأتي بعد الإيقاع والقافية ودقّة اختيار الكلمات وجودةِ صياغتها، وهو قمّة الأداء الموسيقي في الشِّعر[3].

"وإذا وقفنا عند البحور التي اختارها الشعراء في هذا العصر، فإنّنا نجدهم مقلّدين للنّهج الذي سار عليه الشعراء المتقدّمون، فهم يلجؤون في أغلب أشعارهم إلى بحور الطويل والكامل والبسيط". وأثناء تتبعنا لأشعار المشهورين منهم، كابن الخطيب، وابن زمرك، وابن خاتمة الأنصاري، والملك يوسف الثالث، فقد وجدنا أن الغالب في قصائدهم قد نسج على هذه البحور الثلاثة، وكانت النتائج على النحو الآتي: ابن الخطيب: وجدنا عنده مئةً وثمان وسبعين قصيدةً على البحر الكامل، ومئتين وخمسَ عشرة قصيدة على البحر الطويل، وواحدة وتسعين قصيدة على البحر البسيط، وسبعاً وأربعين قصيدة على البحر الوافر، واثنتين وعشرين قصيدة على البحر المتقارب، وأما بقية القصائد والمقطوعات، وعددها مئة وثمانون، فقد جاءت على بقية البحور، كالسريع والمنسرح والرمل والرجز والخفيف والمجتث[4].

---

[1] مصلح النجار وأفنان النجار، الإيقاعات الرديفة والإيقاعات البديلة فى الشعر العربى، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٣العدد الأول، ٢٠٠٧، ص ١٢٥

[2] فاخوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. حلب: منشورات جامعة حلب /كلية الآداب. .١٩٨٧ص. :١٦٥

[3] سليمان، نايف: الواضح في العروض وموسيقى الشعر. ط. :١عمّان: دار الفكر للنشر. .١٩٩١ص. :٧ينظر: الأسعد، عمر: علم العروض

والقافية.. ط. :٤الأردن: عالم الكتب الحديث. .٢٠٠٤ص. :٢١

[4])١(ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :٢فهرس الأشعار: ص. :٨٢٣

الحمصي، سليم: ابن زمرك، سيرته وأدبه. ص. :٢٤٤

مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. ص. :١١٥

ابن زمرك: جاء معظم شعرهِ على ثلاثة أوزان، وهي: الكامل والطويل والبسيط، وبلغت نسبة الكامل ،٤٢%والطويل ،٤٤%والبسيط ،١٠%والبقيّة من أشعارهِ البالغة ٣%جاءت على بقية البحور[1] .

الملك يوسف الثالث: جاءت أشعاره في معظمها على هذه البحور الثلاثة وهي: الطويل والكامل والبسيط، حيث بلغت في مجملها ما نسبتهُ٧٠.%

وأما ابن خاتمة الأنصاري: فقد جاءت نصفُ أشعارهِ على هذه البحور الثلاثة، حيث بلغت نسبة البسيط ،٢٥%و٢٠ % على الكامل، و١٠ % على الطويل، ١٢%على الخفيف، و٧ % على المتقارب، و٥ % على الوافر، و ٩%على السريع، و١٢ % على بقيّة البحور[2].

إنّ استخدام هذه البحور الثلاثة ـ الكامل، والطويل، والبسيط ـ على وجه الكثرة لم يأت عبثاً ووليداً للصدفة، بل إنّ الظروف التي أحاطت ببني الأحمر، وسير حياتهم في هذه المملكة التي كانت تحيط بها الأهوال، هي التي قادت شعراءهم لكي يستخدموا بحراً دون آخر في قصائدهم.

وقديماً ذكروا أن الغضب ينتج الحماسة والتهديد والشكوى والهجاء، والإعجاب ينتج المديح والوصف الجميل، والحبُّ ينتج النسيب والمديح، والازدراء ينتج الهجاء، والحزن ينشئ الرثاء والعتاب، والطرب يقود إلى الفخر والخمريات[3] والحماسة من حمس بمعنى اشتد وقوي، وفن الحماسة في الشعر هو فن القوة أو فن الأسلوب القوي الشديد، فالكلمات قوية الجرس، إيجابية المعنى، وهي رماح وسيوف،

---

[1] الشايب، أحمد: الإسلوب، دراسة بلاغية لأصول الأساليب الأدبية. ط. ١٢:القاهرة: مكتبة النهضة المصرية . ٢٠٠٣.ص. ١٧٩:

[2] ابن خاتمة الأنصاري: الديوان / الفهرس. ص. ٢٣٢:

[3] الأسعد، عمر: علم العروض والقافية. ص. ٤١:

وطعن وضـــرب، وقتل وأســـر، وانتصـــار ودماء[1].وقد لوحظ أنّ الطويلَ يتّســـع للفخر والحماسة[2]. ومن الذين نظموا في الحماسة شاعرنا ابن الخطيب حيث يقول:

أنتَ ابنُ أنصـارِ الهُدى وحُمَاتِـهِ هَنيئاً لَهُمْ هذا الثّناء المخَلَّفُ

شـعارُهُم عِلْمٌ وَحِـلْمٌ ونائـلٌ وحَرْبٌ ومِحْرابٌ وسيفٌ ومُصْحَفُ

فكم أطلعوا في الحربِ من تحْرٍ صارمٍ يُعفّرُ آنافِ الطغـاةِ ويُرعِـفُ [3]

(الطويل)

فابن الخطيب منذ بداية القصيدة، وهو يحاول إثارة الهمم والعزيمة في نفس وقلب أبي الحجاج، فلم يجدوا بحراً يتّسع لهذا الهدف على نحو أفضل من الطويل، فهو بحرٌ ذو تفاعيل كثيرة تتّسع لكلامتهِ وأنّاتهِ وشكواه، وجاء ملائماً لأغراضهِ الجديّة التي تتمثل في الدعوة إلى القتال والتصدي[4]:

وهذا الملك يوسف الثالث، الذي تموج نفسه بمشاعر العزّ والكبرياء لم يجد متّسعاً للتعبير عنها إلا من خلال البحر الطويل، فهو بحرٌ يستوعبُ هذا الملك وعنفوانه، حيث يقول:

إذا شئتَ أن تُعطى المقادةَ أهلها وتلقى حُسَامَ النَّصرِ في كفِّ ضاربِ

تجدِني مِقْداماً على الهَوَلِ لم أبلُ بما جَمَعُوا أو عدّدوا من مقانب

يصاحبني حزمٌ يَخُونُ هاجسي وعزمٌ كما سُلتْ رِقاقُ المضـاربِ [5]

(الطويل)

---

[1] الشايب، أحمد: المرجع نفسه. ص. :٨٠

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :٢ص. :٦٧١

[3] الملك يوسف الثالث: الديوان. ص. :٥

[4] الفاخوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. ص. :١٧٤

[5] الأسعد، عمر: علم العروض والقافية. ص. :

ونراهُ يصـــدّر بيتهُ بأداة الشـــرط غير الجازمة (إذا) وهي ظرف متعلق بجوابهِ، ولكنّنا نلحظُ أنّه أخرَّ الجواب إلى البيت الثاني، وهذا يتناسب مع الطول الذي بنى أبياته عليهِ، حيث بناهاَ على البحر الطويل، ليربط بين البيتين من جهة، وليثبت طول نفســـهِ من جهةٍ أخرى[1].

وإلى جانب الطويل يكثرُ استخدام الكامل، "فهو بحر يصلحُ لأكثر الموضوعات؛ وهو في الخبر أجود منه في الإنشاء، وأقرب إلى الرقّة[2] ولهذا نراه يصلحُ للوصف والمديح والنسيب وغير ذلك من الأغراض الأخرى، "إلا أنّنا نراه بوضوحٍ في الوصف؛ لأنّ هذا اللون يحتاج إلى الأســاليب الخبرية، وهذا ما نلحظه في أشــعار ابن الخطيب وابن خاتمة الأنصاري، فالأول جاءت أكثر أوصافهِ في الكامل[3] حيث يقول:

بلدٌ يَحُفُّ به الرّياضُ كأنّهُ وَجْهٌ جميلٌ، والرياضُ عِذارُهُ

وكأنّما واديهِ مِعْصَمُ غادةٍ ومِنْ الجُسورِ المحكَماتِ سِوَارُهُ[4]

(الكامل)

ولجأ ابن خاتمة في غزلهِ إلى استخدام البحر الكامل ليعبّر عن أحاسيس تعتمر في داخلهِ حيث يقول:

اللّه يكفي عاذلي وَرَقيبَها حتّى تُثيبَ على الهَوَى وأُثيبُها

ما كانَ ضَّر وقَدْ عصيتُ عَوَاذِلي أنْ لم تكُنْ تعصي كذاك رقيبَها

وأنا الفقيرُ إلى اختلاسةِ لحظةٍ مِنْها، وتقتُلُ بالصُّدودِ كئيبَها

لمياءَ تَبْسِـمُ عَنْ عقودِ لآليء يا بَرْدَ كبدي لو رشفتُ شَنِيبَها[5]

(الكامل)

---

[1] مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث. ص. :١١٧

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :١ص. :٤٢٥

[3] ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات. :١٩٩، ١٩٣، ١٠٩، ١٠٥، ١٠٣، ٩٣

[4] ابن خاتمة الأنصاري: الديوان. ص. :٨٦

[5] الحنفي، الشيخ جلال: العروض، تهذيبهُ وإعادة تدوينهُ. ط. :٢بغداد: مطبعة الإرشاد. ١٩٨٢ص. :٢٠٥

فابن خاتمة يشكو من عاذلهِ، ومن رقيب المحبوبة المذكورة، ويقسم أنّ راحتهُ لا تكون بغيرها. فالأحاسيس المرهفة جاءت مناسبة للبحر الذي قيلت فيه هذه القصيدة، فهذه الأبياتُ بعيدةٌ عن الحدّةِ والخشونة، وتميلُ إلى الهدوء والرقّة، وهذا أدى إلى وجود التناغم بين إيقاع الأبيات ومضمونها.

وجاء استخدام البسيط واسعاً عند أغلب شعرائهم، ولا سيما في أشعار ابن خاتمة الأنصاري، فهو يأتي في مقدمة البحور عندَهُ. "والبسيط يقرب من الطويل، وإن كان لا يتّسع مثلَهُ لاستيعاب المعاني، ولا يلين لينه للتصرّف بالتراكيب مع تساوي أجزاء البحرين، ولكنّهُ يفوقُهُ رقّةً وجزالةً، ولهذا قيل في الجاهلية، وكثر في شعر المولّدين[1]،وسُمِيَ البسيط بسيطاً، لسهولته في الذوق وبساطتهِ"[2].

إنّ هذه الميزة جعلت الشعراء يستخدمونه في أغلب أغراضهم، فظهر في الحماسة والمديح والفخر وغير ذلك من الأغراض الأخرى. ولعل الرقَّة التي ظهرت فيه، جعلتهُ قريباً وصالحاً للمديح النبوي، حيث يقول ابن زمرك:

"أنتَ المشَفَّعُ والأبصارُ شاخِصّة" "أنت الغياثُ وهولُ الخطبِ قد فَدَحا"

"حاشَ العُلا، وجميلُ الظنِّ يشفعُ لي" "أنْ يُخفِقَ السعي مني بعد ما نجحا"

"عَسَاكَ يا خيرَ مَنْ تُرجى وسائلهُ" "تنجي غريقاً ببحرِ الذّنبِ قد سبحا"[3]

(البسيط)

إنّ مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم، تتطلب منّا مزيداً من الخشوع والإقدام، ولهذا يستوجب علينا استخدام ألفاظ تتوافق مع هذه المشاعر، فكان لا بدّ من استخدام البحر البسيط الذي يتسم بالرقة والسهولة. وفي مقابل هذا، فإنّه يتّسع لأغراض الحماسة، ومن هذا ما جاء عند أبي البقاء الرندي، حيث يقول:

"لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ" "فلا يغرَّ بطيبِ العيشِ إنسان"[4]

---

[1] الأسعد، عمر: علم العروض والقافية. ص. :٤١

[2] ابن زمرك: الديوان. ص. :١٠٥

[3] ابن زمرك: الديوان. ص. :٢٧

[4] المقّري، أحمد: نفح الطيب. ج. :٥ص. :٣٧٣

(البسيط)

فالرندي يستثير عزمات المسلمين مستخدماً البحر البسيط، ولهذا فقد ظهرت العواطف في أبياتهِ واضحةً، على نحو ما مرّ بنا سابقاً في ذكرنا لهذه القصيدة.

والوافر من البحور التي كانت أقلّ استخداماً، وظهر عندهم في الرثاء والاستعطاف والغزل. فالوافر هو ألين البحور، يشتدُّ إذا شددتهُ، ويرقُّ إذا رققتهُ[1].

ومن ظهوره في الاستعطاف قول ابن زمرك وهو يستعطف السلطان أبا الحجاج:

بما قد حزتَ من كَرَمِ الخِلالِ بما أدركتَ من رتب الجلالِ

بما خوّلتَ من دين ودنيا بما قد حُزتَ من شرفِ الجَمال

تغمدني بفضلك واغتفرها ذنوباً في الفِعال وفي المقال[2]

(الوافر)

فالمشاعر الرقيقة هي التي سيطرت على هذه الأبيات، ويظهر التوسُّل واضحاً عند ابن زمرك، وكأنّه أمامَ فِعْلة كبيرة يريد المغفرة والصفح عنها عند أبي الحجاج.

ونخلصُ إلى القول: "إنَّ البحور الشعرية التي استخدمت عند شعراء بين الأحمر، جاءت ملبيّةً لحاجاتهم وأحاسيسهم، ووفق ما يقتضي الحال، ولكن نعود إلى حكم ذكرناه في السابق، وهو أن فنون القول هي واحدة، ولهذا لا بدّ لنا من القول أن البحور الشعرية في التاريخ العربي هي واحدة أيضاً، فمن الطبيعي أن يستخدمها الشاعر الأندلسيّ في غرناطة، كما استخدمها الشاعر الأمويَّ في دمشق، والشاعرُ العباسيُّ في بغداد".

المبحث الثاني: القافية:

---

[1])١(الشايب، أحمد: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليليّة لأصول الأساليب الأدبية. ص. :٨٢

[2]

القافية: هي آخر حرفٍ ساكن في البيت، إلى أول ساكن يليه من قبلهِ، مع الحرف الذي قبل هذا الساكن[1]. وقد اختلف الباحثون في حقيقة القافية، وعدّها الأخفش بقولهِ: إنّها آخر كلمة في البيت، ومنهم من يرى أنها حرف الرويّ في آخر البيت[2]والقافية ليستِ إلا عدّة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءاً هامّاً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي تتردد في فترات زمنية منتظمة[3].

"وتتركز القافية بشكل أساسي على حرف الروي، وهو الحرفُ الذي تبنى عليهِ القصيدة وتنسب إليه"[4]

"ولا يخفى علينا أنّ للروي دوراً بارزاً في إضفاء النغم على القصيدة، فالشعر يحسنوقعهُ على السمع لحسن وقع قافيتهِ، ويسوء وقعه لضعف قافيتهِ، وسوء وقع رويّة، حتى ولو كان يتضمن المعاني البليغة والصور الشعرية الرائعة"[5].

"وإذا كان لكلّ بحر صفات تلائم غّرضاً من الأغراض الشعرية، فالأمر كذلك بالنسبة إلى الروي، فلا يَحْسُنْ استعمال القاف، مثلاً، روياً في قصيدةٍ غزليّةٍ، لأنّهُ حرف استعلاء يتّصف بالشدّةِ ويجود في غرض الحرب والقتال[6]." ولهذا جاء استخدام حروف الروي بما يتناسب مع الحالة الشعورية التي يعيشها هؤلاء الشعراء، فابن زمرك يلجأ إلى الأصوات المهموسة في أغلب مراثيه، وله في هذا الغرض أربع قصائد: ثلاث منها جاء رويها مهموساً، ومنها ما جاء في رثاء الغني بالله حيث يقول:

---

[1] الفاخوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. ص. :١٣٧يتظر: العلي، فيصل: الميَّسر الكافي في العروض والقوافي عمّان: مكتبة الثقافة للنشر.

ص. :١٢٠ينظر: أبو مغلي، سميح: مبادئ العروض. ط. :١٩٨٤. ٣ص. :٣٦

[2] اسعد، عبد المنعم: علم العروض والقافية. ط. :١القدس: كلية الآداب للبنات – جماعة القدس. .١٩٨٧ص. :١٢٩

[3] أنيس، إبراهيم: موسيقا الشعر. ط. :٤مصر: مكتبة الأنجلو. .١٩٧٢ص. :٣٤٦

[4] خفاجي، محمد: الأصول الفنيّة لأوزان الشعر العربي. ط. :١بيروت: دار الجيل. .١٩٩٢ص. :١٢٩

[5] الحمصي، أحمد: ابن زمرك. سيرته وأدبه. ص. :١٨٣

[6] الحمصي، أحمد: المرجع السابق. ص. :١٨٣

عزاءً فإنّ الشجوَ قد كان يُسرِفُ وبُشرى بها الراعي على الغور يشرفُ

لئن غَرَبَ البدرُ المنيرُ محّمدٌ لقد طلعَ البْدرُ المكمّلُ يوسفُ [1]

(الطويل)

ونرى ابن زمرك يبدأ قصيدته بقول: (عزاءً)، وهو مفعول مطلق حُذف عامله، وجاء هنا للطلب[2].فهو يبحث عن شيء يخفف من مصابه وآلامِه، ولم يجد ما ينفّسُ عنه هذه الآلام سوى الشكوى التي أطلقها مستخدماً الصوت المهموس الذي عبّر عن أحاسيسَ مكبوتة أُريد بها أن تخرج لعلها تكون بلسماً شافياً لنفسهِ. وإذا ما نظرنا إلى بقية القصيدة ، نرى أنّ صوتيّ السين والشين قد ترددتا كثيراً بين ثناياها، إضافة إلى روي الفاء الذي يلتقي معهما في الهمس. وهناك من الشعراء من جاءت مراثيهِ مجهورة الروّي، ومن هذا ما جاء عند علي بن عمر القيجاطي حيث يقول:

حَمَامُ حِمَامُ فوق إيك الأسى تشدو تهيجُ من الأشجان ما أوجَدَ الوجْدُ

وذلك شجوٌ في حناجرنا شجىً وذلك لهْوٌ في ضمائرنا جَدُّ

أرى أرجلَ الارزاءِ تشتدُّ نحونا وأيديها تسعى إلينا فتمتدُّ [3]

(الطويل)

فهذه المرثيَّةُ اعتمدت على روّي مجهور، وهو حرف الدال، ويأتي استخدام الحروف المجهورة بما يتناسب والحالة التي يعيشها الشاعر، فالعاطفة الجياشة واضحة في الأبيات حيث يقول: تشدو، تهيج، شجوٌ في حناجرنا. وجاء رويُّ الدال حرفاً مضعفاً، ليزيد من حالة الترديد لهذه الصرخات.

وفي مقابل هذا، فإنّنا نرى أن الشعر السياسي قد اعتمد في معظم قصائدهِ على الأصوات المجهورة، فالاستنجاد والدعوة للقتال يتناسب مع الجهر، فالمقام يتطلب

---

[1] ابن زمرك: الديوان. ص. :٧١ينظر: ص. :١٢٨ – ١٢٦ – ٧٤

[2] جطل، مصطفى: النحو والصرف. حلب: منشورات جامعة حلب. .١٩٨٥ص. :١٣١

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٤ص. :٨٣

الأصوات المسموعة ذات الرويّ الشديد. ومن هذا ما جاء في استنجاد الملك يوسف الثالث ببني مرين حيث يقول:

أبني مرين والحمايةَ شأنُكُم وبكفِكُمْ سيفُ الجهادِ يُجرّدُ

إنَّ السَّعيد إذا تمهّد ملكهُ عُدْتم لنا والعَوْدُ منكم أحمدُ

أوطانكُ أخوانكُ وبلادُكُم عودوا وعهدكم القديمَ فجددوا[1]

(الكامل)

والشاعر في هذه الأبيات يطلق صرخة موجّهة إلى إخوانه من بني مرين، فالجهادُ عندَهُ فرضُ عين لا يسقط كما هو الحال في فرض الكفاية، ولهذا جاءت دعوته قويّة ومدوّيَةً، واستخدم المعاني التي تدعو للعودة إلى الجهاد في قوله)عدتم، العود، عودوا.(وإلى جانب هذا فقد جاء رويُّ القصيدة حرف الدال، وهو صوت شديد مجهور[2]. إنّ النّسق اللغوي العام لهذه الأشعار، يتطلب استخدام فعل يتماشى مع غرض الطلب، مما يوجب عليهم استخدام صيغة الأمر، وهذا يتناسب مع الرويّ المجهور في نهاية كلّ بيت. ومن هذا ما جاء في دعوة ابن زمرك للسلطان الغنيّ بالله يحثّهُ فيها على الجهاد، حيث يقول:

يا ناصرَ الإسلامِ يا مَلِكَ العُلا الله يُؤْتيكَ الجَزَاءَ جزيلا

جهّز جُيُوشك للجهادِ مُوَفّقاً وكفى بِرَبّكَ كافياً وكَفيلا

ولتُبْعِد الغاراتِ في أرضِ العِدا والله حَسْبُكَ ناصِراً ووكيلا[3]

(الكامل)

واستخدم ابن زمرك صيَغَ الامر في قوله:(جهّز، كفى، لتُبعِدَ) وهذا يتناسب مع التفخيم الذي أبداهُ لها الملك، وجاء الرويّ من خلال حرف (اللام) وهو من الحروف

---

[1])١(الملك يوسف الثالث: الديوان. ص. :٥١

[2] أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية. ط. :٥مصر: مكتبة الأنجلو. .١٩٧٩ص. :٤٨

[3] المقّري، شهاب الدين: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج. :٢ص. :١٠٢

التي تتميز بالوضـــوح الســـمعي، إضـــافةً إلى هذا فقد أُتبع الرويّ بحرفي لين هما: الياء والألف، ممَّا زاد من قوةٍ وضـوحه في السـمع، فاللام من أوضـح الأصـوات السـاكنة في السمع، ولهذا أشبهت من هذه الناحية أصوات اللين[1].

ونلحظ أن رويّ الراء، قد وردَ في جميع الأغراض، فقد رأيناه في المديح والرثاء والغزل، وغير ذلـك من الألوان الأخرى. ويرجع هـذا إلى صـــفـة التكرار التي تميّزهُ عن باقي الأصوات، وهذا جعله ملبّياً للحالة الشعورية التي يعيشها هؤلاء. ومن الغزل ما جاء عند أبي عبد الله البلشي، حيث يقول:

عيناىَ تفهمُ من عينيكِ أسراراً ووردُ خدّيكِ يزكي في الحشا نارا

ملكتَ قلبَ محبٍّ فيكَ مكتئبٍ قد أثّر الدَّمعُ في خدّيهِ آثارا

رضابُ ثغركِ يُروي حَرَّ غُلَّتِهِ يا ليتَ نفسي تقضي منهُ أوطارا

أنعِمْ بطيفِ خيالٍ منك ألمحه ماذا عليكَ لطيفٍ منهُ لو زارا[2]

(البسيط)

فالشـــاعر يعبّر عن حبّه المتجدد الذي لا ينضـــب، من خلال رويٍّ يتناســـب مع التجدّد والاستمرار، وهذا يتناسب مع حرف الراء الذي يعطي دلالة التكرار في ذاته.

والذي يدعو الشـعراء إلى اسـتخدامه، هو أن الصـفات التي يطلقونها على محبيهم وممدوحيهم لا تنقطع، وهذا يتوافق مع دلالة التكرار في صوت الراء.

الموسيقى الخارجية:

المطلب الأول: الوزن.

الوزن لغة: تقول وزنت الشيء لزيد أزنه، بمعنى كلت لزيد، فاتزنه أي أخذه، ووزن الشيء نفسه ثقل، فهو وازن، وما أقمت له وزنا كناية عن الإهمال

---

[1] أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية. ص. :٦٣

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة. ص. :٥٦

والإطراح، وتقول العرب ليس لفلان وزن،أي قدرلخسته،[1] قال ابن منظور: "ويقال وزن فلان الدراهم وزنا بالميزان، وإذا كاله فقد وزنه،ووزن الشيء إذا قدره، والميزان المقدار، أنشد ثعلب:

قَد كُنتُ قَبلَ لقائكم ذا مرةٍ عندي لكل مخاصم ميزانه

وأوزان العرب ما بنت عليه أشعارها واحدها وزن، وقد وزن الشعر وزنا فاتزن، وهذا القول أوزن من هذا، أي أقوى وأمكن."[2]

اصطلاحا: هو الإيقاع الحاصل من التفعيلات الناتجة عن كتابة البيت الشعري كتابة عروضية أو هو الموسيقى الداخلية المتولدة من الحركات والسكنات في البيت الشعري.[3]

تعد نونية أبي البقاء الرندي من أروع قصائده على الإطلاق حيث قالها فى رثاء المدن الأندلسية التي سقطت في أيدي القشتاليين بسبب تخاذل ملوك الأندلس، ويذكر المؤرخون أن الذي سبب هذا الهول عند الأندلسيين هو تنازل محمد بن يوسف ملك غرناطة عن أكثر من مائة حصن للنصارى، مقابل أن يحتفظ بعرش ملكه، فبكى لذلك الناس والشعراء، ومنهم أبو البقاء الذي طبق القاعدة النقدية القائلة بأن الشاعر إذا أراد أن يبكينا فليبك أولا وهو ما حصل، ذلك أن القصيدة تثير الكثير من الشجى في نفس قارئها وسامعها، ولذلك قيض لمرثيته هذه من الذيوع والشهرة مالم يقيض لغيرها،[4] وقد انتقى الشاعر من بين بحور الشعر البحر البسيط وزنا لقصيدته لمدى مناسبة البحر

---

[1] أحمد بن محمد الفيومي،المصباح المنير، تحيق يحي مراد، الطبعة الأولى،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م ص ٤٠١

[2] ابن منظور، لسان العرب، ص ٤٨٢٩، مج ٦

[3] إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في العروض والقوافي، الطبعة الأولى، دارالكتب العلمية،بيروت /لبنان، ١٩٩١م ص ٤٥٨.

[4] دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، ص ٣١٢

لموضوع شعره لأنه يعبر عن الحالة النفسية للشاعر المتمثلة في مرارة المصاب وهذه القاعدة تنبه إليها النقاد قديما حيث قالوا على الشاعر أن يختار الوزن والقافية التي تناسب الموضوع الذي يتطرق إليه، ومن هؤلاء ابن طباطبا حيث يقول: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة محض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه " [1]والبحر البسيط من البحور المركبة لاختلاف أجزائه، ويرد تاما ومجزوءا أو مخلعا وهو من البحور الطويلة التي يعمد إليها الشعراء في الموضوعات الجدية ويمتاز بجزالة موسيقاه ودقة إيقاعه، وهو يقترب من الطويل في الشيوع والكثرة والذيوع، حيث قال المعري:"إن أكثر ما فى دواوين الفحول من الشعراء الطويل والبسيط"[2]، وسمي بسيطا لأن الأسباب انبسطت في أجزائه السباعية فحصل في أول كل جزء من أجزائه السباعية سببان، وقيل سمي بسيطا لانبساط الحركات في عروضه وضربه[3]، ومفتاحه هو:

إن البسيط لديه يبسط الأمل مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

وهو على ثمانية أجزاء:

مستفعلُن فَاعِلُن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

ولتوضيح ذلك من خلال القصيدة نأخذ بعض الأبيات لتقطيعها.

قال أبو البقاء:

لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

لكلل شيءن إذا ما تم نقصانو فلا يغرر بطيبؤ لعيش إنسانو

---

[1] ابن طباطبا، عيار الشعر،تحقيق عباس عبد الساتر، الطبعة الأولى،دار الكتب العلمية،بيروت /لبنان ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١١

[2] المعجم المفصل فى العروض والقوافي، ص ١٠٣

[3] محمد حماسة عبد اللطيف، البناء العروضى فى القصيدة العربية، الطبعة الأولى دار الشروق للنشر والتوزيع بالقاهرة ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م، ص ١٠٨.

متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن متفعلن فعلن مستفعلن فعلن

وقال:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان

تبك لحنيفيية لبيضاء من أسفن كما بكى لفراق لإلف هيمانو

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن متفعلن فعلن مستفعلن فعلن

نلاحظ أن الشاعر استعمل البحر البسيط تاما غير مجزوء، غير أن عروضه في كثير من الأحيان لم تبق صحيحة،بحيث تغيرت من فاعلن إلى فعلن، وكذلك تغير ضربه كما رأينا من خلال الأبيات التي قمنا بتقطيعها كما نلاحظ أن أبا البقاء التزم في البيت الأول من نونيته بالتصريع، وهو يقوم بقرير قاعدة إنسانية عظيمة مستمدة من الحياة، ومؤداها أن كمال الأشياء بداية نهايتها،فالإنسان ما يكاد يبلغ ريعان شبابه حتى تدركه الشيخوخة وترده إلى وهن، حتى تسلمه إلى الفناء، وهذا أيضا ما يصدق على الحضارات والأمم، فلا يغرن إنسان جبروته مهما عظم، ولا تبطرن أمة قوتها مهما بلغت،فمرد ذلك كله إلى فناء.[1]

القصيدة	عدد أبياتها	عدد تفعيلاتها	التفعيلات السالمة منها	التفعيلات غير السالمة
نونيه أبي البقاء	٤٢	٣٦٦	١٤٦	١٩٠

المطلب الثاني :الزحافات والعلل:

١-الزحاف :هو تغير يلحق بثواني أسباب الأجزاء للبيت الشعرى في الحشو وغيره، كتسكين التاء من متفاعلن فتصبح متفاعلن، وحذف الألف فاعلن فتصير فعلن،

[1] حميد آدم ثويني، فن الأسلوب دراسة تطبيقية عبر العصور، الطبعة الأولى، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان /الأردن٢٠٠٦/١٤٢٧هـ، ص ٥٥٠

ويدخل الحشو والعروض والضرب [1].

٢-العلة : هي تغير غير مخصص بثواني الأسباب واقع في العروض والضرب لازم لها أي أنه إذا لحق بعروض أو ضرب في أول بيت من قصيدة وجب استعماله في سائر أبياته، ومثال ذلك حذف السبب الأخير من فاعلاتن ليصبح بعد ذلك فاعلن.[2]

من خلال تقطيع أبيات القصيدة فإني رأيت أنه لا يخلوا بيت من زحاف أوعلة، وهذه القاعدة قررها علماء العروض قديما، حيث قالوا أن بحر البسيط لا يرد في الإستخدام إلا وقد أصيبت عروضه وضربه بتغييرات سواء زحافا أوعلة، مع ملاحظة أن زحاف الخبن يدخل في جميع أجزائه [3]ولتوضيح ذلك نأخذ بعض الأبيات نموذج للتحليل:

قال أبوالبقاء:

فاسأل بلسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين حيان

فسأل بلنسيتن ما شأن مرستن وأين شاطبتن أم أين جيبانو

مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن متفعلن فعلن مستفعلن فاعل

وقال:

وأين قرطبة دار العلوم فكم	**من عالم قد سما فيها له شان**
وأين قرطبتن دار لعلوم فكم	**من عالمن قد سما فيها لهو شانو**
متفعلن فعلن مستفعلن فعلن	**مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعل**

نلاحظ أن الشاعر استعمل في قصيدته هذه زحاف الخبن، والمتمثل في حذف الساكن الأول من التفعيلة،فمستفعلن تصبح متفعلن وفاعلن تصبح فعلن، وكذلك أدخل على التفعيلة الأخيرة من عروضه علة القطع وهو حذف الساكن الأخير من التفعيلة، وعلى هذا تصبح فاعلن على وزن فاعل، وهذا ما يوضحه الجدول التالى:

---

[1] عبد الرضا علي، موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه، الطبعة الأولى،دار الشروق للنشر والتوزيع،عمان/الأردن ١٩٩٧م، ص ١٩.

[2] أحمد الهاشمي،ميزان الذهب، ضبطه وعلق عليه علاء الدين عطية،الطبعة الثالثة،مكتبة دار البيروتي، ١٤٢٧ / ٢٠٠٦م ص ٢٤

[3] عبد الرضا علي، موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه،ص ١١٨

التفعيلة الأصلية	نوع التغيير	نوع الزحاف أو العلة	التفعيلة المتحصل عليها
مستفعلن	حذف الساكن الأول	زحاف الخبن	متفعلن
فاعلن	حذف الساكن الأول	زحاف الخبن	فعلن
فاعلن	حذف الساكن الأخير	علة القطع	فاعل

المطلب الثالث :القافية والروي : القافية شريكة الوزن في الإختصاص بالشعر، ولها دور كبير في تحديد بنية البيت من حيث التركيب والإيقاع معا.

وقد درس العلماء القافية وقدموا كل ما يتعلق بها من أجل أدائها للدور المنوط بها في الشعر، وعرفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى الذي له معنى، ولابد لكي يستقيم فهم الشعر القديم معرفة نظامه العروضي، ونظام قوافيه.[1]

أ –القافية:

١-القافية لغة: تقول قفوت أثره قفوا أي تبعته، وقفيت أثر فلان أي أتبعته إياه، والقفا مقصور مؤخر العنق، وفي الحديث " يعقد الشيطان على قافية أحدكم "، أي على قفاه.[2]

٢-لقافية اصطلاحا: إتفق علماء العروض على أن القافية هي آخر البيت،ولكنهم اختلفوا في كونها حرف أو كلمة أو أكثر، فقال الخليل: "القافية هي آخر حرف من البيت إلى أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي

[1] البناء العروضى فى القصيدة العربية، ص ١٦٥

[2] المصباح المنير، ص ٢٩٩

قبل الساكن،وعلى هذا القول فإن القافية تكون مرة كلمة ومرة أكثر كقول امرئ القيس:

كجلمود صخر حطه السيل من عل فالقافية في هذا البيت هي "من عل " وهاتان كلمتان، وربما تكون أقل من كلمة نحو قول الشاعر:

"ويلوي بأثواب العنيف المثقل فالقافية في هذا البيت من الثاء إلى آخر البيت، وهي بعض كلمة".

وتابعه على هذا القول الجرمي وأصحابه، وهذا الذي رجحه ابن رشيق رحمه الله،[1] أما الأخفش فيرى أن القافية هي آخر كلمة من البيت ذلك أنه لو قال لك قائل: "إجمع لي قوافي تصلح مع كتاب، لأتيت بشباب ورباب وركاب وغيرها،" ورجح بعض العلماء قول الأخفش لأن العرب كانوا يقولون البيت حتى إذا لم يبق منه إلا الكلمة الأخيرة، قالوا بقيت القافية وعلى هذا يقول ابن جني: "إذا جاز أن تسمى القصيدة كلها قافية كانت تسمية الكلمه التي فيها قافية أجدر " قال السكاكي:" والميل من هذه الأقوال إلى قول الخليل، لوقوفه على أنواع علوم الأدب نقلا وتصرفا واستخراجا واختراعا ."[2]

ب –الروي: هو الحرف الذى تبنى عليه القصيدة وتنسب إليه، فيقال :قصيدة لامية أو ميمية أو نونية،إن كان حرفها الأخير لاما أو ميما أو نونا.[3] أما إذا طبقنا ذلك على نونية أبي البقاء، فإننا نجد أنه رحمه الله قد استعمل في قصيدته هذه القافية المطلقة ذات روي متحرك مضموم في جميع أبياتها، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال النموذج التالي:

قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

قواعدن كنن أركان لبلاد فما عس لبقاء إذا لم تبق أركانو

---

[1] العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج١، ص ٣٥.

[2] البناء العروضي في القصيدة العربية،ص ١٧٠

[3] ميزان الذهب، ص ١٢٩.

متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن متفعلن فعلن مستفعلن فاعل

وقال:

يا رُبَّ أم وطفل جيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

يا رُبَ أُمن وطِفلِن حيل بينهما كما تفررق أرواحن وأبدانو

متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن متفعلن فعلن مستفعلن فاعل

رابعا: علاقة الوزن بالموضـــوع الشـــعري: لقد دار جدل كبير بين النقاد عن علاقة الأوزان الشعرية بمواضيعها، قال ابن طباطبا:" فإذا أراد شاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد، بناء الشعر عليه في فكره نثرا وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه والوزن الذي يسلس له القول"،[1] أما حازم القرطاجني فإنه اجتهد في هذه القضية وأفاض القول فيها متأثرا بما نقله ابن سينا عن أرسطو، حيث قال: "ومن تتبع كلام الشـــعراء في جميع الأعاريض وجد الكلام الواقع فيها تختلف أنماطه بحســـب اختلاف مجاريها من الأوزان، فالعروض الطويل تجد فيه أبدا بهاء وقوة، وتجد للبســـيط بساطة وطلاوة،وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد،وللخفيف جزالة ورشاقة "[2]وعلى هذا فإن على الشـاعر أن يتخير من البحور التي تناسـب الغرض الذي يريده، فالطويل مثلا يعد من البحور الفخمة الرضـــية كما أن فيه بهاء وقوة تجعله يصـــلح للأغراض الجادة كالفخر، وقد ســـار على هذا المنوال بعض المحدثين منهم أحمد الشـــايب الذي يرى أن خير الأوزان ماكان ملازم لموضـــوعه أو عاطفته العامة، وعلى الناقد أن ينظر في هذه الصـــلة بين المعنى والوزن لعله يجد في ذلك تناســـبا يكســـب النظم قوة وجمالا أو تجافيا يذهب بروعة الشعر وحسنه.[3]

إلاّ أن هذا الرأي خالفه بعض النقاد، وجلهم من المحدثين منهم إبراهيم أنيس ومحمد غنيمي هلال وغيرهم، فإبراهيم أنيس يعلل لرأيه بأننا لو اســـتعرضـــنا القصـــائد القديمة

---

[1] عيار الشعر، ص ١١

[2] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٢٦٩

[3] أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، الطبعة العاشرة، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة، ١٩٩٤م، ص ٣٢٤.

وموضـوعاتها لا نكاد نشـعر بمثل هذا التخير أو الربط بين موضـوع الشـعر ووزنه،[1]أما محمد غنيمي هلال فيرى أن القدماء من العرب لم يتخذوا لكل موضـــوع من هذه الموضوعات وزنا خاصا أو بحرا خاصا من بحور الشعر القديمة ...وتكاد تتفق المعلقات في موضـــوعاتها إلا أنها نظمت من الطويل والبســيط والخفيف والوافر والكامل،[2]وبعيدا عن الجدل حول وعي الشـــاعر باختيار بحره الذي يمكن أن يســـتوحي من قول إبراهيم أنيس:" إننا نستطيع –ونحن مطمئنون –أن نقرر أن الشاعر في حالة اليأس يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع، يصـب فيه من أشـجانه ما ينفس عنه حزنه أو جزعه فإذا قيل وقت المصـيبة والهلع تأثر بالإنفعال النفسـي، وتطلب بحرا قصـيرا يتلاءم وسـرعة النفس وازدياد النبضات القلبية ."[3]

هذه بعض أراء النقاد حول هذه المسألة عرضتها حتى تتضح الرؤية عما نحن بصدده من الدراســـة، وما يعنينا الآن هو علاقة وزن نونية أبي البقاء الرندي بالموضـــوع الذي طرقه. مرمعنا أن أبا البقاء نظم قصيدته على بحر البسيط الذي يتألف من:

"مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن" "مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن"

"وهذا الوزن يتناسـق تناسـقا تاما مع جو الرثاء والحزن الذي خيم على أبي البقاء في فقد أعز بلاد المسـلمين، كما يتناسـب مع النّفَس الذي يفرج عن الشـاعر، وينفس عنه الأحزان والآلام، فهو بحر إطلاق الآهات"، وهو في ذلك متبعا لمن سـبقه من الشـعراء لأن معظم المراثي جاءت على هذا البحر، ولم تقتصر الموسيقى المتدفقة والمعبرة عن حالته النفسية الفزعة على الوزن فقط، بل ختم أبياته بقافية مطلقة، وهي الأكثر استعمالا عند العرب من القافية المقيدة،كما نقل إبراهيم أنيس وهويؤكد أن القافية المطلقة "العربية " أكثر موسـيقى من القافية المقيدة، لأن الأولى تنتهي بحرف مد يمتد معه الصـوت أكثر، باعتبـار أن حروف المـد أوضـــح في الســـمع من غيرهـا، أمـا الأخرى فـإن

---

[1] إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ١٧٥.

[2] محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، تاريخ النشر أكتوبر ١٩٩٧م، ص ٤٤١.

[3] إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ١٧٦

الصـوت فيها يفقد سمته الصـوتية،ويقل وضـوحه السـمعي عند الوقوف عليه،[1]ثم ختم أبياته بروي النون وهو من حروف الغنة، مما يبعث فى النفس نغمة حزينة شـجية تسـفر عـن الأســـى الـعـمـيـق والـتـمـاس الـعـظـة والـعـبرة فـيـمـا حـل بالأنـدلـس.

البحور:

إن أكثر الأوزان شـيوعاً لدى شـعراء الزهد في هذه المرحلة هو البحرالبسـيط،فقد نظموا فيه معظم قصائدهم ومقطوعاتهم،ويقول الدكتور إميل يعقوب حول البحرالبسيط ومميزاته:"هذا البحر من البحورالطويلة التي يعمد إليها الشـعراء في الموضـوعات الجدية، ويمتاز بجزالة موســيقاه وقة إيقاعه،وهو يقترب من الطويل في الشـــيوع والكثرة أوبعده بقليل،ولكنه لايتســـع مثله لاســـتيعاب المعاني ولايلين لينه للتصـــرف بالتراكيب والالفاظ،وهو من وجه آخر يفوقه رقة،ولذلك نجده أكثر توافراً في شـــعرالمولدين منه في شعرالجاهليين"[2].

يلي البحرالبسيط في الأهمية البحرالطويل وهوقريب من البسيط،وقد نظم شعراء هذه المرحلة العديد من أبياتهم فيه.وإكثارالزهاد من أبياتهم على هذا الوزن إن دل على شـيء فإنما يدل على اهتمامهم بالشـكل والمضـمون،فبحرالطويل يجمع إلى رنة الموسيقية القوية مقدرة فائقة على إبرازالمعنى،فهو أقدالبحور على تادية معاني الزهد التي ذهب إليها الشعراء.

ومن البحور والأوزان التي وجدت استحساناً وإقبالاً من شعراءالزهد البحرالكامل،وهو متميز أيضاً بماله أضرب أكثر من أضرب سائرالبحور.

القافية:

أما القافية تكون مكملة للوزن في إحداث النغم الشعري،وهي قسمت إلى قسمين:

1- مقيدة: يكون الوي فيها ساكناً،وهذا النوع قليل جداً.

2- مطلقة: يكون الروي فيها متحركاً،وهو كثيرالاستعمال.

---

[1] إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص ٢٥٨

[2] المعجم المفصل،ص:٧٤

أما بالنسبة إلى شعرالزهد في هذه المرحلة فقد أطلق الشعراء لقوافيهم العنان،فوردت معظم القوافي مطلقة.

ومما جاءت الأبيات بقواف مقيدة قول ابن الخطيب: :[1]

لا ترجُ إلا الله في شدة وثق به فهو الذي أيدك
حاشاك أن ترجو إلا الذي في ظلمة الأحشاء قد أوجدك
واشكر بالرحمة في خلقه ووجهك أبسط بالرضا وأيدك
والله لا تهمل الطاقةُ قلادةَ الحق الذي قلدك
ما أسعد الملك الذي سُستَه ياعمرالعدل وما أسعدك

وقصيدةالرندي: [2]:

وصرت أعاف الصبا والمجون ورب طباع تعاف العسل
وما زين اللهو إلا الشباب ولاحسن الغي إلا الثمل
يدور الزمان كدور الرياح فطورا جنوبا وطورا شمل
فيوما يعز ويوما يذل فكم قد أعز وكم قد أذل
وما الناس إلا كمثل النجوم وما طلع النجم إلا أفل
وما المرء إلا كمثل النبات إلى النقص يرجع مهما اكتمل

الإيقاع النفسي والتناغم:

جاء في قصيدة ابن خميس:

تُراجع من دنياك ما أنت تاركُ وتسألها العتبى وها هي فارِكُ
تؤمل بعدالترك رجعَ ودادها "وشر وداد ما تود الترائكُ"

---

[1] ديوانه،ج:٢،ص:٢٣١

[2] الإحاطة،ج:٢،ص:٢٥٦

"حلا لك منها ما حلا لك في الصبا" فأنت على حلوائه متهالكُ

تظاهر بالسلوان عنها تجملاً فقلبك مخزون وثغرك ضاحكُ

تنزهتُ عنها نخوةً لا زهادةً شعر عذار أسود اللون حالكُ[1]

يصنع ابن خميس شعره الزهدي باثاً فيه ذاتيته المناسبة، مضفياً عليه وجده وحرقه في إيقاع تراكمي متصل يفضي أوله إلى آخره،ولنتأمل ذلك:

تُراجع من دنياك ما أنت تاركُ وتسألها العُتبى وما هي فارك

ت ر ع دك ت ت ر ك ت ع ف ر ك

تؤمل بعد الترك رجعٌ وِدادها وشر وداد ما تود الترائك

ت م ت رر دد ردد م ت دت ر

حلا لك منها ماحلالك في الصبا فأنت على حلوائه متهالك

ح ل ل ك م هـ ح ح ل ل ف ف ن ل ل هـ م هـ ل

وهذه الملاحظة التي أبديناها بشأن الإيقاع نريد من ورائها أن نبرهن بأن الشاعر كان يبحث عن ذلك ويستهدفه في إنشاء قصائده المختلفة، ولاسيما المتعلقة بالزهد حين يكون الذهن طائشاً والبال حائراً متملياً، ولامجال للعقل الذي يكون في غيبوبة مبعداً لارأي له ولاحكم.

ونقدم مثالاً آخر في مجال الإيقاع والتناغم،يقول ابن الأبار:

أيا غوث الفقير أجب فإني دعوتك بافتقار يا كريم

ولا تدع السعال يهد جسمي وكيف وأنت رحمانٌ رحيم

فعجل بالشفاء وجُد وسامِح فأنت القادر البر الحليم

ومُن بما أنت أُرجي منك فضلاً فإنك بالذي أرجو عليم

سألتك بالشفع وكيف أخزَى ومعتمدي جبيبك ياحليم

---

[1] أزهارالرياض، المقري،ج:٢،ص:٣٠٥

وحاشا أن أضام وقد أواني بمدح المصطفى كهفٌ رقيم

ولُذتُ بجاهه لا زال قصدي قضيب البان اِذهبَ النسيم[1]

بناءالمقطوعة وصورتها متين يعتمد الإيقاع الجميل عن طريق الاستعانة بالبحر والوافر، ويرتكز على التراكم في الوزن الصـــوتي، كماهو الشـــأن بالنســـبة لترداد حروف الفاء والقاف:

الفقير...فإني بافتقار (البيت الأول)

والدال والسين والحاء والراء (البيت الثاني)

وكذلك الحال في سائرالأبيات،ولاسيما الثالث والرابع.

قد يتحاور التكرار الوصفية الإفهامية التأكيدية، ليصبح تقنية جمالية تختلف درجتها وطريقتها من شاعر لآخر،كما أنه يمكن أن يضيف روحا غنائية للنص،لأنه يشبه القافية في الشـعر إلى حدما،ورغم أن التكرار قد يثير الملل في نفس القاؤئ أوالسـامع على حد سواء ويحط من قيمة صاحب الأثر كمبدع، إلا أننا ملزمون بالبحث عن سراللجوء إلى هذه الظاهرة الأســـلوبية محاولين اقتراح التحليلات المناســـبة وإيجاد الإيحاءات القريبة والبعيدة التي رمي إليها التكرار، غير أن بعض منظري الأسـلوبية يرى أن قيمة كل إجراء أسلوبي تتناسب مع حدة المفاجأة فكلما كانت الخاصية الأسلوبية غيرمنتظرة كان وقعها في المتلقي عميقا وكلما تكررت نفس الخاصية في نص معين ضعفت قوتها التأثيرية، لأن التكرار يفقدها شحنتها تدريجيا.

وهذا هو الملاحظ في قصـــيدة أبي البقاء الرندي النونية، فإنه وإن كرر بعض الكلمات أوالأساليب فإنه يريد منها زيادة لرصانة أسلوبه وتقويته، إما من ناحية المعاني أو إغناءه بالموســـيقى الشـــجية التي تبعث في النفوس الميلان والاطمئنان لها. والتكرار قسمان: قسم يتكرر فيه اللفظ والمعنى معا، وقسم آخر تكرر فيه المعنى دون اللفظ، ولم نجد إيقاعا موسيقيا إلا في النوع الأول، أي فيما تكرر فيه اللفظ والمعنى.

---

[1] الإحاطة،ج:٣،ص:٢٣٢

1- تكرار حروف المد:

الحروف إجمالا:١٦٠٦

حروف المد: ٢٣٨

نسبتها: ١٤,٨١%

لا شـــك أن حروف المد تحتاج زمنا طويلا عندالنطق بها، وهذا الامر يعطيها قدرة فائقة على التلون الموســـيقي، بحيث تمنح المتلقي ألحانا مختلفة وتاثيرات متنوعة، وتخلق نوعا من الانســـجام بين الموســـيقى والحالة النفســـية للمبدع، وقد برزت ظاهرة تكرار حروف المد في نونية أبي البقاء الرندي حتى اصـبحت ميزة لافتة، بحيث نسـتطيع عليها بأنها تعد ظاهرة أسلوبية،ومن ذلك قوله:

لكل شئ إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دولُ من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شأن

يمزق الدهر حتما كل سابغة إذا نبت مشرفيات وخرصان

وينتضي كل سيف للفناء ولو كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذوي تيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين شاده شداد في إرم وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا[1]

تتميز هذه الأبيات بكثافة حروف المد بشـــكل لافت، إذ لاتكاد تخلو كلمة من كلماتها تقريبا من المد، والملاحظ أن حروف الألف قد تردد في أغلب كلمات الأبيات السابقة، ومن أمثلة ذلك:

- نقصان

[1] ديوانه، ص:١١١

- إنسان
- ساءته أزمان
- شاده شداد
- مسرات
- أحزان

وغيرذلك كما هو ظاهر في الأبيات، ليفرض بذلك جو من الموسـيقى الحزينة التي تعبر عن آهات الشاعر المنبثقة من نفسية منهارة، تريد أن تتسلى عما أصابها بذكر سنن الدهر في خلقه، وتذكر هلاك من جمعوا الأموال وشـادوا البنيان، ومع ذلك ذهب الكل إلى زوال،ومن ذلك قوله:

يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رُب أم طفل حيل بينهما كما تُفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ برزت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العِلج للمكروه مكروهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان[1]

من الملاحظ أن هذه الأبيات تعج بالشـكوى إذ تشـترك أصـوات المد فيها لتعزف نغما من الألم والحزن الذي أرادالشاعر أن يبثه من خلال نونيته،ومن أمثلة ذلك:

- أحال حالهم
- طغيان

[1] ديوانه،ص:١١٢

- كانوا ملوكا
- عبدان
- يذوب
- بكاهم

واللافت أن صوت المد (الألف) أيضا هوالأكثر شيوعا وتكرارا،ممايدل على أنه الصوت الأقدر على التعبير عن مشاعر الألم والحزن وتصويرها من خلال موسيقاه الممتدة.

2- تكرار الكلمة:

يخلص صلاح فضل إلى أن قيمة كل عنصر بنائيا تكمن على وجه التحديد في كيفية اندماجه وتصاعده إلى مايليه فتكسب بذلك الصيغ أهمية خاصة، يصبح تكرارها ليس نجرد توقيع موسيقي رتيب بل هو إمعان في تكوين التشكيل التصويري للقصيدة ودعامة لمستوياتهاالعديدة في هيكل تركيبي[1]، ومالكلمة إلا عنصر له درجته التكثيفية ومدلوله الخاص، ومجموعة من المقاطع المكونة من حرف أو وحركات ووحدات منتزمة في الكتابة منسق خاص، حيث يحدث التكرار في البيت اوالأبيات إيقاعا صوتيا يشارك في موسيقى الشعر،لأن تكرار الصيغة يعني نمطا تترد فيه وحداته الصوتية، وقد شكل التكرار في قصيدة أبي البقاء الرندي حضورا متميزا،ووظفه الشاعر للتعبير عن انفعالاته ومشاعره مما أثرى المستوى الشعوري لقصائده،ومن ذلك قوله:

فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان[2]

حيث نراه يكرر كلمة أنواع مختلفة مع اختلاف طفيف في صيغتها للتعبير على أن فجائع الدهر كثيرة، ويقول:

وللحوادث سلوان يسهلها وما لِما حل بالإسلام سلوان[3]

---

[1] إنتاج الدلالة الأدبية،صلاح فضل، مؤسسة المختار القاهرة،ط:١٩٨٧م،ص:٢٧٥

[2] ديوانه،ص:١١٣

[3] ديوانه،ص:١١٣

فتكرار كلمة سلوان هنا ادى دورا بارزا في الاشارة إلى عظيم ما أصيب به المسلمون في الأندلس،ومن ذلك قوله:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان[1]

نونيته:

تعد النونية من أروع شعر أبي البقاء الرندي على الإطلاق لأنها تثير الشجى في نفس كل من يقرأها أو يسمعها، ذلك أن الأحداث الأليمة التي حلت بالمسلمين في الأندلس، تفطرت لها القلوب ودمعت لها عين كل من في قلبه ذرة إيمان، وتجاوبت لوصفها ألسنة الشعراء، وكان من أبلغها،هذه النونية التي نحن بصدد دراستها، وسبب نظمها كما يذكر المؤرخون، أنه لما تفاقم عدوان القشتاليين وظغطهم على ابن الأحمر اضطر أن يتنازل على بعض الحصون لمهادنة ملوك قشتالة،فتنازل في أواخر سنة ٦٦٠هـ عن عدد كبير من الحصون منها شريش والقلعة وغيرها[2] وقيل ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ للنصارى، بلغ أكثر من مائة موضع، وهكذا فقدت الدولة الإسلامية في الأندلس معظم قواعدها الكبيرة في وابل مروع من الأحداث، واستحال الوطن الأندلسي الكبير إلى رقعة صغيرة هي مملكة غرناطة، وقد أثارت هذه المحن التي توالت على الأندلس في تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب، وهي التي نظم فيها أبو البقاء نونيته الرائعة التي يبكي فيها قواعد الإسلام الذاهبة،ويستنهض همم المسلمين لإنجاد الأندلس[3] والقواعد التي ندبها في قصيدته هي: إشبيلية وقرطبة ومرسية وشاطبة وجيان، وكلها سقطت بين سنة ٦٣٠هـ وسنة٦٥٠هـ، الموافق لـ ١٢٣٧م و١٢٥٢م، بالإضافة إلى المئات من الحصون،فالقصيدة بذلك تدين ابن الأحمر دون أن تتعرض له، وتجعله مسؤولا دون أن تذكر اسمه، ولذلك كان أحفاده أحرص على عدم تداولها بين الناس، حتى أن لسان

---

[1] ديوانه،ص:١١٣

[2] على ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، دط ت، دار المنصورة للطباع والوراقة، ص ١١٢.

[3] دولة الإسلام في الأندلس، ص ٤٩

الدين ابن الخطيب ألف أعظم كتاب في تاريخ غرناطة وذكر أشعار أبي البقاء الرندي لكنه لم يذكر مرثيته،لأنه كان الوزير الأول لملوكها. [1]

الموسيقى الداخلية:

المطلب التكرار: "قد يتجاوز التكرار الوضـــيفة الإفهامية التأكيدية، ليصـــبح تقنية جمالية تختلف درجتها وطريقتها من شـاعر لآخر، كما أنه يمكن أن يضـيف روحا غنائية للنص، لأنه يشـبه القافية في الشـعر إلى حد ما، ورغم أن التكرار قد يثير الملل في نفس القارئ أو السامع على حد سواء ويحط من قيمة صاحب الأثر كمبدع"، إلا أننا ملزمون بالبحث عن سـر اللجوء إلى هذه الظاهرة الأسـلوبية محاولين اقتراح التحليلات المناسـبة وإيجاد الإيحاءات القريبة والبعيدة التي يرمي إليها التكرار، غير أن بعض منظري الأسلوبية يرى أن قيمة كل إجراء أســـلوبي تتناســـب مع حدة المفاجأة فكلما كانت الخاصـــية الأسـلوبية غير منتظرة كان وقعها في المتلقي عميقا وكلما تكررت نفس الخاصـية في نص معين ضـــعفت قوتها التأثيرية، لأن التكرار يفقدها شـــحنتها تدريجيا، وقد رأت جوليا كريســـتيفا أن الوحدات المكررة في النص الأدبي لايراد منها التكرار المحض، لأن ذلك يوقع النص في الحشـــو الذي ينقص من قيمته، وهذا هو الملاحظ في قصـــيدة أبي البقاء الرندي، فإنه وإن كرر بعض الكلمات أو الأساليب فإنه يريد منها زيادة لرصانة أسلوبه وتقويته، إما من ناحية المعاني أو إغناؤه بالموسيقى الشـجية التي تبعث في النفوس الميلان والإطمئنان لها، والتكرار قسـمان :قسـم يتكرر فيه اللفظ والمعنى معا، وقسـم آخر تكرر فيه المعنى دون اللفظ، ولم نجد إيقاعا موســـيقيا إلا في النوع الأول أي فيما تكرر فيه اللفظ والمعنى[2].

-١تكرار حروف المد :

الحروف إجمالا	حروف المد	نسبتها
١٦٠٦	٢٣٨	%١٤,٨١

[1] دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ،ص ٣١٣

[2] خصائص الأسلوب، ص ٦٢

لاشـــك أن حروف المد تحتاج زمنا طويلا عند النطق بها، وهذا الأمر يعطيها قدرة فائقة على التلون الموســـيقي، بحيث تمنح المتلقي ألحانا مختلفة وتأثيرات متنوعة، وتخلق نوعا من الإنســـجام بين الموســـيقى والحالة النفســـية للمبدع، وقد برزت ظاهرة تكرار حروف المد في نونية أبي البقاء الرندي حتى أصـــبحت ميزة لافتة، بحيث نســـتطيع أن نطلق عليها بأنها تعد ظاهرة أسلوبية، ومن ذلك قوله:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شان

يمزق الدهر حتما كل سابغة إذا نبت مشرفيا وخرصان

وينتضي كل سيف للفناء ولو كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

أين الملك ذوي التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شداد في إرم وأين ماساسه في الفرس ساسان

وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ماكانوا

تتميز هذه الأبيات بكثافة حروف المد بشـــكل لافت، إذ لا تكاد تخلو كلمة من كلماتها تقريبا من المد، والملاحظ أن حرف الألف قد تردد في أغلب كلمات الأبيات الســـابقة، ومن أمثلة ذلك " نقصـــان، إنســـان، ســـاءته أزمانُ، شـــاده شـــداد مســـرات وأحزان"، وغير ذلك كما هو ظاهر في الأبيات، ليفرض بذلك جو من الموسيقى الحزينة التي تعبر عن آهات الشاعر المنبثقة من نفسية منهارة، تريد أن تتسلى عما أصابها بذكر ســـنن الدهر في خلقه، وتذكر هلاك من جمعوا الأموال وشـــادوا البنيان، ومع كل ذلك ذهب الكل إلى زوال، ومن ذلك أيضا قوله:

"يا من لذلة قوم بعد عزتهم" "أحال حالهم كفر وطغيان"

"بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم" "واليوم هم في بلاد الكفر عبدان"

"فلو تراهم حيارى لا دليل لهم" "عليهم من ثياب الذل ألوان"

"ولو رأيت بكاهم عند بيهم" "لهالك الأمر واستهوتك أحزان"

"يارُبُّ أم وطفل حيل بينهما" "كما تفرق أرواح وأبدان"

"وطفلة مثل حسن الشمس إذ برزت" "كأنما هي ياقوت ومرجان"

"يقودها العلج للمكروه مكرهة" "والعين باكية والقلب حيران"

"لمثل هذا يذوب القلب من كمد" "إن كان في القلب إسلام وإيمان"

من الملاحظ أن هذه الأبيات تعج بالشكوى، إذ تشترك أصوات المد فيها لتعزف نغما من الألم والحزن الذي أراد الشاعر أن يبثه من خلال نونيته، ومن أمثلة ذلك " أحال حالهم،طغيان كانو ملوكا، عبدان، يذوب، بكاهم " و اللافت أن صوت المد "الألف" أيضا هو الأكثر شيوعا وتكرارا، مما يدل على أنه الصوت الأقدر على التعبير عن مشاعر الألم والحزن وتصويرها من خلال موسيقاه الممتدة.

٢-تكرار الكلمة : يخلص صلاح فضل إلى أن قيمة كل عنصر بنائيا تكمن على وجه التحديد في كيفية اندماجه وتصاعده إلى ما يليه فتكتسب بذلك الصيغ أهمية خاصة، يصبح تكرارها ليس مجرد توقيع موسيقي رتيب بل هو إمعان في تكوين التشكيل التصويري للقصيدة ودعامة لمستوياتها العديدة في هيكل تركيبي،[1] وما الكلمة إلا عنصر له درجته التكثيفية ومدلوله الخاص، ومجموعة من المقاطع المكونة من حرف وحركات ووحدات منتظمة في الكتابة بنسق خاص، حيث يحدث التكرار في البيت أو الأبيات إيقاعا صوتيا يشارك في موسيقى الشعر، لأن تكرار الصيغة يعني نمطا تتردد فيه وحداته الصوتية، وقد شكل التكرار في قصيدة أبي البقاء الرندي حضورا مميزا وظفه الشاعر

[1] صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية، الطبعة الأولى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع بالقاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٧٥.

للتعبير عن انفعالاته ومشاعره مما أثرى المستوى الشعوري لقصائده، ومن ذلك قوله:

فجاءع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان

حيث نراه يكرر كلمة أنواع مع اختلاف طفيف في صيغتها، للتعبير على أن فجائع الدهر كثيرة ولذلك على الإنســـان أن لا يغتر بما يراه من النعيم الزائل، فالأندلس البلد العظيم قد حل به مالم يكن في الحســـبان من الفجائع، وقد كانوا قبل ذلك في راحة ودعة، ولذلك نســتطيع أن نقول أن تكرار كلمة أنواع بصــيغة المفعول، أدت دورها في التأكيد والتكثير ولكن ما حل بالإسلام في الأندلس ليس له سلوان، ولذلك تراه يقول:

وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حل بالإسلام سلوان

فتكرار كلمة سلوان هنا أدى دورا بارزا في الإشارة إلى عظيم ما أصيب به المسلون فى الأندلس، ذلك أن لكل الحوادث سلوان يسهلها ولكن ما أصيب به الإسلام ليس له سلوان فعظمة المصاب توحي بعظمة المصيبة.

ومن ذلك أيضا قوله:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان

حيث نلاحظ أنه كرر الفعل بكى، مرة فى الزمن المضــارع،ومرة في الماضــى، للدلالة على أن المصــاب جلل، لا يخص المســلمين فقط، وإنما يخص الإســلام، فحتى الحنيفية البيضاء بكت.

٣-تكرار الأساليب :يعد تكرار بعض الأساليب في نونية أبي البقاء الرندي سمة أسلوبية، ترجع إلى حالته النفسية والإحباط الذي كان عليه، حيث أنه فى مستهل نونيته أكثر من أسلوب النفي ليقرر قاعدة إنسانية جليلة ثابتة، ومفادها أن كمال الأشياء بداية نهايتها، ولذلك ينبغي أن لا يغتر الإنسان بقدرته وجبروته، وهذا ما يدل عليه قوله:"ولا تبقى ولايدوم "

"لكل شيء إذا ما تم نقصان" "فلا يغر بطيب العيش إنسان"

"هي الأمور كما شاهدتها دول" "من سره زمن ساءته أزمان"

"وهذه الدار لا تبقى على أحد" "ولا يدوم على حال لها شان"

"يمزق الدهر حتما كل سابغة" "إذا نبت مشرفيا وخرصان"

ومن ذلك تكراره لأسلوب الإستفهام في قوله:

أين لملوك ذوي التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شداد في إرم وأين ماساسه في الفرس ساسان

وأين ماحازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

حيث نرى أنه قد كرر أسلوب الإستفهام ست مرات، وهو في ذلك يقرر قاعدة عظيمة وهي أن كل شئ لا بد أن يؤول إلى زوال، سواء طال أو قصر، وهو يريد أن يأسي نفسه ويصبرها عما أصيب به أهل الأندلس، وإن كان الذي أصيب به الإسلام في الأندلس ليس له سلوان فمن ذا الذي يستطيع أن ينعى الإسلام وأهله، وهذا مما يبعث على الشجى والحزن، ولذلك تراه يقول بعد:

وللحوادث سلوان يسهلها وما لماحل بالإسلام سلوان

ثم يدرك أن الذي يستطيع أن يعزي نفسه فيه، هو المدن الأندلسية التي ضاعت من أيدي المسلمين فيقول :

"دهى الجزيرة أمر لا عزاء له" "هو له أحد وانهد ثهلا"

"أصابها العين في الإسلام فامتحنت" "حتى خلت منه أقطار وبلدان"

"فاسأل بلنسية ما شأن مرسية" "وأين شاطبة أم أين جيان"

"وأين قرطبة دارالعلوم فكم" "من عالم قد سما فيها له شان"

"وأين حمص وما تحويه من نزه" "ونهرها العذب فياض وملآن"

"قواعد كن أركان البلاد فما" "عسى البقاء إذا لم تبق أركان"

"ويرجع سر شيوع أسلوب الإستفهام في قوله :ما شأن مرسية؟، وأين شاطبة؟، أم أين جيان؟، وأين قرطبة دار العلوم؟، وأين حمص وما تحويه من نزه؟، للتحسر والتعجب والأسف على ضياع هذه البلاد، وعلى حالها، وهو استفهام لاستعظام أمر ظاهر، يراد به المبالغة في إظهار التعجب والتحسر والألم مما يحدث، ثم ينادي هؤلاء الغافلين اللاهين عن أوطانهم الذين انشـغلوا عنها بثرواتهم ومطامعهم الشـخصـية، ليفيقوا من غفلتهم، ولينهضوا ليعبروا عن قوتهم في الحرب وجلادهم في المعركة بضمور الخيل وسرعتها، فتغدوا في ميدان السباق كالطيور الجارحة ويكرر نفس الأسلوب مناديا المسلمين مذكرا بأنهم إخوان، واصـفا إياهم بأن الفرقة لا تجلب سـوى الذل والخسـران، وهو ما أصـيب به المسلمين،ف:

يا ركبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السب عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان

يا من لذلة قوم بعد عزتهم أحال حالهم كفر وطغيان

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

التقديم والتأخير

إن الجملة العربية تخضع لترتيب ينظّم تتابع أجزائها في الهيكل الأساسي للبناء اللغوي النحوي، ومن ثمّ تستكمل عناصر أخرى يتمّ بها التعبير ونقلُ الآراء والانفعالات، فهناك التركيب الاسـمي، وفيهِ يتقدم المبتدأ على الخبر. والتركـيب الفعلي الذي يبدأ بالفعـل والفاعل وبعده المفعول به.

وليس من الممكن النطق بأجزاء أي كلامٍ دفعةً واحدة، من أجل هذا، كان لا بدّ عند النّطق بالكلام من تقديم بعضـهِ وتأخير بعضـهِ الآخر. "والتقديم لا يرد اعتباطاً في نظم الكلام وإنّما يكون مقصوداً بما يلبي الحاجة وهذا هو سرّ التقديم"[1]

فالأهميّة تلعب دورا فاعلا في بيان رغبة الشـعراء في التقديم والتأخير، فالمتقدّم يخالف المألوف وهو مجيئه متأخرا، والمتأخّر في مقابل ذلك يأتي متقدما للسـبب المذكور، وكأنّه يضع السّامع في بؤرة التركيز على هذا المتقدّم ومن أسـاليب التقديم الشـائعة ما جاء في باب تقديم المجرورات، والتي تعين الشـاعر في تعبيره عما يبغي إيصاله، ومن هذا ما جاء في مخاطبة ابن الخطيب للوزير ابن الحكيم حيث يقول:

في سـبيل الإلاهِ مجدٌ — توارثت كريمَ الإصدار والإيرادِ

في سبيلِ الإلاهِ أخلاقُك اللا — تي هِي العَذبُ في احتدامِ الجُوَادِ[2]

في سـبيل الإلاهِ علمٌ — تُروِّيهِ ونقْلٌ مصحَّحُ الإسـنادِ

لي ثناءٌ كما علمتَ هو الوَشْيُ — وصـنعاءُ في فمي وفؤادي[3]

(الخفيف)

---

[1] الداية، فايز: جماليات الأسلوب. ص. :٧٦

أنظر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص. :١٣٥

ينظر: عبّاس، فضل: إعجاز القرآن. ط. :٢الأردن: منشورات جامعة القدس المفتوحة. .١٩٧٧ص. :١٩٦

ينظر: عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. ص. :١٤٩

[2] الجُوَاد: شدة الحرّ

[3] ابن الخطيب، لسان الدين. الديوان. ج. :١ص. :٢٩٦

فابن الخطيب يلجأ إلى تقديم شبه الجملة وهي الخبر على المبتدأ، وهذا التقديم جاء ليرفع من مكانة ابن الحكيم، حيث إنّه جعل حياتهِ كلّها مكرّسةً الله. فنراه يقدّم قوله (في سبيل الإلاهِ) ليؤكد على هذا الأمر، وهو بهذا فقد قصر الصفة على الموصوف. فالمجد والخلق والعلم، كلّها أمور تآلفت لتصل إلى تحقيق هذا الهدف. ويعود ابن الخطيب في نهاية الكلام ليؤكد على ثنائهِ على هذا الشخص من خلال الأسلوب نفسه.

إنّ أهميّةَ أمرٍ، أو شخوصٍ أو انفعال، تلعب الدور الأساسي في التقديم. وهذه الأهميّة مرتبطة بالسّياق وتوجّههُ، ونقصد هنا ما يشغل الشاعر من قضايا ومواقف وانفعالات. إنّ تقدّمَ المفعول به يحدّد نقطة الاهتمام التي سوف ينصبّ التركيز عليها. وهنا يوجه السَّامع كلّ تركيزه لكي يوضع في دائرة المفعول به. يقول ابن خاتمة الأنصاري مغرياً بالصمت:

لسانَكَ اسْجُنْ ولْتُطِلْ حَبْسَهُ إن شئتَ إكراماً وتصوينا

لو لم يكنْ للسِّجنِ أهلاً لما غدا بقعْرِ الفم مَسْجونا[1]

(السريع)

فالشاعر لجأ إلى تقديم المفعول به على الفعل والفاعل؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يحفظ كرامته وهيبته بين الناس، فلا بدّ له من أن يحافظ على كلامه، وهذا لا يتأتى له إلا من خلال ضبط لسانه ومن هذا ما ظهر عند ابن زمرك، فهو يقدّم ممدوحه ليظهره بصفاتٍ جعلها متأصلةً فيه، فالغني باالله سلطان فان الجميع بأفعاله التي عجز عن فعلها سائر الملوك، يقول:

نشَرَتْ مَحَمِدَكَ الرِّفاقُ فأَصبحتْ تُطوَى بها الأنجادُ والأغوارُ

علمت مُلوكُ الأرض أنّك فخرُها فلها ما تبتغيه بدارُ

ناجتْكَ قاصيةُ البلاد بشكرِها وأتي رسُولُك بالذي تختارُ

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص:

وافتْكَ من مِصْرَ الهَدَايا تمتري مِنكَ القَبُول ونعمَ ما تمتارُ

خطبَتْ نوَالكَ بالثنا أعـلامُها فأَتتْكَ منها الكتبُ والأشعارُ [1]

(الكامل)

فابن زمرك يلجأ إلى تقديم المفعول به على الفاعل، سـعياً منه للتأكيد على ما جاء به من صفاتٍ وأفعال تتعلق بهذا السلطان دون غيرهِ

الطباق

وهو الجمع بين الشـيء وضدّهِ، أو بين معنيين متقابلين في الجملة[2] ومنهم مَنْ اشترط فيه أن يضـع المتكلمُ أحدَ المعنيين المتضـادين من الآخر وضـعاً ملائماً. فيجمع بين الشيئين على حذو واحد، فيكون الشيئان للمعنيين، والحذو الواحد: اللفظة.

وحاول الشعراء من خلال استخدامهم لهذا اللون من البديع، أن يظهروا الشيء من خلال ضـدهِ. ويعدُّ الطباق من الوسـائل الفنيّة التي اعتمد عليها الشـعراء في إقامة علاقات جديدة بين مفردات اللغة ومِنْ الشعراء مَن أقام قصائد كاملة من خلال الجمع بين المتناقضات، فهم يعبّرون عن الشيء بضدّهِ. يقول ابن زمرك واصفاً محبوبَهُ:

رَضيتُ بما تقضي عليَّ وتَحْكُمُ أُهانُ فأقْصى أم أعزُّ فأُكرَمُ

على أنّ روحي في يديكَ بقاؤها بوصلِكَ تُحْيي أو بهَجْرِكَ تُعْدَمُ

وأنتَ إلى المشتاقِ نارٌ وجنّةٌ ببعدك يشـقى أو بقربك ينعمُ [3]

(الطويل)

وابن زمرك يصـوّر علاقتهُ بالمحبوبة من خلال بيان العلاقات المتناقضـة التي يحياها، فالعزّ في حياته لا يظهر إلا من خلال زوال حالة الهوان التي يعيشـها، والبقاء الذي يكون مرهوناً بالوصال لا يتحقّق إلا بذهاب الهجر والنكران. ونتيجة لما سبق،فهو يقف أمام طريقين متناقضـين؛ هما: طريق النعيم الذي لا يتحقق إلا بانتهاء طريق الشَّـقاء إن

---

[1] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص

[2] الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص. :٤٧٧

[3] ابن زمرك: الديوان. ص:

الجمع بين الأمور المتضادة، يكسوها جمالاً وبهاءً، فالضدُّ –كما قالوا– يظهر حَسنَهُ الضدُّ، ولا بدّ أن يكون هناك معنى و مغزى وراء الجمع بين هذين الضدين في إطار واحد، وإلا كان هذا الجمع عبثاً وضرباً من الهذيان.

وكان للظروف السياسية التي سادت الأندلس آنذاك، أثر واضحٌ في استخدام الشعراء للطباق، فأوجدوا من خلالهِ مقارنةً بين واقعين: أولهما: واقع اتّسم بالعز والقوة، وثانيهما: واقع يتسم بالذلّ والتراجع. فالعرب أصبحوا لقمة سائغة بيد الاسبان، بعد أن كانوا أسياداً على أرضهم. وخير من عبّر عن هذا الواقع أبو البقاء الرّندي حيث يقول:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نُقْصانُ فلا يغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

هي الأمورُ كما شاهدتها دُوَلٌ مَنْ سرَّهُ زمن ساءتهُ أزمانُ [1]

(البسيط)

وأظهر الشعراء في هذا العصر براعةً في الوصول إلى ما يريدون، وهنا تفاوتت هذه البراعة من شاعر إلى آخر، والمتتبع لأشعار ابن الخطيب يرى هذه البراعة واضحةً في أشعارِهِ، فهو يعطي الفكرة مكتملة المعالم من خلال عبقريةٍ نافذة، في الجمع بين هذه الأضداد فنراهُ يمدح الغنيّ باالله قائلاً:

فمَنْ استجار عُلاكَ عزّ جوارُهُ وعزيزُ قومٍ، لم يُطعْكَ، ذليل[2]

(الكامل)

وابن الخطيب في هذا البيت، يمدح الغنيّ باالله من خلال بيان أن الطاعة لهذا الملك واجبةٌ على الجميع، ومن لم يطعهُ، سيؤول في النهاية ذليلاً وإن كان عزيزاً في قومهِ. وهذا الملك يوسف الثالث، استطاع أن يصوّر لنا، أن بني نصرٍ هم حماةٌ للدّين، فهم الذين نشروا الأمن والرخاء في ربوع الأندلس حيث يقول:

لمن رايةٌ حمراءُ ترتاحُ بالنصرِ تطيفُ حَوالَيْها حماةُ بني نصر

---

[1] أنظر: ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابهِ، ونقدهِ. ج. :٢ص. :٧

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :٢ص:

إلى جبلٍ بالفَتْحِ يَصْـدُقُ فألُهُ فبعدَ تولى العسرِ لا بدّ من يُسْرِ[1]

(الطويل)

فهؤلاء الملوك –كما يرى يوسف الثالث – استطاعوا أن يخلقوا من رحمِ الهزيمة نصراً، وأن يجعلوا العسرَ يسراً، وهذا الفعل لا يتأتّى لأناسٍ عاديين وظهر الطباق واضحاً في أشعار الزهد والحكمة[2]، فهو أساس لها، فعليهِ أقاموا الحجج والبراهين، ففرّقوا الباطل بإظهار الحق، والسعي وراء الآخرة من خلال نبذ الدنيا والابتعاد عنها. يقول ابن خاتمة الأنصاري:

أعرضْ عن الشَّيء إنْ تهواهُ تحظَ به واحرص عليهِ إذا تأباهُ يمتنع

قد أقسم الدَهر إيماناً مُغَلّظَةً إن ليس ينجح حِرصاً فاسعَ أو دَعْ[3]

(البسيط)

فابن خاتمة يتمثل قول أبي بكر الصدّيق "أطلبوا الموتَ توهبْ لكم الحياة" فالإعراض عن الشيء يقابله الحظ الطيّب، ولكن الحرص يقابله الضياع، فهو يقرنُ الإعراضَ بالحرص. وفي البيت الثاني يدعنا أمام خيارين، إمّا السعيَ وراء الشيء سعياً دؤوباً، أو

---

[1] ١فيّود، بسيوني: علم البديع، دراسة تاريخيّة وفنيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع. ص. :١٣٦

[2] المقّري، أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج. :٥ص. :٣٧٣

[3] الملك يوسف الثالث: الديوان. ص. :٦٥ ينظر أشعار الحكمة والزهد في: ابن الأحمر، إسماعيل: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. الصفحات. :٣٠٢،٣٢٦،٣٣٩

ينظر: الملك يوسف الثالث: الديوان. الصفحات. :٣٣،٤٦،٧٠،٧١،١٨٣

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٢الصفحات. :٢٩١،٣٢٤ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :١ الصفحات. :٩٦،٢٨٨الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٣الصفحات. :١٧٦،١٨٠،٣٣٩،٤٥٢

ينظر: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات. :١٥٤،١٥٦،١٥٧،١٦١

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص. :٥٧٤ ينظر: المقّري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج : ٢ص. :٣١٧.

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. الصفحات : ٣٥،٣٦،٤٤،٤٧،٥٣.

أن نترك هذا الأمر للآخرين ونرى أن الطباق واضحاً في شعر الحكمة عند الملك يوسف الثالث، فكان لهذا اللون من البديع الأثر الواضح في قوة التعبير والبرهان حيث يقول:

خليليَّ مهلاً فالزّمانُ كما تـدري ولا بدّ من يسر على أثر العسرِ

فَمَهما دهى صحوٌ فلا بدَّ من قَطرِ ومهما دجا خطبٌ فلا بدّ مِنْ فجرِ[1]

(الطويل)

فالشـــاعر يبيّن أنّ دوام الحال من المحال، فليس هناك شـــيء ثابت في هذه الحياة، فالعســر يعقبهُ اليســر، ومهما اشـتدّت الأزمات فلا بدّ أن تنفرج يوماً ما. وإن أجدبت الأرض، فلا بدّ مِن أن تمطر السماء، فالفجر يبزغ من رحم الظلام.

المطلب الثاني :المحسنات البديعية : البلاغة أنواع وفنون، والبديع عالم واسع من الجمال يشار إليه بالبنان وبحر به الجمال كامن، والبهاء ساكن، والحسن فاتن، وألوان البديع من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها، فقد اكتشف البلاغيون في النصوص ذات البيان الرفيع منثورات جمالية لفظية ومعنوية جمعوها في علم واحد أطلقوا عليه اسم البديع.

أ –البديع :لغة :هو المخترع على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى :﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ البقرة ١١٧.

ب –البديع :اصطلاحا: هو العلم الذي يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة وتكسوه بهاء ورونقا بعد مطابقته لمقتضى الحال.[2]

١-الطباق:هوالجمع بين الشئ وضده فى الكلام، نحو قوله تعالى :﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الحديد،٣، وينقسم إلى قسمين :طباق إيجاب، وهو مالم يختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا،نحو قول الشاعر:

حلو الشماءل وهو مر باسل يحمي الذمار صبيحة الإرهاق

---

[1] الملك يوسف الثالث: الديوان. ص. :٧

[2] أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية،دط، صيدا /بيروت ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م ، ص ٢٩٧.

أما طباق السلب فهو ما اختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا،نحو قول تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾النساء،[1]١٠٨، ويعد الطباق من العناصر الأسلوبية التي استعان بها أبو البقاء الرندي في مستهل قصيدته، وهو بذلك يقرر قاعدة إنسانية جليلة، ففي البيت الأول:

لكل شء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

فقوله: "تم، ونقصان"، ليبرز المعنى الذي أراده الشاعر،وقد أثار الإنتباه إلى الفكرة، ورسخها في النفس وأكدها؛ ففي الوقت الذي يمعن الإنسان النظر ويرى التمام، يرى في الوقت نفسه ما يتخلله من نقصان، وتلك سنة يجب على العاقل أن يضعها نصب عينيه، وفي قوله:

على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران

فقوله "أقفرت – عمران"، طباق جمع بين الضدين، ليحرك الإنسان ليتأمل هذه البلدان كما تأملها الشاعر، لأن الضد يكون أقرب خطورا بالبال عند ذكره، ثم نادي الشاعر أهل الأندلس خاصة والمسلمين عامة الذين غفلوا عن بلادهم حتى ضاعت منهم قائلا:

يا غافلا وله في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان

إذ عليهم أن يعتبروا مما حدث، وكفاهم غفلة، لأن الدهر يقظ، وقد يترل بكوارثه ومصائبه فيفجع الغافلين الذين لم يحتاطوا لهذا اليوم، ومما وضح الصورة وأبرزها في أعين السامعين الطباق في قوله :"يا غافلا، يقظان"، ويرجع سر الجمع بين الغفلة واليقظة، أن العقول تعجب بنسج مثل هذه الأساليب، والتأليف بين المتضادين، والنفوس تجتذب لإبداعه والأذهان تدرك بلاغة صياغته ولا يخفى ما نجده من المتعة الذهنية في الجمع بين المعاني المتضادة، وقد ورد الطباق في النونية في عدة أبيات نحاول حصرها في هذا الجدول:

---

[1] جواهر البلاغة،ص ٣٠٤

الطباق	نوعه	البيت
تمّ، ونقصان	إيجاب	لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ
أقفرت، عمران	إيجاب	إن كنت في سنة فالدهر يقظانُ
يقظان، غافلا	إيجاب	إن كنت في سنة فالدهر يقظانُ
مسرات، أحزان	إيجاب	وللزمان مسرات وأحزان
ذلة، عزهم	إيجاب	يا من لذله قوم بعد عزهم
سره، ساءته	إيجاب	من سره زمن ساءته أزمانُ
الأمس اليوم	إيجاب	بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
بلاد الإسلام بلاد الكفر	إيجاب	واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

من خلال دراستنا لنونية أبي البقاء الرندي نلاحظ أن الطباق قد ورد بشكل كبير، ذلك لأن الطباق يعد من أهم وسائل اللغة لنقل الإحساس بالمعنى والفكرة والموقف نقلا صادقا، فهذه الثنائيات المتضادة تلعب دورا أساسيا في إيضاح المعنى .

إيقاع الحروف:

جاءت البنية الإيقاعية للحروف التي تشكّلت منها قصائد الشعراء في أغراضهم المختلفة، مواكبةً للغرض الذي يهدفون إليه، ولهذا فإنّنا نلحظ تفاوتاً في استخدامهم لها، فالحرف جاء عندهم ليشكّل لبنةً تُساهم في تشكيل هيكل القصيدة العام. وإذا ما ألقينا نظرةً فاحصةً على هذه الأغراض، فإنّنا نجدها قد جاءت في بنيتين إيقاعيتين مختلفتين، أولها: ما جاء في بنيةٍ إيقاعيّةٍ صاخبةٍ تتميز بموسيقاها العالية، والأخرى، اتّسمت بالإيقاع الهادئ الذي يميل إلى السكون. ولجأ الشعراء إلى تزيين ألفاظهم بألوان من البديع اللّفظي من أجل تحسين الكلام عندهم.

"وأصل الحسن في هذا التزيين؛ هو أن تكون الألفاظ تابعةً للمعاني، فإنّ المعاني إذا أُرسلت على سجيَّتها، وتُركت وما تريد، طلبت لأنفسها الألفاظ، ولم تكتسِ إلا ما يليق

بها."[1] ومن الألوان البديعية التي ظهرت في أشعارهم: الجناسُ، والسجع، والتصريع، وردّ العجز على الصور، إضافة إلى تعدد القوافي داخل البيت الواحد.

الجناس:

وهو تشابه الكلمتين في النطق واختلافهما في المعنى، ويسمى التجنيس والتجانس والمجانسة[2]. والجناس نوع من أنواع التكرير بالمعنى العام[3]. ويفيد في خلق تماثل إيقاعي داخل النص[4].والجناس يحتاج إلى توازن دقيق بين أجزاء الكلام المتجانس والكلمة نفسها. وممَّا جاء في باب الجناس قول ابن الخطيب:

مَا لِي أعذّب نفسي في مطامِعها والنَّفسُ تُزْري بتهْذِيبي وتَهْذي بي

وإذا استعنتُ على دهرٍ بتجربةٍ تأْبى المقادِيرُ تجرِيْبي وتجْري بي[5]

(البسيط)

فابن الخطيب يظهر دقّةً في اختيار ألفاظه، ويظهر الجرس الموسيقي في توالي حروف المدّ في قوله: "تهذيبي وتهذي بي" و "تجريبي وتجري بي" فالياء حرف مدّ يحتاج إلى نفس طويل وجهد واضح في نطقه، "والكلمة التي تشتمل على واحدٍ من حروف المدّ، يصبح لها إيقاع واضحٌ، لأنَّ النغمة تتولد من خلال تطويل النفس في هذا الحرف، ويكون الصدى فيه طويلاً[6]" وهذا يتناسب مع جوهر الأبيات ومضمونها، فعذاب النّفس منبته الطمع، والمقادير تتحكم بحياة الإنسان على طولها حتى وفاتهِ. ومن قوله في الجناس:

---

[1] الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص. :٥٥٤

[2] ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقدهِ. ج. :١ص. :٣٢١

ينظر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص. :٥٣٥

[3] السيّد، عز الدين: التكرير بين المثير والتأثير. ط: :٢بيروت: عالم الكتب. .١٩٨٦ص. :١٠٢

[4] ابن معطي، يحيى: البديع في علم البديع. ص. :١٠٠

[5] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :١ص. :١٤٧ينظر: ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. ص:

[6] عبد الله، محمد: جماليات اللغة وغنى دلالاتها من الوجهة العقدية والفنيّة والفكرية. ط. :١القاهرة: دار إحياء الكتب العلمية. .١٩٩٣ص. :٢٩٣

إنّ الصَّـدَاقةَ لفظةٌ مَدْلُولُها في الدَّهْرِ كالعَنْقاءِ بلْ هو أغْربُ

كم فضّةٍ فُضَتْ، وكم من ضيعةٍ ضاعتْ، وكم ذَهَبٍ رأينا يَذْهَبُ[1]

(الكامل)

واســتطاع الشــاعر أن يعبّر عن موقفهِ في الصــداقة من خلال توليد معانٍ جديدة، باستخدام هذا اللون من البديع. فالفضة والذَّهب يُؤلفان بين الأخوان والأصحاب، وهما اللذان يبنيان الضــياع، ولكنَّهما في الوقتِ نفســهِ يهدمان ما بينهم من جســور المودّةِ والمحبّة.

والتطابق الإيقاعي بين ركني التجانس يتعانق مع المعاني وإحساس الشاعر بها، على الرغم من تباين مدلولهما في الواقع، فهما مختلفان في المعنى واقعاً، لكنهما تتّحدان في نفس الشــاعر إحســاســاً، "ومن هنا تأتي مهمة الشــاعر في المزج والجمع بين العناصــر المتباعدة، وتحقيق الوحدة فيها من خلال عاطفتهِ وإحساسه[2]."

يقول الملك يوسف الثالث:

والملحـدون بما قالوا وما فعلوا للسـيفِ ما كتَّبوا والمَحْوُ ما كتبوا[3]

(البسيط)

الجناس عند هذا الملك، صـــادر عن طبع لا عن تكلّف، وجاء عفوياً، والمعنى هو الذي يطلبهُ، والجناس وقع بين الفعلين "كتّبوا" الذي جاء على وزنّ "فعّل" ويدلّ على التكثير، والمعنى فيه أن الأعداء يحشدون الكتائب للقتال على وجه الكثرة. والفعل الثاني هو "كتبوا" وهو من باب الكتابة. ويظهر الشــاعر براعته من خلال الربط بينهما برابط الجمع الذي تم من خلال الضمير وهو "واو الجماعة". ونجد هذا اللون من البديع ظاهراً

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :١ص. :١١١

ينظر: الجناس في الصفحات :٥١١، ٣٩٤، ٣٨٥، ٣٨٢، ٣٣٧، ٢٣١، ٢٣٠، ١٦٧، ١٦٤، ١٣١، ١٢٩، ١١٦، ١٠٠، ٩٥ :

٥١٣، ٥٣٣. ٥٢٨، ٥٢٧، ٥٢٦، ٥١٤

[2] مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث: ص. :٧٨

[3] الملك يوسف الثالث: الديوان. ص. :٥

في أشعار ابن زمرك وابن خاتمة وابن الخطيب. فلا نكاد نجد قصيدة تخلو منه. يقول ابن زمرك:

كم مشهدٍ زحَفَ النبيُّ لحَرْبِهِ في مَعْشَرِ الأنصارِ نعمَ المعْشَرْ [1]

(الكامل)

ومما ظهر عند ابن خاتمة قوله:

مجالُ لُطفِكَ بين النَّفْسِ والنَّفَسْ وسرُّ هَدْيك بين النارِ والقَبَسِ

غرَّتْهُ غُرَّةُ دنيا بالصِّبا فصَبَا وأنَّسَتْهُ بتهوين الهوى فَنَسِي [2]

(البسيط)

فالشاعر يبدأ قصيدته بتمجيد وحمد الله تعالى، فيقول: إنّ حياة الإنسان ليست إلا إمساك النَّفْسِ باستمرار جريان النَّفَسْ بلطف سعت إلى الدنيا ونسيت الآخرة. فكان هذا وبالاً عليها، ولجأ ابن زمرك إلى استخدام كلمة (الصِّبا) لما فيها من دلالات التمتّع بالدنيا وعدم الاكتراث بالآخرة، وكلمة (صَبَا) "بمعنى الجهل والفتَنة[3]"

فالشاعر يستخدم كلمة (مَعْشَر) في معنيين مختلفين، ففي الأولى جاءت في معنى الجماعة، والثانية جاءت في باب حسن المعاملة، وكأنّهُ بهذا يحصر الشجاعة ومؤازرة المظلوم في جماعة الأنصار. فهو من خلال هذه الأبيات أعادنا إلى نسب بني الأحمر الذي يتصل بهم.

---

[1] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص. :٤٦

[2] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص. :٣٥، ٣٣

[3] أنظر: الفيروز آبادي، مجد الدين: القاموس المحيط. ص. :١٦٧٩

ابن زمرك، محمد: الديوان. ص. :١٩٣

ينظر: الجناس: ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات :٤١٧، ٢٣٥، ٢٤٧، ٨١، ٧٩، ٧١، ٦٣، ٦١، ٥٨، ٥٧، ٥٣، ٤٨، ٤٦

ينظر: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات. :٨١، ٧٩، ٧٧، ٧٥، ٧٤، ٧٢، ٦٨، ٦٧، ٦٥، ٤٥، ٤٢، ٣٥، ٣٤، ٣٣، ٢٩

فالشـــعراء اســـتطاعوا من خلال الجناس أن يوجدوا تآلفاً في إيقاع الحروف داخل الكلمات، فجاءت كقطرات الماء التي تنساب من جدول، مشكلةً حركة واحدة تدل على روعةٍ وجمالٍ فائقتين.

ومن الجناس ما نراه عند ابن زمرك حيث يقول:

هُوَ النَّجمُ حَقّاً قد تَطلَّعَ مِنْ بَدْرِ لوارث أنصار النُبُوّة في بَدْرِ[1]

(الطويل)

وجاء الجناس بين كلمتين هما (بدر) الأولى، وتدل على الجمال والإبداع، وكلمة (بدر) الثانية، وهي معركة بدر التي انتصر المسلمون فيها، والشاعر هنا يربط السلطان الغنيّ باالله بحادثة معركة بدر، وهو بهذا يرفع من مكانتهِ بين الملوك.

ومن الجناس والتصريع ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري حيث يقول:

بَدْرُ تمٍّ بأفقِ قلبي تَجلّى جَلَّ في الحُسْنِ أن يُناعَتَ جلا

حرَّم الوَصْلِ والصُّدودَ أحلا وضروبَ الأسى بصدري أجلا

كيفَ قلْ لي: عن الهوى يَتَسلَّى مَنْ حَشاهُ بَوْجدِهِ يتصَلَّى[2]

(الخفيف)

إنّ الإيقاع الموسيقي يبدو واضحاً في هذه الأبيات، وجاء نتيجةً لاعتماد الشاعر على أكثر من لون بديعيٍّ. فاعتمد على الجناس، والطباق، والتصريع، وردّ العجز على الصدر، وكلّ هذا جاء في آن واحد. ففي البيت الأول نرى الجناس ظاهراً من خلال كلمتي (جلّ، جلا.) أمّ البيت الثاني، فقد ورد فيه الجناس من خلال كلمتي (أحَلا، أحلا)، ومنهُ فقد لجأ إلى ردّ العجز على الصدر. وفي البيت الثالث، ظهر التصريع في قولهِ: (يَتَسَلَّى: فعلاتن) و(يَتَصَلَّى: فعلاتن) وهما في نفس الموقع جناس غير تام.

ويظهر إبداع الشاعر من خلال التآلف الموسيقي الذي حدث بين هذه الألوان، فلم نرَ تنافراً من شأنه أن يؤذي أذن السامع، فالإيقاع جاء رتيباً متناغماً.

1

2 ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص. :١٣١

والتصـريع هو: "جعل العروض مقفّاة تقفية الضـرب. وهو ممّا اسـتحسـن، حتى أن أكثر الشعر صُرّع البيت الأول منهُ[1]"

وظهر التصريع واضحاً في قصائدهم، ومنهُ ما جاء عند عبد الله بن سعيد السِّلْماني حيث يقول:

سِهامُ المنايا لا تطيشُ ولا تُخْطي وللدَّهرِ كَفٌّ تَسْتردُّ الذي تُعطِي[2]

(الطويل)

فالتصـــريع يظهر بين الكلمات:)ولا تخطي، الذي تعطي(وهما على وزن مفاعيلن التي هي من ضرب الطويل وعروضهِ في هذا البيت.

وكذلك فمن التصريع ما جاء عند صالح بن شريف النّغزي حيث يقول:

يا طَلْعةَ الشمسِ إلا أنّهُ قمرٌ أمَّا هواكِ فلا يُبْقي ولا يَذَرُ[3]

(البسيط)

فالتصريع جاء في كلمتين (قمرٌ، يَذَرُ) وهما يقعان في آخر الصدر، وآخر العجز على الترتيب. ويظهر التجانس الصـــوتي في نهاية كل مصـــراع من البيت. فالإيقاع جاء من خلال التكرار (فعلن).

ومن الشـــعراء من ردّ العجز على الصـــدر وهو: "أن يكون أحدهما في آخر البيت، والآخر في المصراع الأول، أو حشوهِ، أو آخرهِ، أو صدر الثاني[4]"

---

[1] الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة. ص. :٥٤٣

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٣ص. :٢٩٨

أنظر: التصريع: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات. :٩٠، ٧٦، ٧٨، ٧٤، ٧٠، ٦٧، ٤٨، ٣٣

ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٢الصفحات. :٤١٦، ٤١٤

.١٩٩، ١٩٧، ١٩٣، ١٨٨، ١٨٥، ١٧٤، ١٤٧، ١٣٢، ١٠٣، ٨٥، ٧٣، ٥٧، ٥٠: ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات .٣٥٩، ٣٣٧، ٣٠٦، ٢٥٩، ٢٤٥، ٢٢٩، ١٨١، ١٨٠، ١٦٧، ١٥٥، ١٤٨، ١٣٤: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة. ج. :٣ص. :٢٧٨

أنظر: ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقدهِ. ج. :١ص. :١٧٣

[4] ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات. :١٩٧، ١٩٦، ١٩٣، ١٣٩، ١١٩، ١١١، ١٠٩

ومنه ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري في وصف فتاةٍ جميلة حيث يقول:

لِمُحيَّاة المُحَيَّا رَوْنَقٌ يا لقلبي ولِذاكَ الرَّونَقِ[1]

(الرَّمل)

فالشاعر في هذا البيت يردّ العجز (الرّونق) على آخر المصراع الأول، وهذا شكل تجانساً صوتياً من خلال تكرار كلمتي (الرونق، رونق). ومن هذا اللون ما ظهر عند ابن زمرك الغرناطي، أثناء وصفهِ لجيش الغني بالله حيث يقول:

وَلَرُبَّ ذي بصرٍ حَديدٍ قد غدا يُعْشِيهِ مِنْ لَمْعِ الصِّقَالِ حَديدُ[2]

(الكامل)

فالشاعر يلجأ إلى تكرار كلمة (الحديد) الواردة في عجز البيت ويضعها حشواً في الصدر. وجاءت منوّنةً (ذي بصرٍ حديدٍ.) وهذا زاد من وقد الجرس الموسيقي في السامع. وظهرت الموسيقا واضحة من خلال تعدد القوافي الداخلية في أشعارهم. ومن هذا ما جاء عند ابن خاتمة الأنصاري حيث يقول:

نورٌ لمُقتبسٍ، حرزٌ لمُحترِسٍ يُمنٌ لمُنتكِسٍ، نُعْمى لمبتئسٍ

أعظِمْ به من هُدًى للمُقتَفِين، ندًى للمُعْتَفِين، ردًى للمُلْحِدِ النكِسِ[3]

(البسيط)

فالشاعر يلجأ إلى التعدد في القوافي الداخلية، ففي البيت الأول نراه يستخدم الكلمات:

(لمقتبسٍ، لمحترسٍ، لمنتكسٍ، لمبتئسٍ). أمّا البيت الثاني فاستخدم فيه الكلمات: (هدًى للمقتفين، ندًى للمعتفين، ردًى للملحد النّكِسِ). إن هذا التكرار الذي جاء مصاحباً للتنوين، وقد أعطى الألفاظ جمالاً نتج عن التتابع في الجرس الموسيقي، فالشاعر استطاع أن يضعنا في جوٍّ مفعمٍ بالحيوية والحركة. ولعلّ الذي ساعد في خلق هذا الجوّ، هو استخدام التنوين المصاحب لحرف السين، وهو صوت صفيريّ مهموس.

---

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص. :١٠٠

[2] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص. :١١٩ أنظر: ردّ العجز على الصدر:

[3] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص. :٣٤

إن تتابع القوافي داخل الأبيات، من شأنهِ أن يجعل السامع تحت تأثير الموسيقا التي تشدُّ انتباه كلّ مَنْ يستمع إليها؛ لأنّ القصيدة تصبح أغنيةً كاملةً لا نستطيع أن نقتطع جزءاً منها.

ومن هذا قول ابن الخطيب في وصفهِ للطائر الحسون:

أحسنتِ أحسنتِ أمّ الحَسَنْ لقد جئتِ بالحُسْنِ في كلّ فَنْ

مُحَيّا عجيبٌ، وشخصٌ طَرُوبٌ وسَجْعٌ أديبٌ وصوتٌ حَسَنْ[1]

(المتقارب)

فالشاعر يبدأ قصيدته بتكرار قوله: (أحْسَنْتِ، أحسنتِ)، ثم أتبعها بقوله: (أمّ الحسن)، وفي العجز يأتي بقوله: (بالحسن... فن.) ثم لا يلبث أن يبدأ بالغناء من خلال تعدد القوافي في قوله: (محيا عجيب، شخص طروب، سَجْع أديب.) ثم ينهي كما بدأ في البيت الأول من خلال قولهِ: (صوت حسن.) واستخدم حرف النون وهو من الأصوات الموسيقية التي لها تأثير سمعي واضح.

ومن تتابع القوافي ما جاء في مدحهِ وبيان حبهِ للرسول الكريم. حيث يقول:

سَلْ ما "لسلمى" بنار الهجرِ تَكْوِيني وحبُّها في الحَشَى مِنْ قبل تَكْويني

"النّار في كبدي، والشوق يقلقني" "والقربُ ينشُرُني، والبعدُ يطويني"[2]

(البسيط)

فالشاعر يبدأ أبياته من خلال الاعتماد على الجناس التام، الذي ظهر في قوله: (تكويني) الأولى والتي عبّرت عن الأذى والألم. و(تكويني) الثانية التي عبّرت عن النفس البشرية. فهو يربط بين الألم وحبّه القديم للرسول الكريم، ثم لا يلبث أن يرسخ هذه الفكرة في نفوسنا من خلال التعدد في القافية داخل البيت من خلال قوله: (الشوق يقلقني، القربُ ينشرني.) وهذا التعدد جاء مصاحباً لضمير المتكلم، وكأن هذه الصفات التي تدلّ على معاني الألم قد بدأت مع ولادة هذا الشاعر

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص. :١٢٤

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص. :٦١٠ينظر: المقّري، أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض. ج. :١ص: ٣١٦.

والسجع من ألوان البديع التي ظهرت واضحة في أشعارهم، فلا نكاد نجد قصيدةً واحدةً تخلو من هذا اللون،[1] فجاءت عباراتهم رشيقةً خفيفةً على السّمع، وهذا أعطاها إيقاعاً موسيقيّاً ثابتاً.

ومن السّجع ما ظهر عند ابن زمرك الغرناطي حيث يقول:

مَلِيْكٌ لَهُ تَعْنُو المُلوك جَلالةً يُجَرّرُ أَذيال الفَخَارِ مُطَالَةً

وتَفْرَقُ أُسْدُ الغَابِ مِنْهُ بَسَالةً وتَرْضاهُ أنصارُ الرَّسولِ سُلالةً[2]

(الطويل)

فالشاعر يلجأ إلى استخدامهِ في قولهِ: (جَلالةً، مُطالَةً، بسالةً، سُلالةً.) وهذا منح الأبيات إيقاعاً موسيقيّاً ثابتاً؛ مما جعله يتسم بالرتابة وحسن الوقع على أذن السامع. ولعلّ مجيء التنوين في سياق السّجع، قد ساهم في إظهار هذا الإيقاع واضحاً ومسموعاً.

ومنه ما ظهر عند لسان الدين بن الخطيب حيث يقول:

يميناً ببانِعِ وَرْدِ الخُدودِ وعَذْبِ اللَّمَى في الشَّهِيّ البَرُودْ

جَمالُكَ مَعْنَى جَمالِ الوجودِ وبابُكَ مَغْنَى مَضَاءٍ وَجُود[3]

(المتقارب)

فالشاعر في مديحه للسلطان أبي الحجاج يستخدم السجع من خلال قوله: (الخدودِ، البرود) و(جمالكَ، بابك) و(معنى، مغنى) و(الوجود، جود).

---

[1] أنظر: السجع: ١٤٣، ١٤٢، ١٣٩، ١٢٧، ١١٤، ١١٢، ١١١، ١٠٩، ٨٨، ٨٤، ٨٢، ٤١: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. الصفحات ينظر: ابن زمرك، محمد: الديوان. الصفحات. :٤٠٢، ٣٩٣، ٣٨٣، ٣٧١، ٣٦٢، ٢٩١، ٢٨٣، ٢٢٦

بنظر: يوسف الثالث: الديوان. الصفحات. :١٥٧، ١٥٢، ١٣٦، ١٣٢، ٨١، ٧٥، ٧١، ٧٠

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات. :٢٥٩، ٢١٩، ١٩٩، ١٨٥، ١٨٠، ١٦٩، ١٣٨، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٢، ١٢٠

[2] ابن زمرك، محمد: الديوان. ص. :٣٩٥

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص. :٢٦٣

فابن الخطيب يكثر من استخدامهِ للسّجع في هذا البيت، فاستطاع أن يحشد العديد منه. وظهر التآلف الصوتي واضحاً بين العبارات. ولهذا فقد بدت الألفاظ خفيفةً عذبة، ممَّا جعل أذن السامع ترتاح لها.

ولم يغب الجناس عن أشـــعار ملوكهم، ومنه ما ظهر عند الشـــاعر الملك يوســـف الثالث، حيث يقول:

على العَدْلِ يجري حكمُهُ وقضاؤهُ ومنالُهُ التسـليمُ فيما يشاؤهُ

ومَنْ كان بالحقِّ اليقينِ اهتداؤهُ رأى النَّصرَ خفّاقاً عليهِ لواؤهُ[1]

(الطويل)

فالشـاعر يكثر من اسـتخدامهِ للسّـجع من خلال قوله: (حكمهُ، قضـاؤهُ، منالهُ، يشاؤهُ، اهتداؤهُ، لواؤهُ).

وجاء سجعه من خلال تكرار الضمير الذي يعود على محبوبته، وبهذا، فقد استطاع الشاعر من خلال هذا التكرار المنتظم أن يضعنا ضمن الحالة الشعورية التي كان يعيشها، فكلّ الخيوط قد أمسكها هذا المحبوب.

وسـاعدت الحياة اللاهية على شـيوع الغناء في بيئتهم، مما اسـتوجب عليهم الإكثار من اســتخدام هذا اللون من البديع. فالشـــاعر ينظر من حوله فيرى الأرض وقد زيّنت بزينةِ الربيع وخضرتهِ ومياههِ المتدفقة، وســـجع طيورهِ التي انتشـــرت في حدائقهم التي امتـــدَّت على طول مملكة غرناطة. ومن هذا ما جاء عند ابن خاتمة الأنصـاري حيث يقول:

حيَّا الرَّبيعُ بنرجـسٍ وَبَهَارِ فارْدُدْ تحيَّتَهُ بكأس عُقَار [2]

(الكامل)

فالسّجع واضح بين كلمتي (بهار، عقار).

ومنه ما جاء في الطيور حيث يقول:

---

[1] الملك يوسف الثالث: الديوان. ص. :٧٠

[2]) (١ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص. :٧٦

ووردِيّـةِ الجلْبابِ أعجبَها الوَرْدُ فغنّتْ وما بالغانياتِ لها عَهْـدُ

تُريكَ اضْطِراب الراقصاتِ إذا انْثَنَتْ وتُسْمِعُ لَحْنَ المُسْمِعَات إذا تشدو[1]

(الطويل)

فالشاعر يستخدم السّجع في وصف طيور البُلبل وهي تغني فرحةً بين البساتين التي امتلأت بالورود الجميلة. ونرى الشاعر يلجأ في وصفهِ إلى الاستعانة بالسّجع، ليظهر المشهد وكأنّه يجري أمام أعيننا، وظهر هذا في قولهِ (الوردُ، عهدُ) (الراقصات، المسمعات.) إنّ استخدام السّجع في هذه الأبيات جاء مناسباً للمشهد الحركي الذي يجري داخل هذه الجنان.

"ولعلّ التآلف الذي ظهر بين المجموعات الصوتية القوية، قد أدى إلى حشدٍ من الحروف يجتاح القصيدة، فالحرف داخل الجملة، أو المفردة يهيّئ السبيل إلى حرف آخر يماثلهُ نغماً أو رسماً"[2] .ومن هذا ما ظهر في قصائد ابن الخطيب في الاستنفار والجهاد حيث يقول:

أإخواننا لا تنسوا الفَضْلَ والعَطْفَا فقد كادَ نورُ اللهِ بالكفرِ أنْ يطفا

فَهَل ناصِرٌ مَستبصِرٌ في يقينهِ يُجيرُ مَنْ استعْدى ويَكفي مَنْ استكفى

ومُستنجزٌ فينا مِنَ الله وَعدَهُ فلا نكَثَ في وَعْدِ الإلاهِ ولا خُلْفَا

وكيف يَعيثُ الكُفْرُ فينا ودونَنَا قبائِلُ مِنْكُمْ تُعجزُ الحَصْرَ والوَصَفَا

إذا كَتَبَتْ يَوْماً فأقلامها ألقَنَا وإن أرْسلتْ يَوْماً كانت صَفَائِحها الصُّحُفا[3]

(الطويل)

فابن الخطيب يبدأ قصيدته بالصراخ الموجّه على أخوانهِ في المغرب، وأثناء هذا، فإنّه ينظم لنا سيمفونية تعتبر غايةً في الروعة والاتقان، حيث نراه يستخدم الحروف القوية

---

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص. :١٢٣

[2] الصائغ، عبد الإله: الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنيّة. ط. :١بيروت: المركز الثقافي العربي. .١٩٩٩ص : ١٧٠.

[3] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ج. :٦٧٨. ٢

ذات الدرجة العالية في السمع، فهو يستهل قصيدته بحروف التفخيم في قوله: "العطفا، يطفا." ونراهُ بعد ذلك يستخدم حروف "السين والصاد والزاي" (وهي حروف صفيرية عالية الدرجة)،[1] وقد ظهرت في قوله: "مستبصر، استعدى، ستكفى، مستنجز، صفائحها، الصحفا" وجاءت الحروف متآلفةً غير متنافرة، فالصاد حرف مفخم يقابلهُ حرف السين المرقق، والسين مهموسة تقابلهاالزاي المجهورة، وكلها تنتمي إلى مخرج واحد[2].

وإذا ما نظرنا إلى البنية الإيقاعيّة الهادئة، فإنّنا نجدها واضحة في غرض الرثاء، وبخاصة رثاء الأشخاص، فهذا الغرض يسودهُ الأنين والدموع، ولا يحتاج إلى صوت عالٍ ليسمع الآخرون، فالأحاسيسُ والمشاعر تُعتصر في القلوب. ومن هذا ما جاء في رثاء ابن زمرك لوالدِ السلطان الغني بالله حيث يقول:

سلامٌ على الدنيا جميعاً وما فيها غداة نَعَتْ شمسُ الخِلافة مِنْ فيها

نَعت مَلِكَ الأملاكِ والكاملَ الذي يكفّ عوادي الحادثاتِ ويكفيها

عميدَ بني الأنصارِ غير مدافعٍ ومحيي معاليها ومولى مواليها

وبدرُ دَياجيها وشمس نهارها وبشرَ مُحيّاها ونورَ مجاليها[3]

(الطويل)

فابن زمرك يستخدم حروف المدّ على نحو واضحٍ في أبياتهِ، فحرف الألف ورد أكثر من عشرين مرّةً، وحرف الياء ورد سبعَ عشرة مرة، ولهذا ظهر تناغم وإيقاع هادئ ومسموع، نتيجةً لاستخدام هذين الحرفين. وهذه الحروف أينما وقعت في الكلمة، فإنّها تحدث إيقاعاً مؤثراً في الحسّ والنّفس، وتتابعها يوَلّدُ طاقة من هذهِ الإيقاعات التي تفسح المجال لتنوّع النغمة الموسيقية للكلمة الواحدة، أو للجملة الواحدة لسعة إمكاناتها الصوتية ومرونتها[4].

---

[1] النوري، محمد جواد: علم الأصوات العربية. ص. :١٤٧

[2] النوري، محمد جواد: فصول في علم الأصوات العربية. ط. :١نابلس مطبعة النصر التجارية. .١٩٩١ص. :٩٨

[3] ابن زمرك: الديوان. ص. :١٢٦ -ينظر: المقّري: أزهار الرياض. ج. :٢ص. :١٥٢

[4] عبد الله، حسن: جماليات اللغة ودلالاتها. ص. :٢٩٣

وظهرت الأصوات المهموسة واضحة في أشعار المديح ، ومن هذا ما جاء في مدح ابن الخطيب لأبي عنان المريني ملك المغرب، حيث يقول:

سَقَتْ سارياتُ السُّحب سَاحةَ فاسِ سوانحُ تكسو السَّرحَ حُسْن لبَاس

وَسَارَ بتَسْليمي لِسُدّةِ فارسٍ نسيمٌ سرى للسَّلسبيل بكاسِ

سِراجَ السُّرى، شَمْسٌ، سَمَا قبسُ السَّنا كَسَا ساطياتِ الأسدِ لبسه باس

أنِسْتُ بمسرى سَيْبِهِ وتأنْستْ بساحتهِ نفسي وأُسْعِدَ ناسِي[1]

(الطويل)

ونلاحظ أن السين تكررت في هذه الأبيات في جميع الكلمات، وهي مهموسة، وجاءت مناسبةً للحال الذي يكتنف الشاعر، فهو مبعوث من قبل سلطانهِ الغنيّ باالله إلى السلطان المغربي أبي عنان، والوقوف بين يدي هذا السلطان يتطلبُ الاحترام والتذلل، مما يستوجب استخدام صوت يحقق هذا الحال، وهو أمر يتماشى مع صوت السين البعيدِ عن الجهر والاهتزاز[2].

المشتقَّات:

استخدمَ الشعراء المشتقات في قصائدهم سعياً منهم في تقوية المعنى وتأكيد دلالته، فالمشتقات جميعها تحمل دلالاتٍ إضافية إلى دلالتها الأصلية، فاسم الفاعل يدلّ على الفعل ومَنْ قام به، فهو يحمل دلالتين، وهكذا الحال بالنسبة لباقي المشتقّات، فمنها مَنْ يحمل ثلاث دلالات،" وقد تكون هذه الدلالات متصفةً بالثبوت كما يحصل في الصفة المشبهة[3]. وأدرك الشعراء أهميّة هذه المشتقات في أغراضهم الشعرية المختلفة، فاستطاعوا أن يسوقوها في أثناء قصائدهم بما يخدم الهدف الذي يريدون.

---

[1] ابن الأحمر، اسماعيل: نثير فرائد الجمان فحول الزمان. ص. :٢٨٩

ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين. ج. :٢ص. :٧٣٥

[2] محمد، محمود: الأصوات العربية بين اللغوين والقرّاء: المدينة المنوّرة: مكتبة دار الفجر الإسلامية. .١٩٩٨ص. :١١١

[3] الغلاييني، الشيخ مصطفى: جامع الدروس العربية. ج. :١ط. :٣٨بيروت: المكتبة العصرية. .٢٠٠٠ص. :١٩٣، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٥

والأمر اللافتُ للنظر أن هذه المشتقّات جاءت ملازمة لألوان البديع المختلفة، وهذا الأمر نلحظهُ عند غالبية شعرائهم. فاستخدموا الصفة المشبهة، واسم التفضيل، واسم المفعول، واسم الفاعل في الجناس، والسجع، والتصريع، وغير ذلك من ألوان البديع الأخرى. ومن هذا ما جاء عند ابن زمرك الغرناطي حيث يقول:

صَاحِ ثَوْبُ الشُّحوب فوق الأصيل مُسْتعارٌ مِن رقّتي ونُحُولي

مَنْ عذيري مِن النّسيم عَلِيلاً قد وَشَ في الهوَى بسرِّ العَليلِ[1]

(الخفيف)

فالشاعر يستخدم الصفة المشبهة (عليل) في سياق استخدامهِ للجناس، فكلمة (عليل) الأولى جاءت بمعنى الهواء الخفيف على النّفس، أمّا كلمة (العليل) الثانية، فهي الإنسان الذي أَصابه المرض. ووردت الصفة المشبهة في لون آخر من ألوان البديع وهو التصريع، حيث جاءت كلمتا (العليل) و(عليل) في عروض وضرب البيت، وهما على وزن (فاعلاتن).من استخدام الصفة المشبهة في ألوان البديع، ما جاء عند ابن الخطيب حيث يقول:

لَبِسْنَ رِدَاءَ الصَّباحِ الجَديدِ وَجَرَّرْنَ ذيلَ الزَّمانِ الجديدِ[2]

(المتقارب)

فالشاعر يستخدم الصفة المشبهة (الجديد) في لونين من ألوان البديع. أولهما: ما جاء في باب التصريع، ويظهر في كلمتين هما: (الجديد، الجديد.) وتقعان في آخر الصدر وآخر العجز، وهما على وزن)فعولن.(وثانيهما: ما جاء في باب ردّ العجز على الصدر.

ومن استخدام المشتقّات في البديع ما جاء عند ابن خاتمة:

الدَّهر يحكُمُ بيننا يا ظالِمَهْ ها حَالتي هاتِيْ وأنتِ العالِمَهْ

---

[1] أنظر: ابن خاتمة الأنصاري، أحمد. الصفحات. :٢١٨، ٢١٦، ٢١٤، ٢٠٩، ٤٥ أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. الصفحات. :٦٥٠، ٥٦٧، ٥٣٥، ٥١٧، ٤٨٨، ٤٨٢، ٤٧٤، ٤٧٣، ١٦٤، ١٢٩ أنظر: يوسف الثالث: الديوان. الصفحات. :١٢٣، ١٢٢، ١١٩، ١١٤، ١١٣، ٨٥، ٨١، ٧٨، ٢٣ أنظر: ابن الخطيب، لسان الدين: الكتيبة الكامنة. الصفحات. :٢٩٧، ٢٣٣، ١٧٩، ١٧٨، ١٧٦، ١٦٨، ١١١، ٨٢، ٧٧

[2] ابن الخطيب، لسان الدين: الديوان. ص:

(الكامل)

فالشـــاعر يســـتخدم اســـم الفاعل في تصـــريعهِ لهذا البيت، وظهر هذا من خلال الكلمتين(ظالمهْ، عالمهْ.) ويظهر فيهما لونٌ آخرٌ من ألوان البديع وهو السجع.

واستخدم ابن خاتمة اسم الفاعل في باب ردّ العجز على الصدر، ومنهُ قوله:

"سائِلٍ كيفَ حالتيْ وهو يَدْري" "أنّ دَمْعِي مِن الصَّبابةِ سائِلْ"[1]

(الخفيف)

فالشاعر يستخدم في (ردّ العجز على الصدر) اسمَ الفاعل (سائل.) حيث ورد في بداية الصـــدر ونهاية العجز. ويظهر هنا لون آخر من ألوان البديع وهو الجناس. فكلمة (سـائل) الأولى جاءت بمعنى السـؤال وكلمة(سـائل) الثانية جاءت بمعنى المنسـكب. إن هذا التتابع الذي ظهر في البيت من خلال المشتق)اسم الفاعل(وكذلك استخدامه في نوعين من أنواع البديع، "قد أوجد نوعاً من التجانس الصوتي الذي نشأ بين المقاطع في كل مصراع من البيت."

ولجأ ابن خاتمة إلى اســـتخدام الاســـم المشـــتق في تعدد القوافي الداخلية في البيت، حيث يقول:

"نورٌ لمُقتبـسٍ، حرزٌ لمُحترِسٍ" "يُمنٌ لمُنتكِسٍ، نُعْمى لمبتئسٍ"

"أعظِمْ به من هُدًى للمُقتَفِين، ندًى" "للمُعْتَفِين، ردًى للمُلْحِدِ النكِسِ"[2]

(البسيط)

فالشاعر يستخدم اسم الفاعل في تعدد قوافيه الداخلية، وظهر هذا من خلال قولهِ:

(مقتبسٍ، محترسٍ، منتكسٍ، مبتئسٍ) وقولهِ في البيت الثاني: (هدًى للمقتفين، ندًى للمعتفين). إنّ هذا التعدد في استخدام القوافي والذي جاء من خلال

---

[1] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص. :

[2] ابن خاتمة الأنصاري، أحمد: الديوان. ص. :٣٤

استخدام اسم الفاعل، قد أوجد إيقاعاً موسيقيّاً ظاهراً. وهذا أدى إلى أسر انتباه السامع ووضعهِ في الجوّ العام للمعاني داخل القصيدة.

الخاتمة:

"ازدهرت الحركة الشعريّة في هذا العصر نتيجة لعوامل عديدة. والمتتبع لها، يستطيع أن يرى أنّ أغلبها يعود إلى ظروف سياسية، فتشجيع الأمراء للشعراء جاء حرصاً منهم على أن يعطوا حكمهم صفة الشرعية، وهذا الدور الإعلامي لا يقوم به إلا الشعراء، ولذلك ليس من الغريب أن نرى هؤلاء قد تقلّدوا مناصب سياسية مهمة كالوزير لسان الدين بن الخطيب وغيره."

"ولعلّ ضياع المدن الأندلسية كان نتاجاً لهذه الظروف، فمن الطبيعي أن يواكب الشعراء ما يجري لإخوانهم، فصوّروا حجم المأساة التي حدثت لهم، فأرسلوا الصرخة تلو الأخرى، لعلّهم يجدون مجيباً يلبّي هذه الصرخات. ووجد هؤلاء الشعراء في مدينة غرناطة ملاذاً لهم بعد سقوط مدنهم بيد الأسبان، فانتشرت الهجرات إلى هذه المدينة وازداد عدد سكّانها، وضم العديد من الأدباء والشعراء المهاجرين، فعمرت بهم، ما زاد في تطوّر هذه الحركة ونموّها."

"وكان الشعراء حريصين على شخصيتهم العربية الإسلامية، فواجهوا الأسبان بالسيف والكلمة.ونظر أهل الأندلس إلى المشرق العربي على أنّه مثالٌ للعلم والأدب، فجاءت الأغراض مشابهة لتلك التي سادت عند إخوانهم من الأمويين والعباسيين. فالعلاقات الثقافية بين المشرق والأندلس لم تنقطع، واستمرّت الهجرات فيما بينهم حتى سقوط الأندلس كاملةً بيد الأسبان. ولعبت الطبيعة دوراً مهمّاً في رفد الحركة الشعرية بالصور والأخيلة، فكانت سبباً رئيساً في شحذ قرائحهم، فتميّزت بالرّقة والعذوبة، وجرت في أحضانها العديد من المجالس الشعرية، فانتشرت أشعار الروضيات والخمريات، واستهلّ الشعراء قصائدهم بوصفها في مطالع قصائدهم، فأشبهت بذلك أطلال الجاهليين. وجاءت لغتهم سهلة وجميلة، وانسجمت مع الحضارة والبيئة عندهم. وحرصوا

على استخدام المحسّنات البديعية المختلفة، من طباق وجناس وغيرهما. والشاعر في قصيدتهِ يبدو رسَّاماً يُعْنَى بالتلوين وبأدقِّ التفاصيل، فظهر التشخيص والرمز واضحاً في معظم أشعارهم، وخصوصاً الوصف منها."

وأكثر الشعراء من التكرار في قصائدهم، فكان مناسباً للمعنى تارةً، وثقيلاً على القصائد تارةً أخرى، على نحو ما رأينا من وصف الفرس عند ابن زمرك، حيث تكررت المعاني نفسها

وحاولوا أن تكون ألفاظهم مناسبة للحال والظروف، فاستخدموا الفعل الماضي في الرثاء، والأمر في الاستنجاد، والمضارع في المديح، وضمّنوا قصائدهم الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وأشعار المشارقة ليزيدوا من قوة المعاني فيها. "وظهرت موسيقا القصيدة عندهم من خلال الوزن والقافية، فالروي جاء متناغماً مع الألفاظ ومعانيها. وأحسنوا استخدام البحور الشعرية، التي استوعبت تجاربهم المختلفة، فأكثروا من استخدام بحريّ الطويل والكامل، لما فيهما من سمات تصلح لأغلب الأغراض الشعرية.و من خلال عرضنا للأغراض الشعرية التي مرت بنا في هذا العصر، نستطيع أن نستخلص نتائج عدة منها: أن الأفكار التي جاء بها الشعراء، كانت في أصولها وقواعدها بصورة رئيسية ذات صلة مباشرة بمعاني المشارقة وأفكارهم، ولكنها في الوقت نفسه لم تبتعد عن البيئة الأندلسية التي انفردت بكثير من الخصوصيات. واستطاعوا أن يعبروا عن شخصيتهم بجميع ما تنطوي عليه من السمات والخصائص". ولعلَّ هذا التقليد لم يخرج عن الإطار الطبيعي لفنون القول الشعري، فلا نستطيع أن نقول إن الشعر في العصر الإسلامي جاء مقلدا للعصر الجاهلي، أو أن العصر العباسي جاء مقلدا للعصرين الإسلامي والأموي مع عدم إغفال التأثر والتأثير، إلا أننا نستطيع أن نخلص إلى القول: إنَّ كل عصر له خصائصه التي تميزه عن غيره من العصور التي سبقته، لذلك لا نستطيع أن نستثني العصور الأندلسية من هذا الحكم، والمتصفح لكتب المصادر التي تبحث في عصر غرناطة، يرى أن هذه المملكة قد ضمت عددا وفيرا من الشعراء الذين استطاعوا أن يتركوا لنا كمًّا وفيرا من النتاج الشعري، الذي عبر بصورة صادقة عن جميع جوانب الحياة في هذه المملكة، التي دافعت عن كيان المسلمين لما

يقرب من قرنين ونصف من الزمن، وجاء هذا في ظل ظروف جعلت الكثيرين يتوقعون سقوطها قبل هذا الوقت بكثير. إنَّ هذا التمثيل الصادق للأحداث التي جرت في هذه المملكة، جعلنا نحكم بأن هناك فنونا كان لها انتشار واسع جعلها تتميز عن غيرها من الفنون الأخرى، حيث لعبت الظروف السائدة آنذاك دورا فاعلا في هذا التميز، ولعلَّ الظروف السياسية وما واكبها من أحداث، جعلها من أكثر العوامل التي أسهمت في هذا التأثير، على نحو ما رأينا في فنون المدح والرثاء والهجاء.

وانتشر فن الوصف انتشارا واسعا ، ممَّا جعله يتبوأ القمة بين هذه الفنون، وساعده في ذلك طبيعة غرناطة الجميلة من سهول وجبال وأنهار، وكذلك وجود المتنزهات التي عُمِّرت بالقصور والمظاهر العمرانية التي تباهوا فيها على غرار أجدادهم من بني أمية. ولم يترك هذا الفن جانبا إلا وطرق بابه، فوصفوا الطبيعة وجمالها، وما يدور فيها من مظاهر ترف ولهو، والمعارك وما يجري فيها من قتل وبطولات. وعلى عادة الشعراء في كل زمان، فقد حرصوا على التقرب من أصحاب النفوذ والسياسة، مما دفعهم إلى مدحهم وإظهارهم في مظهر جعلهم يتفرّدون عن غيرهم من طبقات المجتمع. ولم يكن شعراء غرناطة بمعزل عن هؤلاء فانتشر المدح بينهم، ولم يتركوا مناسبة إلا وأحسنوا استغلالها من أجل هذه الغاية، فمدحوا الملوك والأمراء والوزراء وغيرهم ممن كان لهم كلمة في الدولة. وحاولوا في مدحهم أن يظهروا بني الأحمر بأنهم ملوك

شرعيون لهذه الأمة، وهذه الشرعية مستمدة من نسبهم للصحابي الجليل سعد بن عبادة، الذي ينتمي إلى الأنصار الذين وقفوا مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته، وإذا ما نظرنا إلى الحماسة والفخر فإنَّنا نجدهما يأتيان في سياق غيرهما من الفنون، فلم ينظروا إليهما على أنَّهما فنان مستقلان، على نحو ما رأينا في الفنون الأخرى كالوصف والغزل والمدح، فالشاعر يلجأ اليهما ضمن قصيدته المدحية أو الوصفية ثم يعود إلى غرضه الذي يرمي إليه، مما دفعنا أن نبحث عنهما في ثنايا هذه القصائد.

والهجاء من الفنون التي تراجعت في هذا العصر، وجاء هذا نتيجة للظروف السياسية التي سادت آنذاك، واعتقادنا هذا يقودنا أن نقول: إنَّ الشاعر عندهم يمثل المجتمع

الغرنـــاطي بطبقاته المختلفة من حكام ومحكومين. وكان الشعور السائد عندهم يتسم بالتشاؤميّة والإحســـاس بقرب النهاية، وهذا ظهر في رثاء المدن، فالخطر الإسباني يقرع أبواب مدينتهم. ومقابـــل هـــذا التراجع للهجاء، فقد شهدت فنون أخرى إزدهارا على نحو ما حدث في فنون الرثاء والإستعطاف، فأكثر الشعراء من إثارة الدافع الديني عند الملوك وعامة الناس، وهذا بدا واضـــحا في رثاء المدن الضـــائعة. و جاءت هذه الفنون لتكون مرآة نقية تعكس الوقائع جميعهـــا بصـــورة واضحة جلية، يستطيع الناظر إليها أن يلمّ بتاريخ استطاع شعراؤه أن يـدوّنوه؛ ليشـكل وثيقـة تاريخية قد تنصف هذه المملكة التي أضاع الإسبان جزءا كبيرا من تاريخها الحضاري.

الفهارس الفنية

- فهرس الآيات
- فهرس الاحاديث
- فهرس الأشعار
- فهرس المصادر والمراجع

فهرس الآيات

رقم المسلسل	الآية	رقم السورة	اسم السورة	رقم الصفحة
1	اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو.		الحديد	20، 11
2	بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ			376
3	زُين للناس حب الشهوات من النساء.		آل عمران	14،11
4	فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ		اليل	321،
5	قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ			313
6	كانوا فيه من الزاهدين..		يوسف	10،.20
7	كهفٌ رقيمٌ			246
8	مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ			104
9	هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ			376
10	وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي .،		اليل	17 - 20.، 13
11	وَشَرَوْه بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَة وَكَانُواْ.		يوسف	7،.20
12	وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا			311،
13	وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ			311،
14	ولتجدن أقربهم مودة للذين .		المائدة	19،.82
15	وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ			312

16	وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ			312،
17	يآ أيها الناس إن وعدالله حق فلا تغرنكم.		فاطر	115
18	يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ			377

فهرس الأحاديث

رقم المسلسل	حديث	رقم الصفحة
1	إذا رأيتم الرجل قد أعطى..،	11
2	أزهد في الدنيا يحبك الله	7
3	ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد	11
4	الزهادة في الدنيا ليست بتحريم	7

5	اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا	12
6	ن الله يحب العبدالتقي الغني	13
7	إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى	314
8	ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال	13
9	ما لي وللدنيا ، مثلي ومثل الدنيا	12
10	ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل	12
11	مطل الغني ظلم، وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع	314
12	من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره	12
13	واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف	313

فهرس الأبيات الواردة في البحث

رقم المسلسل	الشطر الأول من البيت	رقم الصفحة
1	اللُّه يكفي عاذلي وَرَقيبَها	340
2	اترك بني الدنيا وأعرض عنهم	156
3	احفظ لسانك أن اللسان	80
4	اقترب الوعد والقولب إلى	59
5	الحمدلله موصولاً كما وجبا	182 ، 202
6	الدَّهر يحكُمُ بيننا يا ظالِمَهْ	393
7	الدهر لايبقى على حالة	126 ، 280
8	السعد جندك والقضاء دليل	207
9	الشمس أنت قد انفردت وهل يرى	208
10	الطاعنون الخيل يوم الملتقى	277
11	الطب والشعر والكتابة..	45
12	الفقر عندي لفظ دق معناه،	145
13	المرء يدعو للسلام	64
14	المرء يرغب في الحياة وطول عيش قد يضره	76
15	الموت سرالله في خلقه	128
16	إخواننا والموت قد حال دوننا	91
17	إذا المرء أسرى ليلة ظن..	54
18	إذا شئتَ أن تُعطى المقادةَ أهلها	339

19	إذا نزلت بساحتك الرزايا	84
20	إذا وجدْتَ فجُدْ للنّاسِ قاطبةً	320
21	إشاراتي لمحبوبي	102
22	إلهي إني شاكر لك حامد	90
23	إلى الله فلترفع أكف الخلائق	167
24	إلى كم أقول ولا أفعل	87
25	إليك مددتُ الكف في كل لأواءِ	183
26	إنّ الصَّـدَاقةَ لفظةٌ مَدْلُولُها	380
27	إن البسيط لديه يبسط الأمل	348
28	إن الهوى لشكاية معروفةٌ	177
29	إن في الموت والمعاد لشغلا	85
30	إنا بنو قحطان لم تخلق لغير	150
31	إنما الدنيا فناء،	73
32	إنما الموت غاية نحن نسعى..،	18
33	إنما نعمة الدنيا متعة،	72
34	إنما يحفظ التقى الأبرارُ،	65
35	إنما يحفظ التقى الأبرار،	55
36	إني رأيت العز مستودعا،	165
37	أإخواننا لا تنسوا الفَضْلَ والعَطْفَا	389
38	أبادوا شياطين الضلال وزينت	263
39	أبلياني اليوم صبراً منكما	70
40	أبني مرين والحمايةَ شأنُكُم	345
41	أتطلب رزق الله من عند غيره	70

42	أتى على الكل أمر لا مرد له	272، 280
43	أتيت القبور فناديهن	78
44	أحسنتِ أحسنتِ أمّ الحَسَنْ	386
45	أدر كؤوس الرضا نارا على علم	105
46	أرَواحٌ مودعٌ أم بكور	62
47	أراني إذا ما ازددت مالا وثروة	80
48	أرفق على النفس يامعذبها	128 ، 289
49	أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة	63
50	أرى الناس لايدرون ماقدر أمر	55
51	أرى أن كل حي للمنية حاملا	84
52	أرى قبر نحام بخيل بماله..	51
53	أشرقت أنفسنا من نوره	108
54	أشف الوجد ما أبكى العيونا	137
55	أعُشّاقَ غَير الواحِد الأحد الباقي	225
56	أعرضْ عن الشَّيء إنْ تهواهُ تحظَ به،	375
57	أعندكم نبث من أهل أندلس،	217
58	أفادتني القناعة كل عز،	71
59	أفض في الرعايا الدل تخط بحبها	264
60	أقبلت مقتصداص وراجعني..	52
61	أقمنا برهةً ثم ارتحلنا	177 ، 202
62	أقول وقد خوفوني القرآن	90
63	ألا أذنٌ تصغي إلى سميعة	178

64	ألا حدثاها فهي أم العجائب	258
65	ألم تعلما أن انصرافاً مسرعاً،	74
66	أما آن للمنبت في سبل الهوى	293
67	أما ترى الدهر لا يُبقي على أحد	253
68	أما ترى الدهر ما يُبقي على أحدٍ،	124 ، 293
69	أمحمد المحمود دم في عصمه	329
70	أن خصك الرحمان جل جلاله،	312
71	أنا في حالتي التي قد تراني..	23
72	أنا في حالتي التي قد تراني،	195 ، 234
73	أنبئت ولكن بعد طول عتاب	156
74	أنتَ ابنُ أنصارِ الهُدى وحُمَاتِهِ،	339
75	أنتَ المشَفَّعُ والأبصارُ شاخِصّة،	341
76	أنتِ الأميرُ وأنتِ خصمي فاحكمي	316
77	أنت يا فقيه سلِّم،	102
78	أنتم من مناسب الأمجاد،	333
79	أنظر للفظِ أنا يا مغرما فيه،	116
80	أهوى تلمسان وسكانها،	161
81	أي كم أقول ولا أفعل،	193 ، 234
82	أيا حسرتي لمشيب أتى،	282
83	أيا غائبا عن حضرة القدس قد نبا،	109

84	أيا غوث الفقير أجب فإني،	196 ، 245، 358
85	أيا من له الحكم في خلقه،	196
86	أين الملوك ذوا التيجان في يمن،	294
87	أين الملوك ذوي التيجان من يمن،	211
88	أين أهل الديار من قوم نوح،	56
89	أين لملوك ذوي التيجان من يمن،	368
90	أيها الركب المخبون،	61
91	بَدْرُ تِمٍّ بأفقِ قلبي تَجَلّى،	382
92	بِحاراً ركبناها بغير سفائن،	142 ، 236
93	بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم،	321
94	بأي لسان أم بأي طبيب،	142 ، 235، 295
95	بداك الشيب في فوديك رقما،	137 ، 294
96	بدعوى الهوى يدعو أناس وكلّهم،	107
97	بشرى يقوم لها الزمان خطيباً،	258
98	بطيء لعمري من سرى الليل كله،	141
99	بكرت تخوفني الحتوف كأنني..،	51
100	بكى صاحبي حتى إذا مال في الثرى،	142 ، 237
101	بلدٌ يَحُفُّ به الرّياضُ كأنّهُ،	340
102	بلينا وما تبلى النجوم الطوالع،	64

103	بما قَدْ حُزتَ مِن كرمِ الخلالِ،	307
104	بما قد حزتَ من كَرَمِ الخِلالِ،	342
105	بني الدنيا بني لمع السراب،	186
106	بني الدهر أماالدهر فهو عدوكم،	140
107	تُراجع من دنياك ما أنت تارك،	243, 155 ، 241، 357، 358
108	تبكي الحنيفية البيضاء من أسف،	212, 227, 349 ، 363، 368
109	تجنب خليطاً من مقالك إنما،	67
110	تحرر من الدنيا فإن فنائها،	72
111	تحفظ من لسانك ليس شيء،	154 ، 290
112	تركت لميناء سبتة كل نجعة	148
113	تصبر إذا نابتك للخطب شدةٌ	170
114	تقي حذا حذو الخلائف واقتدى	266
115	تلمسان لو أن الزمان بها يسخو،	147 ، 149
116	تملأتُ بالدنيا الدنيئة خبرةً،	184
117	تنام وهذا الدهر أما مصبح	139
118	تواجدتُ حتى صار لي الوجد مشربا،	115

119	توكل إذا نابتك يوما ملمة	165
120	تولّه أُلص ب حَلي فوق حِليته	112
121	ثِق بالإله فإنه،	166
122	ثم انثنيت وبالرماح تقصد،	207
123	ثمتَ لابد أن سيجمعكم،	75
124	جدير بأن يبكي على نفسه أسى	140
125	جمع الإله "بيوسف" شمل الورى،	334
126	جهاد هوىً لكن بغير ثوابي،	180
127	حَمَامُ حِمَامُ فوق إيك الأسى تشدو،	344
128	حَمَامُ حِمَامُ فوق أيك الأسى تشدو،	228
129	حتى متى لاترعوي وإلى متى	139، 204
130	حديث الأمان في الحياة شجون	195
131	حسِّن النيّة ما اسطعَتَ ولا	321
132	حقاً أحبتنا أودى أبوالحسن	127
133	حكيتَ قوماً بأقوال في اللحاق بهم،	167
134	حلو الشماءل وهو مر باسل،	377
135	حنت لحضر ربى وزرق مياه،	257
136	حيَّا الرَّبيعُ بنرجسٍ وَبَهَارِ،	388
137	حي ربوع الحي من نعمان،	259
138	خُذ من حياتك للمات الآتِ،	179، 288
139	خُضتَ بحرَ الحبِّ والدَّمْعِ وهَلْ،	221
140	خاطِر بنفسك في بحر التقى أنفا،	290

141	خدعتُ بهذا العيش قبل بلائه،	155 ، 251
142	خلو الطريق عن أبي سيارة،	285
143	خليفة الله ساعد القدر،	335
144	خليفة صدق لم يجد بشبيهه،	328
145	خليفة من صميم العرب دوحته،	333
146	خليلي إن مررتَ على المغاني،	115
147	دار الزمان على دارا وقاتله،	283
148	دعِ الغرور فما للخلد من سبب،	123 ، 203، 288
149	دهى الجزيرة أمر لا عزاء له،	284 ، 369
150	رَضيتُ بما تقضي عليَّ وتَحْكُمُ،	373
151	رُب ركب قد أناخوا عندنا،	61
152	رأيت الذنوب تميت القلوب،	79
153	رأيت المال يستر كل عيب،	124
154	رجوت الله في اللاواءَ لما،	195
155	رحيبةَ ألطافٍ إذا الوَفدُ حَلَّها،	300
156	رضيتَ ومن لم يرضَ بالله حاكماً،	185
157	ركبتُ بسر الله في بحر عِشقكم،	107
158	ركضاً إلى الله بغير زاد،	68
159	رموني في نارالهوى فخزنتها،	130
160	روض من العلم همى فوقه،	332

161	زارت ونجم الدجى يشكو من الأرق،	258
162	سَقَتْ سارياتُ السُّحب سَاحةَ فاسِ،	391
163	سَلْ ما "لسلمى" بنار الهجرِ تَكْوِيني،	386
164	سِهامُ المنايا لا تطيشُ ولا تُخْطي،	383
165	سائِلٍ كيفَ حالتيْ وهو يَدْري،	393
166	سبحوا الله شرق كل صباح،	61
167	ستبدي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهلاً،	315
168	سقى دارهم هام من السحب هامع،	259
169	سقيتُ كأس الهوى قديمًا،	104
170	سلِم لما قد جرى حكم القضاء به،	126
171	سلالة أنصار الهدى وحماته،	327
172	سلامٌ على الدنيا جميعاً وما فيها،	390
173	سليخة وحصير،	192
174	شموسا كلما غربت ولاحت،	209
175	صَاحِ ثَوْبُ الشُّحوب فوق الأصيل،	392
176	طاب شُرب المدامِ في الخَلَواتْ،	104
177	طغى بتونس خلف،	192
178	ظللتها من الجفون سيوف،	313
179	عِش ما بدا لك قصرك الموت،	79
180	عجبا لنا نبغي الغنى والفقرُ في،	88
181	عجبا لها، أيذوق طعم وصالها،	158 ، 251
182	عجبا لوجد لايلين شديده،	329

183	عز من لا يموت، يا من يموت،	86
184	عزاءً فإنّ الشجوَ قد كان يُسرِفُ،	344
185	على العَدْلِ يجري حكمُهُ وقضاؤهُ،	388
186	على ديار من الإسلام خالية،	377
187	عيناىَ تفهمُ من عينيكِ أسراراً،	346
188	غُزَيِّلٌ غَزَلَتْ ألحاظهُ جسدي،	224
189	غتنم ركعتين زلفى إلى الله،	68
190	فاذر صغير الأمر ولتحفل به،	268
191	فاسأل بلسية ما شأن مرسية،	350
192	فاشرب على ذكر الحبيب وسقِّني،	105
193	فاقنع بما أعطاك ربك واغتنم،	178
194	فاهزز برعبك قبل الجيش ماجمعوا،	207
195	فجاءع الدهر أنواع منوعة،	211 ، 367
196	فجائع الدهر أنواع منوعة،	363
197	فجر المعارفِ في شرق الهدى وضحا،	105
198	فخايف هواها واعصِها إن من يطع،	88
199	فشمر الليل من هزل لهوت به،	88
200	فضاء تضيق الثرض عنه برحبها،	264
201	فكأنهم والمشرفية فوقهم،	266
202	فكم عطلت من أربع وملاعب،	155
203	فلا برحت أيامك الغر تقتفي،	270
204	فلا تكتبن الله ما في نفوسكم..،	53

205	فلاتخدعك أيام تليها،	292
206	فلم أر كالدنيا بها اغتر أهلها،	73
207	فمَنْ استجار عُلاكَ عزّ جوارُهُ،	374
208	فمن سحب لاحت بها شهب القنا،	210
209	فمهما غرستَ الصبر في تربة الرضا،	183
210	في الذاهبين الأولين، 63	52, 63
211	في راحتيكِ حياةُ الرّوح والبَدَن،	225
212	في سبيل الإلاهِ مجدٌ،	308 ، 371
213	في عسكر لجب كأن جموعه،	207
214	في موقف يا هوله من موقف،	260
215	فيا ابن الأربعين اركب سفينا،	289 ، 298
216	فيوما يعز ويوما يذل،	252
217	قَد كُنتُ قَبلَ لقائكم ذا مرةٍ،	347
218	قِف بالبقيع ونادِ في عرصاته،	288
219	ق م فاجتن قهوةَ المعاني،	116
220	قالو وقد عظمت مبرة خالد،	328
221	قالوا الخروج لأرض الروم منقصة،	191
222	قدَرٌ جرى في الخلق لا يجد امرؤٌ،	183
223	قد يجمع المال غير أكله،	63
224	قواعد كن أركان البلاد فما،	353
225	كالبيت كان من القصيدة بيتها،	310
226	كأنّما الصبح لمشتاقه،	114

227	كأن لسان الدهر نفث يراعه،	269
228	كأنما الصعب لم يسهل له سبب،	216
229	كدَحتَ إلى رَبِّ الجمالِ مُلاقياً،	318
230	كلّما أذكره من طلل،	103
231	كل الذنوب فإن الله يغفرها،	129
232	كل أذىً فاجعله ما شئتَه،	180
233	كل عيش وإن تطاول دهراً،	59
234	كل كمال إلى محاق،	86
235	كم مشهدٍ زحَفَ النبيُّ لحَرْبِهِ،	381
236	كن جلس بيتك مهما فتنة ظهرت،	153 ، 290
237	كيف أشكو بعاد من هو دان،	263
238	لَبِسْنَ رِدَاءَ الصَّباحِ الجَديدِ،	393
239	لِمُحيَّاة المحَيَّا رَوْنَقٌ،	384
240	لا تأخذ الجاني بماهو أهله،	128 ، 292
241	لا تبغِ دنيا فإن عنها،	87
242	لا تجزعن لمكروه تُصاب به،	169
243	لا ترجُ إلا الله في شدة،	182 ، 356
244	لا تسل عن رجعتي كيف كانت،	180 ، 304
245	لا تيأسن من المنى يوماً فكم،	125 ، 291
246	لا حسن للدنيا لدي ولا أرى،	177

247	لاتبك ثوبك إن أبليت جدته،	193
248	لاتغترر فهو التراب بقيعة،	291 ، 304
249	لاتلهك الدنيا ولذاتها،	123 ، 291
250	لاتنس صرعة موت سوف تذكرها،	292
251	لبعث رشاي فيه بالغي ضلة،	153
252	لسانَكَ اسْجُنْ ولْتُطِلْ حَبْسَهُ،	309 ، 372
253	لسانك كالسيف في شكلهِ،	317
254	لعمرك ماالدنيا سرعة سيرها،	86
255	لقد نصحت لأقوام وقلتُ لهم،	5758 ،
256	لقدرام كتم الوجد يوم ازتحاله،	258
257	لكل شيء إذا ما تم نقصان،	124, 218, 360, 365, 368, 342, 349, 374, 377
258	لكنها الدنيا تكر على الفتى،	154
259	لله قوم لحب الله قد قسموا،	89
260	لما أرتكَ الشَّمسُ صُفرَةَ حاسِدٍ،	231
261	لم يبق إلا الصبر والتوكل،	69
262	لم يدر من ظن الحياة إقامة،	194

263	لما علاني الشيبُ قال صواحبي،	186
264	لمن المنازل لايجيب صداها،	152
265	لمن رايةٌ حمراءُ ترتاحُ بالنصرِ،	375
266	لو أنّ للبدرِ المنيرِ كمالَهُ،	302
267	لو أنّ ما بي بالأفق مِنْ أسفٍ،	301
268	لو بدا للحور يوما وجهه،	311
269	لو كنت أعجب من شيء لأعجبني،	69
270	لئنْ غَرَبَ البدرُ المنيرُ محمدٌ،	303
271	لئن نفذ القدر السابق،	91
272	مَلِيْكٌ لَهُ تَعْنُو الملوك جَلالةً،	387
273	مَنْ كعمرو مُضْني البَرَاجِمْ والمِدْ،	317
274	مُثِيرُ رِياح العَزمِ فِي حَومَة الوغى،	206, 300
275	مِنْ أينَ للشمسِ المنيرةِ منطقٌ،	296
276	ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا،	321
277	ما أصعب الموت ومابعده،	294
278	ما بينَ فاترِ طرفها وجُفُوني،	232
279	ما شِئْتَ مِنْ حُسْنٍ ومن حَسَنٍ،	306
280	ما لي أُعذبُ نفسي في مطامعها،	184, 379
281	ماعلى القلب بعدكم من جناح،	260
282	مآثرهم في الدين غير خفية،	267
283	متجسدا من جوهر النور الذي،	208
284	مستفعلُن فَاعِلُن مستفعلن فاعلن،	348
285	مشوق زار ربعك يا إماما،	149

286	مضت لي ست بعد سبعين حجة،	90
287	مطلُ الغنيِّ ظلمٌ ففيم ظلمتني؟	319
288	مطل الغنى ظلم ففيم ظلمتنى،	314
289	معاذَ مَنْ كتبَ الحسنى لأندلس،	227
290	مقامك مرفوع على عمد السعد،	257
291	ملك عزيز لجار ممنوح الحمى،	277
292	منك التجلي ومنا الستر والحجُب،	110
293	مهد لجنبك في التقوى بخشيته،	168 ، 248
294	مولايَ، إن أذنبتُ يُنْكَرُ أن يُرَى،	226
295	مولاي أنت فدائي،	186
296	مولايَ، مولايَ إن أرضاكَ بذلُ دمي،	299, 330
297	نبه نديمك للصبوح وهاتها،	209
298	نذير جاءكم عريان يعدو،	141
299	نشَرَتْ مَحَمِدَكَ الرِّفاقُ فأَصبحتْ،	309 ، 372
300	نفضتُ كفي من الدنيا وقلت لها..،	24
301	نورٌ لمقتبسٍ، حرزٌ لمحترسٍ،	385 ، 394
302	هُوَ النَّجمُ حَقّاً قد تَطلَّعَ مِنْ بَدْرِ،	382
303	هجرتُ حبائي من أجل ليلى،	177
304	هجروا وخَطْبُ الهَجْرِ ليسَ يسيرُ،	230
305	هذا وزير الغرب عَبْدٌ آبق،	230
306	هذه حكمة المهيمن فينا،	127

307	هفهافة يقضى لطيف هبوبها،	261
308	هلا اعتبرت وياها من عبرة،	293
309	همومك بالعيش مقرونة،	79
310	هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده،	257
311	هنيئا أمير المسلمين بمنة،	334
312	هو الحِمام فكن منه على حذر،	126
313	هو السحب جودا والكواكب همة،	267
314	هو الموت للإنسان فصلٌ لحده،	179 ، 293
315	هوالله جل الله فاعكف ببابه،	165
316	هوى من غوى والغي أن تتبع الهوى،	141
317	هي الأمور كما شاهدتها دول،	282
318	هي أسعد ما دونهن حجاب،	261
319	هيهات يَجْحدُ فضْلَ مَجْدِكَ جاحِدٌ،	315
320	وَلَرُبَّ ذي بصرٍ حَديدٍ قد غدا،	385
321	واحسرتا من ذكر أيام الصبا،	127
322	وارجع إلى الله واقرع باب رحمته،	169
323	واسلك في السير به منهجاً،	264
324	واسودَّ وجه الكفر من خزيٍ متى،	233
325	واصبر قليلا فإن الدار دراسة،	164
326	والأمر تحقره وقد ينمي كما،	187 ، 253
327	والحي عن يمنى الربى،	111
328	واللحن قد وشجت غصون ضروبه،	264

329	والله ما تغنى وما تنفع الرقى،	312
330	والله مبناكَ الجميلُ فإنّهُ،	223
331	والمرء من كثرة التسآل مشتغل،	169 ، 250
332	والملحدون بما قالوا وما فعلوا،	381
333	والناس اكثرهم مهما بلوتهم،	279
334	وان بني زيان في أفق العلا،	209
335	وإخوان صدق من لداتي كأنهم،	147
336	وإخوان صدق من لداني كأنهم،	151
337	وإذا اعتمدتَ الله يوماً مفزعاً،	183
338	وإنّ صخراً لتأتمُ الهداةُ بهِ،	316
339	وإن ظلمت فلاتحقد على أحد،	292
340	وإنما الموت حكم ليس يدخله،	304
341	وإني لأصبو للصبا كلما سرت،	145
342	وأتاح أندلساً بجد حسامه،	263
343	وأسلمت وجهي لمن اسلمت،	58
344	وأعدى عدو المرء أبناء جنسه،	138
345	وأنتعل الجوزاء عجبا وان غدت،	269
346	وأين قرطبة دار العلوم فكم،	351
347	وبعثت إلى أرض العدى بكتيبة،	208
348	وتبكيه حتى الشُّهبُ في أفق العلا،	232
349	وثمارِ نارنجٍ نرى أزهارها،	222
350	وجهك في الناءبات بدر دجى،	268

351	وحاملين سيوف الهند مرهفة،	273
352	وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره،	333
353	وسرت بشائرها بكل تحي،	261
354	وسواس حليك أم هم الرقباء،	257
355	وصار ما كان من مُلك ومن مَلك،	280
356	وصار ماكان من مُلكٍ ومن مَلكٍ،	272
357	وصرت أعاف الصبا والمجون،	138 ، 201، 252، 357
358	وصن اللسان عن القبيح فربما،	187
359	وطفلة مثل حسن الشمس إذ برزت،	274
360	وعليك بالتقوى وبالخلق الذي،	185
361	وغرور دنياك التي تسعى بها،	73
362	وفي واحدالدنيا أبي حاتم لنا،	158
363	وقالوا أما تخشى ذنوبا أتيتها،	89
364	وقالوا عجبنا لضحك المشيب،	187
365	وقد اضحت الدنيا لدي ذميمة،	71
366	وقد أجهدتُ نفسي في اجتهادي،	125 ، 252، 305
367	وكفى بإبراهيم بدر خلافة،	209
368	وكل ذي غيبة يؤوب..،	54
369	ولا تُقصر في اغتنام المنى،	127 ، 291

370	ولاتُضع عمراً في غير فائدة،	167
371	ولدت من نصر الإله حساما،	331
372	ولكنك المولى الجواد، وجاره،	184
373	وللحوادث سلوان يسهلها،	363 ، 367، 369
374	ولنا مفاخر في القديم شهيرة،	150
375	ولوكان هول الموت لاشيء بعده،	179
376	ولى الشباب وشرخه لم يبق لي،	159
377	ومَنْ كعليٍّ ذي الشجاعةِ والرِّضا،	295
378	وما الزهد في أملاك لخم ولا التقى،	157
379	وما المرء إلا كالشهاب وضوئه،	64
380	وما أسفي إلا شباب خلعته،	159
381	وما دارنا الأموات لو أننا،	84
382	وما صاحب الدنيا كبكر وتغلب،	156
383	ومالى لا أبكى بعين قريحة،	261
384	ومحتملُ الرَّكْبان طيبَ حَدِيثِهِ،	315
385	ومددت كف الفقر أسأله فيا،	263
386	ومن كيوسف في الأملاك من ملك،	330
387	ومنتظر الموت في كل ساعة،	78
388	ومهما يكن ريب المنون فإنني..،	53
389	ونادى لسان الفتح في عرصاتهم،	311
390	وهُزّي إليكِ بجذْعِ الرِّضى،	319

391	وهذه الدار لا تبقي على أحد،	283
392	وهل لي زمان أرتجي فيه عودة،	151
393	وهل منة ترضي إذا كلت القوى،	313
394	وهوت إليه أسنة وأسرة،	262
395	ووردِيّةِ الجلْبابِ أعجَبَها الوَرْدُ،	389
396	ويا أخا الشيب ماذا أنت منتظر،	129 ، 298
397	ويا أمير الهدى هنيتها نعما،	267
398	وينتضي كل سيف ولو،	281
399	ويوم موعدهم أن يحشروا زمرا،	60
400	يا ابنَ الإمامِ ابنِ الإمام ابنِ الإما،	299
401	يا ابن الشباب أفِق من سكر خمرته،	123 ، 289
402	يا أعدلَ الناسِ إلا في مُعَاملتي،	316
403	يا أيها الناس هل ترون إلى،	75
404	يا خاطب الدنيا طلبت غرورا،	139
405	يا رُبَّ أم وطفل جيل بينهما،	353
406	يا رُب راقد حشوٍ مضجعه،	168 ، 249
407	يا راقداً ملء عينيه يهيئه،	168 ، 246
408	يا راكبين عتاق الخيل ضامرة،	273
409	يا راكضاً في طلاب دنيا،	194
410	يا رب إن ذنوبي قد عظمت،	196
411	يا رب أم وطفل حيل بينهما،	274

412	يا ركبين عتاق الخيل ضامرة،	370
413	يا ساريا في ظلمات الهوى،	166
414	يا طَلْعةَ الشُّؤم التي مهما بَدَتْ،	299
415	يا طَلْعةَ الشمسِ إلا أنّهُ قمرٌ،	384
416	يا عامر الترب كم خلفت من كبد،	180 ، 278، 297
417	يا غافلاً وله في الدهر موعظة،	215,281, 297, 378
418	يا غافلا شأنه الرقاد،	85
419	يا فخرَ أندلسٍ وعصمةَ أهلِها،	301
420	يا قلب صبراً لما تلقى ويا كبدي،	125 ، 298
421	يا لذاك العيش لو أنه،	162
422	يا من لذلة قوم بعد عزتهم،	213 ، 273، 366
423	يا من لذلة قوم بعد عزهم،	361
424	يا ناصرَ الإسلامِ يا مَلِكَ العُلا،	345
425	يا نائم القلب معنىً وهو منتبه،	164
426	ياسائلي عن مولدي كي أذكره،	130
427	ياصفوة الله المكين مكانه،	329
428	يامن يؤمل واعظاً ومذكراً،	297
429	يأبى ثراء المال علمي وهل،	146-153
430	يضيق علي من وجدي الفضاء،	108

431	يمزق الدهر حتماً كل سابغةٍ،	125, 281
432	يميناً بيانِعِ وَرْدِ الخُدودِ،	387
433	يوم نأتيه وهو رب رحيم،	60
434	يؤلف بالحُسنى قلوباً تفرقت،	265

فهرس المصادر والمراجع

ا

ابتسام احمد حمدان، الأسس البلاغية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، مراجعة أحمد فربود، دار القمم – العربي، حلب ، سوريا، ط١، ١٩٩٧م،

إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية،دط ت،مطبعة نهضة مصر

إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، الطبعة الثانية،مكتبة الأنجلو مصرية بالقاهرة، ١٩٥٢م

ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ط٢، ١٩٥٢

ابراهيم محمد منصور، التصوف في الشعرالعربي، دارالراتب الجامعية،ط:١٩٨٧م

ابن الأثير، أسدالغابة، انتشارات اسماعليات،تهران،ط:١٩٩٨م

ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان. تحقيق؛ محمد رطوان الداية

ابن الفرضي، تاريخ العلما والرواة للعلم بالأندلس، مكتبة المثنى بغداد، ط:٢٠٠٢م

ابن بشكوال، صلة الصلة، المكتبة الأندلسية،ط:١٤١٠هـ

ابن جاب ا رلأندلسي ، الحمة السيْرى في مدح خير الورى ،

ابن جرير الطبري، تفسير الطبري، دارالفكر للطباعة والنشر، ط:١٩٧٨

ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد: التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامّية والأمثلة الفقهيّة. ت: إحسان عبّاس. بيروت: منشورات دار

ابن حوقل، صورة الأرض، دارصادر بيروت، ط:١٩٣٨م

ابن خاتمة الأنصاري: الديوان.

ابن خلدون، كتاب العبر، دارالكتب العلمية بيروت،ط:١٩٦٧م

ابن خلدون، شفاءالسائل، مكتبة دارالمعارف،ط:١٩٩٠م.

ابن خميس، أعلام مالقة،

ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابهِ، ونقدهِ.

ابن رشيق، الحسن: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقدهِ. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: .٣ مصر: المكتبة التجارية الكبرى. .١٩٦٤

ابن زمرك، محمد: الديوان.

ابن سعيدالمغربي، المغرب في حلي المغرب، دارالمعارف،ط:١٩٩٣م.

ابن طباطبا، عيار الشعر،تحقيق عباس عبد الساتر، الطبعة الأولى،دار الكتب العلمية،بيروت/ لبنان ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

ابن عبدالملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، دار الغرب الإسلامي، تونس

ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، دارالغرب،ط:٢٠١١م

ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، دارالحديث القاهرة، ط: ١٩٨٧م.

ابن كثير الدمشقي، تفسيرالقرآن العظيم، درالمعرفة بيروت، ط:١٩٩٣م.

ابن معطي، يحيى: البديع في علم البديع.

ابن منظور، لسان العرب، مكتبة دارالمعارف،، ط:١٩٧٩م

ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ت: مازن المبارك وآخرون. دمشق: .١٩٧٢

أ

أبو إسحاق الحُصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل

أبو زكريا محيي الدين يحي، صحيح مسلم بشرح النووي،المطبعة المصرية القاهرة،ط:١٩٧٦م

أبو هلال العسكري، الصناعتين،

ابوالحسن ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدارالعربية للكتب، بيروت، ط:٠٧٨م

أبوالحسن أحمدبن الفارس، الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها، مكتبة المعارف بيروت، ط:١٩٩٣م

أبوالحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدارالعربية للكتاب، تونس،ط:١٩٧٨م.

أبوالحسن علي بن عيسى الأندلسي، الغصون اليانعة،

دارالمعارف،ط:١٩٥٦م،

أبوالحسن علي بن عيسى الأندلسي، الغصون اليانعة، دارالمعارف،ط:١٩٥٦م

ابوالعباس ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار صادر،ط:١٩٩٠م

أبوالفرج الاصفهاني، كتاب الأغاني، دارالكتب العلمية،بيروت،ط:١٩٨٩م

أبوالفرج الأصفهاني، الأغاني، دارصادر بيروت،ط:١٩٨٨م

أبوالقاسم السبتي، رفع الحجب المستورة، وزارة الأوقاف بالمغرب،ط:١٩٩٧م

ابوالنصر الاشبيلي، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، مكتبة المنار،ط:١٩٨٩م

أبوعبدالله التميمي، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،القاهرة،ط:٢٠٠٢م.

أبوعثمان الجاحظ، البيان والتبيين، المطبعة الرحمانية،ط:١٩٧٦م

ابي الحسن الششتري، الديوان، دارالثقافة بيروت لبنان

إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، دارالشروق،ط:١٩٩٧م.

إحسان عباس، شرح ديوان لبيد، مطبعة حكومة الكويت،ط:١٩٦٢م،

أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، الطبعة العاشرة، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة، ١٩٩٤م

أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية،دط، صيدا/ بيروت ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م

أحمد الهاشمي،ميزان الذهب، ضبطه وعلق عليه علاء الدين عطية،الطبعة الثالثة،مكتبة دار البيروتي، ١٤٢٧ / ٢٠٠٦م

احمد بن تيميه، مجموع الفتاوى

أحمد بن حسن البيهقي، الزهد الكبير، دارالقلم كويت، ط:١٩٨٣م

أحمد بن حنبل ، ت أحمد شاكر، مسند الإمام ابن حنبل، دارالمعارف مصر،ط:الثانية.

أحمد بن علي الأندلسي، ديوان ابن خاتمة الأنصاري، دارالفكر

أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة

أحمد بن محمد الفيومي،المصباح المنير، تحيق يحي مراد، الطبعة الأولى،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م

أحمد بن محمد المقري التلمساني، ت إحسان عباس، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر

أحمد حسن الزيّات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٩٦٧

أحمدأمين، ظهرالإسلام، مكتبة النضة العربية،ط:١٩٦٢م

أحمدبن عبدربه، ت أحمد أمين، العقد الفريد، دارالكتاب العربي،ط:١٩٩٧م

أحمدبن محمدالمقري، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب
دراصادر،ط:١٩٦٨م،
اسعد، عبد المنعم: علم العروض والقافية. ط: .١القدس: كلية الآداب للبنات — جماعة القدس. .١٩٨٧
إسماعيل بن حمادالجوهري، ت عبدالغفور عطار، تاج اللغة وصحاح العربية، دارالعلم للملايين،ط:١٩٧٩م
إعجازالقرآن للباقلاني، تحقيق أحمدصقر، دارالمعارف مصر
الامام الغزالي، إحياء علوم الدين، دارابن قيم الرياض، ط:٢٠٠١م.
أنظر: الخطيب القزويني، جمال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة.
أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية. ط: .٥مصر: مكتبة الأنجلو. .١٩٧٩
أهم الأحداث الفكرية بتلمسان، المهدي البوعبدلي، بحث نشر بمجلة "الأصالة"سبتمبر١٩٧٧م
أبو عيسى الترمذي ، سنن الترمذي،
أبوعبدالله الأنصاري، الذيل والتكملة، ت إحسان عباس، دارالغرب الإسلامي،ط:٢٠١٢م

ج

جابر عصفور، الصورة الفنية في الت ا رث النّقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٣
الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي
الجاحظ، ت عبد السلام هارون ،كتاب الحيوان، مصطفى البابي الحلبي، ط

الجارم، علي وآخرون: البلاغة الواضحة. ط: .٢١مصر: دار المعارف. ١٩٦٩.

الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت

الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ت: الدكتور فايز الداية ومحمد رضوان الداية. ط: .٢دمشق: مكتبة سعد الدين. .١٩٨٧ .

جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، طبعة الهلال،ط:١٩٦٧م

جلال الدين القزويني، التمخيص في عموم البلاغة ، شرح عبد الرحمن الب رقوقي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان

جميل صليبيا، المعجم الفلسفي

ح

حسن ابرهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط:١٩٦٨م.

الحفني، معجم المصطلحات الصوفية،

حميد آدم ثويني، فن الأسلوب دراسة تطبيقية عبر العصور، الطبعة الأولى، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان /الأردن٢٠٠٦/١٤٢٧هـ

خ

خالد بن سعود الحميبي، البناء الفنّي في شعر عمربهاء الدين الأميري، نادي الأحساء الأدبي، السعودية، ط١، ٢٠٠٩

خضرالحاكمي، مقدمة "ديوان ترجمان الأشواق"، منشورات مكتبة منيمة،بيروت

خليف، ميّ يوسف، التيارالإسلامي في القصيدة الأموية، دار الثقافة للنشر والتوزيع

الخنساء: الديوان. بيروت: منشورات دار الحياة.

د

د. واضح الصمد ، ديوان النابغة الجعدي، دار صادر، ط:١٩٨٧م،

ديوان ابن الأبار:مقدمة، داربيروت،ط:١٩٨٧م

ديوان ابن الزقاق، ت محمود ديراني، جارالثقافة بيروت، ط:٢٠٠٥م

ديوان أبي البقاء الرندي، دار صادر بيروت، ط:١٩٩٨م

ديوان الفازازي:القصائدالعشريات، المكتبة الشعبية بيروت، ط:١٩٧٨م

ديوان المرسي، دارالرائد العربي، بيروت، ط:١٩٧٦م

ديوان لسان الدين ابن الخطيب، تقديم:محمد مفتاح، دارالثقافة، المغرب، ط:١٩٨٠م

ر

روحية عبدالرحمن السويفي، تاريخ علماءالأندلس، دارالكتب العلمية، ط:١٩٩٧م.

ز

الزين، نبيل: المرشد في البلاغة.ط: .١عمّان: دار أسامة. .١٩٩٦

س

سعد إسماعيل شلبي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، دارالنهضة العربي،ط:٢٠٠٢م.

سلام على الفلاحي، البناء الفنّي في شعر ابن جابر الأندلسي، دار غيداء، عمان الأردن، ط ١، ٢٠١٣

سليمان، نايف: الواضح في العروض وموسيقى الشعر. ط: ١.عمّان: دار الفكر للنشر.

السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ مدينه المرية الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع

السيّد، عز الدين: التكرير بين المثير والتأثير. ط: ٢:بيروت: عالم الكتب. ١٩٨٦.

السيوطي، عبد الرحمن: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ضبط وتصحيح: محمد أحمد جاد المولى. بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

ش

الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس

شوقي ضيف، الأدب العربي وتاريخه في العصرالجاهلي، دارالمعارف، ط:٢٠٠٣م.

ص

الصابوني، محمد: الموجز في البلاغة العربية والعروض. ط: ١.بيروت: المكتبة العصرية. ١٩٩٨.

الصائغ، عبد الإله: الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنيّة. ط: ١.بيروت: المركز الثقافي العربي. ١٩٩٩.

صديق بن حسن القنوجي، أبجدالعلوم في بيان أحوال العلوم، ت عبدالجبار ذكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشادالقومي دمشق

صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية، الطبعة الأولى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع بالقاهرة، ١٩٨٧

ع

عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، دار فرحون،القاهرة،ط:١٩٩٨م،

عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس

عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة،دط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، تاريخ النشر ١٩٩٥

عبّاس، فضل: إعجاز القرآن. الأردن: منشورات جامعة القدس المفتوحة. ١٩٧٧.

عبد الله، محمد: جماليات اللغة وغنى دلالاتها من الوجهة العقدية والفنيّة والفكرية. ط: .١القاهرة: دار إحياء الكتب العلمية. .١٩٩٣

عبد الرضا علي، موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه، الطبعة الأولى،دار الشروق للنشر والتوزيع،عمان/الأردن ١٩٩٧م

عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب. ط: .٣بيروت: دار النهضة للطباعة والنشر. .١٩٨٠

عبد العزيز عتيق، علم البديع في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د ط)، ١٩٧٤

عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، جدة، السعودية

عبد الله ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١ ١٩٨٢

عبد الله بن أبي شيبة ، المصنَّف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض السعودية، ط ١، ١٤٠٩ هـ،

عبد الله بن مسلم إبن قتيبة، الشعروالشعرا، دار الحديث، القاهرة

عبدا العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دارالنهضة العربية للطباع والنشر والتوزيع، ط ٢٠٠٥م

عبدالحكيم الدنون، آفاق غرناطة بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي، درالمعرفة دمشق،ط:٩٨٨م

عبدالحليم عويس، التكاثرالمادي وأثره في سقوط الأندلس، دارالصحوة، ط:١٩٩٤م

عبدالحميد قاوي، الصورة الشعرية بين النظرية والتطبيق،

عبدالعزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، داربيروت لبنان،ط:١٩٦٩م

عبدالعزيز سالم، تاريخ مدينة قاديس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسطندرية، ط:١٩٩٩م

عبدالعزيز عتيق، عمم البيان، دار الآفاق العربية، القارة، (دط)، ٢٠٠٤

عبدالقادر محمود، الفلسفة الصوفية في الإسلام، مطبعة المعرفة القاهرة، ط:١٩٦٦م

عبدالله بن حامد، شعرالدعوة الإسلامية في عهدالنبوة، دارالكتاب العربي بيروت،ط:١٩٧١م.

عبدالوهاب بن منصور، المنتخب النفيس، مطبعة مصطفى البابي

عثمان العبادلة، دراسات في الأدب الأندلسي، دارالنهضة العربية للطباع والنشر والتوزيع،ط:١٩٩٣م.

عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظاره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، القاهرة مصر، ط،٣، ١٩٧٨

عزالدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنه، دار الفكر العربي،القاىرة،مصر، ط، ١٩٩٢،

عزوز زرقان، شعر الإستصراخ فى الأندلس، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت /لبنان ٢٠٠٨م

العسكري، أبو هلال: كتاب جمهرة الأمثال. ج: .١ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: .٢بيروت: دار الفكر. .١٩٨٨

علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، ت إحسان عباس، رسائل ابن حزم الأنلسي، المجموعة الأولى، دارالكتاب العربي،ط:١٩٥٤م.

علي سامي النشار، نشأة الفكرالفلسفي في الإسلام، دارالكتاب العربي بيروت،ط:١٤١٢ه

علي نجيب عطوة، شعرالزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، المكتب الإسلامي بيروت، ط:٢٠٠٥م.

غ

الغلاييني، الشيخ مصطفى: جامع الدروس العربية. ج: .١ط: .٣٨بيروت: المكتبة العصرية. .٢٠٠٠

ف

فاخوري، محمود: موسيقا الشعر العربي. حلب: منشورات جامعة حلب /كلية الآداب. .١٩٨٧

الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس، مطبعة الجوانب،القسطنطنية، ط:الثانية.

فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود أبا بطين، الكويت، (د ط) ٢٠٠٤

فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، ط١، ٢٠٠٨.

الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط:١٩٨٠م

ق

القرآن الكريم

قضاياالشعرالمعاصر،نازك الملائكة، دارالعلم للملايين بيروت، ط:١٩٨٧م

ك

كمال بشر، علم الأصوات، دط، دار غريب بالقاهرة، تاريخ النشر ٢٠٠٠م

ل

لسان الدين ابن الخطيب، معيارالاختيار في ذكر المعاهدوالديار، دارالآفاق الجديدة

لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دارالكتب العلمية بيروت،ط:١٩٧٤م

لسان الدين ابن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، الشركة الوطنية.

لسان الدين ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، دار الفكر العربي

لسان الدين ابن الخطيب، معيارالاختيار فى ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة

لسان الدين ابن الخطيب، نفخ الطيب، دارالكتب العلمية،ط:١٩٧٠م

م

المتنبي، أبو الطيّب: الديوان.

مجاهد مصطفى، التيارالاسلامي في شعرالعصرالعباسي،

دارالمعارف،ط:١٩٩٧م

مجموع الفتاوى، ترتيب عبدالرحمن محمدبن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط، ط:الخامسة.

محمد ابن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، دمشق، سوريا ط١، ١٤٢٢ هـ

محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، دارالنفائس، ط:٢٠٠٣م، ص:١٨٤

محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب،دط،المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية،١٩٨١م

محمد بركات البيلي، الزهاد والمتصوفة، دارالنهضة العربية، ط:١٩٩٣،

محمد بن أحمدالمقري، أزهارالرياض، مطبعة الترجمةوالنشر، القاهرة، ط١٩٨٧م

محمد بن الحارث الخشني، قضاة قرطبة، مكتبة الخانجي، ط:١٩٥٣م.

محمد بن لخضر فورار، الشعر السياسي في الأندلس خلال القرن الخامس اليجري،مذكرة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي،اشراف ربعي بن سلامة، تخصص أدب عربي قديم ،كمية الآداب واللغات ،قسم اللغة العربية وآدابها،جامعة منتوري قسنطينة، ٢٠٠٤، ٢٠٠٥

محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة،

محمد حماسة عبد المطيف، البناء العروضي لمقصيدة العربية، دار الشروق، القارة، مصر، ط ١، ١٩٩٩

محمد زكي العشماوي، قضاياالنقدالأدبي،

محمد شهاب العاني، أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي (من الفتح وحتى سقوط الخلافة) دار الشؤون العامة، بغداد، العراق، ط ١، ٢٠٠٢

محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دط، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، تاريخ النشر أكتوبر ١٩٩٧م

محمد مسعود جيران، فنون النثرالأدبي، دارالكتاب اللبناني،ط:٢٠٠٥م،

محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، الدار البيضاء، المغرب، ط ٣، ١٩٩٢،

محمد مفتاح، في سيمياء الشعر دراسة نظرية تطبيقية،دط، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالدار البيضاء، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م

محمد، محمود: الأصوات العربية بين اللغوين والقرّاء: المدينة المنوّرة: مكتبة دار الفجر الإسلامية. ١٩٩٨.

محمدعبدالله عنان، عصرالمرابطين والموحدين في الاندلس، لجنة التاليف والترجمة القاهرة، ط:٢٠٠٩م.

محمدعطية الأبراشي، الآداب السامية، دارالحداثة للطباعة والنشر بيروت،ط:١٩٧٤م

محمدعمرو الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، المطبوعات الجامعية تلمسان، ط:٢٠٠٢م

محمدعمرو الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، المطبوعات الجامعية تلمسان،ط:٢٠٠٢م

محمديوسف مقلد، شعراء موريتانيا:القدماء والمحدثون، مكتبة الوحدةالعربية،بيروت،ط:١٩٦٢م

محمود السعران، علم اللغة، دط، دار الفكر العربى بالقاهرة، تاريخ النشر ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م

محمود شكري الألوسي البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتاب المصري

محمود على الهاشمي، العروض الواضح وعلم القافية، دار القمم، دمشق، سوريا، ط ١، ١٩٩١

محي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية، دار الكتب العلمية

محي الدين ابن عربي، ترجمان الأشواق، دار صادر – بيروت

محي الدين ابن عربي، رسائل ابن عربي، دار المحجة البيضاء

محي الدين ابن عربي، فصوص الحِكَم،

مذكرات ابن الحجاج النميري،إبراهيم بن عبدالله النميري،مكتبة شركة التمدن الصناعية،القاهرة،ط:١٣٤٤هـ

مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (د ت) (د ط)،

مصطفى الحلمي، الزهاد الأوائل، دارالدعوة الاسكندرية،ط:١٩٩٨م.

مصطفى عبدالرزاق، تمهيد لتاريخ الفلسفة في الإسلامية، دارالنهضة العربية،ط:١٩٨٩م.

مصطفى، محمود: الفخر عند الشاعر يوسف الثالث.

منصور محمد الغامدي، الصوتيات العربية، دط، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

النبوغ المغربي في الأدب العربي،عبدالله كنون،دارالكتب العمية بيروت،ط:١٩٦٥م

نصر الله ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة – مصطفى الباهي الحلبي، مصر،(د،ت)، ١٩٣٩،

النوري، محمد جواد: فصول في علم الأصوات العربية. ط: .١نابلس مطبعة النصر التجارية. .١٩٩١

هـ

هشام ابو زميلة، علاقة الموحدين بالممالك النصرانية، دارالفرقان،ط:٩٨٤هـ

ي

ياقوت الحموي، معجم البلدان، دارالكتب العلمية بيروت،ط:١٩٦٥م

يوسف الثالث: الديوان.

يوسف بن علي السكاكي، مفتاح العموم، تعليق، نعيم زرزور، دار الكتاب العممية، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٧م